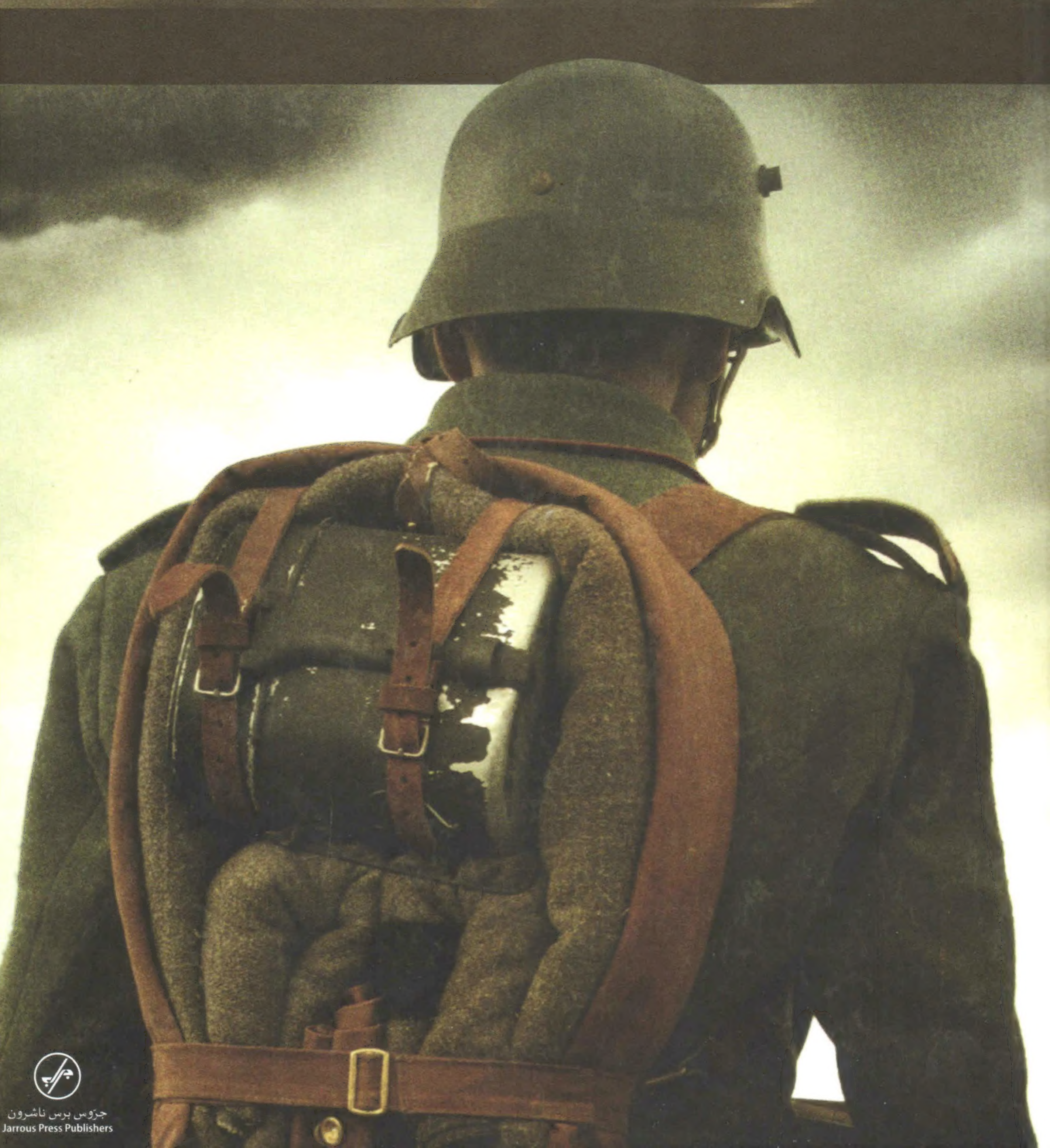
ج.ش.ج. أندريا شن

الحرب العالمية الأولى

بالصور



جروس برس ناشرون
Jarrous Press Publishers





الحرب العالمية الأولى

بالصور

ج.ش.ج. أندريا شن

ترجمة: مروان سعد الدين

الكتاب: الحرب العالمية الأولى بالصور

الموضوع: تاريخ

مؤلف الكتاب: ج. ش. ج. أندرياسّن

مترجم الكتاب: مروان سعد الدين

عدد الصفحات: **600**

© جرّوس برّس ناشرون

Jarrous Press Publishers

يتضمن هذا الكتاب ترجمة للأصل الإنكليزي:

WORD WAR I

شارع جميل عدرة، باسل سنتر

ص.ب.:189، طرابلس، لبنان

تلفاكس: 208205 6 961+

jarrous.press@gmail.com

info@jarrouspress.com

www.jarrouspress.com

ISBN: 978-614-481-023-1

المحتويات

عشية النزاع
الحرب المحتّمة

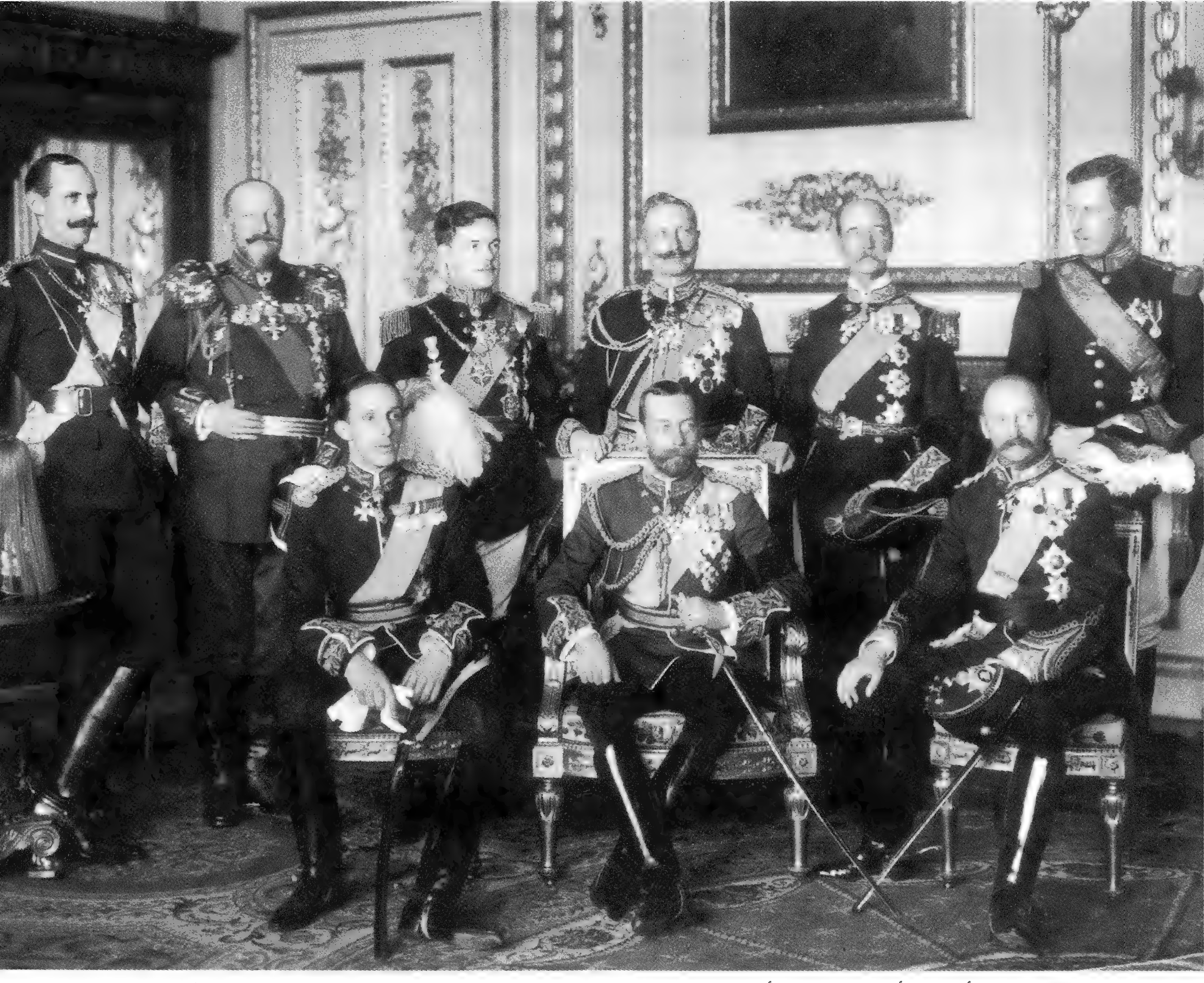
الحرب الفرانكو - البروسية في 1870 / 1871

كان الكبرياء الزائف، والسياسة، والطموحات الشخصية، والإفراط في الثقة بالنفس، وغياب الواقعية، عواملَ أدّت إلى اندلاع الحرب الفرانكو–البروسية في 1870-1871، بعد الاعتراض الفرنسي على محاولة أمير بروسي اعتلاء العرش الإسباني الشاغر. لم ترغب فرنسا برؤية النفوذ البروسي في بلد مجاور، وطالبتِ الملك البروسي بمنع الأمير من تحقيق حلمه. تدخّل الملك البروسي فعلاً وانسحب الأمير مرغماً، إلا أن ذلك لم يكن كافياً للفرنسيين، الذين طلبوا أن يضمن الملك عدم جلوس بروسي على العرش الإسباني أبداً. بدا واضحاً أنه طلب مستحيل لا يستطيع الملك البروسي تلبيته؛ ماً جعل فرنسا تعلن الحرب.

كانت تلك خطوة كارثية، إذ تعرَّض الجيش الفرنسي لهزيمة نكراء، وأُسر الإمبراطور نابليون الثالث وسُجن، واحتل جنودٌ ألمان باريس. لرشّ ملح علَى الجرح، أُعلنت الدولة الألمانية في قاعة المرايا في فرساي، وبات إقليم الألزاس – اللوًرين الذي استولى الفرنسيون عليه من بروسيا، أرضاً ألمانية. وُلدت دولة ألمانيا وبدا أن قوّة فرنسا قد تحطّمت نهائياً.

كانت بذور حرب جديدة قد نُثرت في تلك اللحظة: حرب ستُحرق أوروبا بلهيبها وستُعرف باسم الحرب العالًمية الأولًى. فقَدَ الشعب الفرنسي، المصدوم والمحبط، ثقته بجيشه الذي تعرّض لإذلال كبير، وتجنّب لفت الأنظار إليه آنذاك. استمر الأمر على تلك الحال حتى 1880 إلى أن تولّى الفرنسيون الدفاع عن أرضهم كما ينبغي مرة أخرى.

شُيِّد خط محصّن من دفاعات لا تُقهر نظرياً على الحدود مع ألمانيا في الأعوام اللاحقة، وبدأ الجيش يضع خططاً للاستيلاء مجدداً على الألزاس – اللورين.



الاجتماع الأخير لملوك أوروبا في 1910 في أثناء جنازة الملك إدوارد السابع. يظهر (من اليسار إلى اليمين): هاكون (النرويج)، فرديناند (بلغاريا)، مانويل (البرتغال)، فيلهلم الثاني (ألمانيا)، جورج (اليونان)، ألبرت (بلجيكا)، ألفونس الثالث عشر (إسبانيا)، جورج الخامس (بريطانيا العظمى)، كريستيان (الدنمارك).

إمبريالية القوى العظمى

فرنسا

لم تراود الرغبة العلنية المتزايدة بالانتقام، مع عدائية متنامية نحو ألمانيا، جميع الفرنسيين. وقد عبّر بعض السياسيين عن رأيهم أن حرباً جديدة مع ألمانيا ستكون وخيمة العواقب. وأشاروا إلى حقيقة أن دولاً أخرى، مثل الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا العظمى، وروسيا، لم تتوانَ في العمل وقد أنشأت إمبراطوريات استعمارية واسعة. اقترح زعماؤها أن تحذو فرنسا

حذوهم، في أقرب وقت ممكن، قبل أن تتلاشى كل الفرص المتاحة. وأشاروا إلى أن السياسة المعقولة الوحيدة هي الاستعمار. أقنعوا الناس بحجتهم تلك آنذاك، برغم أن الفرنسيين لم ينسوا أبداً قضية الثأر لأنفسهم.

أدرك الشعب في الواقع أن فرنسا يجب أن تحاول أولاً توسيع مستعمراتها. وساد رأيٌ أن هذا سيجعل البلاد أكثر أهمية، ويزيد بذلك من فرص استعادة الألزاس – اللورين. تحوّلت السياسة الخارجية الفرنسية ببطء إنما بثبات نحو اكتساب مستعمرات جديدة، ووضعت نصب عينيها أفريقيا؛ حيث توجد مساحات شاسعة يمكن الاستيلاء عليها.

مؤتمر برلين وإعادة رسم الخريطة مجدداً

جرت أولى محاولات الفرنسيين لتوسيع مستعمراتهم في أفريقيا في 1878، في أثناء مؤتمر برلين الشهير. اجتمع عدد كبير من الدول هناك برعاية المستشار الألماني بسمارك؛ لتسوية ما يدعى «المسألة الشرقية».

نتجت هذه القضية عن الحرب الروسية – التركية في 1877–1878 حين هزمت روسيا تركيا، واستولت على مناطق واسعة من الإمبراطورية التركية، وتقاسمتها مع أصدقائها في البلقان. أدّى ذلك إلى قيام دولة بلغاريا الكبرى الممتدة إلى بحر إيجه، التي تدور في فلك روسيا.



القيصر الألماني الشاب فيلهلم الثاني في بزّة رسمية.

أثار ذلك قلق البريطانيين الذين لم يرغبوا برؤية نفوذ روسي في البحر المتوسط. أزعج ذلك إيطاليا أيضاً، في حين نظرت الإمبراطورية النمساوية–المجرية إلى توسّع النفوذ الروسي في البلقان بعين الريبة، وطالبوا بإجراء تغييرات جذرية في الخطط الروسية، لكن روسيا رفضت ذلك بكياسة، إنما بحزم. بدأت بريطانيا والنمسا – المجر آنذاك تلوّحان باستخدام القوة. وعرض بسمارك التوسّط فوافقت روسيا أخيراً على عقد مؤتمر لحل المشكلات الناجمة عن إعادة توزيع الأراضي التي استولوا عليها من الأتراك.



الجنرال كيتشنر في أثناء حرب البوير في جنوب أفريقيا. أصبح في 1914 وزيراً للحرب.



السلطان التركي محمد (1844-1918). تنازل عن العرش بعمر 65 بعد سجنه في قصره سنوات طويلة. توفي بعد وقت قصير من انهيار السلطة المركزية في 1918.

لم تحقّق روسيا نجاحاً كبيراً في الاجتماع. كذلك لم تحظَ بلغاريا الكبرى بالكثير، بعد إعادة قسم من الأراضي إلى الأتراك. حظيت صربيا بحصة أيضاً، وقد ضاعفت بجرّة قلم مساحة بلادها. واستفادت رومانيا أيضاً من تلك العملية. أُعيد تسمية جنوبي بلغاريا رومليا لتكون إقليماً يتمتّع بحكم ذاتي تحت إدارة السلطان التركي، لكن بحاكم مسيحي وجيش خاص به. كُلّفت الإمبراطورية النمساوية – المجرية بحماية البوسنة والهرسك، ما أفزع صربيا التي وضعت نصب عينيها ذلك الإقليم حيث يعيش كثير من الصرب. سيؤدّي هذا إلى مشكلات أكبر في المستقبل. تولّت بريطانيا العظمى الإشراف على قبرص في أثناء المؤتمر، رغماً عن إرادة السلطان الذي لم تكن بيده حيلة، لمنع «سرقة» أراضيه؛ كما أشار بنفسه.

لم تكن تلك الكلمة الفصل؛ لأن روسيا اعترضت على حقيقة أن المنتصر خرج خالي الوفاض عملياً. عرضت بريطانيا – الكريمة بأراضي شعب آخر – على الروس القوقاز تعويضاً لهم، لكن ذلك جعل الفرنسيين يقدّمون مطالب جديدة.

اقترح الفرنسيون أنه إذا كانت بريطانيا ستسيطر على قبرص– منطقة عدّها الفرنسيون ضمن مجال نفوذهم – يجب أن تحصل بلادهم على شيء مماثل بالمقابل. بسخاء، عرضت بريطانيا مرة أخرى على الفرنسيين أراضي آخرين – تونس. قبل الفرنسيون بسعادة هذا العرض، وهكذا عندما لم يعترض أحد، صودرت أراضي شعوب أخرى لتكون ببساطة هدايا تقدّمها تلك الدول لبعضها بعضاً، وقُسّم العالم من جديد في مؤتمر برلين.



الفرنسيون في أفريقيا يمارسون سلطة استعمارية

بعد مؤتمر برلين مباشرة، بدا أن أوروبا ستنعم بالسلام. حظي أنصار التوسّع الاستعماري في فرنسا بتأييد ضد أولئك الذين يفضّلون الانتقام، بعد ذلك المؤتمر.

كانت الثمرة اليانعة المتمثّلة في تونس؛ الإقليم التركي، جاهزة آنذاك للقطاف. لقد قدّمت القوى الكبرى هذا الإقليم الواقع شرقي الجزائر – الذي احتله الفرنسيون في 1830 – إلى الفرنسيين على طبق من ذهب!

الغريب كفاية، أنهم لم يكونوا واثقين بشأن طريقة استلام جائزتهم. بعد أن هدّد بسمارك – الذي كان حريصاً على منح تونس إلى الفرنسيين لإبعاد أذهانهم عن الانتقام – بدعم المزاعم الإيطالية في تونس. فتحرّك الفرنسيون الذين أرسلوا أخيراً 30.000 جندي إلى تونس في 28 نيسان 1881؛ بذريعة دعم الحاكم التركي لإخماد تمرد على الحدود، واستولوا على حكم البلاد.



إدوارد غراي؛ وزير الخارجية البريطاني.

كان احتلال تونس بداية توسّع فرنسي إضافي في أفريقيا، سيجعل فرنسا في نهاية المطاف ثاني أكبر قوة استعمارية. أراد الساسة الفرنسيون المزيد وسرعان ما وضعوا نصب أعينهم مصر ودلتا النيل، حيث كانوا سابقاً بقيادة نابليون. أدّى اهتمامهم ذاك بمصر إلى نشوب نزاع مع بريطانيا العظمى التي أبقت ذلك الإقليم لنفسها.

التطورات الخطرة في فاشودة

أرسل الفرنسيون بعثة عسكرية إلى أعالي النيل في 1898. اعترضت الحكومة الفرنسية برمّتها على الاحتلال البريطاني للسودان، بعد إلحاقها كلّياً بمصر في 1882.



الجنرال البريطاني هنري ويلسون؛ القوة المحفّزة خلف الاستعدادات البريطانية الفرنسية للحرب.



القيصر فيلهلم الثاني (يسار) وفون مولتكه (الثاني من اليسار)؛ القائد العام الألماني، في أثناء إجراء مناورات.

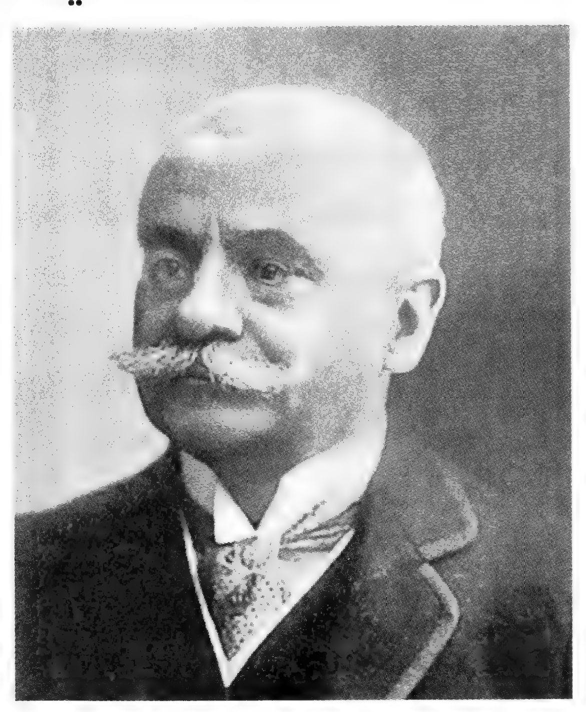
أبدى الفرنسيون اهتماماً كبيراً أيضاً بذلك الجزء من أفريقيا، وأظهروا غضبهم من الاحتلال البريطاني للسودان من دون أي نقاش مع فرنسا.

وصل الجيش الفرنسي بقيادة النقيب مارشان إلى مستعمرة فاشودة الصغيرة في 1898، ورفع فوراً الراية الفرنسية هناك. ردَّ البريطانيون حالاً بإرسال عدّة زوارق حربية إلى أعلى النيل. وصلت السفن إلى هناك في 19أيلول/ سبتمبر واستقبلها مارشان مرتدياً أفضل بزّة رسمية. أزعج ذلك كيتشنر، الذي سيصبح لاحقاً جنرالاً مشهوراً ويقود الحملة العسكرية البريطانية، وطلب من مارشان بنحوٍ لا لبس فيه أن يحزم حقائبه ويغادر المكان، من دون أن ينسى أخذ الراية الفرنسية معه. رفض مارشان ذلك بلطف إنما بحزم، وعاد الاثنان إلى قواتهما وطلبا النصيحة من حكومتيهما.

لاحت نذر نزاع خطر بين الدولتين آنذاك، ما جعل ديلكاسه؛ وزير الخارجية الفرنسي، يعرض التفاوض بشأن الأمر. رفض البريطانيون: لم يكن هناك ما يتفاوضون عليه، وأصرّوا

على أن يغادر الفرنسيون المكان فوراً، وأصدروا إنذاراً نهائياً. ازداد خطر نشوب حرب؛ ما أرغم الفرنسيين على سحب قواتهم من فاشودة. شهدت العلاقات بين الدولتين بعد هذه الحادثة فتوراً، لكن في 1902 سعى البريطانيون إلى التقارب وأرسلوا الملك إدوارد الثامن إلى باريس في زيارة رسمية حدّدت بداية علاقات رسمية أفضل. نشأ عن الزيارة جوٌ ودّي، ووقّعت الدولتان في نهاية المطاف على معاهدة صداقة نظّمت العلاقات التجارية بينهما. لاحقاً أنتجت الصلات الدبلوماسية الجديدة اتفاقاً سرّياً بين البلدين بشأن التعاون العسكري، وعيْن كل منهما على حرب مستقبلية محتملة مع ألمانيا التي لم يكن لدى زعمائها أي فكرة عنها في ذلك الوقت.

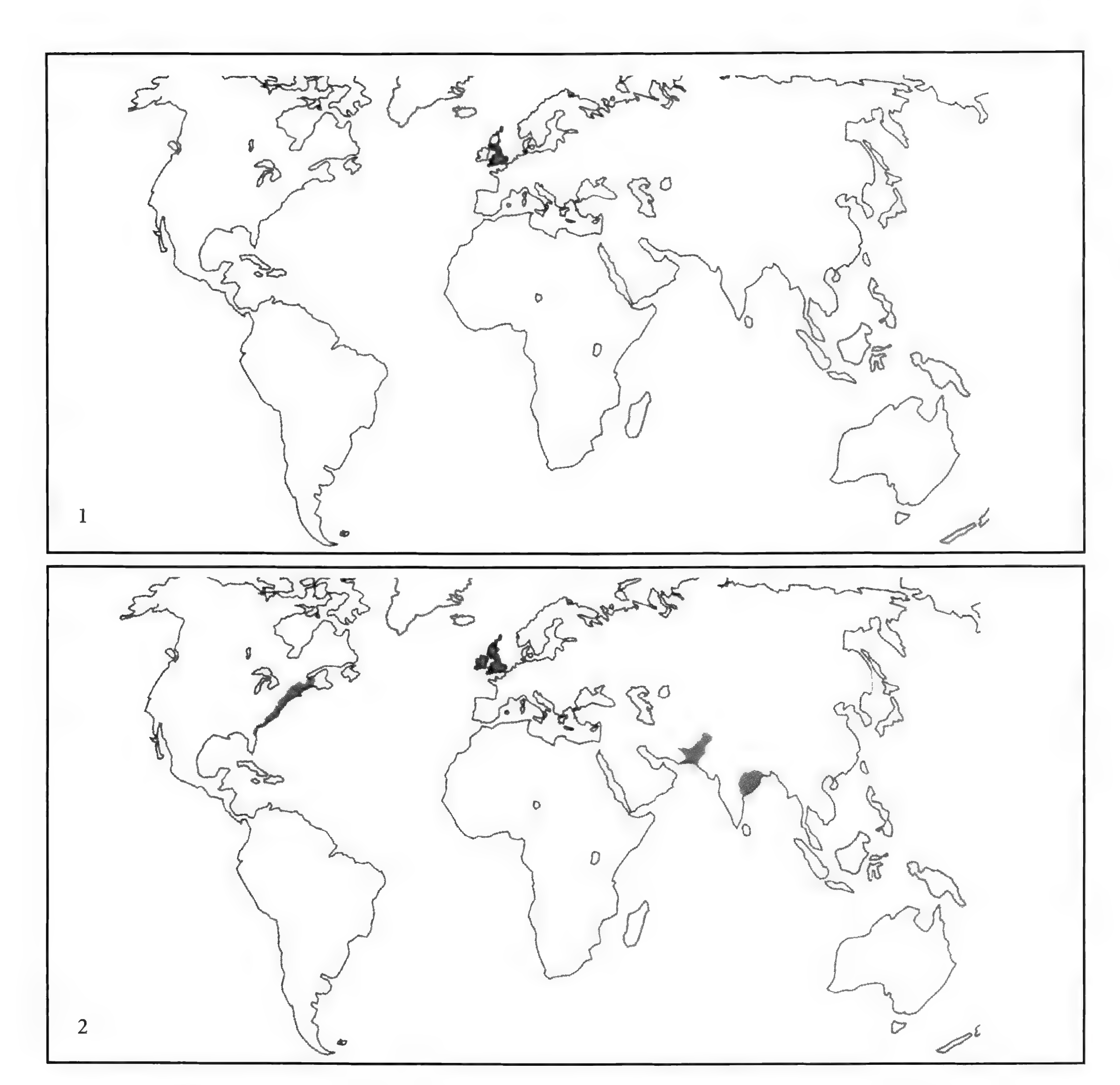
توسيع الاستعمار الفرنسي وعزل وزير خارجيتهم



ديلكاسه.

في تلك الأثناء، نظر الفرنسيون بأعين جشعة إلى فرص أخرى للتوسّع في أفريقيا، وراودهم حلم إنشاء إمبراطورية استعمارية تمتدّ من المحيط الأطلسي إلى تونس، على أن تكون المغرب جزءاً منها. بدأ دبلوماسيون فرنسيون آنذاك مناقشات سرّية مع إيطاليا، وإسبانيا، وبريطانيا العظمى بشأن توسيع المصالح الفرنسية في أفريقيا، برغم كونهم من الأطراف التي وقّعت على معاهدة مدريد، إلى جانب ألمانيا، التي ضمنت بقاء المغرب على حاله. أرادت فرنسا التفاوض مع بريطانيا، وإيطاليا، وإسبانيا، لكن تغافلت متعمّدة عن ألمانيا؛ لأن الفرنسيين عرفوا أن الألمان سيطلبون تعويضاً.

كان للألمان مصالح تجارية في المغرب منذ 1886، وجرى تأسيس ثلاث شركات شحن ألمانية هناك، وتبوّأت ألمانيا المرتبة الثالثة في قائمة أكبر الشركاء التجاريين للبلاد. بدا واضحاً أن ألمانيا لن تسمح بتسليم هذه المصالح إلى الفرنسيين من دون احتجاج، وعندما اكتشفت

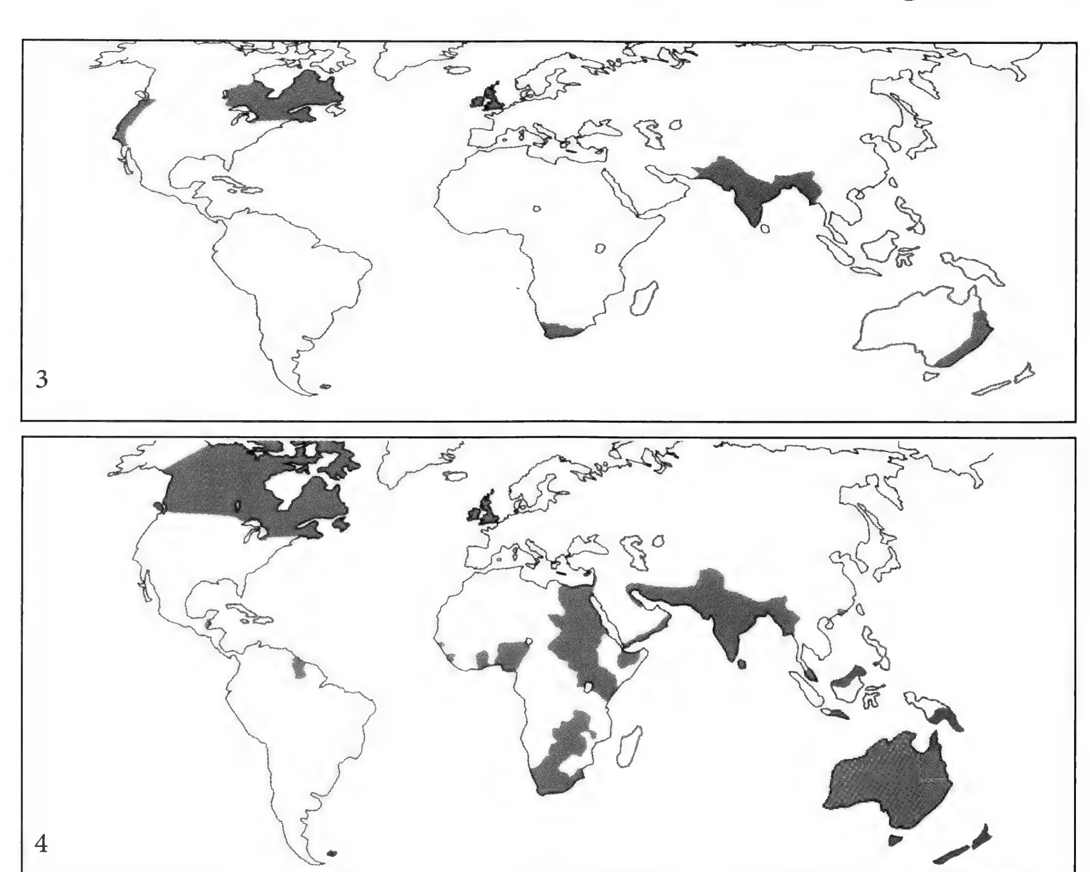


التوسّع الاستعماري البريطاني. 1. إنكلترا في 1600. 2. التوسّع بحلول 1700. الصفحة على اليسار: 3. التوسّع بحلول 1800. الإمبراطورية البريطانية في 1918.

النوايا الحقيقيةٍ للفرنسيين في 1904، أوضحت بنحوٍ لا شك فيه انزعاجها الشديد من ذلك. عُدَّ الموقف الفرنسي مهيناً وغير لائق.

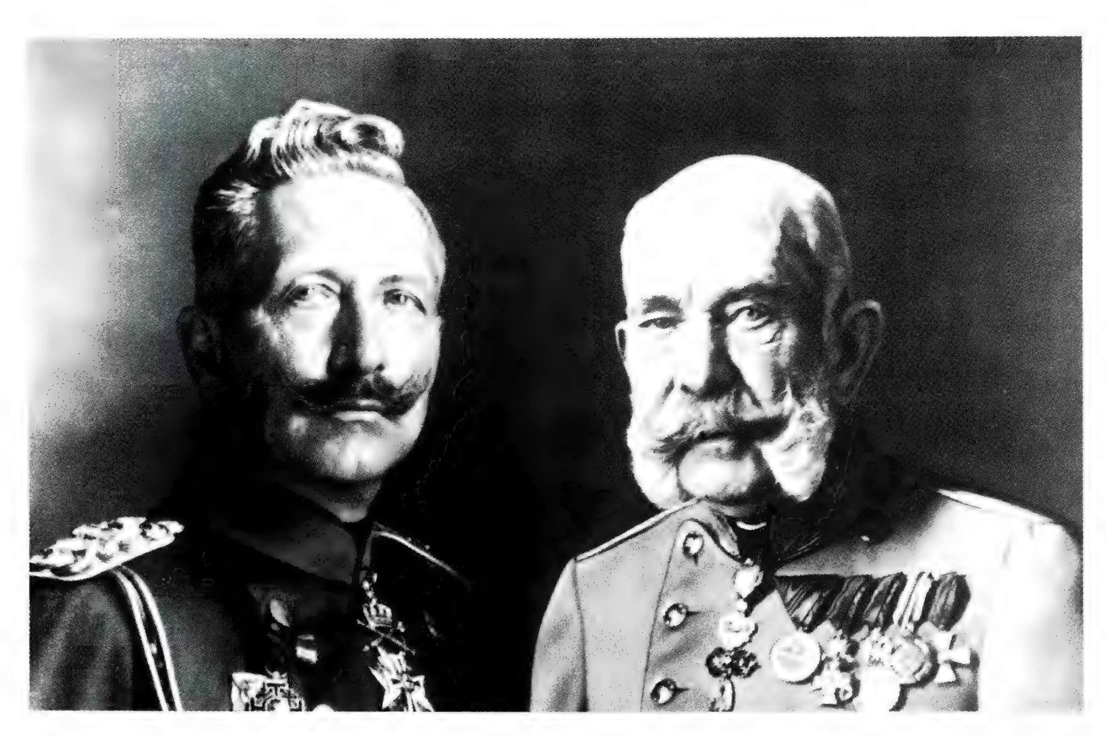
قرّرت الحكومة الألمانية التوضيح أنها ستقاوم توسّع النفوذ الفرنسي في المغرب. حثَّ المستشار الألماني القيصر، الذي كان يقوم بنزهة بحرية في المتوسط في ذلك الوقت، على إجراء زيارة قصيرة إلى طنجة. برغم أن فيلهلم الثاني لم يكن لديه اهتمام كبير بمثل هذه الزيارة، إلا أنه لم يحظٍ بخيارات أخرى، فرسى مركبه هناك في 31 آذار/ مارس 1905 حيث التقى السلطان. أعلن نفسه مدافعاً عن سلامة الأراضي المغربية في إشارة اعتراض مباشرة على الفرنسيين. نتج عن تلك الزيارة اختلاف كبير بين روفيه؛ رئيس الوزراء الفرنسي – الذي خشي اندلاع نزاع خطر مع الألمان – ووزير خارجيته ديكالسه

الذي عدَّ زيارة فيلهلم خدعة وتمنّى مواصلة خطط التوسّع، وأعدَّ لإرسال عدّة سفن حربية إلى طنجة لتنفيذ سياسته. طلب روفيه مساعدة الرئيس الفرنسي. وبعد اجتماع عاصف لمجلس الوزراء، أقيل ديلكاسه واختفى بعض الوقت من الساحة السياسية.



مؤتمر أغادير يلوم ألمانيا

بدا أن الدبلوماسية الألمانية قد انتصرت، لكن ذلك لم يلقَ تقديراً واسع النطاق، وقد اتّضح هذا بسرعة. طالبت ألمانيا بمؤتمر دولي لمناقشة المشكلة، وقد عُقد فعلاً في الجزيرة الخضراء (ألخثيراس) في نيسان/ أبريل 1906، وتمخّض عنه معاهدة نظّمت موقف فرنسا نحو المغرب. كان المؤتمر مخيّباً جداً لألمانيا، وقد حصل الفرنسيون على كل ما أرادوه، باستثناء بعض النقاط. وبدا واضحاً بنحو مؤلم للألمان أن البلاد لا تتمتع بأصدقاء كثيرين، وأنها مهدّدة بالعزلة. في الواقع، لم يؤيّد أي بلد تقريباً وجهة النظر الألمانية، ووحدها الدولة النمساوية - المجرية دعمت ألمانيا، في حين تخلت كل الدول الأخرى، وفيها إيطاليا التي كانت جزءاً من تحالف ثلاثي مع ألمانيا والنمسا - المجر، عن الألمان. كانت الصدمة كبيرة، خاصة أن ألمانيا لم تتوقّع مثل هذه النتيجة. وأدركت آنذاك أن مكانتها، باعتبارها قوّة رئيسة، بدأت تضعف.



بطاقة بريدية لكلا الحليفين: القيصر فيلهلم الثاني والإمبراطور فرانز- جوزيف عاهل النمسا/ المجر.

الأزمة المغربية الثانية، والألمان يرسلون السفينة الحربية بانثر

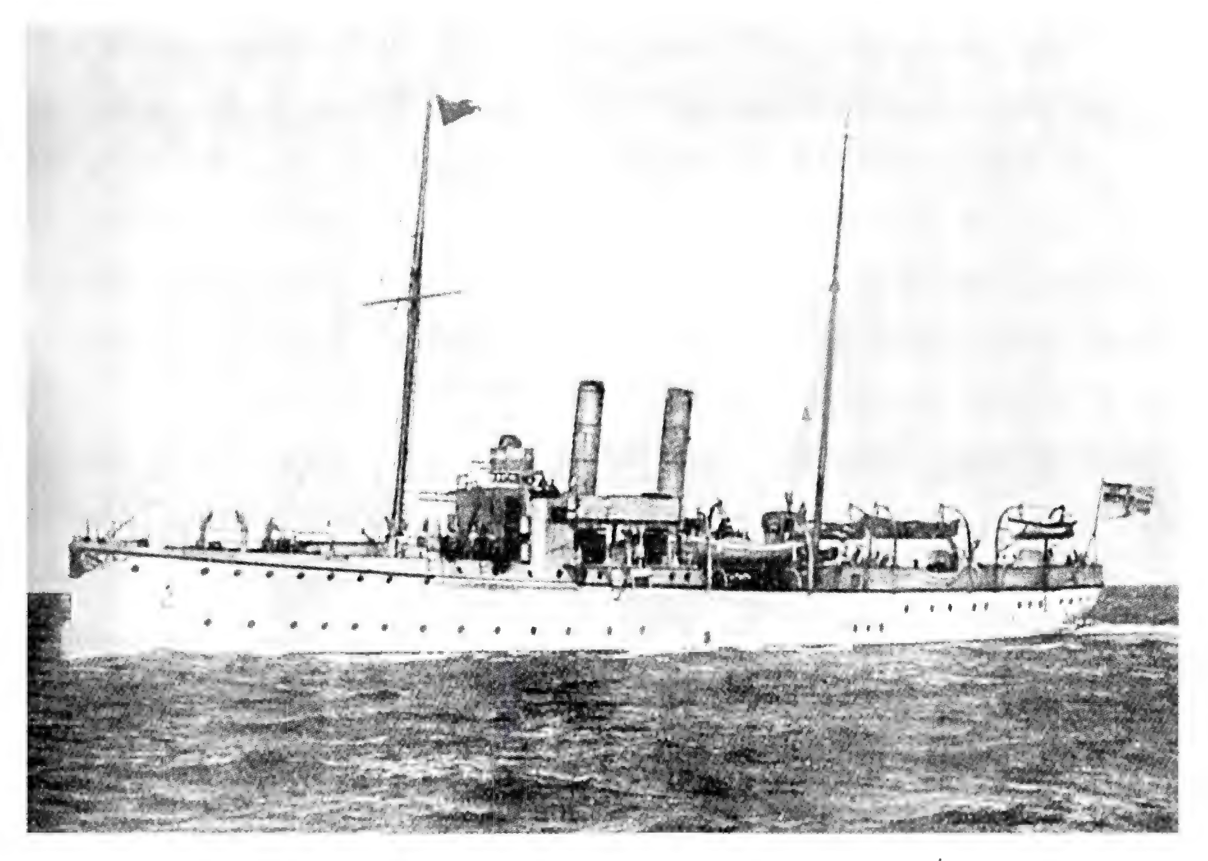
برزت أزمة جديدة في 1911 حين قرّرت فرنسا إرسال قوات إلى المغرب بحجة حماية مواطنيها ضد تمرّد قد اندلع هناك. برغم أن الفرنسيين استشاروا البريطانيين، إلا أنهم تركوا الألمان خارج الصورة. هذا ما جعل الألمان يعدّون إرسال جنود، محاولة أخرى لتقويض مصالحهم في المغرب. تمثّل الرد الألماني بإرسال السفينة الحربية بانثر إلى طنجة؛ في إشارة إلى أن ألمانيا لن تكون مستعدة للإذعان للأمر الواقع، أو السماح بتعريض مصالحها في المغرب للخطر.

هدأ التوتّر تلك المرة أيضاً. ومرة أخرى، لم تجرؤ فرنسا على المخاطرة باندلاع حرب، بسبب ذلك – لكن كانت تلك المرة الأخيرة. مجدداً لم تحظَ ألمانيا بدعم من الدول الأخرى، وبدا واضحاً أنها معزولة تماماً. دفعت عملية بانثر الفرنسيين بقوة أكبر نحو البريطانيين، و لم تثمر النتائج المرجوّة إطلاقاً.

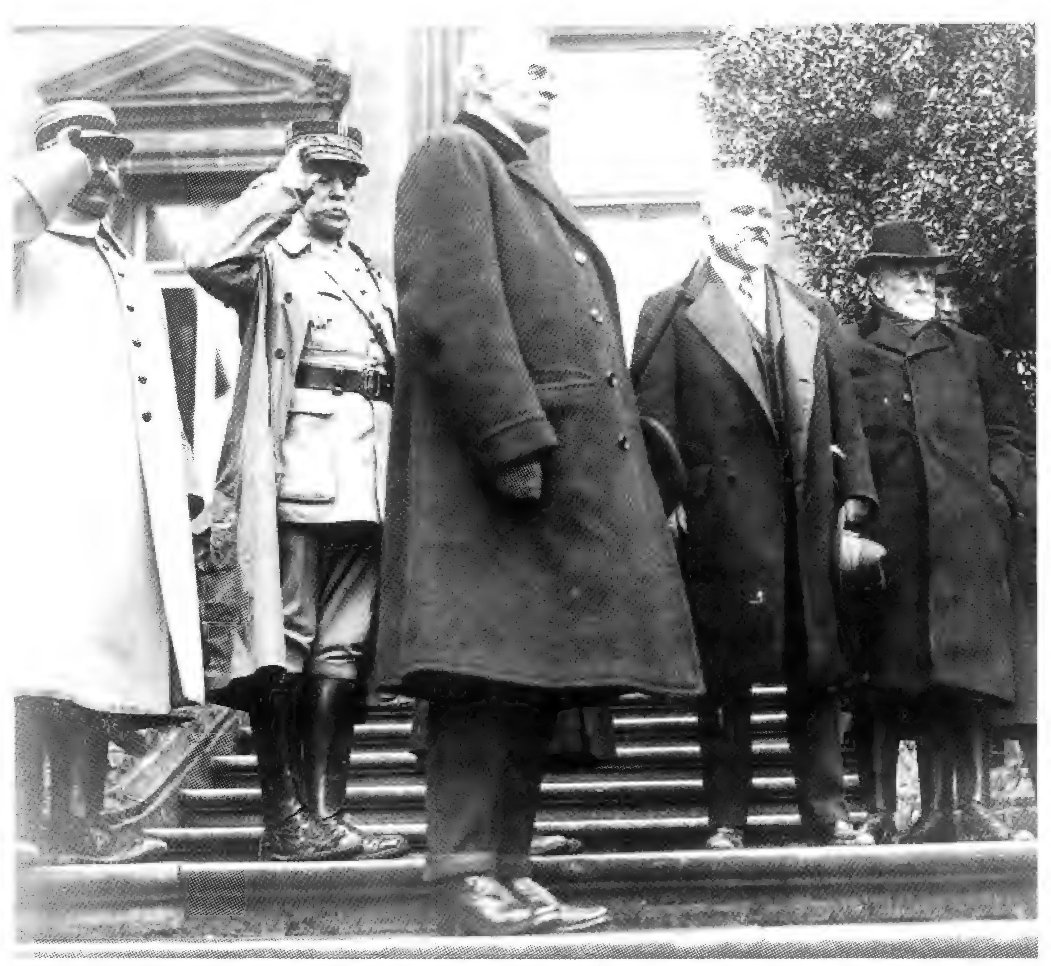
وقفت ألمانيا وحيدة وسط عالم عدائي. وبدا واضحاً أن الوضع سيتطوّر قريباً إلى نزاع كبير. انتصرت الدبلوماسية الألمانية مرة أخرى، وقرّر كيدلرن فاختر؛ وزير الخارجية الألماني الجديد، أن الانسحاب من المغرب بعد كل المشكلات التي قد برزت آنذاك، سيكون أكثر

حصافة. وآثر مقايضة المصالح التجارية الألمانية هناك بتعويض ملائم. وقد ظنَّ أن عقد اجتماع إضافي في المغرب لن يحلّ شيئاً، وسيدفع البريطانيين والفرنسيين إلى الاقتراب أكثر من بعضهم – أراد بوضوح أن يمنع ذلك – وقرّر أولاً، أن يزيد الضغط على الفرنسيين، قبل المطالبة بالتعويض ومغادرة المغرب.

لقد أثار وصول بانثر عاصفة، وبدا أن مطالبة ألمانيا بتعويض ستكون مثل قنبلة تنفجر. طالبت ألمانيا بكامل الكونغو الفرنسية، مقابل مصالحها في المغرب. وعرضت تسوية تشمل تخلّيها عن جزيرة توغو أو جزء من الكاميرون الألمانيّة. لجأت فرنسا فوراً إلى البريطانيين والروس، وردّ البريطانيون بلهجة حادّة جداً. ألقى لويد جورج؛ رئيس الوزراء البريطاني، خطاباً هدّد فيه بشن حرب، إذا عرّضت ألمانيا الدور البريطاني على الساحة الدولية للخطر. في ذلك الوقت، قرّر البريطانيون الاستعداد للحرب مع ألمانيا، وسافر جنرالهم هنري ويلسون إلى باريس لتنسيق عمل عسكري بريطاني – فرنسي محتمل.



السفينة الحربية الألمانية بانثر التي أُرسلت إلى طنجة في 1911 في إشارة إلى الفرنسيين إلى عدم تجاهل المصالح الألمانية.



الرئيس الفرنسي بونكاريه (الثاني من اليمين) الذي لعب دوراً رئيساً في اندلاع الحرب العالمية الأولى.

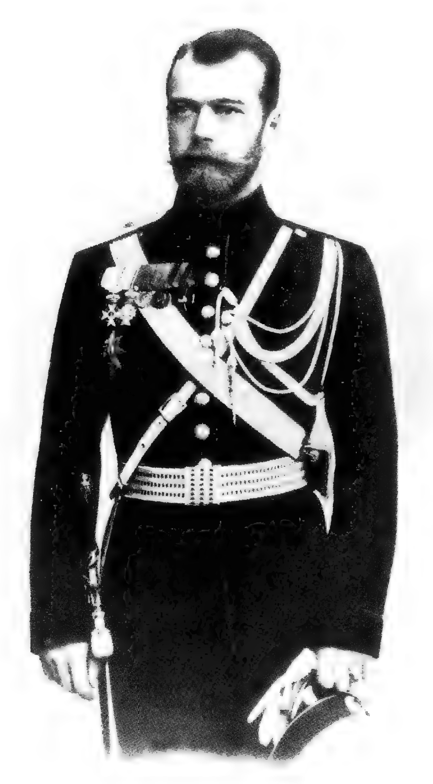
أُصيب القيصر الألماني، الذي لم يحبّذ إرسال بانثر إلى طنجة، بصدمة كبيرة من رد الفعل البريطاني ذاك، وأوضح لوزير خارجيته أن القضية المغربية لا تستحق حرباً، وأنّ عليه إيجاد حلّ لها.

صُدمت فرنسا أيضاً من الأفعال التالية لأزمة بانثر. ومرة أخرى برز الخوف من الحرب، إذ لم يكن السياسيون الفرنسيون يثقون كثيراً بتلقّي دعم من الروس والبريطانيين، إذا وصل الأمر إلى تلك المرحلة؛ من ثَم قرّروا التفاوض مع الألمان بشأن مطالبهم بالتعويض. توصّلت الدولتان إلى اتفاق في تشرين الثاني 1911 بعد أن وافقت ألمانيا بموجبه على وجود مصالح فرنسية في المغرب، وقبلت بأي قرار فرنسي بإرسال قوات إلى هناك. بالمقابل حصلت ألمانيا على نحو 250,000 كيلومتر مربع (96,526 ميل مربع) من الكونغو الفرنسية. هذا ما جعل من فرنسا قوة استعمارية رئيسة.

كان تحريك بانثر قد أثمر فعلاً، وحصل كيلدرن فاختر على مبتغاه. رضيت فرنسا بذلك أيضاً، وأصبح بمقدورها فعل ما تريد آنذاك في المغرب، من دون تدخّل ألماني، لكن البريطانيين أثاروا مشكلة، ولوّحوا باستخدام القوة. خفّ التوتر فجأة بعد الاتفاق الفرانكو – الألماني، وجرى تطبيع العلاقات بين الدول الثلاث حتى باتت ودّية. امتد السلم العالمي بضعة أعوام إضافية، قبل أن تتجمّع السحب الداكنة مجدّداً لتلقي بظلالها على العالم.

التوسّع الاستعماري الألماني والتنافس الاقتصادي والسياسي

كانت ألمانيا بلداً سريع النمو في أواخر القرن التاسع عشر، وأعمار أكثر من ثلث عدد سكانها المتزايد بسرعة تقلّ عن خمسة عشر عاماً. كانت البلاد تتحوّل إلى دولة صناعية مهمّة تطوّر مجموعة متزايدة باستمرار من المنتجات الجديدة التي تحتاج بالتأكيد إلى أسواق. بدت تلك مشكلة حقيقية؛ لأن الألمان وجدوا صعوبة أيضاً في العثور على أسواق قائمة، وبات حتى استيراد مواد خام ضرورية، صعباً بنحو مطّرد.

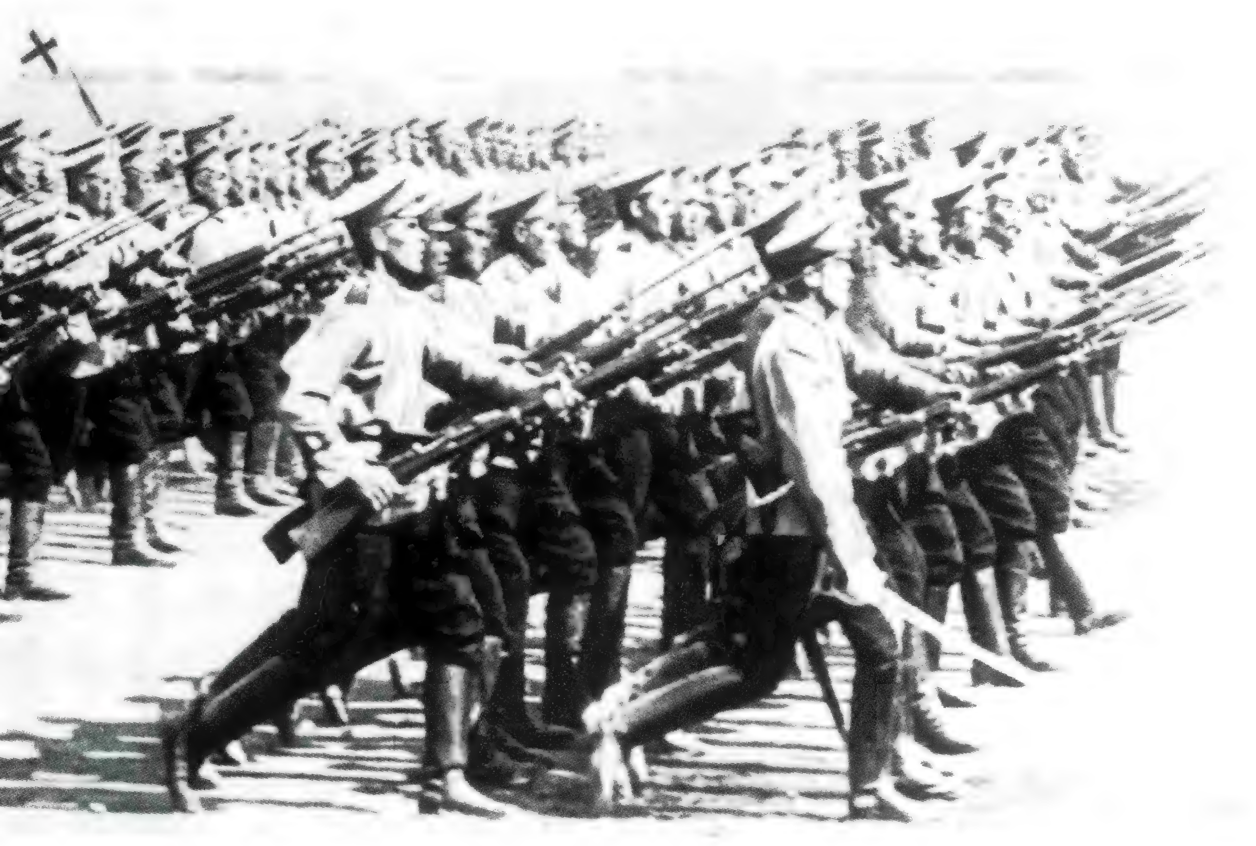

القيصر الروسي نيقولا الثاني.

لوصف ما كان يجري آنذاك، نمت مستوردات الألمان 244% على الأقل بين 1887 و 1912، وارتفعت صادراتهم بنحو 215%. كان هذا النمو في الصادرات الألمانية آنذاك أكبر من نمو صادرات الولايات المتحدة (173%)، وبريطانيا العظمى (113%)، وفرنسا (98%). أضحت ألمانيا أكبر منتج للفحم، والحديد، والفولاذ، وباتت الصناعة الكيميائية الألمانية الأهم في أوروبا. نشأت شركات كبيرة وتطوّرت بمعدّل مدهش.

كان طبيعياً أن يراقب البريطانيون هذا النمو الاقتصادي عن كثب، خاصة حين بدأت الصناعة الكيميائية الألمانية الفوز بطلبيات كبيرة، ذهبت سابقاً إلى شركات بريطانية. تدريجياً جرى إغراق أسواق التصدير البريطانية بمنتجات أرخص

وأفضل جودة غالباً، خاصة في مجال الهندسة الإلكترونية، والنسيج، وبناء السفن، التي أبدى فيها الألمان منافسة شديدة. في بعض الحالات صدّر الألمان بضائع إلى إقليم بريطاني أكثر من البريطانيين أنفسهم. عندما بدأت ألمانيا بناء أسطولها التجاري الخاص (حتى ذلك الوقت كانت معظم البضائع الألمانية تُشحن في سفن بريطانية)، شعر البريطانيون بالخطر فعلاً. باتت ألمانيا تُعدُّ آنذاك تهديداً، لا عسكرياً إنما اقتصادياً، لا يمتلك البريطانيون دفاعاً ضده.

بدا واضحاً للحكومة الألمانية أنها إذا أرادت تغذية البطون الجائعة لسكانها المتزايدين، وإيجاد فرص عمل لهم، فسيكون التصنيع والتصدير ضرورتين ماسّتين. من أجل ضمان الحصول على المواد الخام الضرورية من دون الاعتماد بنحو متواصل على «الإرداة الطيبة» للبريطانيين، كان إنشاء مستعمرات خاصة بهم أمراً أساسياً. لم تلقَ تلك الخطوات بأي حال تقدير الجميع، وأثمرت نتائج عكسية في مجالات عديدة في نظر ألمانيا. في كل مكان أرادوا التوسّع فيه، كما حدث في استئجار كيو تشاو الصينية في 1897، ومحاولات استعمار جزر سليمان في 1897،



جنود روس يسيرون أمام الرئيس الفرنسي أثناء زيارته إلى سانت بطرسبرغ في تموز/ يوليو 1914.

وجهود إنشاء ميناء تجاري في الفيلبين، ومحاولات تشييد محطات لتزويد السفن بالفحم أو مراكز تجارية في عدن اليمنية، وعلى طول ساحل الخليج العربي، وعلى الطريق إلى الهند، وقفت روسيا، واليابان، وبريطانيا ضدهم. وجدت ألمانيا أنه من المستحيل عملياً التوسّع اقتصادياً بوسائل سلمية.

يبدو منطقياً تماماً أن تزداد مطالبة ألمانيا بمستعمرات خاصة بها، وأسطول قادر على حماية طرق إمداداتها طرداً مع اعتراض دول أخرى على ذلك. مفهومٌ أيضاً في أثناء ذلك الوقت أن يشعر البريطانيون – الذين كانوا يمتلكون أقوى بحريّة في العالم، بوصفها شرطاً لا بدّ منه (أو ضرورياً) لمكانتها على أنها دولة جزيرة – بأن ذلك يمثّل تهديداً عسكرياً لهم. برغم أن الألمان أدركوا هذا، إلا أنهم شعروا بأنه لا يوجد خيار آخر لديهم إلا المسار الذي رسموه. لسوء الحظ، لم يكن الألمان ينفّذون تكتيكاتهم ودبلوماسيّتهم بإتقان دائماً، ونتج عن ذلك ازدياد انزعاج البريطانيين.



الإمبراطورية البريطانية، وبريطانيا العظمى بوصفها قوّة عالمية



هالدن؛ وزير الحرب البريطاني، الذي أنشأ الحملة العسكرية البريطانية التي أُرسلت إلى فرنسا في 1914.

عمل البريطانيون على إنشاء مستعمراتهم منذ القرن السابع عشر. عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى في 1914، كانت بريطانيا العظمى أكبر إمبراطورية في العالم، تضمّ أقاليم مثل أستراليا، ونيوزيلندا، وهونغ كونغ، وسنغافورة، وماليزيا، والهند، وجنوب أفريقيا، ومصر، والسودان، وغولد كوست، وأفريقيا الشرقية البريطانية، وأوغندا، والصومال، وروديسيا، وسيراليون، وجزر الهند الغربية، وكندا. لكن كل ذلك لم يكن كافياً.

بحلول بداية الحرب كانت أعين البريطانيين ترنو أيضاً إلى أجزاء من فارس، وأخرى من الأناضول (تركيا الآسيوية)، وبلاد الرافدين، وهليغولاند (أرخبيل ألماني)، والمستعمرات الألمانية طبعاً.

لقد بنى البريطانيون أسطولاً بحرياً ضخماً لحماية مستعمراتهم والطرق البحرية بينها. كانت تلك أكبر بحرية في العالم. ولم تجرؤ أي دولة على تحدّي تفوقها.

لهذا السبب عُدّت بريطانيا العظمى أكبر قوة في العالم، وقد أراد البريطانيون بالتأكيد الحفاظ على مكانتهم تلك.

بدا واضحاً أن أي شيء أو جهة يهدّد هذه المكانة سيعدُّ عدواً، ويجري التعامل معه وفقاً لذلك. كانت السياسة البريطانية تهدف إلى الحفاظ على توازن قوى في العالم، وعندما تهدّد أي دولة أن تصبح قوية جداً، يتحالف البريطانيون مع أعدائها لتشديد الخناق عليها.

استطاع البريطانيون الحفاظ على السلم في أوروبا أعواماً عديدة بهذه الوسيلة، برغم



سوخوملينوف؛ وزير الحرب في روسيا الذي أعاد بناء الجيش الروسي بعد الهزيمة من قبل اليابان (1904-1905)، إنما فقد الحظوة لدى القيصر لاحقاً.



أسطول أعالي البحار الألماني، مثار قلق البريطانيين، هنا في بحر الشمال.

وجود جمر تحت رماد تلك المظاهر الوادعة، ستحرق في النهاية ذلك السلام. لعبت ألمانيا دوراً رئيساً في إذكاء تلك الجمار بتوسّعها الاقتصادي وخططها لبناء أسطولها البحري.

سلسلة تحالفات ألمانيا وحلفاؤها

بعد الحرب الفرانكو–البروسية مباشرة، فعل بسمارك كل شيء ممكن لعزل الفرنسيين سياسياً. أراد منع فرنسا من أن تصبح مجدداً عضواً في مجموعة صغيرة من القوى الرئيسة؛ لأنها قد تنقلب ضد ألمانيا وتمثّل خطراً مرة أخرى. من ثم، بذل بسمارك كل جهوده لمنع حصول فرنسا على حلفاء أقوياء. كانت روسيا أحد الحلفاء المحتملين، فتواصل بسمارك دبلوماسياً مع السفير الروسي في برلين، وعرض تكوين تحالف بين البلدين. وقد أنشأ قبل ذلك تحالفاً مع الإمبراطورية النمساوية – المجرية، من ثمّ في 1873 تكوّن تحالف ضم ثلاث ممالك وعد فيه القيصر الألماني، والإمبراطور النمساوي – المجري، والعاهل الروسي بالتعاون مع بعضهم بعضاً، وتبنّي السياسة نفسها إذا هدّدت قوة أخرى أمنهم. لم يكن الاتفاق بين هذه الدول الثلاث مثالياً. وقد تداعى تقريباً في 1879 حين احتج العاهل الروسي لأن ألمانيا تؤيد دائماً النمساويين – المجريين في أي قضايا مهمة.

في ذلك الوقت قرّر بسمارك ألا يضع البيض كلّه في سلّة واحدة؛ لأنه شعر أن الروس غير



جديرين بالثقة. توصّل، من دون أن يبلغهم، إلى ميثاق عسكري سرّي جداً مع الإمبراطور النمساوي – المجري في 7 تشرين الأول 1879 اتفق بموجبه كلا البلدين على مساعدة بعضهما، إذا هاجم الروس أياً منهما. لم يطّلع الروس على هذا طبعاً، وعرفوا بالاتفاق السرّي بعد تسعة أعوام تقريباً، وبمحض المصادفة في 1881 و1884 جُدّد التحالف الثلاثي. لكن بحلول 1887 كانت العلاقات بين ألمانيا وروسيا قد تدهورت إلى حد جعل روسيا تتخلّى عن التحالف، احتجاجاً على ذلك. حاول بسمارك فوراً الحدَّ من الأضرار، وعرض تحالفاً منفصلاً مع روسيا وصفه بأنه «يحمي مؤخرته». وعد بسمارك روسيا بأن ألمانيا ستبقى محايدة إذا تعرّضت روسيا لهجوم من الإمبراطورية النمساوية – المجرية. وأعلن أنه مستعد لقبول مجال نفوذ روسي في البلقان. لم يبلّغ بسمارك طبعاً النمسا – المجر بهذه المعاهدة. وقد مثّل ذلك خرقاً فاضحاً لتحالفه معها. لهذا السبب كان متوقعاً تماماً أن تبرز مشكلات بهذا الشأن.

استطاع بسمارك فعلاً عبر تلك الاتفاقيات السرّية أن يمنع الفرنسيين من الحصول على حلفاء جدد ويبقيهم معزولين تماماً.

في 1881 انضمت إيطاليا أيضاً إلى التحالف بين ألمانيا والنمسا – المجر ما جعله اتفاقاً ثلاثياً

آنذاك. كانت إيطاليا قلقة من تزايد النفوذ الفرنسي في شمالي أفريقيا، وهي لديها هناك مصالح أيضاً. تطلّع الإيطاليون إلى دعم كافٍ عبر هذه الاتفاقية لإحباط الخطط الفرنسية.

أُبرمت هذه المعاهدة بسرّية أيضاً، لكن تسرّب طبعاً نبأ عنها، كون إيطاليا طرفاً فيها، بمرور الوقت. عندما عرفت فرنسا بالأمر حاولت إخراج إيطاليا من التحالف الثلاثي بكل أنواع الوعود عن تقسيم محتمل لمناطق نفوذ البلدين في أفريقيا. برغم أن إيطاليا لم توقّع رسمياً على تلك الاتفاقيات، إلا أنها قبلت بعضاً منها سراً. في 1902 اتفق كلا البلدين على معاهدة سرّية جداً وعدت إيطاليا فيها التزام الحياد، إذا تعرّضت فرنسا إلى هجوم من قبل ألمانيا.

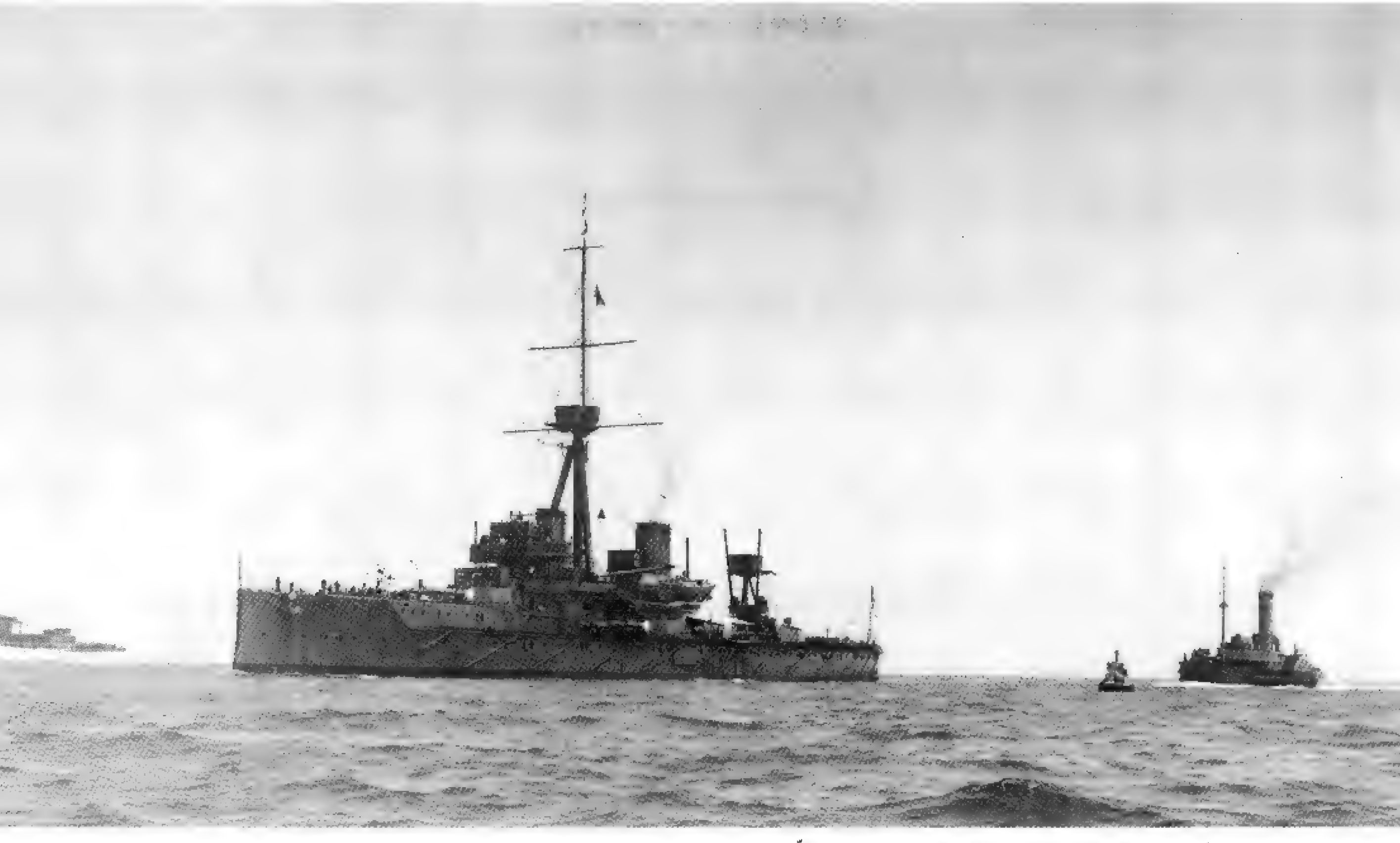
برغم هذا، وسّعت إيطاليا اتفاقها مع ألمانيا بعدئذ بوقت قصير. فقدت إيطاليا ثقة شركائها في التحالف الثلاثي منذ ذلك الوقت، وقد ثبت لاحقاً أنهم محقّون في ذلك.

عندما اضطر بسمارك إلى التنحّي من منصب المستشار في 1890 خَلفَه كونت كابريفي الذي رأى اتفاق بسمارك السرّي مع الروس مناقضاً للمعاهدة مع الإمبراطورية النمساوية – المجرية وغير مقبول، وعدّه خيانة صريحة للدولة (كان كذلك طبعاً)، ونصح القيصر بعدم تجديد المعاهدة عند انتهائها. عمل فيلهلم الثاني بنصيحته، وبرغم النيّة الحسنة، إلا أن ذلك مثّل نقطة تحوّل في التاريخ، مكّنت الفرنسيين من تحرير أنفسهم من العزلة؛ وستكون لها عواقب سلبية جداً على ألمانيا على المدى الطويل.

الاتفاق العسكري السرّي بين فرنسا وروسيا في 1894 الذي أدّى إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى



الأدميرال تيربتز (وسط) وأمير بروسيا هاينريش (الثاني من اليسار) في أثناء زيارة خاصة إلى نادي اليخوت الملكي في كوينزلاند في 1900.



كشف بناء البريطانيين للسفينة الحربية دريدنوت سباق التسلّح البحري مع ألمانيا.

استغرق الأمر بعض الوقت، كما قد رأينا، قبل أن يتعافى الفرنسيون من هزيمتهم النكراء من الجيش البروسي في 1871، التي جعلتهم معزولين دبلوماسياً. انقضى بعض الوقت قبل أن تسعى فرنسا مرة أخرى إلى الدفاع بنحوٍ ملائم عن حدودها. في 1880 تقريباً بدأ الفرنسيون بناء سلسلة حصون على طول حدودهم معَ ألمانيا، التي أرادوا إغلاقها بإحكام ضد أي هجوم. بدأت أفكار الانتقام تنبثق أيضاً في ذلك الوقت، وفي 1887، بعد وقت قصير من انتهاء تشييد الحصن الأخير في الخط الدفاعي، قدّمت هيئة الأركان الفرنسية أولى خططها الهجومية المخصّصة طبعاً لإعادة الألزاس–اللورين إلى فرنسا. لم تأخذ تلك الخطط بالحسبان اعتماد إستراتيجية دفاعية، ما حوّل الجيش إلى قوة هجومية فقط. باتت العقيدة المبجّلة هي الهجوم، وجرى تدريب الجنود الفرنسيين على شنّ هجمات بكل الوسائل وبأي تكلفة. اختفت كلمة دفاع من المفردات العسكرية الفرنسية.

كان الدبلوماسيون مشغولين أيضاً، في أثناء استعداد الجيش لاستعادة الألزاس–اللورين. بُذل كل جهد ممكن لكسر العزلة الدبلوماسية التي فرضها بسمارك عليهم، وعملوا لجعل فرنسا قوة رئيسة مرة أخرى على خريطة أوروبا.

سنحت أول فرصة للفرنسيين حين لم تمدّد ألمانيا المعاهدة مع روسيا التي تكلمنا عنها سابقاً.



الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث (1808-1873).

عندما رأى الفرنسيون بارقة الأمل تلك في 1890 أرسلوا الجنرال بواديفر إلى روسيا، الذي بدأ مباحثات بشأن تعاون عسكري محتمل بين روسيا وفرنسا.

استقبل الروس بواديفر بحرارة، يراودهم أملٌ قوي بإحياء رغبتهم القديمة بفتح ممر من البحر الأسود عبر الدردنيل والبوسفور إلى البحر المتوسط. كان هذا المسار البحري محظوراً على السفن الحربية بعد معاهدة باريس في نهاية حرب القرم في 1856 بين القوى العظمى في ذلك الوقت وهي بريطانيا، وفرنسا، وبروسيا، والنمسا، ما فرض على السفن الحربية الروسية البقاء في البحر الأسود.

كان مطلوباً أن توافق الأطراف كافة من أجل تغيير هذا الاتفاق. لكن حتى ذلك الوقت، عبّر كل طرف عن التزامه ببنود المعاهدة. تمنّى الروس أن يتمكّنوا من اتخاذ الخطوة الأولى نحو تفكيك تلك المعاهدة بمساعدة الفرنسيين. وجعلت مشكلات الروس مع البريطانيين فيما يخص فارس أيضاً، عقد تحالفٍ مع فرنسا خياراً مغرياً.

بذل الفرنسيون كل جهد ممكنٍ لنقل علاقتهم مع الروس إلى أعلى مستوى. في تموز من ذلك العام أرسل الفرنسيون أسطولاً بحرياً إلى روسيا في زيارة رسمية لإبراز التعاون الوثيق بين البلدين. في العام التالي زار غيرز؛ وزير الخارجية الروسي، باريس لدفع مباحثاتهم قدماً. استغرق الأمر حتى 1893 قبل التوصّل إلى اتفاق محدّد، وطالب العاهل الروسي، الذي وقّع الاتفاقية عن بلاده، أن يبقى سرياً جداً، وألا يعرف به إلا الرئيس ورئيس الوزراء الفرنسيان فقط. هكذا أبرمت فرنسا معاهدة عسكرية سرّية مع روسيا من دون إبلاغ الحكومة أو البرلمان الفرنسيين بذلك.

توضّح قراءة متأنّية لتلك المعاهدة النوايا العدوانية لكلا البلدين فيها، برغم وعود السلام في مقدمتها. أرادت فرنسا استعادة الألزاس–اللورين، في حين أرادت روسيا ضمان الوصول

إلى البحر المتوسط. لم يكن بمقدور الدولتين تحقيق هذين الهدفين إلا عبر العمل معاً، وهذا ما قرّرتا القيام به. كانت فرنسا وروسيا ستوحّدان جهودهما في نزاع مع ألمانيا حين تكتمل استعداداتهما العسكرية، ويحين الوقت الملائم لذلك. في تلك الأثناء، عمل كلا البلدين على بناء جيشه وبحريّته، واقترحا خططاً مشتركة، واستعدّا لـ«اللحظة المواتية» التي قدّرا أنها ستحل في 1917.

عبر دبلوماسية حذرة وخطوات ماهرة، لم تنجح فرنسا في كسب روسيا حليفاً قوياً فقط، إنما في إضعاف التحالف الثلاثي كثيراً أيضاً حين شرعت في إجراء محادثات سرّية مع أحد أعضائه؛ إيطاليا. كان ذلك التحالف أضعف بالتأكيد مما يتخيّل نفسه، و لم تبقَ الأمور على حالها. وجّهت فرنسا جهودها آنذاك نحو بريطانيا في محاولة لكسب تلك الدولة حليفاً في الحرب المستقبلية مع ألمانيا.

نهاية العصر الفيكتوري في بريطانيا العظمى

توفّيت الملكة البريطانيّة فيكتوريا طاعنةً في السن عام 1901، ما وضع حداً لعهدٍ تميّز بالتقدّم والرخاء. خَلفَ فيكتوريا إدوار السابع؛ رجل كانت له آراء نقدية صريحة تجاه ألمانيا والقيصر الألماني، ومحبّ حقيقي لنمط عيش الفرنسيين وثقافتهم.



الجنرال الفرنسي بواديفر؛ أحد الأشخاص الذين نظّموا الاتفاقية الفرانكو-الروسية في 1894.

في نهاية 1905، انهارت حكومة المحافظين، وتولّى الأحرار الحكم. كان إدوارد غراي وزير خارجية الحكومة الجديدة، المعادي بقوة للألمان، قد كتب في 1885 أن ألمانيا هي العدو الرئيس لـ بريطانيا. عُدَّ غراي مؤيداً بارزاً للاتفاق الودّي أو اتفاقية الصداقة التي وُقّعت مع فرنسا في 1904، وقد علّق أن توسيعها، لتشمل مجالات أخرى (ربما عسكرية)، سيكون أمراً جيداً. كتب أيضاً أن أوروبا بقيت منقسمة إلى معسكرين: التحالف الثلاثي (ألمانيا، والنمسا - المجر، وإيطاليا)،

والحلف الثنائي (فرنسا وروسيا)، وبات واضحاً للجميع آنذاك، أن بريطانيا ستنضم إلى جانب الفرنسيين. أيّد بحماس المحادثاتالعسكرية السرّية التي قد بدأتها الحكومة البريطانية مع الفرنسيين، وقد سمح باستمرارها من دون توقّف حين أصبح وزيراً للخارجية في 1905.

لم يكن لدى الشعب أو البرلمان البريطانيين، أو معظم أعضاء الحكومة البريطانية أي علم بتلك المباحثات العسكرية الفرانكو - البريطانية السرّية، وقد أبقاها غراي سراً؛ لأنه عرف أنها ستلقى اعتراضاً. لم يكن أحدٌ يعرف سرّ غراي إلا أسكويث رئيس الوزراء، وهالدن وزير الحرب، وعدّة جنرالات، وبعض الموظفين المدنيين والدبلوماسيين الكبار. وقد توصلت هذه المجموعة من الرجال إلى استنتاج أن بريطانيا تحتاج إلى جيش يمكن إرساله إلى فرنسا بسرعة، في حال نشوب حرب مع ألمانيا.

قدّم وزير الحرب هالدن خططاً في 10 كانون الثاني/ يناير 1906 لإرسال حملة عسكرية بريطانية يمكن أن تتجه إلى فرنسا أو بلجيكا في أربعة عشر يوماً. وشرع في توسيع الجيش ليستطيع التمركز في بلجيكا أو فرنسا لمساعدة الفرنسيين في أي حرب متوقعة مع ألمانيا.



نهاية عصر. جثمان الملكة فيكتوريا محمولاً على متن اليخت الملكي (وسط) على نهر التايمز إلى مثواه الأخير.



اللورد كيتشنر؛ وزير الحرب البريطاني، الذي تصوّر صراعاً طويلاً وتوقّع الحاجة إلى جيش ضخم.

في تلك الأثناء، حاول الجنرال البريطاني جريرسون إجراء محادثات عسكرية مع البلجيكيين. برغم أن الحكومة البلجيكية لم تؤيّد الأمر؛ بسبب سياسة الحياد الصارمة التي انتهجتها، إلا أن الجنرال البلجيكي دوكارنيه التقاه لمناقشة القضية. وقال إنه إذا حشد الألمان قواتهم في المنطقة قرب آخن، فسيشنّ الجيش البلجيكي هجوماً فوراً. في تلك الحال، وعد جريرسون بإرسال 100.000 جندي بريطاني إلى بلجيكا. زاد هنري ويلسون، الذي خَلفَ جريرسون، هذا الرقم إلى 160,000 رجل. عندما تولّت الحكومة البلجيكية زمام الأمور، ومنعت إجراء أي محادثات عسكرية إضافية مع البريطانيين، قدّم ويلسون خططاً جديدة، و لم يجد حرجاً في إبلاغ البلجيكيين أن البريطانيين سينزلون على البر بالقوة عند الضرورة، حتى إذا اعترضت بلجيكا على ذلك. بدا واضحاً أن قيادة الجيش البريطاني ستنتهك الحياد البلجيكي الذي تضمنه جزئياً بريطانيا العظمى؛ لأنها عدّت ذلك حتمية عسكرية. هذا بالضبط ما قد اتُهمت ألمانيا بفعله بوصفه «جريمة شائنة». كان الفرنسيون قد وضعوا أيضاً خططاً لغزو بلجيكا من دون إذن الحكومة البلجيكية، وعُدَّ الأمر ضرورة عسكرية أيضاً. قدّمت رئاسة الأركان العامة الفرنسية هذا الطلب إلى الرئيس بونكاريه قبل وقت وجيز من اندلاع الحرب العالمية الأولى.

عُيّن الجنرال البريطاني هنري ويلسون قائداً للعمليات العسكرية في 1910، وبات بذلك أهم شخصية محورية في التخطيط العسكري الفرانكو–البريطاني في أثناء تطوّره، وفيه التعاون بين البحريتين الفرنسية والبريطانية. بحلول آذار/ مارس 1911 أضحت خطط إنزال أربع فرق بريطانية في فرنسا وبلجيكا جاهزة بالتفصيل، ووقّع ويلسون اتفاقاً مع الجنرال الفرنسي دوبيه في الـ 20 من حزيران/ يونيو ذلك العام، زادت بموجبه تلك القوات إلى ست فرق. بقي البرلمان البريطاني ومعظم أعضاء مجلس الوزراء غير مطّلعين على تلك المحادثات والاتفاقيات، وعندما طُرحت أسئلة، ردَّ غراي في مجلس العموم وأبلغ البرلمان أنه لا توجد اتفاقيات مع الفرنسيين يمكن



كان الأسطول البريطاني يعدُّ منيعاً، لكن ثبت أن ذلك غير صحيح ضد البحرية الألمانية في معركة جوتلاند في 1916.

أن تُلزم البريطانيين بالانضمام إليهم في حرب ضد ألمانيا. لم تلقَ كلماته آذاناً صاغية؛ لأن تفاصيل معينة قد تسرّبت، ما جعل عدّة وزراء يهدّدون بالاستقالة إذا لم تُكشف الحقيقة. طالب بعضهم أن يصدر رئيس الوزراء بياناً مكتوباً بعدم المضي قدماً في مناقشات فرانكو – بريطانية إضافية بشأن التعاون العسكري من دون إذن سابق من البرلمان. كان يجب إصدار هذا البيان، لكن غراي لم يُعر الأمر اهتماماً كبيراً، واستمرت المحادثات بالوتيرة نفسها.

في العام التالي ناقش المخطّطون الفرنسيون والبريطانيون دور البحريتين، وقرّروا نقل الأسطول الفرنسي برمّته من بحر الشمال إلى البحر المتوسط، وانسحاب الأسطول البريطاني تماماً تقريباً من البحر المتوسط، من أجل حماية الساحل الفرنسي من هجمات ألمانية. أعادت أساطيل بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا تمركزها بأفضل طريقة ممكنة واستطاعت كل منها التركيز على حماية أراضيها.

بعد وضع قطار العلاقات العسكرية مع فرنسا على السكّة، برغم أن غراي لم يوقّع وثيقة واحدة وبقيت تلك الاتفاقيات الشفهية سرّية تماماً، صمّم وزير الخارجية على تطوير علاقات أوثق مع الروس. تصوّر دوراً مهماً لـ روسيا، التي قد أضعفتها كثيراً الحرب مع اليابان في 1904. عرض تعاوناً بين فرنسا، وبريطانيا، وروسيا ضد الألمان، سيكون مدمراً لـ ألمانيا في حال اندلاع حرب معها. وقّعت الدولتان معاهدة في 31 آب/ أغسطس 1907، حلّتا بموجبه عدة خلافات، وفي العام التالي زار الملك البريطاني العاهل الروسي برفقة شخصيات عسكرية بارزة. في أثناء المناقشات التي أعقبت ذلك، حثّ البريطانيون الروس على تقوية قدراتهم العسكرية ليستطيعوا لعب دور حاسم على الساحة الدولية مع فرنسا وبريطانيا، إذا تطلّب الأمر ذلك. أوضح البريطانيون أنهم



يتوقّعون نشوب أزمة في سبعة أعوام أو ثمانية، إذا واصل الألمان بناء أسطولهم. وقد أوضح المسؤول البريطاني أن روسيا ستلعب دوراً حاسماً في تلك الحال. ردَّ الروس بإيجابية ما جعل وزير الخارجية البريطاني يتقدّم خطوة أخرى على طريق عزلة ألمانيا دبلوماسياً وعسكرياً. سيُرغم ذلك البلد على القتال على جبهتين ضد هؤلاء الأعداء الثلاثة الأقوياء في أي حرب، التي لن تفوز ألمانيا فيها وستكون نتيجتها محتّمة لكلا الطرفين.

كانت هناك كتلتان متعارضتان في 1914: الحلف الثلاثي بين روسيا، وفرنسا، وبريطانيا العظمى، والتحالف الثلاثي بين ألمانيا، والنمسا – المجر، وإيطاليا التي تعدُّ الحلقة الأضعف ولا يمكن الاعتماد عليها. كان واضحاً للألمان أن التفوق سيكون كبيراً في بضعة أعوام، وأن الحرب ستكون كارثية. لهذا السبب بدأ الجيش الألماني الضغط لشن ضربة وقائية، في حين لا تزال لدى ألمانيا فرصة لتحقيق النصر في حرب عُدّت محتّمة. رفض كل من المستشار والقيصر الألمانيين الموافقة على هذا الطلب.

بناء دريدنوت وتوسعة الأسطول الألماني

في تلك الأثناء، كان توسيع ألمانيا بحريتَها، الذي خطّط له الأميرال تيربتز من أجل الدفاع عن البلاد من أي هجوم، قد أثار بالتأكيد درجة من الخوف لدى البريطانيين، أو لدى إمارة البحر على الأقل.

في بداية القرن العشرين بدأت الحكومة البريطانية تهتم كثيراً بالقوة الاقتصادية الألمانية



جندي بريطاني يودّع أسرته قبل أن يغادر إلى الجبهة.

المتنامية بسرعة. طُرح سؤال عمّا يعنيه ذلك، وماذا سيحدث إذا قطعت ألمانيا إمدادات المواد الخام من أرجاء الإمبراطورية مثلاً في أثناء حرب؟ عمّق توسّع الأسطول الألماني هذه المخاوف فأمرت الحكومة البريطانية بإجراء دراسات لاكتشاف ما قد يحدث. كان الاستنتاج أن كارثة كاملة ستحلّ إذا نجحت ألمانيا في قطع الروابط بين بريطانيا ومستعمراتها ما وراء البحار. أدركوا من جهة أخرى أن الأمر نفسه ينطبق على ألمانيا أيضاً، وقرّروا لهذا السبب حصار الموانئ الألمانية في حال نشوب حرب. بحلول 1907 كانت تلك الخطط قد أُنجزت، وبرغم تناقضها التام مع القانون البحري الذي وضعه البريطانيون بأنفسهم، إلا أنها عُدّت في 1909 «ضرورة عسكرية».

كان الأميرال تيربتز يعدُّ احتمال فرض البريطانيين حصاراً على ألمانيا واحداً من أقوى الأسباب للاستمرار في توسيع الأسطول، وأنه إذا كانت البحرية الألمانية قوية كفاية فسيفكّر البريطانيون مليّاً بشأن فرض حصار عليهم. لقي رأيه تأييداً واسع النطاق. في ذلك الوقت، بدأ البريطانيون بناء دريدنوت؛ نوع جديد كلياً من السفن الحربية التي تعدُّ متطوّرة جداً لإحراز التفوق البحري بمعايير السرعة، والدرع، والتسليح. كانت البحرية البريطانية ستضمن تفوّقها في المستقبل المنظور ببناء ذلك النوع من السفن.

كان لذلك عواقب طبعاً، وبدا واضحاً أن سباق التسلّح البحري مع ألمانيا قد بات محموماً. لتفادي الأمر، سعى البريطانيون آنذاك إلى عقد مؤتمر لنزع السلاح في لاهاي اقترحوا فيه خفض حجم كل الأساطيل، وفيه البحرية الملكية. ظاهرياً كانت تلك مبادرة إيجابية إنما ساذجة. بالمحصّلة، يستطيع البريطانيون تدمير بعض السفن القديمة والاستعاضة عنها بعددٍ أقل وأكثر قوة من طراز دريدنوت.

لم يكن مفاجئاً لهذا السبب أن ترفض ألمانيا الاقتراح البريطاني، خاصة بعد وصول شائعات

إلى الألمان عن المعاهدة الروسية – البريطانية في 1907 التي عُدّت حلفاً بين الدولتين. بدأ الألمان يشعرون بقلق بالغ، خاصة حين قام الرئيس الفرنسي بزيارة دولة إلى بريطانيا في 1908، وبدأت الصحف الفرنسية تتكلم بعدها مباشرة على فرض الخدمة العسكرية الإلزامية في المملكة المتحدة. لم تهدأ مخاوف الألمان حين زار الملك البريطاني روسيا في العام ذاته مع شخصيات عسكرية بارزة في حاشيته، وجعلهم ذلك يشكّون في عقد اتفاق عسكري بين الدولتين. رأت ألمانيا نفسها محاطة بازدياد بدول معادية لها؛ ما زاد رغبة الألمان بتقوية دفاعاتهم.

استغلّت إمارة البحر البريطانية مخاوف الشعب البريطاني من توسيع البحرية الألمانية للظفر بتمويل إضافي لخططها. في كانون الثاني/ يناير نُشر تقرير أشار إلى أن ألمانيا لا تمتلك برنامج «دريدنوت» خاص بها فقط، إنما سيكون لديها إحدى وعشرون سفينة من هذا النوع في 1912 أيضاً. لضمان التفوّق على الألمان تطلّب الأمر أموالاً لبناء ثماني سفن دريدنوت إضافية بحلول 1912. تعرّضت إمارة البحر لانتقاد من جهة غير متوقّعة. عدّ تشرشل، الذي كان رئيس مجلس التجارة في ذلك الوقت، الاقتراح مُضللاً وجادل أنه نتج عن آراء ذات خلفية حزبية – سياسية بوصفها جزءاً من سياسة خيالية، واستفزازية، وعدائية. كان ذلك تحدّياً واضحاً حظي باهتمام بالغ وتأييد واسع النطاق من الصحافة. استمرت البحرية الملكية في نشر تحذيرات مثيرة للقلق عن القوة المتزايدة للبحرية الألمانية، لكن زيف ادّعاءاتها كُشف في 1912 حين لم تمتلك البحرية الألمانية إحدى وعشرين «دريدنوت»، إنما اثنتي عشرة فقط. في الواقع لم يشكّل الأسطول الألماني تهديداً أبداً للبحرية الملكية.

بات الانتقاد في بريطانيا بشأن مآل سباق التسلّح البحري جدّياً بازدياد، وتساءلت الصحافة علناً عن عدم وجود أفكار للتعاون بدلاً من تعميق الاختلافات بين الطرفين. كان النقد حاداً جداً، ما جعل الحكومة لا



حذّرت الحكومة البريطانية من تعطّش ألمانيا إلى النفوذ بهذا النوع من الدعاية الجوفاء.

تملك خياراً آخر – على الأقل للاستهلاك المحلي – باستثناء محاولة خفض التوتّر بين البلدين. عندما اقترح الألمان أيضاً إجراء محادثات لتحسين العلاقات السيئة بين الدولتين في 1912، أرسل غراي؛ وزير الخارجية البريطاني، هالدن؛ وزير الحرب، إلى برلين مزوّداً بتعليمات مشدّدة أن يقوّم فقط النوايا الألمانية، وألا يعقد أي نوع من الاتفاقيات.

لدهش هالدن الكبير، استُقبل بحفاوة بالغة في برلين. خصّص القيصر جزءاً من وقته للترحيب به، وقام المستشار الألماني بكل ما بوسعه للتوصل إلى حل معقول. طوّر كلا الجانبين اتفاق مبادئ، لكن هالدن كتب لاحقاً أنه لم يذهب إلى برلين مزوّداً بتعليمات للتوصل إلى اتفاقية. تطلّبت مثل تلك الخطوة استعداداً أكبر كثيراً، لكن هدفه كان التوثّق من إمكانية عقد مثل ذلك الاتفاق. لم يعرف ما سيكون عليه رد فعل الحكومة البريطانية، إنما عدَّ المحادثات ناجحة جداً، بطريقة لم تكن متوقّعة.

للأسف، وضع غراي، المصدوم على الأرجح من نجاح هالدن، عقبات على الطريق وقدّم عدداً من المطالب الجديدة وأجّل ردّه. أدّى هذا التكتيك إلى إحباط كبير لدى القيصر الألماني الذي أدرك أن البريطانيين لا يأخذون المقترحات الألمانية، أو استعدادهم التوصل إلى تسوية، على محمل الجد. لم ينتج شيء في نهاية المطاف من التطوّرات التي قد نقلها هالدن بإيجابية. كان عناد غراي – الذي أطلع السفير الفرنسي على الزيارة وطمأنه بأنها لن تغير العلاقات مع فرنسا بغض النظر عن نتيجتها – العقبة الرئيسة. لقد أهدرت بريطانيا فرصة ممتازة لتخفيف التوتّر في العالم.

استمر سباق التسلّح بين البلدين على أشدّه، في حين انخفض احتمال تحقيق السلام بنحو ملحوظ بانقضاء الوقت.

صربيا بوصفها مصدراً للتوتّر، واغتيال ألكسندر أوبرينوفيتش

عندما ازداد التوتّر في الساحة الدبلوماسية الدولية، بات الوضع في البلقان أكثر هشاشة. بعد تمرّدَي 1800 و1807 اللذين نجح الصرب في أثنائهما في التخلّص جزئياً من نير الحكم التركي، خضعت البلاد مرة أخرى لسيطرة الأتراك في 1812. أرغم العاهل الروسي السلطان التركي على منح الصرب حكماً ذاتياً في 1829، ونتيجة ذلك زاد نفوذهم تدريجياً. في 1867 نجح الملك ميلان أوبرينوفيتش، الحاكم الصربي في ذلك الوقت، وبمساعدة من النمساويين



أحزن الاغتيال المروّع لـ ألكسندر؛ ملك صربيا مع الملكة العالم بأسره. يظهر خَلفه الملك بيتر كاراديورفيتش في هذه الصورة في 1903. سعى إلى إنشاء صربيا الكبرى وتحالف مع روسيا.

– المجريين، في إخراج القوات التركية من صربيا إلى الأبد، وبرغم أن البلاد نالت استقلالها إلا أنها بقيت تعتمد اقتصادياً على الإمبراطورية النمساوية – المجرية. في الواقع عامل النمساويون – المجريون صربيا على أنها محميّة نوعاً ما، واستفادوا واستغلّوا ضعف الملك ميلان أوبرِينوفيتش. ازداد السخط من قضية التبعية هذه يومياً، وحيكت كثير من الدسائس والمكائد. أُرغم ميلان على التنازل عن العرش في 1889 لمصلحة ابنه ألكسندر، لكن «من شابه أباه فما ظلم». تبنّى ألكسندر سياسات والده ذاتها فيما يخص الإمبراطورية النمساوية – المجرية، التي لم تجعله محبوباً. في أثناء انقلاب نفّذه ضباط من الجيش في حزيران/ يونيو 1903 اغتيل بطريقة وحشية، إلى جانب زوجته ووزير الحرب، ما وضع حداً لحكم أسرة أوبرينوفيتش. كان النمساويون قد أيّدوا الانقلاب سراً، لذا تمنّوا أن تكون القيادة الجديدة شاكرة لهم، لكن خاب أملهم حقاً، إذ إن حاكماً جديداً اعتلى العرش الصربي بعد ثمانية أيام فقط من الاغتيال.

كان ذلك هو بيتر كاراديورفيتش البالغ من العمر ستين عاماً والعائد من المنفى في جنيف، الذي اعترفت به روسيا فوراً وأيّدته. روّج بيتر لفكرة صربيا الكبرى وأعلن صراحة بنفسه عن رغبته بدمج البوسنة والهرسك في الأراضي الصربية. أقام علاقات وثيقة مع روسيا، التي بدت متحمّسة للمساعدة. ازداد النفوذ الروسي كثيراً في صربيا آنذاك، وتداعى موقف النمساويين – المجريين حين فكّكت صربيا ببطء صلاتها الاقتصادية بالإمبراطورية النمساوية – المجرية، ما ألغى سيطرة تلك الدولة على كل التجارة والصادرات الصربية. ردَّ النمساويون – المجريون بقوّة على محاولات الاستقلال الاقتصادي تلك، وحاولوا كل ما في وسعهم لإعادة التبعية الاقتصادية الصربية، وتأكيد الوضع المميز الذي قد تمتّعوا به سابقاً.

نشبت «حرب الخنازير» في 1906، ونجح الصرب بعد ذلك في تصدير أهم بضائعهم مباشرة إلى أسواق في فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، ومصر، وبلغاريا، من دون المرور بين أيدي النمساويين – المجريين. كان هذا يعني نهاية أكيدة لاحتكار النمساويين – المجرين للتجارة الصربية.



الملك بيتر ورئيس وزرائه باسيك (ذو اللحية) اللذان لعبا دوراً رئيساً في اندلاع الحرب العالمية الأولى.

بعد أن نجح بيتر في كسب استقلالٍ اقتصادي لبلاده من النمساويين – المجرين، تبنّى أيضاً سياسات معادية لتلك الأمة.

كانت البوسنة والهرسك سلاحه، بمعنى السيطرة على ذلك البلد الذي حكمه الأتراك سابقاً، ومن ثمَّ بات جزءاً من النمسا – المجر بموجب مقررات مؤتمر برلين. عاشت أعداد كبيرة من السلافيين في ذلك البلد، وبدأ بيتر آنذاك في نثر بذور الخلاف والضغط لتوحيدها مع صربيا، داعياً إلى عيش كل

السلافيين في دولة واحدة. بات الجيش والحكومة والشعب الصربي متحمّسين لتبنّي هذه الفكرة، وأبدت روسيا اهتمامها برؤية الطموحات الصربية تؤتي أُكلها وأيّدتهم بقوة.

تغيّر الوضع في البلقان لهذا السبب نحو تداعي النمسا - المجر بعد تولّي الملك بيتر كاراديورفيتش العرش. فقدت الإمبراطورية حليفاً أيضاً في صربيا، في حين ازداد كثيراً النفوذ الروسي في البلقان.

كانت بذور نزاع مستقبلي قد زُرعت آنذاك، وبدأت الإمبراطورية النمساوية - المجرية تخشى على سلامة حدودها. لم يبرز ذلك، كما سنرى، من فراغ.

نشأت علاقات وثيقة آنذاك بين روسيا وصربيا حملت بين طيّاتها خطراً وجودياً على ديمومة الإمبراطورية النمساوية - المجرية، وكذلك السلام الأوروبي.



ألكسندر؛ ولي العهد الصربي، وملك يوغسلافيا لاحقاً.

كان أصغر نزاع في البلقان سيؤدّي إلى عواقب كارثية نتيجة سلسلة من التحالفات. بدت طموحات صربيا كبيرة بتكوين وطن صربي واسع يضم كل السلافيين. كان إقليم البوسنة والهرسك تحت حكم النمسا - المجر، إنما يضم داخل حدوده عدّة ملايين من السلافيين الذين تأثّروا بازدياد بالدعاية والتحريض الصربيين المتواصلين. بدت روسيا، التي أرادت الحفاظ على منزلتها، سعيدة بالسماح لـ صربيا بالتمادي في طلبها؛ لأن ذلك بات مصدراً مستمراً لعدم الاستقرار ومضرّاً بمكانة النمسا - المجر، التي أرادت أن تكون قوة رئيسة في البلقان. بدا أن كل ظروف نشوب نزاع كبير متوافرة، وضمِنَ التوتّرُ وجودَ تهديد صامت متواصل.

أمسكت روسيا بوضوح بكل الأوراق، ولم يكن عليها إلا دعم طموحات الصرب في إنشاء صربيا الكبرى لإحداث الشرارة التي ستشعل ذلك النزاع. سيطول نزاعٌ بين صربيا والإمبراطورية النمساوية – المجرية ألمانيا أيضاً؛ لأن التحالف يجبرها على تقديم الدعم لها. ستنضم فرنسا، وربما بريطانيا، إلى روسيا إذا اضطر ذلك البلد إلى دخول نزاع مع النمسا – المجر بشأن صربيا. ستشتعل أوروبا كلها لهباً في وقت قصير جداً.

كان هذا تحديداً ما قد تخيّله رجال دولة مختلفون في فرنسا وروسيا حين عقدوا تحالفهم وسعَوا إلى ضم بريطانيا إليهم أيضاً: حرب أوروبيّة ستواجه ألمانيا فيها ثلاثة أعداء معاً. نظراً إلى تفوّقهم على ألمانيا، سيخسر ذلك البلد بالتأكيد مثل تلك الحرب، وستستعيد فرنسا الألزاس– اللورين. ستحظى روسيا بطريقها الخاص إلى البحر المتوسط، وتبقى قوة مؤثّرة في البلقان، وسيتخلّص البريطانيون من منافس هدّد أن يصبح أقوى منهم اقتصادياً وسياسياً. كان ممكناً رؤية حوافز دول الحلف بوضوح.

طبعاً كانت تلك الحرب ستندلع حين يكون الحلفاء مستعدين تماماً لها، وستجعلهم آنذاك



بوتنيك؛ القائد والزعيم الصربي في 1914.



نيكولاس ملك الجبل الأسود الذي انضم إلى روسيا وصربيا في الحرب.

فقط يحقّقون ما يصبون إليه. قدّروا أن ذلك سيستغرق عدّة أعوام، وحدّدوا عام 1917 على الأرجح، وبدا ضرورياً في ذلك الوقت التحكّم بعدم الاستقرار في البلقان قدر المستطاع، والاستعداد للحرب.

نشأ حزب متطرّف جديد في صربيا ليكون منسجماً مع ذلك العصر بأموال وتأييد روسيّين، وقدّم بين أشياء أخرى دعماً لحركات ثورية في النمسا – المجر والبوسنة والهرسك. تأسّست جمعيات ومنظمات أخرى إضافة إلى هذا الحزب بهدف الترويج لفكرة صربيا الكبرى بين السلافيين، وفيها نارودنا أودبرانا الدفاع القومي ويوديني إيلي سمرت أو «الكف الأسود». كانت هذه المجموعة الأخيرة، بقيادة رئيس استخبارات الجيش العقيد ديمتريفيتش، الأكثر خطراً لاعتمادها الإرهاب سلاحاً رئيساً لها. أقسم أفرادها على عهد الولاء والسرّية حتى الموت. أسندت هذه المنظمة تحديداً لنفسها مهمة «تحرير» البوسنة والهرسك، وقد اخترقت في بضعة أعوام كل مجالات الحياة العامة. شَغَل أعضاؤها أعلى المستويات ونجحوا في النهاية في تبوُّؤ كل منصب مهم تقريباً في الجيش، والشرطة، والحكومة.

كانت الرقيب فلورا ساندز امرأة مميزة – خاصة في وقتها. قاتلت مع الجيش الصربي وجُرحت عدّة مرات ومُنحت وسام كارا جورج.



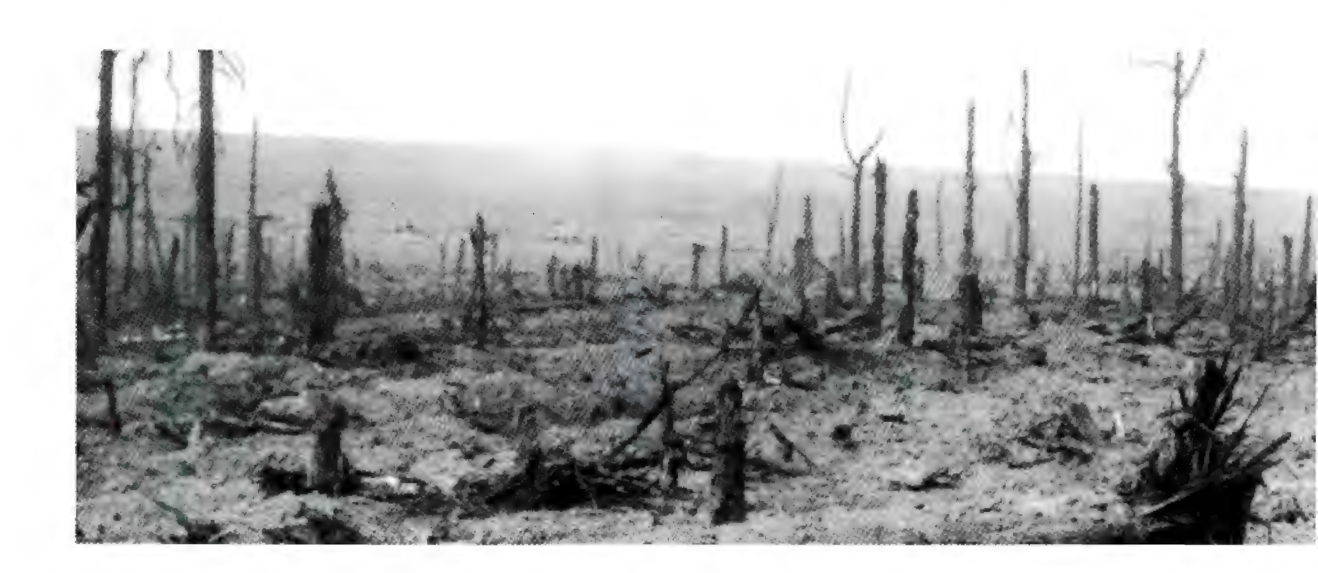
كان منظر العالم سيتغير جذرياً.

وجّهت صربيا علناً آنذاك كل قوتها نحو العدوان، والتحريض، والإرهاب ضد الإمبراطورية النمساوية – المجرية، وقد دعمتها روسيا سراً. وصل عدد الهجمات والأعمال الإرهابية في البوسنة والهرسك إلى مستويات غير مسبوقة، وباتت صربيا تدريجياً تهديداً حقيقياً لذلك العرش. لقد أمسى الوضع متأزّماً إلى أقصى الحدود.

في 1908 قرّر أهرنثال؛ وزير خارجية النمسا – المجر (1906-1912)، فعل شيء بشأن ذلك، وتواصل مع نظيره الروسي أسولسكي وأبلغه أن النمسا – المجر قد قرّرت ضمَّ البوسنة والهرسك حتى يستطيع جيشها فرض النظام فيها. مقابل التعاون الروسي، عرض أن تحصل روسيا على إذن من القوى العظمى بفتح الدردنيل والبوسفور للسفن الحربية الروسية.

قبل أسولسكي العرض، لكن اقترح تنظيم مؤتمر دولي أولاً لمناقشة تلك القضايا. كان قد أرسل توّاً ردّه حين أعلن أهرنثال عن الضم، ودخلت القوات النمساوية – المجرية الإقليم. لم تكن أيٌّ من القوى العظمى الأخرى مهتمة إطلاقاً بمثل ذلك المؤتمر، لذا أسقط في يدي أسولسكي، وحظيت النمسا – المجر بفرصة لفعل ما تريد.

في صربيا رأوا طموحاتهم بإقامة دولتهم الكبرى تتلاشى فجأة، واستشاطوا غضباً وهدّدوا حتى بإشعال حرب. منع تدخّل القوى العظمى نشوب نزاع وأرغمت صربيا على قبول الضم. نتيجة ذلك، عملت روسيا وصربيا آنذاك بتعاون أوثق مع بعضهما، وباتت الكراهية نحو النمساويين – المجريين أكثر وضوحاً. في حربَي البلقان اللتين نشبتا لاحقاً في 1912 و1913 تغيّر الوضع السياسي في المنطقة مجدّداً. تكوّنت كتلة سلافية جعلت صربيا تتوسّع، وتحالفت رومانيا (وإن يكن سراً) مع روسيا وصربيا، في حين قبلت بلغاريا الضعيفة اليدَ الممدودة من النمسا – المجر ووقفت إلى جانبها.





أزمة 1914
التوتر يزداد، وأوروبا تحشد قواتها

موقف الإمبراطورية النمساوية - المجرية وروسيا

كما قد رأينا، لقد ضعف موقف الإمبراطورية النمساوية – المجرية بعد حربَي البلقان. وجدت تلك الدولة نفسها آنذاك تواجه كتلة سلافية معادية لها تهيمن عليها القيادة الروسية، التي فعلت كل ما بوسعها لإيقاظ القومية الصربية، وزيادة التوتّر في البلقان. كان التحريض الصربي قد أزّم الموقف في البوسنة والهرسك، وتتالت هجمات واغتيالات متبادلة على مدار الساعة؛ ما جعل الحكومة البوسنية تعلن أن اتخاذ أشدّ الإجراءات صرامة كفيل وحده بإنقاذ البلاد من الكارثة. بات وضع الإمبراطورية النمساوية – المجرية على أنها قوة عظمى، وسلامة الإمبراطور أيضاً، موضع شك آنذاك، وبدأت الحكومة التفكير في الإجراءات الملائمة، مع قيام القائد العام الجنرال كونارد فون هوتزندورف بالضغط من أجل التعبئة العامة وغزو صربيا؛ لوضع حدّ للنظام الإرهابي هناك. كانت وجهة نظره أنه لا يمكن «تقويم» صربيا إلا بقوة السلاح، وأن الانتظار سيزيد فقط من الدعم الروسي لـصربيا. قال إنهم يجب أن يهاجموا في الحال، خاصة أن روسيا لم تكن مستعدة بعدُ للحرب.

يظهر تحليل هوتزندورف للأمور أن الموقف كان عصيباً جداً. قال إن الإمبراطورية النمساوية – المجرية مهدّدة من الداخل والخارج على حد سواء. نشأت معارضة داخلية من مجموعات عرقية في البوسنة: الصرب الذين أرادوا الانضمامٍ إلى صربيا، والتشيك الذين أرادوا دولة مستقلة، والمسلمون الذين أرادوا أن يكونوا جزءاً من تركيا، والمسيحيون الذين أرادوا البقاء جزءاً من الإمبراطورية النمساوية – المجرية. حدث اضطراب أيضاً في الجزء المجري من ذلك الإقليم.

مقابل: أرشدوق النمسا–المجر فرانز فرديناند مع أسرته. اغتيل في أثناء زيارة إلى البوسنة في 1914.



صورة فريدة للأرشدوق في أثناء مناورات في البوسنة في 27 حزيران/ يونيو 1914، قبل عدّة أيام من اغتياله.

جاءت التهديدات الخارجية من:

جهود روسيا لكسب نفوذٍ في القسطنطينية، ولعب دور رائد في البلقان، ومواجهة خطط ألمانيا في آسيا.

إيطاليا التي أرادت الاستيلاء على أجزاء من الأراضي النمساوية – المجرية على الحدود الإيطالية، وفرض هيمنتها في الأدرياتيكي.

صربيا وجهودها لإنشاء الوطن الصربي الكبير، ولجوؤها إلى تحريض صرب البوسنة والهرسك لتحقيق ذلك.

رومانيا ورغبتها في ضم إقليم الناطقين بالرومانية من الإمبراطورية النمساوية – المجرية.

فرنسا والعدائية العلنية المتزايدة منها تجاه حليفتهم ألمانيا.

رسم فون هوتزندورف بوضوح لوحة كئيبة جداً لـ النمسا – المجر لا يمكن وصفها بالوردية. كانت المشكلات تتراكم، ولا يمكن أن يحلّها إلا رجل دولة حكيم جداً. برز تساؤل عن وجود مثل رجل الدولة ذاك لدى النمساويين – المجريين.


القائد العام النمساوي–المجري، المشير كونراد فون هوتزندورف (1852-1925). حثَّ باستمرار على شن حرب ضد إيطاليا وصربيا. عندما اندلعت الحرب في 1914 لم يكن جيشه مستعداً لها، وتأخر نشر الجنود.

في تلك الأثناء، كانت روسيا تدرك تماماً المشكلات التي تواجه النمسا – المجر؛ لأنها كانت نتيجة مباشرة للسياسات التي قد انتهجتها نحو جارتها.

بعد قيام النمسا – المجر بضم البوسنة والهرسك تغيّر موقف أسولسكي وزير الخارجية الروسي تماماً. شعر أنه خُدع شخصياً بتلك

«الخيانة»، كما وصفها، من أهرنثال، وفعل كل ما بوسعه للحد من الأضرار. في 1909 بدأ مناقشات مع بلغاريا ووقّع اتفاقاً عسكرياً معها، يقول البند الخامس منه: «في ضوء حقيقة إدراكنا الطلبَ المبجّل للشعوب السلافية في دول البلقان، القريب جداً من قلب روسيا، لا يمكن تحقيق ذلك إلا عبر نتيجة إيجابية لحربٍ مع ألمانيا والنمسا – المجر ...». هذا مؤشّر واضح على خطط روسيا المستقبلية.

في تشرين الأول من ذلك العام قرّر أسولسكي عقد معاهدة سرّية إضافية مع إيطاليا، اعترفت فيها كلتا الدولتين بمجال نفوذ الأخرى؛ ما أوهن التحالف الثلاثي. بات بمقدور أسولسكي أن يشعر بالرضا. لقد وضع الأساسات لعوامل إضعاف التحالف الثلاثي وقوّى الموقف الروسي في البلقان. بالنسبة إليه، لم يكن ممكناً تفادي نشوب الحرب الأوروبية المستقبلية، أو «حربه» كما وصفها حين اندلعت. غادر إلى باريس حيث تابع جهوده بوصفه سفيراً روسيّاً هناك في التحضير للحرب.

حلَّ سازونوف محل أسولسكي في منصب وزير الخارجية الروسي. وقد انتهج السياسات نفسها إلى حد كبير. حاول تشكيل رابطة البلقان تحت العباءة الروسية واستطاع تقوية



برينسيب؛ قاتل فرانز فرديناند. مات في السجن نتيجة مرض السل.


اثنان من المتآمرين، كابرينوفيك وغرابيز، اللذان خطّطا لاغتيال فرانز فرديناند.

العلاقات بين صربيا وبلغاريا. كان أيضاً خلف التحالف بين صربيا والجبل الأسود الذي قوّى رابطة البلقان. أدّت حربا البلقان إلى فرط عقد هذه الرابطة حين تواجهت صربيا وبلغاريا، وغزا البلغاريون الصرب بنحو غير متوقّع. تعرّضت قواتهم إلى هزيمة شائنة ما جعل بلغاريا الضعيفة تدير ظهرها لـ روسيا وتقبل شاكرة اليد الممدودة من النمساويين – المجريين. لكن النمسا – المجر لم تحقّق الكثير من هذا؛ لأن بلغاريا ضعفت تماماً، وخرجت تقريباً من الصراع. نجح سازونوف فعلاً في إخراج الرومانيين – الذين ساعدوا الصرب ضد البلغاريين – من التحالف الثلاثي. عقدت رومانيا سراً معاهدة عسكرية وسياسية مع النمسا – المجر في 1883، لكن عندما نشبت الحرب في 1914 أعلنت رومانيا الحياد، لتنضم لاحقاً إلى الحلف الثلاثي. عمل سازونوف أيضاً على قضايا البحرية. إضافة إلى المعاهدة العسكرية القائمة، عقدت روسيا آنذاك اتفاقاً بحرياً مع الفرنسيين في 16 تموز/ يوليو 1912، تضمّن إعادة نشر أسطول كلا البلدين.

في تلك الأثناء، اندلعت أعمال شغب ضمن البوسنة والهرسك على نطاق واسع مرة أخرى، وأعلنت الحكومة البوسنية أنه لا يمكن تفادي الكارثة آنذاك إلا بتدخّل عسكري مباشر. في ظل تلك الخلفية قام وريث العرش النمساوي – المجري؛ الأرشدوق فرانز فرديناند وزوجته صوفي بزيارة رسمية دامت عدّة أيام إلى البوسنة والهرسك في 25 حزيران/ يونيو 1914؛ لمشاهدة مناورات سنوية. أشعلت تلك الزيارة الفتيل الذي فجّر البارود في البلقان، وستحصد الحرب التي اندلعت بسبب ذلك حياة ثلاثين مليون إنسان.

الاغتيال في سراييفو والعواقب المدمّرة على السلم العالمي

اغتيل الأرشدوق فرانز فرديناند، وريث العرش النمساوي – المجري، وزوجته صوفي، في أثناء جولة بالعربة في أرجاء سراييفو في 28 حزيران/ يونيو 1914. مَن الذين قاموا بالاغتيال، وماذا كانت دوافعهم؟

بدأ ذلك الحدث، الشرارة التي أشعلت الحرب العالمية الأولى، في قرية ساباك على نهر سافا. وصل ثلاثة طلاب بوسنيين شبان، هم برينسيب، وغرابيز، وكابرينوفيك إلى ميناء البلدة الصغير على متن مركب من بلغراد في صباح 28 أيار/ مايو 1914 حيث اتصلوا مع بوبوفيتش؛ عضو المجموعة الصربية السرّية المسمّاة «الكف الأسود»، التنظيم الإرهابي الذي سعى إلى توحيد البوسنة والهرسك مع صربيا. كانت «الكف الأسود» التنظيم الرئيس خلف أعمال إرهابية وحالات شغب في البوسنة، وقد أقسم أعضاؤها سراً على الصمت حتى الموت. كان التنظيم متأصلاً آنذاك مع وجود أعضاء في أعلى المراتب السياسية والعسكرية، بقيادة العقيد الصربي ديمتريفيتش من جهاز الاستخبارات الذي اشترك سابقاً في التخطيط لاغتيال الزوجين الملكيين الصربيين.



دام حكم فرانز جوزيف؛ إمبراطور النمسا–المجر (1830-1916)، 68 عاماً متواصلة. عارض الحرب مع صربيا، وقد أصدر على مضض الأمر بالتعبئة العامة.

واجه الطلاب الثلاثة مشكلة نتيجة شغبهم ونشاطاتهم المعادية للنمسا – المجر، وهربوا إلى صربيا لتفادي الاعتقال. برغم دخولهم غير الشرعي إلا أنهم لم يواجهوا صعوبات جمّة في صربيا، وانضموا مجدداً بسرعة إلى مجموعات فوضوية هناك. عندما انتشر نبأ زيارة الأرشدوق في بلغراد، رأوا في ذلك فرصة لا تُعوّض لإثبات ولائهم لوطن أجدادهم وضرب الإمبراطورية النمساوية – المجرية التي يكرهونها. وُلدت خطة اغتيال فرانز فرديناند، وبدأ العمل لتنفيذها.



الأرشدوق فرانز فرديناند وزوجته صوفي يصلان إلى دار البلدية في سراييفو.

تواصل هؤلاء بسرعة مع الرائد يانكوفيتش؛ الساعد الأيمن للعقيد ديمتريفيتش، الذي زوّدهم بأسلحة وذخيرة وتوثّق من تدربيهم على استخدامها. رتّب لهم عبور الحدود إلى البوسنة من دون صعوبات، وجعلهم يتواصلون مع بوبوفيتش الذي تلقى أمراً بمساعدتهم.

من جانبه، زوّدهم بوبوفيتش برسالة توصية إلى مدير الجمارك عند أقرب نقطة حدودية من لوزنيكا، المدعو برفانوفيتش والعضو أيضاً في الكف الأسود، الذي ساعدهم في عبور الحدود مع البوسنة عبر توزلا. وصل الطلاب الثلاثة إلى سراييفو في 6 حزيران/ يونيو، حيث أقاموا مع أسرهم. التقى برينسيب صديقه إيليك؛ الثائر أيضاً، وكشف له خطة اغتيال الأرشدوق. في

أثناء الأسابيع التالية، ناقش المتآمرون الاغتيال، مع الأخذ بالحسبان سلسلة من السيناريوهات المختلفة.

نُشر برنامج الزيارة في الصحف في 27 حزيران/ يونيو، قبل يوم فقط من وصول الأرشدوق. توسّع الفريق في ذلك الوقت، بانضمام ثلاثة رجال آخرين والتقوا جميعاً في أماكن مختلفة. بعد أن بات البرنامج معروفاً قرّروا التربّص في الطريق، وانتهاز فرصة سانحة لاستعمال أسلحتهم. حلَّ اليوم التالي، الموافق الأحد 28 حزيران/ يونيو 1914، ووصل فرانز فرديناند إلى سراييفو في الصباح على متن قطار، ونُقل بسيارة إلى دار البلدية لاستقباله هناك. ازدحم الجمهور على الطريق وبينهم المتآمرون الستة الذين وقفوا بعيدين عن بعضهم. إضافة إلى أسلحتهم، كان بحوزة كلٍ منهم قارورة صغيرة من سيانيد البوتاسيوم تحسّباً لفشل محاولة الاغتيال، والقبض عليهم.



الأرشدوق فرانز فرديناند وزوجته يغادران دار البلدية للشروع في رحلتهما الأخيرة.

تجاوز الموكب كابرينوفيك الذي نزع مسمار قنبلة يدوية من دون تردّد ورماها في اتجاه فرانز فرديناند. نزلت القنبلة على الغطاء المطوي وتدحرجت عن السيارة قبل أن تنفجر في الشارع. زاد سائق سيارة فرانز فرديناند السرعة فوراً، وحاول كابرينوفيك ابتلاع السيانيد، لكنه أوقع القارورة التي أُريقت محتوياتها. هرب من المكان وقفز إلى النهر حيث قُبض عليه واعتُقل لاحقاً.

نظر فرانز فرديناند إلى الخلف، ورأى أن السيارة التي تلحق به قد توقفت بعد أن جُرح ركابها، لكن سائقه زاد السرعة فوراً، متجاوزاً برينسيب وغرابيز اللذين أصبحا بعيدين جداً، و لم يعد بمقدورهما فعل شيء. لقد فشلت المحاولة، وقرّر فرانز فرديناند مواصلة برنامجه كما حُدّد سابقاً. بعد زيارة قصيرة إلى دار البلدية، عاد وزوجته إلى السيارة ليتجها إلى المستشفى العسكري ويزورا الجرحى. تجاوزت سيارته آنذاك البقعة التي كان برينسيب لا يزال موجوداً فيها، فشهر مسدسه وأطلق عدّة أعيرة نارية تجاه الأرشدوق وزوجته. أصابت الرصاصات الهدف وتوفيت صوفي فوراً تقريباً، وتبعها فرانز فرديناند بعد وقت قصير. اعتُقل كل المتآمرين، لكن بعد أن حقّقوا مرادهم.

أشعل اغتيال فرانز فرديناند العالم، واختفت إمبراطوريات وممالك، وفقد ملايين حياتهم في صراع دام أربعة أعوام، ومهّد الطريق لنزاع أشدَّ خطورة بات يُعرف باسم الحرب العالمية الثانية.

ردّ فعل القوى العظمى، وتأخّر تعبئة الجيش النمساوي المجري

أحدث اغتيال وريث العرش النمساوي – المجري صدمة كبيرة في كل أرجاء العالم، ولو أن الجيش النمساوي – المجري قد غزا صربيا في تلك اللحظة، لما اعترضت أيٌّ من القوى الرئيسة، إنما لم ينفّذ أي هجوم.

يبدو أن قوات النمسا – المجر لم تكن جاهزة

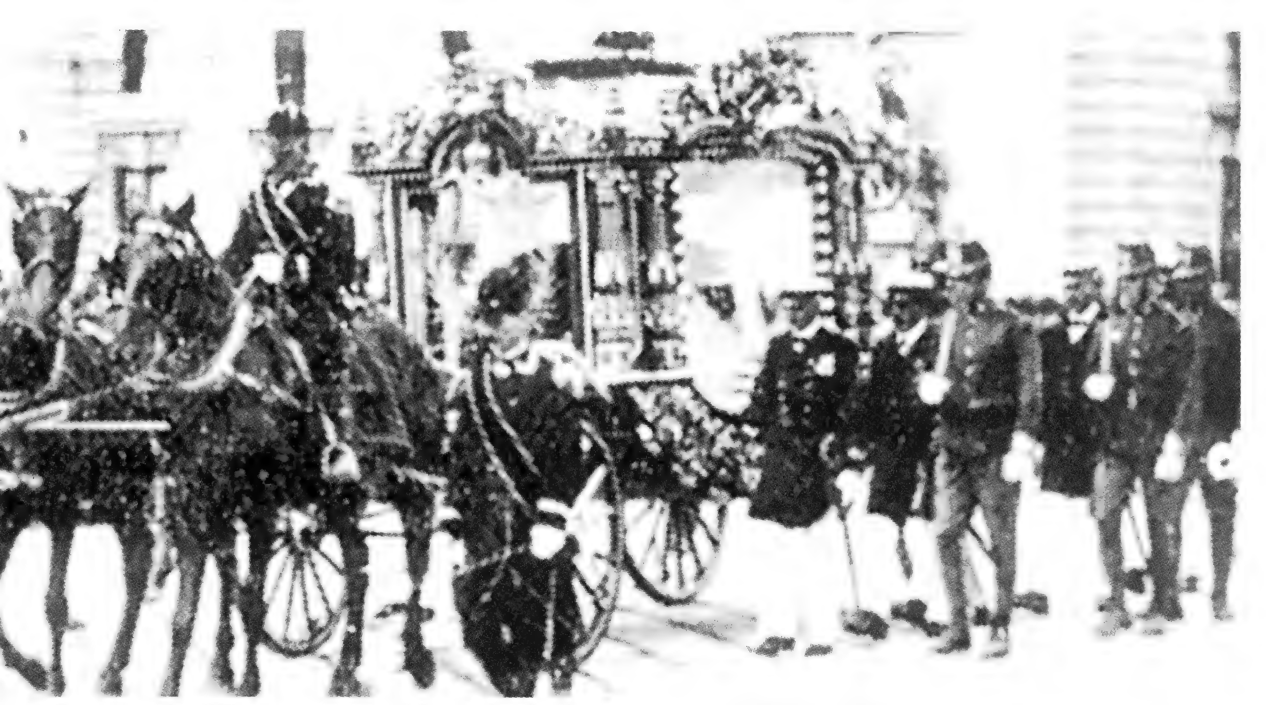


برينسيب، الذي أطلق الأعيرة القاتلة.

إطلاقاً للمعركة. برغم تبادل أطراف الحديث عن حرب استباقية طوال أعوام، إلا أنهم لم يكونوا في موقف يستطيعون فيه الرد مباشرة، حين حانت اللحظة الملائمة. فشلت النمسا – المجر تماماً وأهدرت فرصة فريدة لتحقيق أهدافها الخاصة بصربيا من دون الاستفادة منها. بدلاً من ذلك، بدأت عملية مناقشات، ومشاورات سياسية، واجتماعات وزارية لا تنتهي. بالمختصر، نشاطٌ كبيرٌ وقف عائقاً على طريق فرض حل سريع.

منح هذا التأخير العالم وقتاً ليتعافى من الصدمة الأوّلية، وظهرت الكراهية القديمة نحو النمساويين – المجريين مجدّداً، وانتقلت المبادرة إلى خصومهم. بعد يوم من الاغتيال، طلب الجنرال فون هوتزندورف التعبئة العامة، لكن الإمبراطور رفض ذلك، ودوّن القائد العام في مفكرته أن الإرادة السياسية الضرورية غير موجودة، للقيام بالعمل الصائب الوحيد، سواء في بلاده أو في ألمانيا. أراد وزير الخارجية برتشتولد القيام بشيء فوراً أيضاً، إنما واجه اعتراضاً من رئيس الوزراء المجري تيسا، الذي أراد أولاً رؤية دليل على تواطؤ الحكومة الصربية في الاغتيال. ظنَّ أيضاً أن توقيت الحرب مع صربيا غير ملائم إطلاقاً؛ لأنه خشي ألا تلتزم إيطاليا ورومانيا بتعهّداتهما المنصوص عليها في المعاهدة معهما، ولم يكن التحالف مع بلغاريا قد بات رسمياً بعد. من ثمَّ، جادل أنه من الضروري أولاً، التوثّق من دعم ألمانيا لهم في أي عمل ضد صربيا.

استنتج وزير الخارجية برتشتولد أن السياسة الخارجية الحذرة التي انتهجها لم تكن مثمرة



موكب جنازة الزوجين الملكيين في تريستي في آب/ أغسطس 1914.

أو مفيدة. لقد عارض باستمرار القائد العام حين دعا إلى شن حرب وقائية. في أثناء كلتا حربَي البلقان، بقي برتشتولد محايداً، ما منح الصرب والروس حرية إجراء تغييرات كثيرة، و لم يعد أحد يأخذ النمسا – المجر على محمل الجد، أو يصدّق باستمرارها على أنها قوة رئيسة. خشي برتشتولد من أن تكون دولته الآتية على اللائحة بعد غياب تركيا تقريباً عن أوروبا. ازداد هذا الخوف بعد اغتيال وريث العرش النمساوي – المجري، ما جعله يستنتج آنذاك أنه من الضروري خلع النظام الصربي؛ لأنه المصدر الرئيس للمكائد ضد النمسا – المجر.

لم يكن برتشتولد وحده من تبنّى وجهة النظر تلك، فقد توصّل فرانز جوزيف؛ الإمبراطور العجوز المحبّ للسلام إلى الاستنتاج ذاته، برغم توكيده المتواصل توخّيَ أقصى درجات الحذر. كتب الإمبراطور إلى حليفه القيصر الألماني فيلهلم الثاني معبّراً عن رأيه بأنه لم يعد ممكناً السكوت على الوضع. اتهم الصرب بالقيام بنشاطات في محاولة لتوحيد كل أفراد شعبهم، ما سيقود بالتأكيد إلى نزاع مع بلاده، وأن صربيا أضحت مصدر تهديد مستمر للملكية. أنهى كتابه بتقديم طلب رسمي للحصول على مساعدة ألمانيا في الحرب القادمة، وأرسل وفداً إلى برلين بقيادة الكونت هويوس لتعزيز الطلب.

تفويض مطلق من ألمانيا

استقبل القيصر فيلهلم الثاني الكونت هويوس في 5 تموز/ يوليو، وأخبره أن ألمانيا لن تتخلّى عن حليفها، ووجّهه لإجراء محادثات مع المستشار الألماني. أكّد الحاجةَ إلى القيام بشيء بسرعة؛



لأن العالم يشعر بالرعب من الاغتيال المروّع ويتعاطف مع الدولة النمساوية – المجرية. قال أيضاً إنه واثق أن روسيا لن تتدخّل؛ لأنها ليست مستعدة إطلاقاً للحرب. أكّد المستشار الألماني في رسالة مؤرّخة 6 تموز/ يوليو أن ألمانيا مقتنعة بالخطر الذي تواجهه حليفتها، وتقف خلفها وتؤيّدها. حثَّ المستشار أيضاً على اتخاذ إجراء بسرعة. وُصفت هذه الرسالة لاحقاً بأنها «تفويض مطلق» من ألمانيا لـ النمساويين – المجريين.



برتشتولد؛ رئيس الوزراء النمساوي – المجري. اتخذ قرار إعلان الحرب على صربيا حتى إذا أدّى ذلك إلى اندلاع نزاع أوسع نطاقاً.

في فيينا، عدّوا رحلة الوفد إلى ألمانيا ناجحة جداً، وأبلغ برتشتولد اجتماعاً لمجلس الوزراء في 7 تموز/ يوليو بالدعم الألماني. اقترح أن يدخلوا صربيا آنذاك، برغم وجود خطر تدخّل روسي، وأضاف: «لكن روسيا فعلت كل ما بوسعها لتوحيد البلقان لتستخدم هذا لاحقاً ضد العرش الثنائي النمساوي – المجري». كانت الحرب محتّمة، كما قال، والأوضاع ستزداد سوءاً. عارض رئيس الوزراء المجري مرة أخرى ذلك، وطالب ألا يجري ضم أي أراضٍ صربية، في حال نشوب الحرب. انتهى الاجتماعُ من دونِ اتخاذ قرار حاسم.

حثَّ برتشتولد الإمبراطور على إصدار إنذار نهائي للحكومة الصربية، لكن الأخير رفض؛ لأنه عدَّ أن الوسائل الدبلوماسية لم تُستنفد بعد، مع عدم وجود دليل قاطع على تورّط الحكومة الصربية. لم يستسلم برتشتولد وصمّم على إصدار الإنذار بنفسه، وأبلغ السفير الألماني شفهياً بالمطالب التي يقترح تقديمها إلى الصرب، من ثمَّ أرسل دبلوماسياً رفيع المستوى إلى صربيا للتوثّق من الأمور، والبحث عن دليل على التواطؤ الصربي في المؤامرة.

في تلك الأثناء، ازداد التوتّر داخل النمسا – المجر بسرعة، وعملت الصحافة خاصة، على زيادة التحريض، ونشرت مقابلة أجراها صحافي بلغاري مع السفير الروسي في بلغراد، أعلن فيها الأخير أنه إذا وضعت صربيا يديها على البوسنة والهرسك، فإن بلغاريا يمكن أن تحصل على مقدونيا. كان لذلك المقال تأثير كبير على تيسا، الذي بدأ نتيجة الضغط المتزايد عليه يتخلّى ببطء، إنما بثبات، عن موقفه الصارم.



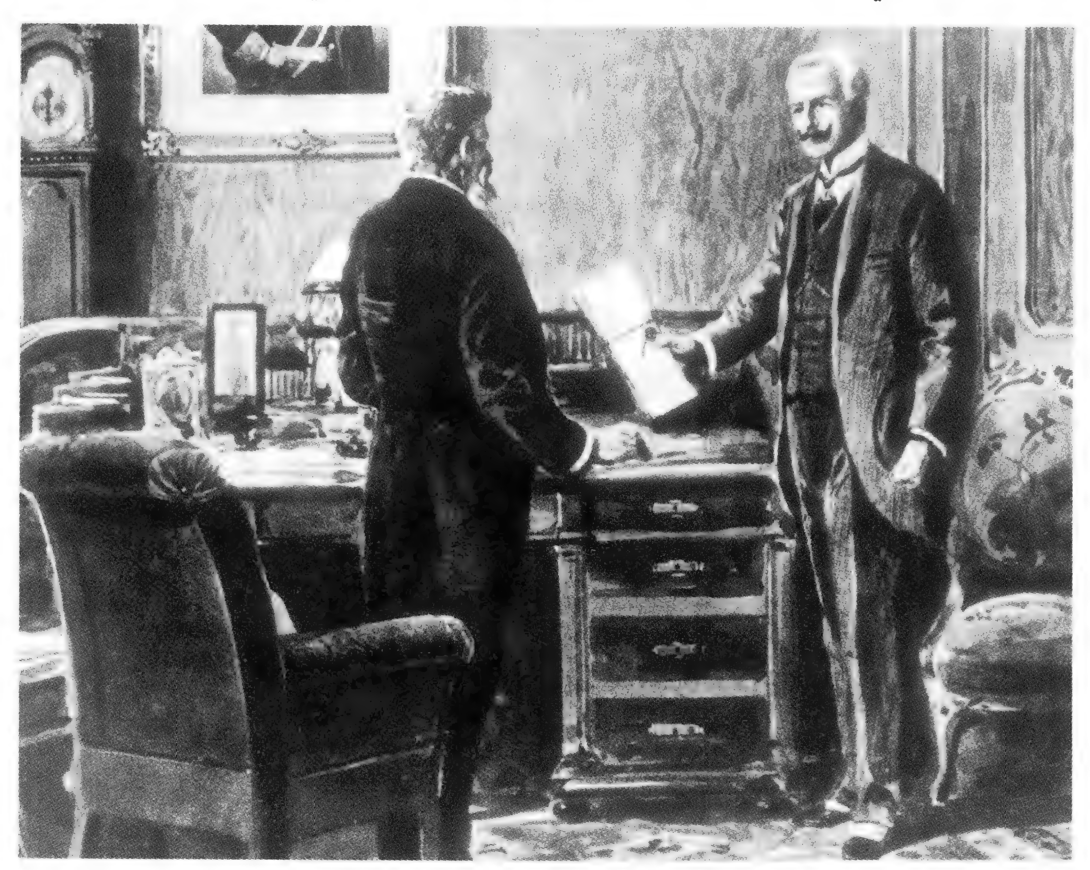
الإمبراطور العجوز فرانز جوزيف في حفل استقبال في فيينا.

دعا برتشتولد إلى اجتماع آخر لمجلس الوزراء في 14 تموز/ يوليو، وفي تلك المرة وافق تيسا على إعلان الحرب ضد صربيا بشروط معينة. حافظ على مطالبه بألا يجري ضم أي أراضٍ صربيّةٍ لإبطال أي عذر لتدخل روسيا.

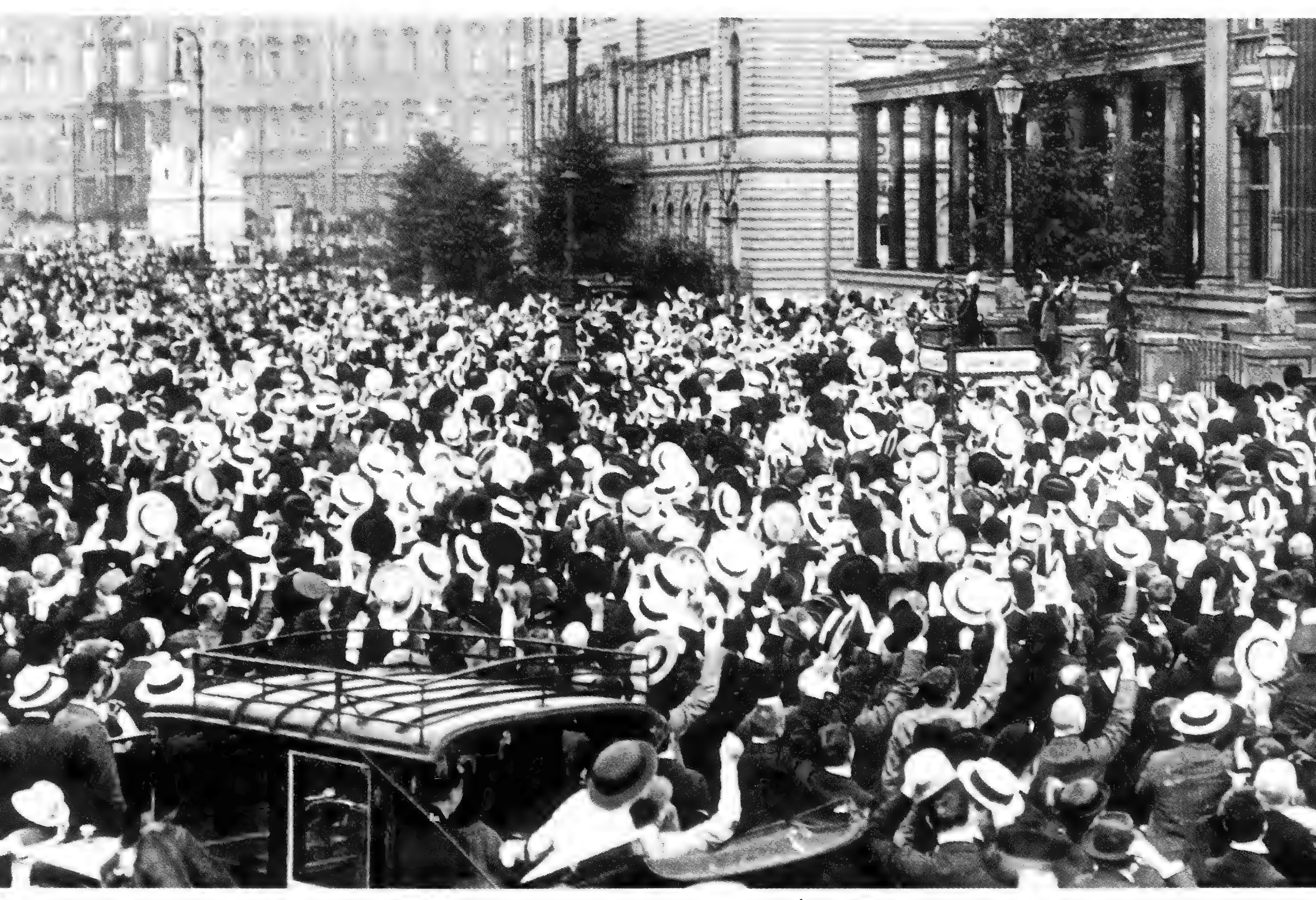
الإنذار النهائي من فيينا

قرّر المجتمعون بالإجماع إصدار إنذار نهائي إلى صربيا. كانت موافقة تيسا حاسمة، وقد فعل حتى ذلك الوقت كل شيء ممكن لمنع نشوب حرب. تدل حقيقة موافقته أخيراً، بعد أن عارض الأمر طويلاً برغم الضغط الملقى على عاتقه، إلى أن النمسا – المجر لم تقرّر شنَّ حرب على صربيا بطريقة متعجرفة، أو من دون تفكير متأنّ. غيّر كل من الإمبراطور وتيسا رأيهما في اللحظة الأخيرة، إنما ليس قبل أن يقتنع كلاهما بضرورة مثل ذلك القرار. بالنسبة إليهما، كان الخيار بين مملكتهما الثنائية أو الحرب، وذلك لم يكن أمراً سهلاً.

بات النص النهائي للإنذار النمساوي – المجري إلى صربيا جاهزاً في 19 تموز/ يوليو، وتضمّن



سلّم السفير النمساوي–المجري أخيراً الإنذار النهائي في بلغراد، الذي أدّى إلى نشوب الحرب الكبرى في 23 تموز/ يوليو 1914.



حشد متحمّس لدى اندلاع الحرب في شارع «تحت أشجار الزيزفون».

مطالب شديدة القسوة، توقّع الجميع أن ترفضها تلك الدولة. كانت إحدى البنود تنص على تمتّع الدولة النمساوية – المجرية بحق إجراء تحقيقٍ خاص بها على التراب الصربي. لم يكن ممكناً أن تقبل أي دولة مستقلة تحترم نفسها بمثل ذلك الطلب. لم تكن هناك ثقة أبداً بالتعهّدات الصربية. وبدا أن الإنذار يجعل الحرب محتّمة. سُلّمت الرسالة التي تضم الإنذار إلى الصرب أخيراً عند الساعة 6 صباحاً في 23 تموز/ يوليو 1914. كما كان متوقّعاً، رُفض الإنذار، ووقّع الإمبراطور فرانز جوزيف أمر إجراء تعبئة محدودة في 25 تموز/ يوليو، وتبع ذلك إعلان الحرب ضد صربيا في 28 تموز/ يوليو. جرى أول عمل بسرعة كبيرة، وأطلق أسطول صغير من زوارق حربية النار على العاصمة الصربية بلغراد، ما أحدث أضراراً جسيمة. لكن تلك كانت أيضاً أولى الأعيرة النارية في الحرب الكبرى التي ستدوم أربعة أعوام، وتزهق حياة ملايين البشر.

القوى العظمى تعلن التعبئة

ألمانيا تحشد

عندما عرف السفير الألماني بنص الإنذار النهائي إلى صربيا، نقله فوراً إلى برلين. وصف وزير الخارجية الألماني ياغو الإنذار بأنه «قاس جداً» واشتكى أن الوقت قد فات آنذاك لـ «التعبير عن رأي بشأن الأمر». أعلن أيضاً أن فيينا قد دمّرت جسورها بذلك الإنذار، لكن لم ينأَ بنفسه عنهم. في 27 تموز/ يوليو أرسل برقية إلى برتشتولد يحذّره فيها من وجود مقترحات توسّط ستصل إليه غالباً، عبر برلين، في الأيام القادمة، وألا يشغل نفسه بها؛ لأن ألمانيا سترسلها لتفادي نزاع مع بريطانيا العظمى في تلك المرحلة. في 28 تموز/ يوليو، نصح ياغو برتشتولد بإجراء محادثات مباشرة مع روسيا، لكن الأخير تجاهل ذلك، وأثار في اليوم التالي غضب المستشار الألماني الذي أعلن أن ألمانيا مستعدة طبعاً لدعم حليفها، إنما لا تريد التورّط في حرب إذا كان النمساويون – المجريون متعجرفين جداً، أو لم يستمعوا إلى نصيحته.



وداع الجنود الألمان المتجهين إلى الجبهة من أسرهم وفرقة موسيقية عسكرية.



فرسان روس في طريقهم إلى الجبهة.

مصدوماً، أمر برتشتولد سفيره بإجراء مباحثات مع وزير الخارجية الروسي، لكن تبيّن أن الوقت قد فات. كتب القائد العام الألماني فون مولتكه إلى نظيره الجنرال كونرا فون هوتزندورف في ذلك اليوم نفسه يحثّه على عدم تأخير التعبئة؛ لأنها الفرصة الوحيدة لنجاة دولة النمسا – المجر، ووعد أن تشارك ألمانيا في الحرب من دون أي تحفّظات. وقّع الإمبراطور فرانز جوزيف أمر التعبئة العامّة في 31 تموز/ يوليو عند 12:33، وضمّنه أمر الحرب ضد روسيا، إنما لم يجرِ تنفيذه حتى 4 آب/ أغسطس. كانت روسيا قد أعلنت في ذلك الوقت تعبئة عامة في 30 تموز، ما أبطل خيار إعلان تعبئة نمساوية – مجرية محدودة ضد صربيا فقط. سبقت التعبئة الروسية تلك التي أجرتها النمسا – المجر ما جعل ألمانيا تعلن وجود «خطر وشيك بالحرب» وتصدر إنذاراً إلى روسيا لإيقاف حشد قواتها في اثنتي عشرة ساعة، أو خوض حرب وفقاً لأعراف ذلك الوقت. لقد حوّلت التعبئة الروسية نزاعاً محدوداً بين النمسا – المجر وصربيا إلى حرب عالمية شاركت فيها فرنسا، وبريطانيا العظمى، وألمانيا أيضاً نتيجة التحالفات بين تلك الأطراف.

روسيا تحشد

برغم أن التعبئة العامة الروسيّة قد حوّلت نزاعاً إقليمياً إلى حرب عالمية، إلا أنه لا يمكن الإنكار أن وزير الخارجية الروسي قد حذّر الحكومة النمساوية – المجرية في 22 تموز/ يوليو من مغبّة القيام بأي فعل ضد صربيا، وإلا ستكون العواقب كارثية.

غادر الرئيس الفرنسي بونكاريه، الذي كان يقوم بزيارة دولة، المياهَ الروسية عائداً إلى بلاده في 23 تموز/ يوليو. بعد عدّة ساعات من مغادرته سُلّم الإنذار النمساوي – المجري في بلغراد. إذاً لقد اختير التوقيت بعناية لمنع مناقشة القضية بين الرئيس الفرنسي والروس، إلا أن ذلك لم يؤدِ إلى النتيجة المرجوة. كان الرئيس الفرنسي قد منح الروس «تفويضاً مطلقاً» أيضاً بتوكيده الحاسم أنه سيدعم روسيا ويفي بالتزامات المعاهدة معها.

أصبح نبأ الإنذار النهائي إلى صربيا معروفاً في كل أرجاء العالم في 24 تموز/ يوليو. يقال إن سازونوف قد صرخ أن ذلك يعني «الحرب الأوروبية» حين علم بالأمر. دعا فوراً إلى اجتماع مجلس الوزراء، وطلب من وزير المالية سحب الودائع الحكومية الروسية من مصارف في ألمانيا. قرّر مجلس الوزراء في البداية تعبئة جزئية في أربعة أقاليم؛ لأن العاهل الروسي قد اعترض على التعبئة العامة.

في أثناء الأيام التالية ازداد الضغط على القيصر الروسي، الذي وافق على الأمر في نهاية المطاف. دخلت التعبئة العامة حيّز التنفيذ في 30 تموز/ يوليو، وقد ترك ذلك القرار دمغته على مصير العالم بأسره. أرغم هذا الإجراء كلاً من ألمانيا والنمسا – المجر على الردّ بالمثل. كانت المعاهدة الفرانكو – الروسية والاتفاقيات في ذلك الوقت، تعني أن تعبئة عامة هي إعلان حرب، وهذا ما جرى فعلاً.

مليون متطوّع في بريطانيا العظمى

ألقى إدوارد غراي، وزير الخارجية البريطاني، خطابه الشهير الخاص بإعلان الحرب في مجلس العموم في 3 آب/ أغسطس 1914 بعد الغزو الألماني لـ بلجيكا. أصرَّ غراي على أن البريطانيين ملزمون بموجب المعاهدة على مساعدة البلجيكيين، ولا يمكنهم السماح لألمانيا بمحوِ تلك الدولة «الصغيرة والشجاعة» من الخريطة.

لم يكن الزعم بوجوب قيام بريطانيا بمساعدة بلجيكا بموجب تلك المعاهدة صحيحاً في



رجال يُظهرون حماسهم في بريطانيا أيضاً. يظهر مكتب تجنيد للجيش في الصورة. تطّوع نحو مليون شخص للخدمة العسكرية.

الواقع، إذ لم يكن مثل هذا الالتزام موجوداً في بنود الاتفاقية. لقد وعد الموقّعون كلٌّ على حدة بعدم السماح بتهديد حياد بلجيكا، إنما لا يوجد بند ينص على استخدام السلاح في حالِ انتهاك ذلك الحياد. أصرَّ اللورد لوربورن؛ وزير العدل السابق، أن عليه إبلاغ مجلس اللوردات – من أجل التوثيق التاريخي – أن المملكة ليست ملزمة بالتدخّل، سواء وفقاً لبنود معاهدة 1839 أو أي اتفاقية أخرى؛ لأن بريطانيا العظمى، والنمسا، وروسيا، وهولندا قد عقدت ببساطة اتفاقاً عُدّت بلجيكا بموجبه دولة محايدة دائماً. لقد التزمت بريطانيا إلى جانب الآخرين بعدم انتهاك حياد بلجيكا، إنما لم توافق على الدفاع عنها إذا انسحبت دولة أخرى من هذا الاتفاق. مضى غراي قدماً؛ كأن ذلك الالتزام موجود فعلاً، واستخدمه حجة أمام الشعب البريطاني ليؤكّد أن البلاد لديها المبرّر الأخلاقي والقانوني لخوض الحرب. أصرَّ على أن

فشل بريطانيا في الوفاء بالتزاماتها (غير الموجودة) بموجب تلك المعاهدة سيكون كارثياً، وأنها حرب فاضلة ومبرّرة لإنقاذ بلد صغير وأعزل، وحرب تهدّد كل المعايير الحضارية الأوروبية. كانت تلك الحجة أكثر من غيرها، هي التي أثارت مشاعر الشعب البريطاني وجعلتهم يقفون صفاً واحداً خلف قادتهم. لم يجرِ التشكيك بمصداقية غراي أبداً. بالمحصلة، لقد فعل كل ما بوسعه للحفاظ على السلام حين تدهور الوضع في أوروبا بسرعة، وقدّم عدداً من المقترحات لإجراء محادثات، إلا أن ألمانيا رفضتها كلها.

لا يزال كثير من المؤرخين يدافعون عن وجهة النظر هذه، لكن الواضح الآن أن غراي قدّم معظم عروض المباحثات بعد 25 تموز/ يوليو؛ اليوم الذي قرّرت روسيا فيه حشد قواتها. كان غراي يدرك أن التعبئة في تلك الأيام تعني الحرب، وقد نصحه كبار موظفي وزارة الخارجية في مذكّرة، في ذلك اليوم تحديداً، أن الأوان قد فات لمحاولة ممارسة ضغط على روسيا عبر الفرنسيين لتعديل موقفهم فيما يخص النزاع بين صربيا والنمسا – المجر؛ لأنه بدا واضحاً أن كلاً من روسيا وفرنسا قد قرّرتا المخاطرة بالمشاركة في نزاع أوسع نطاقاً. أشارت تلك المذكّرة



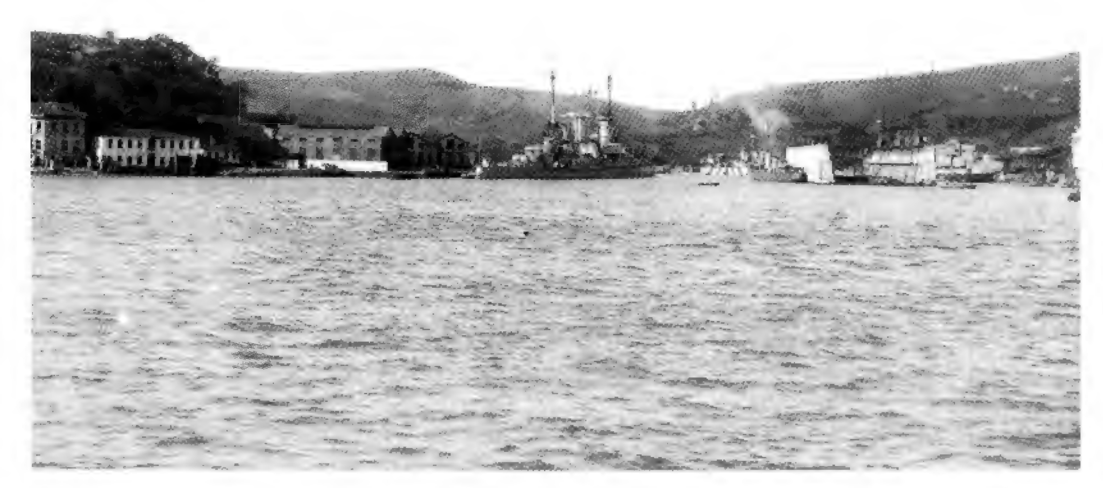
طليعة الجنود البريطانيين تغادر ثكناتها لتنتقل إلى فرنسا. الكتيبة الأولى من الحرس الأيرلندي، آب/ أغسطس 1914.

إلى أنه سيكون من الخطر على بريطانيا أن تحاول تغيير ذلك القرار، وأنه سيكون من الأفضل للمصالح البريطانية أن تقف إلى جانب روسيا وفرنسا في الحرب القادمة.

يطرح تفكيرٌ إضافي أسئلة عن مقترحات غراي بإجراء محادثات، ويبدو الآن أنه كان يلعب على الوقت كما فعلت فرنسا وروسيا أيضاً. لم يكن البرلمان أو الشعب البريطانيان مهتمين بالحرب في الواقع، وعندما تسرّب نبأ في 1912 أن غراي قد سمح بإجراء محادثات عسكرية سرّية مع فرنسا طوال أعوام من دون معرفة البرلمان أو معظم أعضاء مجلس الوزراء، ظهرت معارضة قوية لوزير الخارجية. هدّد عدّة وزراء بتقديم استقالاتهم إذا لم يسلّط الضوء على تصرفاته، وأُرغم على إبلاغ الفرنسيين أن المحادثات الجارية آنذاك تبقى من دون التزامات من جانب بريطانيا. بعد ذلك بات غراي أكثر حرصاً، ولم يوقع اتفاقاً واحداً أو يحتفظ بسجلات مكتوبة عن مثل تلك القضايا، برغم استمرار المباحثات من دون انقطاع، التي ألزمت بريطانيا العظمى أخلاقياً بالمسار الذي اختاره الفرنسيون. في كتابه أصول الحرب في 1914، كتب المؤرخ الشهير ألبرتيني أن غراي قد أدرك بالتأكيد، من دون أي شكوك، أنه قد وضع بريطانيا العظمى في موقف مريب عبر المحادثات البريطانية – الفرنسية، وبنحو غير مباشر عبر المباحثات البريطانية – الروسية. طرح أيضاً سؤالاً عمّا إذا كان ممكناً القول فعلاً إن غراي قد فعل كل ما بوسعه لمنع الخطوة المدمّرة التي قادت إلى الحرب. أجاب عن السؤال بالنفي وقال إنه لا يمكن تبرئة غراي على هذا الأساس.



مجلس وزراء الحرب البريطاني.

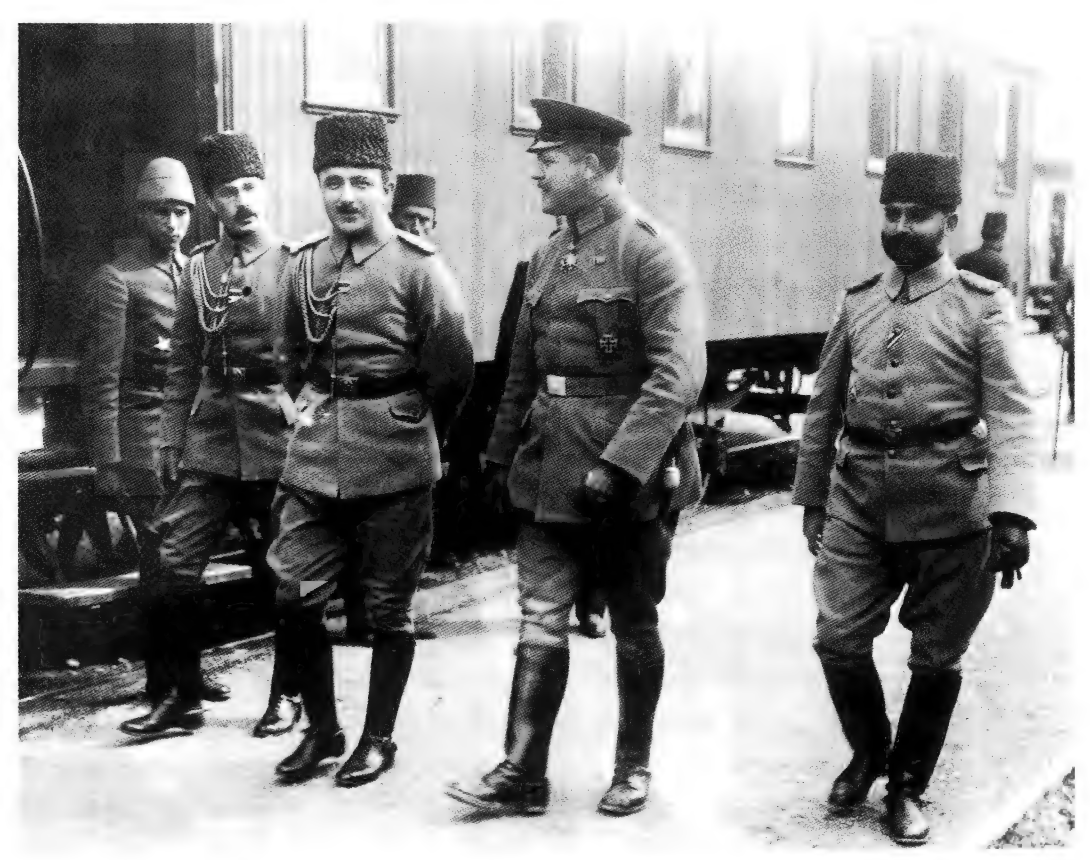


السفينة الحربية الألمانية جوبن – بمرافقة برسلاو – تدخل البوسفور وترسو قبالة إسطنبول.

بعد خطاب غراي في مجلس العموم، بدأ البريطانيون التعبئة وأرسلوا في أربعة عشر يوماً جنوداً إلى القارة حيث كان كل شيء جاهزاً لنقلهم إلى الأماكن المحدّدة لهم. في تلك الأثناء، نظّم اللورد كيتشنر؛ وزير الحرب المعيّن حديثاً، حملة ضخمة لتجنيد متطوعين؛ لأنه تصوّر، بخلاف آخرين، أن الحرب ستدوم عاماً كاملاً وسينتج عنها إصابات كثيرة، لذا أراد تعزيز القوات المسلحة بمليون شخص. كان الحماس بين الجماهير كبيراً، وسرعان ما ارتدى مليون متطوّع الزي الرسمي. سيموت كثير من هؤلاء في معركة السوم، ما أرغم بريطانيا العظمى على اعتماد الخدمة العسكرية الإلزامية، لتوفير القوى البشرية التي تحتاج إليها.

فرنسا تحشد

يعدُّ دور الرئيس الفرنسي بونكاريه في نشوب الحرب العالمية الأولى محوَرياً. يبدو هذا جلياً في مصادر متعدّدة مثل الرسالة التي بعثها السفير الروسي في باريس إلى وزير خارجيته بعد اختيار بونكاريه رئيساً لـ فرنسا. توضّح الرسالة أن السفير قد أجرى تواً آنذاك نقاشاً مع بونكاريه الذي أخبره أنه سيشرف بنفسه على السياسة الخارجية الفرنسية بوصفه رئيساً، وسيستفيد من مدة بقائه في منصبه البالغة سبعة أعوام لدفع التعاون مع روسيا قُدماً. قال



أنور باشا؛ وزير الحرب التركي المؤيد للألمان، والقائد العام التركي (الثالث من اليسار).

السفير إن الرئيس يرى أهمية كبيرة في أن يكون للحكومة الفرنسية تأثير واسع على الرأي العام لإعداد الشعب لخوض حرب من أجل قضية البلقان. شدّد بعد ذلك على ضرورة أن تتفادى روسيا القيام بأي عمل من جانبها قد يؤدي إلى الحرب قبل نقاش ذلك مع فرنسا.

عاد بونكاريه ووزير خارجيته فيفياني إلى باريس في 29 تموز/ يوليو 1914 بعد زيارة دولة إلى روسيا دامت عدّة أيام، وجرى إبلاغه بالتطوّرات التي قد جرت.

كان ضباط فرنسيون قد استُدعوا من إجازاتهم في الخامس والعشرين – يوم التعبئة الروسية – ووُضعت الخطط لنقل قوات استعمارية بالسفن إلى فرنسا. أرسلت الحكومة الروسية برقية إلى الفرنسيين تخبرهم فيها أن روسيا سترفض الإنذار الألماني بإيقاف حشد قواتها وتطلب من الفرنسيين استخدام نفوذهم للضغط على البريطانيين ليتحالفوا مع روسيا وفرنسا. لتفادي احتمال النظر إلى فرنسا على أنها المعتدي – ما سيجعل تحالف البريطانيين معهم

مستحيلاً – أمر بونكاريه القوات الفرنسية بالانسحاب 10 كيلومترات (6.2 ميل) من الحدود الفرنسية – الألمانية، برغم احتجاجات القائد العام للجيش. وقّع الرئيس الفرنسي أمراً بإجراء تعبئة محدودة في 31 تموز/ يوليو. أبلغ الملحق العسكري الروسي سانت بطرسبرغ أن وزير الحرب الفرنسي قد أخبره بطريقة واضحة أن فرنسا اختارت الحرب فعلاً، وطلب منه إبلاغ مسؤوليه أن القيادة العامة الفرنسية تأمل أن توجّه روسيا جهودها ضد ألمانيا. لم يكن العمل ضد النمساويين – المجريين يُعدُّ أولوية قصوى.

أرسلت إيطاليا برقية تخبر فيها حلفاءها أن الحكومة الإيطالية في حلٍ من المعاهدة مع ألمانيا والنمسا – المجر. لم تكن بريطانيا العظمى قد أعلنت عن موقفها حتى ذلك الوقت. عند ٤ بعد ظهر 1 آب/ أغسطس مُنح القائد العام الفرنسي إذناً بإجراء تعبئة عامّة، التي بدأ تنفيذها في اليوم التالي، وشرعت فرنسا في الاستعداد للحرب بحماس.



رئيس البعثة العسكرية الألمانية في تركيا، الجنرال ليمان فون ساندرز (الثاني إلى اليسار) قبل اندلاع الحرب.

موقف تركيا وإيطاليا

إيطاليا

كانت إيطاليا قد سعت إلى الانضمام إلى التحالف بين ألمانيا والنمسا – المجر في 1881، وحاولت تلك الدولة الحصول على حلفاء؛ لأنها شعرت بالتهديد من الرغبة الفرنسية بالتوسّع. كانت عضوية إيطاليا غريبة كفاية؛ لأن علاقاتها مع النمسا – المجر لم تكن جيدة إطلاقاً. طالبت إيطاليا بأراضٍ معينة من الإمبراطورية النمساوية – المجرية ما أثار امتعاض النمساويين – المجريين، وجعل قائدهم العام يعدّ إيطاليا أقرب إلى عدوٍ منها إلى حليف، وستثبت الأحداث لاحقاً صحة هذا الحكم. عندما انتهت مغامرة إيطاليا في الحبشة في 1896 بهزيمة في عدوة، ألقت باللوم جزئياً على كاهل ألمانيا، لأنها لم تدعمها عسكرياً. نتيجة إحباطهم وحقدهم وربما انتهازيّتهم، أظهر الإيطاليون آنذاك أنهم منفتحون على المقاربة الفرنسية. بعد تجديد المعاهدة مع ألمانيا والنمسا – المجر، عقد الإيطاليون معاهدة عسكرية سرّية مع الفرنسيين في



القيصر فيلهلم الثاني في أثناء زيارة إلى السلطان التركي في تشرين الأول/ أكتوبر 1917. أدّى الجنرال ليمان فون ساندرز (الثاني إلى اليسار) دوراً رئيساً في هزيمة الأتراك من قبل البريطانيين في جاليبولي حين قاد الجيش التركي الخامس.



الأسرة الملكية الإيطالية قبل اندلاع الحرب.

1902 وعدوا فيها بالتزام الحياد إذا خاضت فرنسا حرباً ضد ألمانيا، حتى إذا بادر الفرنسيون بأنفسهم بشنّ تلك الحرب. كان ذلك الاتفاق السرّي بوضوح خرقاً فاضحاً لمعاهدة التحالف التي وقّعتها إيطاليا، خاصة أنها قد جدّدتها قبل وقت قصير فقط. من أجل سدِّ كل الذرائع، وقّعت إيطاليا مرّة أخرى ملحقاً بشأن تفاهم بحري سرّي أيضاً مع النمسا – المجر في 1913، وأجرت في الوقت نفسه محادثات لإقامة علاقات أوثق مع حلفائها الآخرين. في أثناء تلك المحادثات، اقترحت إيطاليا أنه إذا شنّت ألمانيا والنمسا – المجر حرباً على فرنسا وهاجمتا أسطول البحر المتوسط الفرنسي، فستغزو إيطاليا فرنسا وتضع جيشاً إيطالياً غربي الألب، وسترسل أيضاً فيلقين عسكريين إلى ألمانيا لدعم القوات هناك. لم تكن تلك المحادثات قد اكتملت حين اندلعت الحرب. ظهرت خيانة إيطاليا بوصفها حليفاً بسرعة؛ لأنها طلبت تعويضاً عن أي توسعة للأراضي النمساوية – المجرية. عندما رفض النمساويون، أعلنت الحكومة الإيطالية أنها لا تدعم الإنذار النهائي إلى صربيا والتزامها الحياد في النزاع. أجرت اتصالات بسرعة مع الحلفاء المعادين الذين كانوا مستعدين لتعويض إيطاليا بجزء من الأراضي

النمساوية – المجرية. هكذا أعلنت إيطاليا الحرب على حليفها النمساوي – المجري في أيار/ مايو 1915 وضد ألمانيا في آب/ أغسطس 1916. منح هذا القرار إيطاليا أراضٍ جديدةً بعد الحرب، وفيها إستريا، إنما بتكلفة 465.000 قتيل و900.000 جريح. كان لاشتراك إيطاليا في الحرب تأثير بالتأكيد على نتيجتها، وعُدّت ضربة موجعة للتحالف الثلاثي.

تركيا

كان النفوذ البريطاني في تركيا كبيراً دائماً، وقد هبّت بريطانيا لمساعدة الأتراك ضد الروس في أثناء حرب القرم. كانت البعثة البحرية البريطانية نشيطة في تركيا قبل اندلاع الحرب في 1914، وقد قاد أميرال بريطاني الأسطول التركي. بذلت ألمانيا كل ما بوسعها لتكسب تركيا حليفاً لها، ونجح سفيرها البارون فون بيبرشتاين في اكتساب نفوذ كبير لدى الحكومة التركية وجيشها. أدّت معاملة الأتراك الهمجية لبعض الأقلّيات العرقية، إلى توجيه انتقادات حادّة لـتركيا في الصحافة البريطانية، وظهور عداء نحو ذلك البلد لدى الشعب البريطاني.

عندما عقدت بريطانيا العظمى وروسيا معاهدة في 1907 للاتفاق على مناطق النفوذ المتنازع عليها، بدا واضحاً للحكومة التركية أن علاقتها الوثيقة مع بريطانيا قد وصلت إلى نهايتها. ظهر هذا جلياً حين رفضت بريطانيا وفرنسا منح قرض إلى تركيا. ملأت ألمانيا الفراغ بسرعة بتوفير المال للأتراك، وقوّت بذلك علاقاتها معهم. عرضت ألمانيا تدريب الضباط الأتراك الذين كانوا يتدرّبون في بريطانيا وفرنسا ولم يعودوا محل ترحيب هناك، ووافقت بسرور على المساعدة في إعادة هيكلة الجيش التركي. أرسل الألمان الجنرال ليمان فون ساندرز إلى إسطنبول حيث عُيّن قائداً للجيش الأول. برز نزاع مع روسيا التي شعرت بالتهديد من قيام جنرال ألماني بقيادة جيش تركي في ما عدّوه مجال نفوذ لهم. احتج وزير الخارجية الروسي سازونوف بحدّة، وهدّد باتخاذ إجراءات مضادة، فتراجعت ألمانيا التي لم تكن مستعدة بعد لخوض نزاع مباشر. طلبوا من الأتراك تعيين فون ساندرز مشيراً؛ رتبة عالية لا يمكن أن تقود جيشاً في الميدان، فانخفض التوتر وطُويت تلك المسألة نهائياً.

استولت مجموعة من «تركيا الفتاة» على السلطة في 1913، وقد تدرّب أحد هؤلاء، يدعى



باتت الحرب حقيقة والقوات البريطانية تصل الى لوهافر لتتخذ مواقعها المحددة سابقاً.

أنور باشا، في ألمانيا، وكان مؤيداً جداً للألمان. تمتّع بنفوذ واسع بوصفه وزيراً جديداً للحرب، ونجح السفير الألماني الجديد فانغنهايم، الذي تبنّى سياسات سلفه ذاتها، في الحصول على ثقته الكاملة. انسجم الرجلان كثيراً مع بعضهما بعضاً، ما قلّل من النفوذ البريطاني بنحو ملحوظ. عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى فعلاً، كانت تركيا محايدة رسمياً. مرة أخرى ارتكب البريطانيون الذين قلّلوا من أهمية تركيا، والدور الذي يمكن أن تؤدّيه في النزاع المقبل، خطأ فادحاً باحتجاز سفينتين يجري بناؤهما في بريطانيا للبحرية التركية. كانت الطريقة المرتجلة



التي أُنجز فيها ذلك، من دون نقاش أو أي عرض بالتعويض، القشّة التي قصمت ظهر البعير. عندها ردّت ألمانيا فوراً بعرض السفينتين الحربيتين الألمانيتين جوبن وبرسلاو اللتين كانتا في البحر المتوسط، وأسرعتا آنذاك إلى الدردنيل لرفع العلم عليهما. قبلت الحكومة التركية العرض وسمحت لكلتا السفينتين بدخول إسطنبول. بهذا العمل كانت تركيا قد تحالفت رسمياً مع ألمانيا في النزاع العالمي، ما كلّف البريطانيين الكثير، كما سنرى لاحقاً.

اندلاع الحرب
التحضير للهجوم

الخطط العسكرية

لم يكن نشوب الحرب العالمية الأولى غير متوقع تماماً. في الواقع، يبدو أن الدول الرئيسة المشاركة فيها قد توقّعت هذه الحرب منذ بعض الوقت، وخطّطت عسكرياً لها. بعد الحرب الفرانكو–البروسية في 1871-1870 مباشرة، أدرك بسمارك أن ضمَّ الألزاس – اللورين سيؤدّي إلى نزاع جديد مع فرنسا. ركّزت سياسته على عزل ذلك البلد لمنع الفرنسيين من التحوّل إلى تهديد للدولة الألمانية الجديدة. لتحقيق هذه الغاية عقد عدداً من الاتفاقات السرّية مع النمسا – المجر وروسيا ودول أخرى، وانتهج سياسات لجعل ألمانيا قوة سياسية وعسكرية بارزة. لم يتبنَّ خَلف بسمارك السياسة عينها، أو يجدّد المعاهدة مع الروس، ما جعل فرنسا تفكّ عزلتها في 1894 بتكوين تحالف سرّي مع روسيا، سيتبيّن في النهاية أنه موجّه ضد ألمانيا.

منذ تلك اللحظة، وضعت هيئتا الأركان الفرنسية والروسية خططهما لتحقيق النصر، إذا نشبت حرب مع ألمانيا. من 1904 فصاعداً، أجرى الفرنسيون محادثات أيضاً مع البريطانيين بشأن التعاون العسكري، في حال اندلاع حرب مع ألمانيا. منح وزير الخارجية غراي دفعة جديدة لتلك المحادثات حين تشكّلت حكومة الأحرار الجديدة في 1906. منذ ذلك الوقت، بقي مسؤولون عسكريون فرنسيون وبريطانيون على تواصل وثيق، إنما سرّي مع بعضهم بعضاً.

ألمانيا محاطة بدول معادية لها، 1914.



أوروبا بسمارك في 1890.

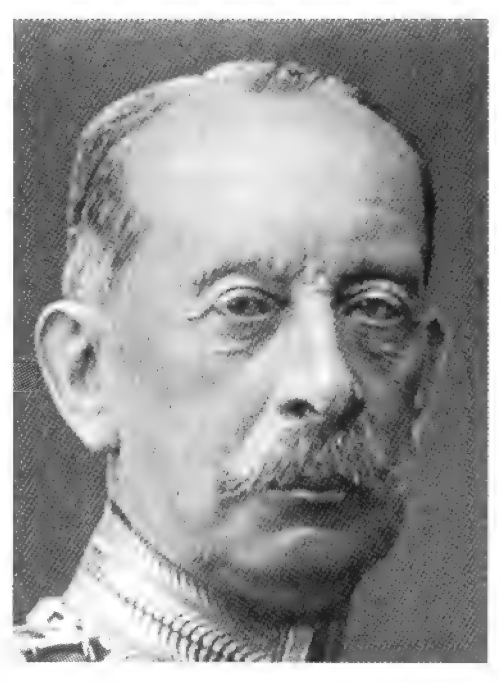
وقرّر البريطانيون إنشاء حملة عسكرية بهدف إرسال قوات إلى فرنسا لدعم الجيش الفرنسي في حال اندلاع حرب مع ألمانيا. في 1908 أجرى البريطانيون محادثات أيضاً مع روسيا. قام إدوارد السابع بزيارات رسمية إلى كلا البلدين، وتحدّث العاهل الروسي وكلا الدولتين عن التعاون بين قواتها البحرية. كانت تلك المحادثات لا تزال جارية حين اندلعت الحرب في 1914.

الدوافع

لماذا كان الجميع مقتنعاً تماماً أن الحرب القادمة محتّمة؟ يبدو أن ذلك الرأي انبثق من حقيقة وجود حوافز لدى كل المشاركين الرئيسيين أدّت إلى اندلاع الحرب.

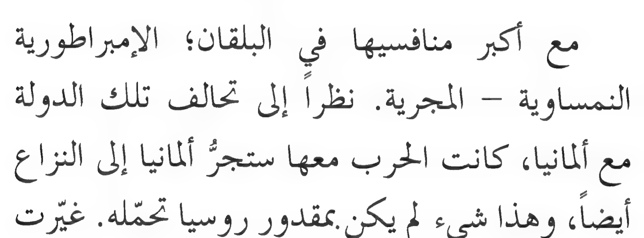
تمثّلَ الحافز الفرنسي في الألزاس–اللورين الذي استولى عليه البروسيون من الفرنسيين في 1871 ما جعل استعادته شيئاً حتمياً للكبرياء الفرنسي. كان المبدأ الأساس الفرنسي هو إعادة

الألزاس – اللورين إلى فرنسا، لكن الحكومة الفرنسية عرفت أنه لا يمكن تحقيق هذا الهدف من دون مساعدة خارجية. بدت المعاهدة الفرانكو – الروسية في 1894 خطوة أولى نحو تنفيذ الخطط الفرنسية لاستعادة الإقليم الذي خسروه.



المشير ألفرد فون شليفن؛ رئيس الأركان العامة الألمانية بين 1891-1905 الذي وضع خطط الهجوم الألماني. توقّع حرباً على جبهتين وخطط لتحقيق نصر سريع ضد فرنسا قبل أن تستطيع روسيا حشد قواتها.

تمثّل الحافز الروسي في الدردنيل والبوسفور، فقد أُغلق هذان الممران المائيان أمام السفن الحربية منذ حرب القرم. كان الطريق الوحيد إلى البحر الأسود مغلقاً، والأسطول الروسي هناك غير فاعل، كما أثبتت الحرب الروسية – اليابانية في 1904. عُدَّ الوصول بحرّية إلى البحر المتوسّط، والقدرة على عبور الدردنيل والبوسفور حجر زاوية للسياسة الخارجية الروسية، إنما لم يكن ممكناً تحقيق هذه الرغبة من دون اتفاق القوى الكبرى. بالعمل الوثيق مع فرنسا، كانت روسيا تطمح إلى الحصول على تأييد فرنسي لرغبتها في توفير ممر بحري لأسطولها من البحر الأسود. في الوقت نفسه، أرادت روسيا أن تحظى بدعم في أي حرب مستقبلية



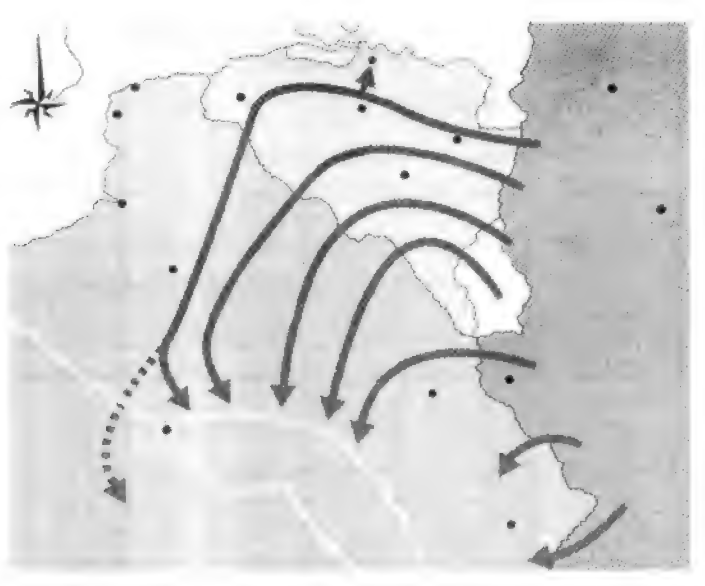
مع أكبر منافسيها في البلقان؛ الإمبراطورية النمساوية – المجرية. نظراً إلى تحالف تلك الدولة مع ألمانيا، كانت الحرب معها ستجرُّ ألمانيا إلى النزاع أيضاً، وهذا شيء لم يكن بمقدور روسيا تحمّله. غيّرت المعاهدة العسكرية مع فرنسا موقف روسيا جذرياً.

كان خطر القتال على جبهتين في آن معاً – ضد فرنسا وروسيا – ماثلاً في الأذهان طوال أعوام في ألمانيا، وقد عرف الألمان أنه لن يكون بمقدورهم الانتصار في مثل تلك الحرب. عندما وسّعت كل من فرنسا وروسيا قواتهما المسلّحة على نطاق واسع، ضغطت القيادة العليا الألمانية لشن حرب استباقية حتى لا تتحقّق تلك المخاوف. رفض القيصر فيلهلم الاستجابة لتلك الضغوط، ما جعل الموقف العسكري الألماني يزداد صعوبة. عندما برز نزاع في نهاية المطاف في البلقان أمام النمساويين – المجريين، حلفاء الألمان، قرّرت ألمانيا دعمهم حتى إذا عنى ذلك حرباً عالمية النطاق؛ لأنها عدّت نفسها قوية كفاية في ذلك الوقت لإحراز النصر.

بالنسبة إلى بريطانيا العظمى، كانت الأمور على النقيض تماماً. أثار تنامي القوة الاقتصادية الألمانية مخاوف تلك الدولة. كان للألمان طموحات استعمارية أيضاً وقد خشي البريطانيون أن تلحق الضرر بإمبراطوريتهم. بدا توسيع البحرية الألمانية سبباً آخر للوقوف إلى جانب فرنسا وروسيا في النزاع المستقبلي. بعد زيارة الملك البريطاني إلى القيصر الروسي، عبّر وزير الخارجية البريطاني عن رأيه بأن التعاون مع فرنسا وروسيا سيمكّنه من إبقاء القوة الألمانية تحت السيطرة، لذا اختار التحالف مع هذين البلدين. كانت دوافع تلك الدول واضحة كفاية وأدّت في نهاية المطاف إلى نشوب الحرب. لم تكن لدى أي من تلك الدول أي فكرة بالتأكيد عن أن مثل هذه الحرب ستدوم أربعة أعوام، وتودي بحياة أكثر من ثلاثين مليون ضحية، وتغيّر العالم جذرياً.

خطة فون شليفن

أدرك القائد العام الألماني المشير فون مولتكه، بعد النصر على فرنسا في 1871، أن بذور حرب مستقبلية قد نُثرت فعلاً، وأنه يجب الدفاع عن الأراضي التي جرى اكتسابها. توقّع أيضاً أن تعتمد فرنسا على دعم روسيا. وضع مولتكه خطّة جعلت احتمال خوض حرب على جبهتين أمراً ممكناً، وبنى تصوّره على إنشاء دفاع قوي قدر المستطاع على الحدود الفرنسية - الألمانية. بالمحصلة كانت تلك هي المنطقة التي قد بنى فيها الفرنسيون وفقاً لأحدث المعلومات المتوافرة خطاً دفاعياً قوياً جداً لن يكون اختراقه سهلاً. ستكون نتائج أي هجوم على تلك الجبهة سيّئة على الأرجح للألمان؛ لأنهم سيضطرون للدفاع عن أنفسهم ضد الدب الروسي في الشرق. من ثَم خطّط لحشد نصف جيشه على الحدود



خطة فون شليفن.



مراحل خطّة فون شليفن. تتحرّك القوات إلى غرب باريس، ما يترك الحدود الألمانية عُرضة للهجوم.

الفرنسية بوضعية دفاعية واستخدام النصف الآخر لتسديد ضربة وقائية ضد روسيا، من أجل إلحاق هزيمة بتلك الدولة قبل أن يستعمل قوّته برمّتها ضد الفرنسيين. أراد بتلك الطريقة تفادي معركة على جبهتين والخروج منها منتصراً.

رفض المشير فون شليفن، الذي خَلف فون مولتكه في رئاسة الأركان العامة في 1891، خطة الأخير بوصفها خطرة جداً عدَّ .

أيضاً روسيا أكبر تهديد لـ ألمانيا مدركاً أن التعطّش للانتقام الذي بدأ يظهر بوضوح أكبر في فرنسا قد يؤدّي إلى حرب جديدة. زعم دائماً أن ألمانيا ستُهزم في مثل هذه الحرب بسبب محدودية الموارد البشرية والمادّية التي لا تسمح بحرب طويلة الأمد، أو خوض معارك على جبهتين في الوقت نفسه. كان فون شليفن من أصحاب الرأي القائل إن غزو ألمانيا لمساحات شاسعة في روسيا سيكون مدمّراً، خاصة إذا بقي نصف الجيش مرابطاً للدفاع عن الحدود مع فرنسا.

وضع لهذا السبب خطة جديدة تماماً تعتمد على الحركة السريعة، ووسائل نقل حديثة بدت مناقضة تماماً لما خطّط مولتكه له. اقتضت الخطّة شنَّ هجوم مباشر ضد فرنسا واتخاذ موقف دفاعي نحو روسيا.

تمثّل العنصر الرئيس في خطته بعدم خوض معركة عبر الحدود الفرنسية نفسها، إنما القيام بنشر سريع جداً للقوات عبر هولندا وبلجيكا نحو شمالي فرنسا، لتنفيذ هجوم بعكس عقارب الساعة تكون ميتس محوره. ستندفع القوات المهاجمة على طول الساحل الفرنسي إلى غرب

باريس قبل أن تنكفئ عائدة نحو الشرق لمهاجمة تحصينات الحدود الفرنسية من المؤخرة. اقتضت الخطّة تحصين الجناح الأيمن جيداً واستخدام نحو تسعين في المئة من الجيش الألماني للاندفاع عبر فرنسا، وتمركز الباقي في مواقع دفاعية قرب ميتز وعلى طول الحدود الشرقية. اعتمد فون شليفن على استغلال الفرنسيين لدفاعات ألمانية ضعيفة نسبياً عند الحدود، لشنّ هجوم ومحاولة استعادة الألزاس – اللورين، واقتضت خطّته عدم إظهار مقاومة أوّلية كبيرة أمام الفرنسيين. كانت القوات الفرنسية، باكتسابها أراضٍ ألمانية في بادئ الأمر، ستبقى بعيدة عن المعركة في الشمال والغرب ما يسرّع التقدّم الألماني. مثّلت السرعة جوهر المسألة للاستفادة من الأوقات المختلفة لحشد الجيشين الفرنسي والروسي. أشارت تقارير استخباراتية إلى أن الفرنسيين يمكن أن يحشدوا قواتهم في أسبوعين، في حين أن الروس يحتاجون إلى ستة أسابيع على الأقل. كان لب خطة شليفن هو هزيمة الفرنسيين قبل أن يصبح الروس جاهزين للقتال، من ثمَّ نقل أغلبية القوات الألمانية من فرنسا المهزومة إلى الجبهة الشرقية.

أراد فون شليفن بهذه الطريقة تفادي خوض حرب على جبهتين. يبدو واضحاً أن التوقيت كان أكبر عناصر المخاطرة في هذه الخطة. بالمحصّلة، إذا فشل الألمان في تحقيق أهدافهم ضمن الوقت المحدّد أو، أسوأ حتى، استطاع الروس حشد قواتهم بسرعة أكبر من المتوقّع، فسيكون الموقف الخطر جداً الذي سعى فون شليفن إلى تفاديه بأي ثمن، قد بات أمراً واقعاً. شكّلت هذه القضية هاجساً لديه، وأثارت قلقه الدائم حين تابع العمل مستشاراً لهيئة الأركان العامة بعد تقاعده. في 1912 أرسل مذكّرة يدعو فيها ضمن أشياء أخرى إلى تعزيز الجناح الأيمن.

الخطة الفرنسية رقم 17

تُظهر الوثائق أن الفرنسيين عرفوا تفاصيل خطة فون شليفن في مرحلة باكرة. سافر الجنرال دوبيه إلى سانت بطرسبرغ في 1911 وحصل على موافقة الروس لخفض وقت حشد قواتهم ودخولهم شرقي بروسيا قبل الانتهاء من التعبئة العامة. كان ذلك قراراً حاسماً؛ لأنه استهدف جوهر خطة فون شليفن التي اعتمدت على فرق مدّته أربعة أسابيع بين التعبئتين الفرنسية والروسية، وأبطل مفعولها. في 1912 عُقدت اتفاقيات أخرى تنصّ على أن يشارك 800.000 جندي روسي في الغزو الباكر لشرقي بروسيا، وخفض وقت جاهزيتهم القتالية إلى أربعة عشر يوماً.

كان لدى الفرنسيين تصوّر للحرب أيضاً، وبعد تعديلات كثيرة استقرّوا أخيراً على ما يُعرف الآن بالخطة رقم 17. كانت تلك خطة مبهمة تُركت للظروف، وتقوم أساساً على تولّي الجندي الفرنسي زمام المبادرة دائماً، ومنح الهجوم أولوية مطلقة.

كانت الخطة 17 غامضة جداً؛ لأنها لم تُدوّن إطلاقاً على ورق. عندما سألت لجنة برلمانية الجنرال جوفر عنها بعد الحرب، تذرّع بأن ذاكرته ضعيفة. أصرَّ على أن الخطة 17 لم تُكتب أبداً وأنه لم يعد يتذكّر ضباط الأركان الذين ناقشها معهم عند اندلاع الحرب. أخبر رئيس أركانه المؤقت الجنرال دي كاستلنو اللجنة عينها أنه لم يرَ أبداً خطة العمليات، التي بدت غير مجدية برغم عدم إنكار جوفر لها. بكلمات أخرى، كان هناك خطأ ما في الخطة الفرنسية، إلا أنها استُعملت للتمويه على الخطة الحقيقية. يمكن إعادة تصوّر تلك الخطة وفقاً للخطوط الرئيسة المذكورة هنا. بالاستفادة من معرفتهم بخطة فون شليفن، رتّب الفرنسيون الأمور على النحو الآتي:



كونت برتشتولد؛ وزير الخارجية النمساوي، الذي قرّر مهاجمة صربيا، حتى إذا أدّى ذلك إلى نزاع عالمي.

بعد اندلاع الأعمال العدائية مباشرة ستهاجم قوات فرنسية الألزاس – اللورين وتدخلها من



سلطان تركيا، 1914.

دون مقاومة كبيرة بسبب خطة فون شليفن. للاستفادة من هذه الأفضلية توجّب أن تكون القوات الفرنسية قوية كفاية، وأن يجري تنفيذ ذلك الهجوم بعد غزو ألمانيا لـ بلجيكا من أجل ضمان تدخّل البريطانيين. لم يكن ممكناً عدُّ الغزو الألماني في تلك الحال عملاً وقائياً، ويجب أن تتفادى فرنسا الظهور بمظهر المعتدي، ولهذا السبب سيجري سحب معظم قواتها من الحدود لمنع أي سوء فهم.

يجب أن تصل القوات البريطانية إلى بلجيكا وفرنسا وتؤخّر التقدم الألماني قدر المستطاع. سيوقف ذلك الألمان في هذا القطاع، وسيعيق حركة قواتهم لدعم الجبهة الشرقية أو النمسا – المجر،

وقد عدَّ الفرنسيون ذلك جوهرياً لأن:

الروس سيغزون شرقي بروسيا بسرعة بعد التعبئة (في أربعة عشر يوماً) بنحو 800.000 رجل ويشعلون جبهة ثانية. هذا يعني أن ألمانيا، التي سيكون معظم جيشها في بلجيكا، ستُحاصر بين فكّي كمّاشة.

ستستفيد فرنسا من خطة فون شليفن التي تتصوّر قيام قوات فرنسية بغزوٍ مؤقتٍ للألزاس، لكن الفرنسيين سيبقون هناك دائماً.

ستسلّم فرنسا الدفاع الأوّلي عن أراضيها بنحو كامل تقريباً للبريطانيين، مع الأخذ بالحسبان أن معظم الحرب ستجري في بلجيكا.

يمكن العثور على عناصر من إعادة التصوّر هذه في محاضر الاجتماعات السنوية بين رئاستي الأركان الفرنسية والروسية، التي أوضحت فيها كلا الدولتين خططها الهجومية وناقشتاها معاً. نعرف الآن أن الأمور في الواقع اتخذت منحى مختلفاً جداً. هاجم الروس في وقت أبكر فعلاً، إنما تعرّضوا بسرعة لهزيمة مذلّة. نفّذ البريطانيون إنزالاً في بلجيكا وفقاً للاتفاق، إنما واجهوا مقاومة شرسة من الألمان ما اضطّرهم إلى التراجع في البداية، وفشلت باقي بنود الخطة الفرنسية إلى حدٍ كبيرٍ أيضاً. تغيّر الوضع قليلاً فقط بعد معركة المارن.

الخطة الحربية البريطانية

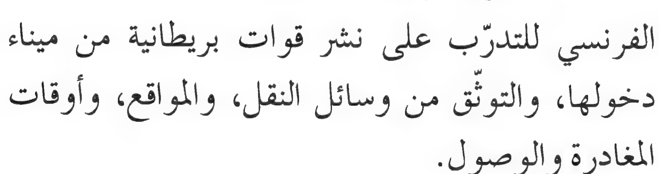
بعد وقت قصير من إنشاء الحلف في 1904، أجرى رئيسا الأركان الفرنسي والبريطاني مناقشات بشأن التعاون في حال خاضت فرنسا حرباً مع ألمانيا. تمّت تلك المحادثات بإشراف وزيري الحرب، وحظيت بذلك بتغطية سياسية.

عقد الجنرال البريطاني ويلسون، قائد العمليات العسكرية آنذاك، اتفاقاً مع الفرنسيين في 20 حزيران/ يونيو 1911 وعد فيه بإرسال 150.000 رجل و67.000 حصان إلى بولوني ولو هافر لحماية الجناح الأيسر الفرنسي من التطويق. المثير للدهش أنه كان متوقعاً مواجهة القوات الرئيسة الألمانية في تلك المنطقة تحديداً، وأن يؤخّر البريطانيون التقدّم الألماني على الأقل إن لم يوقفوه. سيمنح ذلك الفرنسيين القدرة على إرسال قوة متفوقة إلى حدودهم الشرقية، من ثَم فصل الجناح الأيمن الألماني عن باقي الجيش. في أيلول/ سبتمبر 1912 وعد البريطانيون بتقديم دعم بحري أيضاً لحماية الساحل الغربي الفرنسي في حال نشوب الحرب، وقد أعادت الأساطيل تمركزها فعلاً. نقل البريطانيون معظم أسطولهم من البحر المتوسط، في حين حرّك الفرنسيون كل أسطولهم إلى هذا البحر.

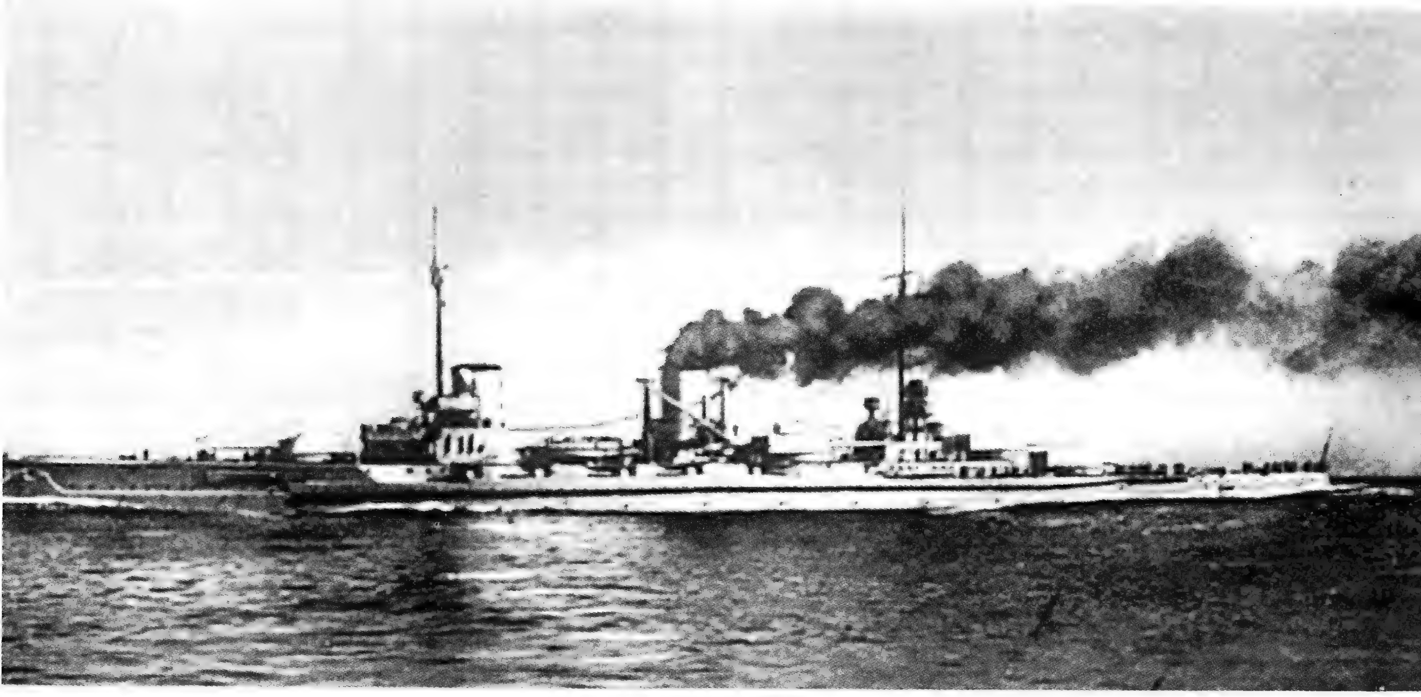


أنور باشا؛ وزير الحرب التركي.

أُعدّت الخطط العسكرية البريطانية بالتفصيل، وفي آذار/ مارس 1914 جرى تنفيذ مناورة لوجستية أنغلو – فرنسية على التراب



الفرنسي للتدرّب على نشر قوات بريطانية من ميناء دخولها، والتوثّق من وسائل النقل، والمواقع، وأوقات المغادرة والوصول.



السفينة الحربية الألمانية جوبن التي بيعت مع برسلاو إلى تركيا وأطلقت النار على موانئ البحر الأسود الروسية.

الخطة الحربية النمساوية - المجرية

لقد استعدّت تلك الدولة أيضاً للحرب. المدهش أن النمساويين – المجريين صدَقوا أنه يمكن إبقاء أي نزاع محدوداً بحرب ضد صربيا.

جرى إعداد الخطط العسكرية النمساوية – المجرية ضمن هذا الإطار. إذا تدخّلت روسيا، خلافاً للتوقعات، يمكن التعامل مع ذلك بإيقاف الحرب ضد صربيا. كانت هناك خطتان: «خطة حرب البلقان»، و«خطة الحرب الروسية».

تعاملت الأخيرة مع احتمال التدخل الروسي فقط، و لم تأخذ بالحسبان خوض حرب على جبهتين في آنٍ معاً. يعزى تفسير ذلك إلى أن القائد العام للجيش النمساوي – المجري، الجنرال كونراد فون هوتزندورف، قد توقّع أن تستغرق التعبئة الروسية وقتاً طويلاً، وأنهم سيهزمون صربيا قبل أن تستطيع روسيا التدخّل. اقتضت خطة البلقان أن تتحرّك القوات الاحتياطية بعد خمسة أيام على الأكثر من التعبئة ضد صربيا، وأن ذلك لن يجدي نفعاً بعد اليوم السادس، إذ لن يستطيعوا التصدّي لأي هجوم روسي عندئذ إلا بمساعدة الحليف ألمانيا.

تظهر دراسات لاحقة أن الخطة النمساوية – المجرية، خاصة تخطيط النقل برمّته، قد عانى عيوباً خطرة؛ بمعنى أن الحملة ضد صربيا كانت فاشلة منذ البداية، وبرزت حاجة ماسّة للعون من حليفهم الألماني. عندما انسحبت إيطاليا من التحالف في اللحظة الأخيرة، و لم تلتزم

رومانيا بتعهّداتها، واجهت النمسا – المجر صعوبات جمّة، وباتت تعتمد تماماً على المساعدة الألمانية.

الخطط الحربية الروسية

استندت الخطط الحربية الروسية أساساً على التعاون مع فرنسا وموافقتها على ذلك. اقتضت المهمة الروسية فتح جبهة ثانية بغزوٍ باكرٍ لشرقي بروسيا لتثبيت القوات الألمانية الموجودة هناك، وإلحاق الهزيمة بها إذا أمكن. كان كبار ضباط الجيش الروسي قد كرّسوا جهودهم لتحقيق هذه الغاية، وتوقّعوا أن يكونوا جاهزين لفعل ذلك بحلول 1917. بقيادة سوخوملينوف؛ وزير الحرب الروسي، أُعيد بناء الجيش الروسي وتحديثه من القاعدة إلى



القائد العام الروسي، الدوق الأكبر نيكولاي (نيكولايفيتش).

القمة، بعد هزيمتهم ضد اليابان. لو أن خططه نُفّذت برمتها، لحظيت روسيا بأكبر وأقوى جيش في العالم. على كل حال، لم يكن تحديث الجيش الروسي قد اكتمل بعد، حين تدخّلت السياسة في التخطيط العسكري في 1914. كان الوقت ملائماً لـ روسيا، وفرنسا، وبريطانيا العظمى لإنهاء ألمانيا بوصفها قوة عظمى، وتحقيق طموحات روسيا الخاصة في البلقان، وتدمير الإمبراطورية النمساوية – المجرية. لكن خطط العمليات لم تكن مكتملة، والأسلحة، والإمدادات، والمعدّات، وغيرها، غير كافية إطلاقاً. بدأت روسيا لهذا السبب الحرب غير مستعدة تقنياً للمعركة، والبلاد غير جاهزة للحرب، وقد بدا ذلك واضحاً بسرعة كما سنرى لاحقاً.

الحرب المتحرّكة
اندلاع أولى المناوشات

الألمان يغزون بلجيكا ولوكسمبورغ

وقّع القيصر الألماني أمر التعبئة عند الساعة الخامسة بعد ظهر 1 آب/ أغسطس. في مساء ذلك اليوم أرسل ليشنوفسكي؛ السفير الألماني في لندن، برقية أبلغ فيها رؤساءه أن إدوارد غراي؛ وزير الخارجية البريطاني، قد أخبره أن بريطانيا العظمى مستعدّة لضمان حياد فرنسا إذا تعهّدت ألمانيا بعدم مهاجمة ذلك البلد.

استُدعي الجنرال فون مولتكه، الذي كان في طريقه لتنفيذ أمر التعبئة، فوراً. استقبله بحفاوة بتمان هولفيغ المستشار الألماني، الذي قد بذل جهوداً متواصلة للحفاظ على علاقات جيدة مع بريطانيا. وتمنّى حتى اللحظة الأخيرة ألا يخوض ذلك البلد الحرب، وقال مبتهجاً



الجنرال فون مولتكه، القائد العام الألماني عند اندلاع الحرب. عُزل بسرعة بعد كارثة معركة المارن.



القيصر الألماني فيلهلم الثاني



الملك البلجيكي ألبرت في مقر قيادته.

وهو يمرّر البرقية إلى فون مولتكه: «سيبقى البريطانيون خارج النزاع. سيكون علينا الآن أن نقاتل روسيا فقط». أضاف صوت القيصر: «أعِد قواتنا المسلّحة واجعلها تذهب نحو الجبهة الشرقية». تداعى العالم بالنسبة إلى فون مولتكه، إذ إن إعادة جيش برمّته شيء مستحيل، وقد تكون له عواقب كارثية. عرف أيضاً أن أمر التعبئة العامة قد صدر في فرنسا أيضاً، وأن البرقية



الجنرال فون كلوك، قائد الجيش الأول الألماني.

أخبر فون مولتكه القيصر بهذا، وأنه إذا أمر بإعادة الجيوش ستصبح الحدود الألمانية غير محميّة إطلاقاً، ومفتوحة أمام أعدائها. رفض فيلهلم الثاني الإصغاء إليه، وأضاف: «كان عمّك سيزوّدني بجواب مختلف»، مشيراً إلى فون مولتكه الأكبر سناً الذي قد حقّق النصر للألمان في أثناء الحرب الفرانكو–البروسية في 1870–1871. تدخّل بتمان هولفيغ أيضاً، وضغط على



جنود ألمان في خندق على حافة «منطقة النزاع» قبل دخول لوكسمبورغ في آب/ أغسطس 1914.



مدافع ميدانية ألمانية تعمل قرب بلدة ليج.

مشاة ألمان يتقدّمون عبر تضاريس مكشوفة.

فون مولتكه الذي دافع عن رأيه، ورفض تحمّل المسؤولية عن مثل ذلك القرار. قال: «تعتمد الخطة الحربية الألمانية على شن هجومٍ قوي على وحدات فرنسية، وتخصيص وحدات دفاع ضعيفة التسليح لخوض معركةٍ مع روسيا. ستكون أي تغييرات مفاجئة وغير مدروسة على هذه الخطة كارثية». أقنع فون مولتكه القيصر أخيراً، بعد نقاش طويل، أنه يجب متابعة خطط التعبئة، من ثَمّ يمكن البتّ في قضية إرسال وحدات أقوى إلى الشرق.

لقد أرهق النقاش مع القيصر المستشار فون مولتكه، وقد استنفدت التوتّرات في الأيام التي سبقت اندلاع الحرب طاقته كلها، وأعلن لاحقاً أن ذلك أنهكه بطريقة لم يتعافَ منها أبداً. كان السبب الرئيس لذلك طلب بتمان هولفيغ تأخير احتلال



مجنّدون بلجيكيون.



جنود بلجيكيون يرتاحون خلف خط الجبهة.

لوكسمبورغ بأي حال. عرّض ذلك خطة هجوم الألمان بأسرها للخطر؛ لأن الاستيلاء على تقاطع سكّك حديدية مهم هناك. كان هذا الجزء الأساس من خطة المعركة الألمانية. كان رأي بتمان هولفيغ أن هذا الاحتلال يعدُّ تهديداً مباشراً لـ فرنسا، وسيؤدّي إلى إلغاء التعهّد البريطاني بحيادها بالتأكيد. استدعى القيصر معاونه وأملى أمراً، من دون استشارة فون مولتكه، ينصّ على أن توقف الفرقة السادسة عشرة سيرها نحو لوكسمبورغ.

برغم الاحتجاجات القوية من فون مولتكه، لم يغيّر فيلهلم الثاني قراره، وأنهى اللقاء معه. عندما عاد فون مولتكه إلى مقرّ قيادته، وجد الأمر ينتظره هناك، لكن الجنرال تشبّث برأيه، ورفض التوقيع عليه. بعد عدّة ساعات وعند 11 ليلاً، تلقى مرة أخرى أمراً بتقديم تقرير إلى القيصر، الذي استقبله في غرفة نومه وسلّمه برقية من الملك البريطاني يقول فيها إن

مقابل: محطة مياه بلجيكية–بريطانية مشتركة عند أبعد نقطة من خط الجبهة البلجيكية.

برقية ليشنوفسكي قد استندت على سوء فهم، وأنه من المستحيل أن يضمن البريطانيون الحياد الفرنسي. كان مزاج القيصر سيئاً جداً، وأخبر فون مولتكه: «نون كونين سي ماشن، فاس سي فولن» (يمكن أن تفعل ما تريد الآن)، ما جعل فون مولتكه يستأذن بالانصراف.

لقد حانت اللحظة الحاسمة. وتكاد الأحداث المرعبة التي ستُعرف أولاً بوسم «الحرب الكبرى» ولاحقاً «الحرب العالمية الأولى» أن تندلع. أرسل فون مولتكه آنذاك أمراً إلى الفرقة السادسة عشرة لدخول لوكسمبورغ من دون تأخير، والاستيلاء على تقاطع السكك الحديدية فيها.

المعركة تبدأ

شرعت ثمانية جيوش ألمانية آنذاك في تنفيذ خطة فون شليفن، وتحرك سبعة منها إلى الجبهة الغربية، وواحد إلى الشرق.

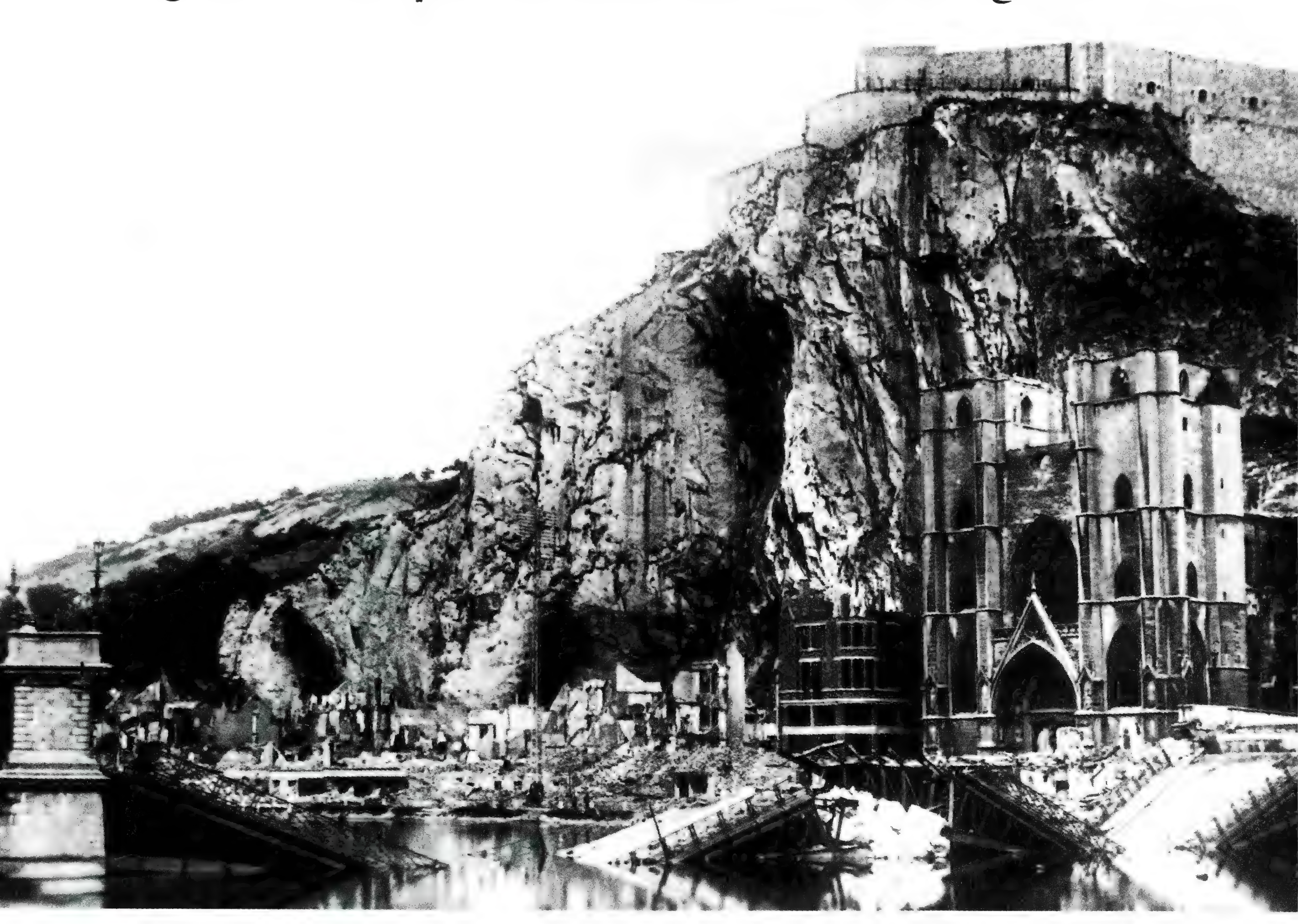
كان يُفترض بالجيش الأول الألماني بقيادة الجنرال فون كلوك، والثاني بقيادة فون بولوف، والثالث بقيادة فون هاوزن، أن يدخلوا بلجيكا، في حين يتجه الجيش الرابع بقيادة الدوق ألبرخت إلى لوكسمبورغ. سيبقى الخامس بقيادة ولي العهد الألماني، والسادس بقيادة الأمير



روبرخت فون بايرن، والسابع بقيادة الجنرال فون هيرنجن على أهبّة الاستعداد بين ساربروكن وبازل.

عند مطلع صباح 2 آب/ أغسطس 1914، دخل الألمان لوكسمبورغ. قبل وقت قصير من ذلك، تلقّت الحكومة هناك برقية تقول إن ألمانيا قد علمت من مصادر موثوقة أن قوات فرنسية في طريقها إلى لوكسمبورغ، وأنها مرغمة آسفةً على الدفاع عن نفسها بالسيطرة على تقاطع السكك الحديدية هناك. احتجّت حكومة لوكسمبورغ بقوة، إنما لم تكن لديها الوسائل للدفاع عن بلدها الذي سقط بسرعة بين أيدي الألمان.

بدأت القوات الضخمة تتحرّك آنذاك. بين 2 – 14 آب/ أغسطس عَبَر أكثر من 2200 قطار محملاً بالجند كولون وحدها متجهة غرباً. كانت الأهداف معروفة، فقد توجّه الجيشان الأول والثاني إلى بروكسل، في حين طُلب من الجيش الثالث عبور الميز عند نامور ودينانت، ومن الجيش الرابع السيطرة على المنطقة الممتدة من هناك إلى أقصى جنوبي بلجيكا عند الحدود مع



الجسر وكنيسة السيدة المدمّران في دينانت.



الجنرال الألماني فون إيمتش، الذي قاد الهجوم على ليج.

لوكسمبورغ. كُلّف الجيش الخامس بقيادة ولي العهد بالتمركز في مواقع حول متز، في حين سيشتبك الجيشان الأخيران مع الفرنسيين عند الجناح الأيسر.

في الأحد 2 آب/ أغسطس، سلّم السفير الألماني إنذاراً نهائياً للحكومة البلجيكية يطالبها بفتح ممر آمن عبر أراضيها للجيش الألماني. وعدت ألمانيا بتعويض بلجيكا – بعد النزاع – في حال قبولها الطلب عن أي أضرار لإخلائها تلك الأراضي. وطلبت من الحكومة البلجيكية عدم إبداء أي مقاومة لتفادي إراقة الدماء بنحو غير ضروري. ووصلت إلى حد الإصرار على أن الدولة الألمانية .

تدافع عن نفسها فقط، ولا نيّة لديها لاحتلال أراضٍ بلجيكية. أخيراً، طلب الإنذار النهائي جواباً في اثنتي عشرة ساعة. رفضت الحكومة البلجيكية الإنذار طبعاً، وفي اليوم التالي الموافق 3 آب / أغسطس، دخلت القوات الألمانية بلجيكا في طريقها إلى فرنسا.

معركة ليج

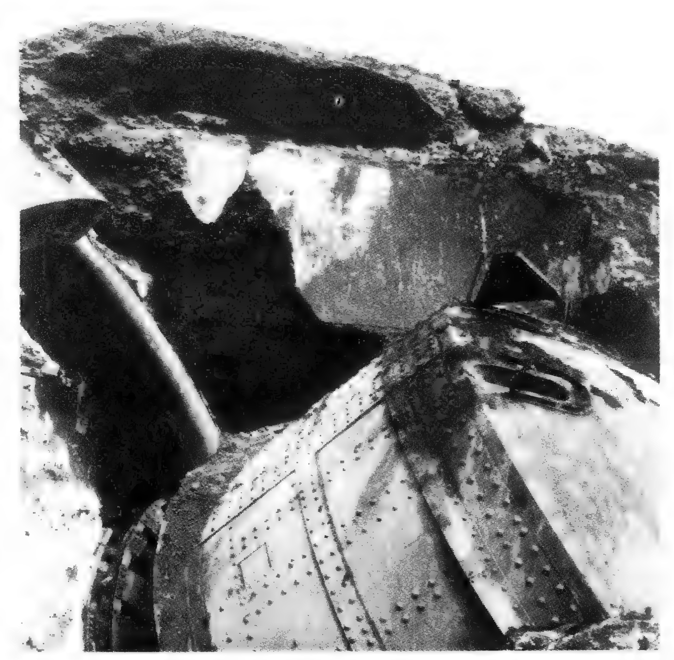
كانت ليج أولى أهداف ألمانيا، فالبلدة نفسها محميّة بعدّة حصون قوية، وتدافع عن منطقة شرقي بلجيكا برمّتها، والسيطرة عليها بأي تكلفة أمرٌ أساسي للألمان، لمنع تأخّر وصول



قوات ألمانية في الميدان.



ضابط مدفعية ألماني يتلقّى تعليمات لمساندة القوات التي تهاجم ليج.



لم يكن شيء يقاوم المدفعية الثقيلة الألمانية. بقايا حصن لونسين قرب ليج.

الإمدادات إلى جناحهم الأيمن ما سيعرّض خطة فون شليفن للخطر. بدت السرعة ضرورية، وقد وضعت هيئة الأركان العامة الألمانيّة خطة منفصلة للاستيلاء على البلدة عند اندلاع الحرب. اقترب نحو 34.000 رجل ونحو 125 مدفع ميدان، بعضها من أثقل العيارات المتوافرة آنذاك، من سلسلة الحصون المحيطة بالبلدة في 4 آب/ أغسطس.

نُشرت الفرقة البلجيكية الثالثة، التي ضمّت نحو 23.000 رجل، بين الحصون التي تبعد 4 كيلومترات (2.5 ميل) تقريباً عن بعضها بعضاً. كان الخط الدفاعي بأسره، وفيه حاميات الحصون، بإمرة الجنرال ليمان.

كان الألمان قد قيّموا الموقف بدقة قبل الحرب، ولاحظوا وجود بضع عقبات دفاعية بين الحصون. اقتضت خطّتهم التقدّم بسرعة في عدّة نقاط بين التحصينات، والتغلّب على المدافعين للاستيلاء على مواقع في تلك السلسلة، تسهيلاً لوصولهم إلى ليج. لم يكن لدى الحصون عندئذ خيار إلا الاستسلام. تولّى قيادة القوات الخاصة المكلّفة بهذا العمل الجريء الجنرال فون إيمتش، المدعوم من ضابط هيئة الأركان العامة إريش لودندورف، الذي سيؤدّي لاحقاً أهم دور في تاريخ الحرب العالمية الأولى.

في ليلة 5 – 6 آب/ أغسطس، بدأ تنفيذ الخطة بشنّ هجمات على ثلاث جبهات بين الحصون. نجحت وحدات من الفوج الرابع عشر الألماني في تحقيق اختراق بين حصنَي فليرون وإيفغني. واجهوا فعلاً جنود الفرقة البلجيكية الثالثة، الذين أبدوا مقاومة شرسة، إنما لم يستطيعوا إيقاف الألمان. عندما توفي القائد الألماني في المعركة، تولّى لودندورف القيادة وحثَّ الرجال على التقدّم نحو التلال إلى الشرق من لا شارترو حيث أشرفوا على الجسور فوق الميز. أصدر لودندورف أوامر بالاستيلاء على الجسور، وقد أنجز جنوده ذلك بنحو مدهش، من دون إطلاق رصاصة واحدة.

في صباح 7 آب/ أغسطس، أمر لودندورف قواته بدخول ليج، وقاد شخصياً الجنود مباشرة إلى الحصن الذي بدا منيعاً. قرع على الباب عدّة مرات ولدهشه فُتح، فطلب من الحرّاس الاستسلام، من ثَمّ دخل المكان، وذهب إلى القائد الذي سلّم الحامية إلى الألمان. كان ذلك الاندفاع بداية سيرة لامعة، وسيسمع العالم الكثير عن لودندورف لاحقاً.

باتت بلدة ليج في قبضة الألمان آنذاك، وتراجع الدفاع البلجيكي لينضم إلى قوات أخرى عند لوفان.

الجدير بالملاحظة، أن الحصون حول ليج بقيت في أيدي البلجيكيين وشكّلت مدفعيّتهم تهديداً خطراً على استمرار التقدّم الألماني. أطلقت المدفعية الألمانية وابلاً قوياً من النيران، بوجود قطع ثقيلة مثل مدفع الهاون النمساوي من عيار 305 ملم (12 بوصة)، ومدافع كروب الأثقل من عيار 420 ملم (16 بوصة ونصف) المعروفة باسم «بيرثا البدينة»، لتدمير الحصون التي ثبت في النهاية أنها ليست منيعة كفاية. تحوّلت واحدة بعد أخرى إلى أنقاض، ومات أفراد حاميتها أو استسلموا. كان حصن لونسين أحد آخر النقاط المحصّنة التي استسلمت في 15 آب/ أغسطس، بعد تلقّيه ضربة مباشرة في مخزن ذخيرته وانفجاره، ما قتل معظم الموجودين فيه. نجا القائد البلجيكي الجنرال ليمان، الموجود في الحصن آنذاك، من الحادثة، وجرى إخراجه فاقد الوعي من بين الأنقاض. كانت أولى كلماته حين استعاد رشده: «لن أستسلم»، وعند إبلاغه أنه قد وقع أسيراً طلب أن يقوم الضابط الألماني الذي جاء لاعتقاله بتسجيل ذلك في تقريره. سقط الحصنان الأخيران بيد الألمان في 16 آب/ أغسطس، ما وضع حداً لتهديد التقدّم الألماني إلى السهول البلجيكية الريفية المكشوفة.



مشاة بلجيكيون يتراجعون إلى أنتويرب، 20 آب/ أغسطس 1914.



جنود بلجيكيون يجهّزون مواقع دفاعية قرب أنتويرب.

معركة نامور

بعد إعادة تجمّع الفرقة البلجيكية الثالثة حول لوفان، انتقلت المعركة نحو الغرب. لقد بنى البلجيكيون خطاً دفاعياً بجانب النهر الصغير جيتي قبل أن تنتقل المعركة على طول خط نامور، ودينانت وجيفت. عزّزت الفرقة البلجيكة الرابعة حامية نامور وبذلت كل جهد ممكن لإنشاء دفاع متماسك. حوّلت قوة ألمانية خاصة بقيادة الجنرال فون غالفيتز الحصون حول نامور إلى أنقاض.بمدفعيتها الثقيلة جداً التي ضمّت ستة مدافع من عيار 420 ملم، وأربعة مدافع سكودا النمساوية عيار 305 ملم.

في الوقت نفسه، نجح الألمان في عبور سامبر وميز، فباتت نامور مهدّدة بالتطويق. في 22 آب/ أغسطس، بدأت الفرقة الرابعة البلجيكية الانسحاب نحو ماريمبورغ حيث وصل نحو نصف عدد الرجال البالغ عددهم أصلاً 30.000. تراجعوا بعد أسبوع نحو أنتويرب حيث انضموا إلى باقي الجيش البلجيكي في 2 أيلول/ سبتمبر. سقطت دينانت أيضاً بأيدي وحدات ألمانية من الجيش الثالث التي طوّقت البلدة ودخلتها في صباح 22 آب/ أغسطس.



سكان أنتويرب يهربون مع اقتراب القوات الألمانية.



أحد حصون أنتويرب قبل أن تدمّره نيران المدفعية الثقيلة الألمانية.

جنود فرنسيون على دراجات هوائية يهبّون لمساعدة بلجيكا.

مقابل: أرسل البريطانيون أيضاً قوات للمساعدة استُقبلت بحماس.



في ذلك الوقت، اندفع نحو نصف مليون رجل من الجيش الأول الألماني بقيادة الجنرال فون كلوك والجيش الثاني بقيادة فون بولوف داخل بلجيكا إلى شمال الميز. واجهوا هناك أيضاً مقاومة بلجيكية شرسة. خسر الفوج الثاني والعشرين البلجيكي أكثر من نصف رجاله في سانت مارغريت. كانت أعداد الألمان كبيرة جداً، ما جعل الملك البلجيكي يقرّر في ١٨ آب/ أغسطس سحب قواته خلف النهر الصغير ديل لإنشاء خط دفاعي جديد في اتجاه أنتويرب. ابتداءً من 20 آب/ أغسطس اضطر الجيش البلجيكي إلى التراجع أكثر نحو تحصينات أنتويرب، وفي ذلك اليوم عينه، وصل الفيلق الرابع الألماني بقيادة الجنرال سيكست فون آرنيم إلى بروكسل، واحتل المدينة، في حين اندفعت الجيوش الأول، والثاني، والثالث الألمانية عميقاً داخل بلجيكا. في تلك الأثناء، هبَّ الفرنسيون والبريطانيون لمساعدة البلجيكيين. اتخذ الجيش الخامس الفرنسي بقيادة الجنرال لانرزاك مواقع لإيقاف التقدّم الألماني على الضفة اليمنى لنهر ميز.

كانت الحملة العسكرية البريطانية بقيادة الجنرال السير جون فرنش قد وصلت آنذاك أيضاً إلى القارة، وتمركزت في أماكن قريبة من مواقع الجيش الفرنسي الخامس. في 21 آب/ أغسطس شنّت القوات الفرنسية هجوماً مضاداً، لكن وجدت أن العدو يفوقها عدداً. لم



أسرى حرب بريطانيون ينتظرون نقلهم إلى دار البلدية في منين.



مدافع هاون خفيفة ألمانية في استعراض أمام الأميرال شرودر بعد دخولهم بروكسل.

يكونوا قد استعدّوا جيداً لهجومهم، فاضطروا إلى التراجع بسرعة بعد خسارة مساحات كبيرة من الأرض. بحلول 23 آب/ أغسطس، لم يعد بمقدورهم مواصلة القتال. فأصدر الجنرال لانرزاك أمراً بالانسحاب العام. في تلك الأثناء، كان البريطانيون قد أنشؤوا جبهة طولها 35 كيلومتراً (22 ميلاً)، على طول خط هارميجنيز، وكوندي، وبينش. هدّدتهم بسرعة الفيالق الثاني، والرابع، والتاسع الألمانية، وتداعى خط الجبهة البريطاني في صباح 23 آب/ أغسطس، ما أرغم البريطانيين على الانسحاب من مؤنس، في وقت لاحق من ذلك اليوم. عندما عرف الجنرال فرنش ذلك المساء أن الفرنسيين قد أُرغموا أيضاً على التراجع، انتابه قلق من تطويق قواته وأصدر أوامر بالتراجع نحو لو كاتو، التي وصلوها مساء 24 آب/ أغسطس، وهم يخوضون معركة بائسة كلّفتهم حياة 3800 رجل. هناك هاجمتهم وحدات من جيش كلوك في الصباح الباكر من اليوم السادس والعشرين، وأرغمت المعركة التي دامت كل اليوم، التي تلقّى فيها الفيلق الثاني البريطاني بقيادة الجنرال سميث دورين هزيمة نكراء، البريطانيين



الأميرال الألماني شرودر الذي قاد البحرية الألمانية في فلاندرز.

على التراجع مرة أخرى. فقد البريطانيون نحو 8000 رجل وستةً وثلاثين مدفعاً في هذه المعركة وتفادوا بالكاد استسلاماً كاملاً.

لم يكن موقف قوات التحالف جيداً، وقد عبّر الجنرال فرنش عن رأي متشائم حين أبرق إلى لندن في الحادي والثلاثين بخطّته للانسحاب إلى خطٍ دفاعي خلف السين إلى الغرب من باريس؛ لأنه لم يعد يصدّق باحتمال تحقيق نصر فرنسي، ويخشى سقوط جيشه برمته بين أيدٍ ألمانية.

معركة أنتويرب (أنفرز)

أراد الألمان الوصول آنذاك إلى الساحل البلجيكي في أقرب وقت ممكن، قبل أن يفعل الحلفاء ذلك. تقدّموا بسرعة نحو أنتويرب (أنفرز) حيث تمركز الجيش البلجيكي خلف



جنود ألمان يسيرون في مدينة ليل.

تحصينات هناك. كانت التحضيرات قائمة على قدمٍ وساق من لحظة دخول الألمان بلجيكا لتقوية التحصينات حول أنتويرب. عُزّزت عدّة حصونٍ بالإسمنت لحمايتها من المدفعية الثقيلة الألمانية، وخُزّن عتاد وإمدادات لمقاومة حصار طويل الأمد. اكتسب الجنود ثقة بالنفس حين شاهدوا التحصينات الضخمة وشعروا بالاطمئنان من أن الألمان لن ينجحوا في اختراق دفاعات أنتويرب.

بدأ الهجوم الألماني على أنتويرب في 27 أيلول/ سبتمبر، وفي اليوم عينه استولت قوات ألمانيّة بقيادة الجنرال فون بسلر على بلدة ميكلين. في اليوم التالي أطلقت المدفعية الثقيلة الألمانيّة نيرانها، وسقطت الحصون واحداً بعد آخر نتيجة قذائف عيار 420 ملم و305 ملم. في 29



الجنرالان هيندنبورغ ولودندورف في أثناء زيارة إلى بروكسل.



القيصر فيلهلم الثاني في أثناء زيارة إلى قاعدة الغواصات الألمانية في زيبروغ.

أيلول/ سبتمبر وصل الجنود الألمان إلى أول الجسور في أنتويرب، حيث تعرّضوا لنيران من حصن ويلهيم. ردّت المدفعية الألمانية على النار، وسقطت قذيفة على مخزن ذخيرة ما أحدث انفجاراً ضخماً قتل وجرح كثيرين. تلقّى حصن وفر-سانت كاثرين، الذي قد صمد ثلاثين ساعة ضد القصف المتواصل، ضربة مباشرة أيضاً في مخزن ذخيرته ما أرغم الموجودين فيه على إخلائه. أطلقت المدفعية الألمانية النار أيضاً على الحصون الأخرى ومحيطها ودمّرتها وجعلتها تخرج تدريجياً وتباعاً من المعركة.

كان البلجيكيون لا يزالون يأملون بتلقّي مساعدة من الحلفاء، لكن في مساء التاسع والعشرين تبين أن الوضع ميؤوس منه بوجود الحلفاء بعيدين عن أنتويرب، وانخفاض احتمال وصولهم إلى المدينة في الوقت الملائم. بحلول 2 تشرين الأول/ أكتوبر بدا واضحاً تماماً أن الجيش البلجيكي لا يمكنه الدفاع عن أنتويرب. فأصدر الملك ألبرت أوامر بتراجع الجيش، وتكوين خط دفاعي جديد قرب أوستند. كانت المقاومة البلجيكية شرسة مرة أخرى ضد



قائد القوات البريطانية في فرنسا، الجنرال السير جون فرنش، الذي تراجع باستمرار مع جنوده حتى أمره المشير اللورد كيتشنر بالصمود.

القوات الألمانية المتفوقة عدداً. دُمّر حصن بعد آخر، لكن البلجيكيين قاتلوا بضراوة، و لم يستسلموا للألمان، وشنّوا حتى هجمات مضادّة واستعادوا عدّة نقاط، قبل أن تجبرهم الأعداد المتفوّقة على التراجع مجدداً. احتلت الأعمال البطولية للجيش البلجيكي مرتبة عالية على قائمة البسالة في الحرب العالمية الأولى.

جاءت المساعدة أخيراً في 3 تشرين الأول/ أكتوبر، ووصل جنودٌ بريطانيون إلى أوستند وانضموا إلى الجيش البلجيكي. وصل مزيدٌ من الجند البريطانيين في اليومين التاليين، ليصبح العدد نحو 6000، تكوّنَ أساساً من مشاة البحرية الملكية، وقد استقبلهم سكان أنتويرب بحماسٍ منقطع النظير.

استطاع تشرشل نفسه زيارة المدينة لتشجيع أهل أنتويرب، لكن كان الوقت قد فات آنذاك. لم يعد ممكناً إيقاف التقدّم الألماني، وفي 6 تشرين الأول/ أكتوبر أُرغم البريطانيون على التراجع. في مساء اليوم نفسه، أخلى البلجيكيون تحصينات أنتويرب تحت جنح الظلام، وعبروا نهر سخيلده.

في صباح 7 تشرين الأول/ أكتوبر، غادرت الحكومة البلجيكية وأفراد السلك الدبلوماسي في المدينة إلى أوستند أيضاً. أثار رحيلهم ذعراً بين المواطنين الذين حاولوا مغادرة المدينة بأعداد

غفيرة. استسلمت أنتويرب للألمان يوم الجمعة الموافق 9 تشرين الأول/ أكتوبر، ولم يدخل جنود ألمان المدينة حتى اليوم التالي حين نظّموا عرضاً عسكرياً، ابتهاجاً بالنصر، أمام الأميرال فون شرودر؛ الحاكم العسكري الجديد لـ أنتويرب. ستبقى المدينة في أيدي الألمان في الأعوام الأربع التالية.



الجنرال هيغ الذي خَلف فرنش في قيادة الحملة العسكرية البريطانية في فرنسا.

الفظائع الألمانية في بلجيكا: وفاة القبطان فريات وإديث كافيل

ظهرت تقارير عن أفعال رهيبة ارتُكبت ضد السكان المدنيين بعد غزو القوات الألمانية بلجيكا مباشرة. باتت تلك التقارير أقوى، ووصلت إلى الصحافة العالمية التي ضخّمتها كثيراً. الحقيقة أن الألمان كانوا قاسين جداً في عدّة مناسبات مع السكان المحليين، وأرهبوهم غالباً من دون سبب وجيه. تخيّل الألمان أنفسهم محاطين بـ مقاتلين مدنيين في كل مكان. إذا نُسف جسر في مكان ما، فسيُلقى اللوم على المدنيين المحليين ويُعاقبون.



خفير ألماني يحرس مبنى في ليل.



قبطان الأسطول التجاري البريطاني تشارلز فريات، الذي حاول تنفيذ تعليمات تشرشل وقصف مركباً ألمانياً. اعتُقل وأعدم بوصفه مقاتلاً مدنياً.



N° 29

Bekanntmachung

Der englische Handelsschiffs-kapitän

Charles Fryatt
aus Southampton

hat, trotzdem er nicht der feindlichen Wehrmacht angehörte, am 28. März 1915 versucht, ein deutsches Unterseeboot durch Rammen zu vernichten. Er ist deshalb durch Urteil des Feldgerichts des Marinekorps vom heutigen Tage

zum Tode verurteilt
und erschossen worden.

Eine ruchlose Tat hat damit späte, aber gerechte Sühne gefunden.

gez. **von Schröder**
Admiral.
Kommandierender Admiral des Marinekorps.

Brügge, den 27. Juli 1916.

Bekendmaking

De Engelsche handelsscheeps-kapitein

Charles Fryatt
van Southampton

heeft, niettegenstaande hij niet tot de vijandelijke krijgsmacht behoorde, op 28 Maart 1915 gepoogd een duitsche onderzeeboot door rammen te vernielen. Hij is daarom door vonnis van het Krijgsgerecht van het Marinekorps, in date van heden,

ter dood veroordeeld
en doodgeschoten geworden.

Eene roekelooze daad heeft daarmede hare laattijdige maar gerechtige straf ontvangen.

(get.) **von Schröder**
Admiraal.
Bevelvoerende Admiraal van het Marinekorps.

Brugge, den 27 Juli 1916.

AVIS

Le capitaine anglais de la marine marchande

Charles Fryatt
de Southampton

quoique ne faisant pas partie de la force armée ennemie, a essayé, le 28 Mars 1915, de détruire un sous-marin allemand en le heurtant. C'est pourquoi il a été

condamné à mort
par jugement de ce jour du Conseil de guerre du Corps de Marine et a été exécuté.

Un acte pervers a reçu ainsi son châtiment tardif mais juste.

(signé) **von Schröder**
Amiral.
Amiral Commandant du Corps de Marine.

Bruges, le 27 Juillet 1916.

بيان إعدام تشارلز فريات.

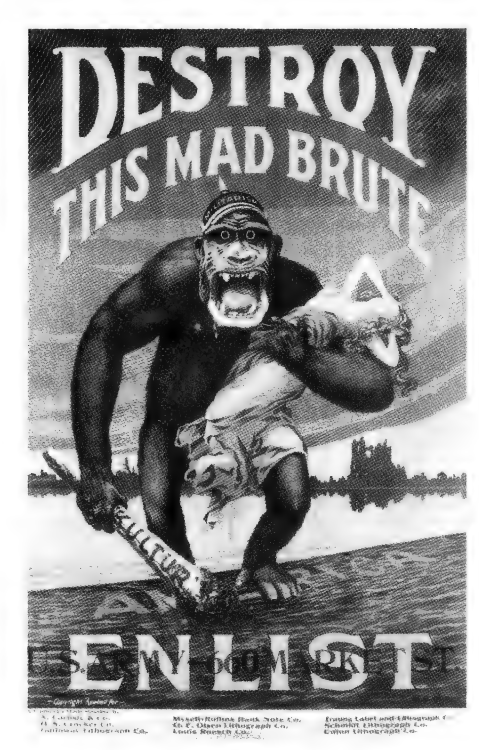
كانت الشكوك الألمانية في محلّها أحياناً، إنما ليس دائماً. لكن الألمان لم يكونوا مهتمين فعلاً بمعرفة الفاعلين الحقيقيين، وحاولوا سحق أي شكل من المقاومة المدنية بالوعيد والرد القاسي، وأدّى هذا غالباً إلى ارتكاب أفعال جرميّة مروّعة. جرى أحد الأمثلة عند احتلال قرية أندين، فقد وجد الألمان الجسر مدمّراً، ما جعلهم يحرقون البلدة مباشرة ويعدمون نحو ثلاث مئة قروي. هُدم نحو ثلاث مئة منزل، وفي الأيام التالية نهب الألمان القرية، من ثمّ دمّروها تماماً. أبدى الألمان قسوة أيضاً بعد سقوط نامور ودِينانت، فقد نهبوا المنازل، ودخلوا الكنائس في أثناء القدّاس وأطلقوا النار على كل الرجال. أُعدم أكثر من ثمانين رجلاً في ساحة السوق، من ثَمّ أُحرقت المدينة ودُمّرت كلها تقريباً. أُشعلت النار في المكتبة الشهيرة في بلدة لوفان فضاعت قرون من الثقافة من دون بذل أي جهد لحفظ تلك الكنوز. ترافق التقدّم الألماني عبر بلجيكا مع أعمال قتل ونهب، واكتسب الألمان سمعة سيئة بإعدام قبطان الأسطول التجاري البريطاني تشارلز فريات والممرضة البريطانية إديث كافيل، كان ذلك من بين تلك الأعمال. أثار موتهما سخط الرأي العالمي وأضرَّ كثيراً بسمعة ألمانيا. حاول الألمان لاحقاً الدفاع عن أفعالهم، ووضعها في سياقها الصحيح. وبرغم أن دعاية الحلفاء قد ضخّمتها كثيراً غالباً، إلا أن الحقيقة هي أن التقدّم الألماني عبر بلجيكا كان بحد ذاته جريمة لا تُغتفر ولا شيء يمكن أن يبرّر الفظائع التي ارتكبوها. جعلت تلك الأفعال الناس يمقتون الألمان، وأفادت كثيراً دعاية العدو.

RED CROSS OR IRON CROSS?



WOUNDED AND A PRISONER
OUR SOLDIER CRIES FOR WATER.
THE GERMAN "SISTER"
POURS IT ON THE GROUND BEFORE HIS EYES.
THERE IS NO WOMAN IN BRITAIN
WHO WOULD DO IT.
THERE IS NO WOMAN IN BRITAIN
WHO WILL FORGET IT.

ملصق دعاية مخصّص لتعزيز إرادة القتال لدى الشعب البريطاني.



ملصق دعاية بريطاني بعد وفاة إديث كافيل.

PROCLAMATION

Le Tribunal du Conseil de Guerre Impérial Allemand siégant à Bruxelles a prononcé les condamnations suivantes :

Sont condamnés à mort pour trahison en bande organisée :

Edith CAVELL, Institutrice à Bruxelles.
Philippe BANCQ, Architecte à Bruxelles.
Jeanne de BELLEVILLE, de Montignies.
Louise THUILIEZ, Professeur à Lille.
Louis SEVERIN, Pharmacien à Bruxelles.
Albert LIBIEZ, Avocat à Mons.

Pour le même motif, ont été condamnés à quinze ans de travaux forcés .

Hermann CAPIAU, Ingénieur à Wasmes. – Ada BODART, à Bruxelles. – Georges DERVEAU, Pharmacien à Pâturages. – Mary de CROY, à Bellignies.

Dans sa même séance, le Conseil de Guerre a prononcé contre dix-sept autres accusés de trahison envers les Armées Impériales, des condamnations de travaux forcés et de prison variant entre deux ans et huit ans.

En ce qui concerne BANCQ et Edith CAVELL, le jugement a déjà reçu pleine exécution.

Le Général Gouverneur de Bruxelles porte ces faits à la connaissance du public pour qu'ils servent d'avertissement.

Bruxelles le 12 Octobre 1915

Le Gouverneur de la Ville,

حظي موت إديث كافيل باهتمام واسع النطاق وأضرَّ بألمانيا. البيان في بروكسل في تشرين الأول/ أكتوبر 1915.

قدّمت الممرضة البريطانية إديث كافيل مساعدة وملاذاً لجنود بريطانيين جرحى، فاتُّهمت بالتجسّس والخيانة وجرى إعدامها.



جنود ألمان في خندقهم في فلاندرز.

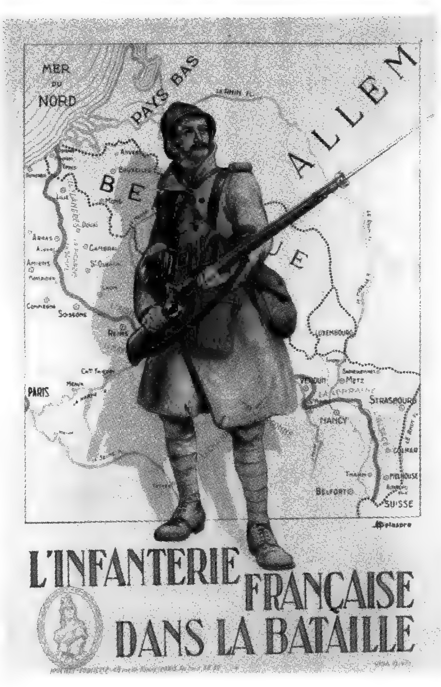
معركة المارن

نقطة التحوّل

اضطر القائد العام الفرنسي أن يطلب من جيوشه التراجع أمام التقدّم السريع للقوات الألمانية. أمر بإنشاء خط دفاعي جديد على طول فيردان – لاون – أميان، وتكوين جيش سادس جديد ليتمركز بسرعة حول أميان والمناطق المحيطة بها المكشوفة تماماً أمام التقدم الألماني. بعد الهزيمة البريطانية في لو كاتو، واجهت الفرق الست من هذا الجيش الجديد صعوبات فوراً، واضطرت للتراجع نحو باريس.

قرّرت الحكومة الفرنسية اتخاذ إجراءات خاصة لحماية باريس وأصدرت أوامر لثلاثة فيالق بالتحرّك إلى هناك. طُلب من الجنرال المسن غاليني، الذي قد تقاعد آنذاك، تولّي قيادة تلك القوات والدفاع عن المدينة بأي تكلفة. عُزّز الجيش السادس الجديد الذي تمركز آنذاك قرب باريس بوحدات مغربية وجزائرية بقيادة الجنرال مونري الذي أمر قواته بالانتشار واتخاذ مواقع شمال باريس. جهّزت المدينة نفسها للمعركة المقبلة، وانتظر سكانها بقلق ما سيحدث آنذاك.

ازداد الضغط الألماني من دون هوادة. ووجد الحلفاء أنفسهم مرغمين على التراجع عن



ملصق تجنيد فرنسي.

ذلك الخط. لكن ذلك التقدّم الألماني السريع ترافق مع مشكلات لهم. باتت خطوط التواصل أطول بازدياد بين الوحدات الألمانية وقائدها العام. في الواقع، لم يعد لدى فون مولتكه صورة شاملة عن الجبهة أو يعرف بدقة ما يجري عليها. ازداد تشوّش أفكاره بشأن الأحداث على الجبهة الغربية بالتقدم الروسي غير المتوقع إطلاقاً في الشرق.

أدّت برقيات تحذير من تلك الجهة إلى قيام فون مولتكه بسحب فيلقين من الجبهة الغربية ونقلهما بسرعة لإيقاف التقدّم الروسي. يبدو واضحاً، هنا، أن فون مولتكه قد أُصيب بالذعر، إذ اقتضت خطة فون شليفن إنشاء دفاع مرن على الجبهة الشرقية يأخذ بالحسبان احتلال الروس أراضٍ ألمانية في بروسيا في وقت قصير.

كان فون مولتكه قد لاحظ أيضاً أن قواته تحتل بسرعة مزيداً من أراضي العدو، إنما لا تأسر أعداداً كبيرة من الجنود، أو تستولي على غنائم مهمة. تراجع الفرنسيون والبريطانيون باستمرار، لكن جيوشهم لم تستسلم، وبقيت مستعدة قتالياً. أراد فون مولتكه رؤية نتائج، وبرغم أنه لم يغيّر الأهداف، إلا أنه وافق على طلب فون بولوف بأن يقوم الجيش الثاني بملاحقة الجيش الخامس الفرنسي وتدميره في أثناء تراجعه من شرق باريس نحو الجنوب الشرقي. كان ذلك يعني تجاهل العنصر الأساس من خطة فون شليفن. اندفعت القوات الألمانية آنذاك غرب باريس، متجاهلة المدينة بهدف – كما ظنّوا – تحقيق انتصار سريع وسهل على الجيش الخامس الفرنسي.

كان لهذا القرار من فون مولتكه بالموافقة على طلب فون بولوف نتائج بعيدة المدى، وكلّفه النصر في معركة فرنسا، ما جعل ألمانيا تخسر الحرب في نهاية المطاف. لم يرغب الجيش الأول الألماني بقيادة فون كلوك بأن يحصل فون بولوف على كل غنائم الجيش الخامس الفرنسي المطوّق آنذاك. ترك فون كلوك من دون إذن الطريق المحدّدة له، وعبَر واز ليصل إلى مؤخرة الجيش الفرنسي المتراجع، وآنذاك فقط أبلغ فون مولتكه أنه لم يلتزم بمساره الأصلي.

لم يتدخّل فون مولتكه، وأمر الجيش الأول بتأمين جناح الجيش الثاني لحمايته ضد هجمات من الغرب. كان هذا يعني اضطرار فون كلوك للتقدّم ببطء أكبر لمجاراة قوات فون بولوف، لكن الجنرال لم يلتزم بذلك إطلاقاً. في النهاية لم يستطع الحفاظ على تقدّمه السريع فاضطر للتخلّي عن



جنود من المستعمرات يتلقّون تعليمات بشأن معركة المارن من ضابطهم الفرنسي.

ملاحقة الفرنسيين بسبب نقص الإمدادات. لم يستطع الجيش الثاني، بنحو غير مفاجئ، مجاراة التقدّم السريع لـ فون كلوك وقواته، وأراد أخذ قسط من الراحة آنذاك. من ثم، فُتحت ثغرة اتسعت بازدياد بين الجيشين.

عندما أدرك الجنرال المسن غاليني في 3 أيلول/ سبتمبر، أن الألمان سيتجاوزون على الأرجح باريس وأنهم يكشفون جناحهم له، أمر الجيش السادس المكوّن حديثاً بالتجمّع. أخبر جوفر بأن الألمان لا يخطّطون لمهاجمة باريس، وإنما العبور إلى الشرق، وأن ثغرة كبيرة قد فُتحت بين الجيشين الألمانيين، وطلب إذنه لشن هجوم. كان اقتراب الألمان من باريس قد أثار ذعراً كبيراً في تلك المدينة، ما جعل الحكومة تغادر إلى بوردو.

سرى الخوف في مقر القيادة الألمانية أيضاً. رأى فون مولتكه الخطر الداهم في المسافة المتزايدة بين الجيشين الأول والثاني، فأرسل المقدّم هنتش؛ أحد ضباط الأركان، إلى كلا الجنرالين يحمل أوامر واضحة بجسر تلك الفجوة بينهما فوراً. واجه هنتش صعوبة في إقناع كلا الجنرالين بضرورة هذا العمل، فقد كان الجيش الخامس الفرنسي ينفّذ انسحاباً كاملاً والإجهاز عليه ممكناً. في 6 أيلول/ سبتمبر، قدّم الاستطلاع الألماني تقريراً عن وجود تحرّكات خطرة لقوات من خطوط

الدفاع عن باريس، وأن القوات الفرنسية تستعد كما يبدو، لشنّ هجوم على الجناح الألماني. وصل التقرير بالكاد قبل اندلاع المعركة على طول المارن.

قاتل فون كلوك آنذاك للنجاة بحياته قرب باريس، وبرغم أن جناحه كان مكشوفاً للجيش السادس الفرنسي، إلا أن قواته صمدت أمام تلك الهجمات، ما جعله يتفاءل بإلحاق الهزيمة بالفرنسيين. بدت الأمور مختلفة للجيش الثاني بقيادة فون بولوف. فبعد أربعة أيام من المعارك الشرسة التي شنَّ فيها الفرنسيون هجمة إثر أخرى، اضطر الجنرال إلى التراجع في 9 أيلول/ سبتمبر ما أرغم فون كلوك على فضّ الاشتباك والانسحاب أيضاً. تحرّكت قوات فون بولوف آنذاك بسرعة أكبر، وبدلاً من تضييق الثغرة بين الجيشين، باتت أوسع ووصلت إلى نحو 19 ميلاً. طلب الجنرال جوفر من الحملة العسكرية البريطانية الاندفاع في هذه الفجوة لعزل القوتين الألمانيتين عن بعضهما، لكن الرد البريطاني جاء فاتراً نوعاً ما. تقدّموا فعلاً إنما ببطء شديد ما أهدر فرص النجاح.

في أثناء ذلك الوقت، كان الفرنسيون قد كوّنوا الجيش التاسع الجديد بقيادة الجنرال فوش، وجرى إرساله لمؤازرة الجيش الخامس. اشتبكوا فوراً مع الجيش الثالث الألماني وعدّة فيالق من جيش فون بولوف الثاني، الذي نجح في جعل الفرنسيين يتراجعون عدّة كيلومترات في 8 أيلول/ سبتمبر. أمر فوش بشنِّ هجوم مضاد، إنما لم ينجح في تحقيق أي اختراق.



معركة المارن (6–12 أيلول/ سبتمبر 1914). أنقاض قرية سرمي–لو–باين بعد القصف المدفعي الألماني.



نهر إيسر حيث صدّت القوات البلجيكية والفرنسية الألمان.

أثمرت مبادرة فوش، برغم ذلك، نتائج جيدة. جعلت المقاومة العنيفة فون مولتكه يصدر أمراً بفض الاشتباك والاقتراب من الجيش الأول بقيادة فون كلوك. في 11 أيلول/ سبتمبر، زار فون مولتكه الجبهة أول مرة، وتوصل إلى استنتاج أن مواقع الجيشين الأول والثاني لا تزال عُرضة لخطر التطويق. أصدر أمراً آنذاك، بتنفيذ انسحاب منسّق إلى مواقع جديدة في آيزن وفسن قرب رانس. انسحبت الجيوش الألمانية الأخرى أيضاً، وامتد خط الجبهة الجديد من رانس إلى فردان، بعد معركة المارن.

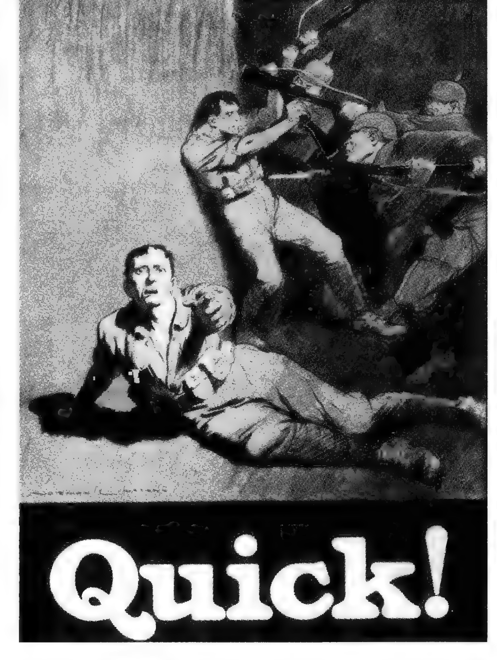
كان عصيان فون كلوك، وحقيقة أن فون مولتكه لم يعاقب على ذلك فوراً، إضافة إلى التنافس بين فون كلوك وفون بولوف، أسباباً لفشل خطة فون شليفن في نهاية المطاف. لقد ذهبت فرص إنهاء الحرب بسرعة أدراج الرياح آنذاك.

السباق إلى البحر، ومعركتا إيسر وأيبر

عزل فون مولتكه وتعيين فالكنهاين

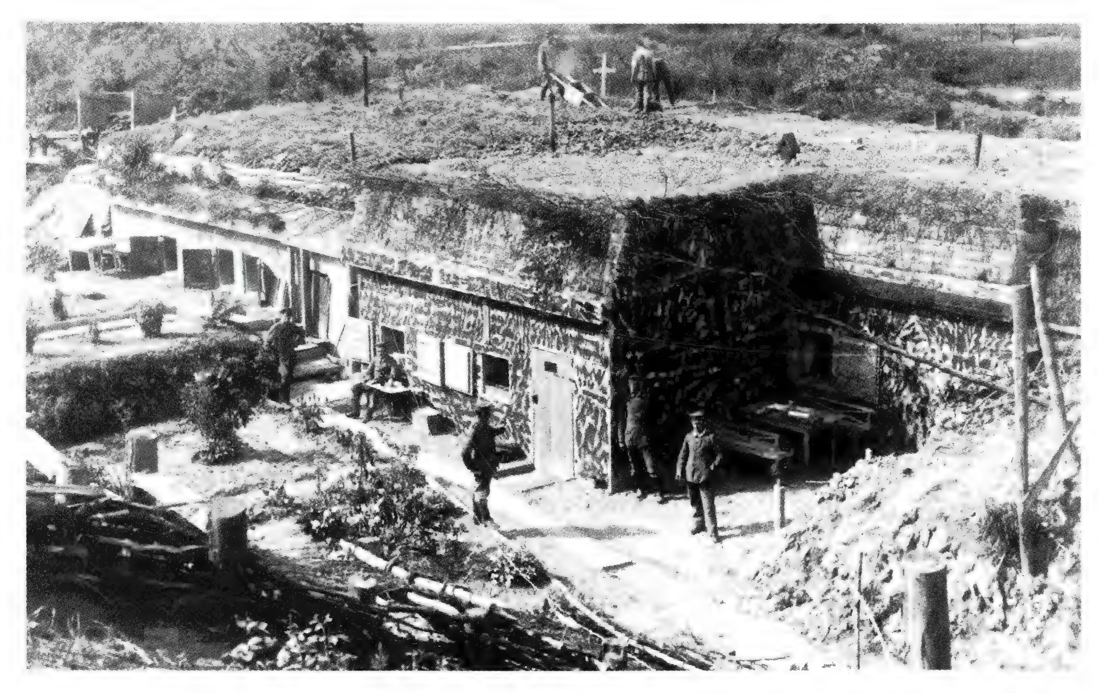
تراجعت الجيوش الألمانية بعد معركة المارن، نتيجة عزل الجنرال فون مولتكه من القيادة، واستبداله بوزير الحرب الفريق إريش فون فالكنهاين.

عاد فالكنهاين إلى المبادئ الرئيسة. كان مقتنعاً أن حرباً طويلة الأمد تنتظر ألمانيا. وقد لا تكون إحتياطيات القوى البشرية، والموارد، والغذاء كافية لها. أصدر أوامر للصناعة الألمانية بالتحوّل الكامل نحو الإنتاج الحربي، ومنح أولوية أدنى لإنتاج السلع الاستهلاكية. طبّق أيضاً سياسة أشد صرامة، فيما يخص المعفيين من الخدمة العسكرية الإلزامية، لجعل مزيدٍ من الرجال يحملون السلاح. أمر بعد ذلك



ملصق تجنيد بريطاني بعد إرسال المجندين الأوائل إلى ساحات المعارك.

مواقع فرنسية عند نهر إيسر.



مقر قيادة ألماني على ضفاف إحدى قنوات أيبر.

قواته بالوصول إلى الساحل البلجيكي في أقرب وقت ممكن، واقترح تطويق القوات الفرنسية والبلجيكية وإبعادها عن البحر. امتد خط الجبهة آنذاك من سواسون في الشمال إلى بيرون، وأراس، ولوس، إلى شرق أيبر، ولانغمار، وليل، وديكسماودة، إلى السواحل البلجيكية. عزّز الفرنسيون كثيراً المساحة بين هذا الخط والساحل، وحاولوا دفع الألمان شرقاً عبر هجمات مكثّفة. بين الحادي والعشرين والثلاثين من أيلول/ سبتمبر، بُذلت جهود كبيرة لوقف التقدّم الألماني على واز في الجنوب، وإرغامهم على التراجع. في الوقت عينه، حاول الجيش الثاني الفرنسي بقيادة الجنرال دي كاستلنو إلى الشمال من واز، تطبيق المناورة نفسها، في حين انتشرت قوات بريطانية بقيادة الجنرال فرنش بين لوس وأيبر، لتكوين دفاع ضد الهجمات الألمانية. كانت المعركة حول أيبر شرسة بنحو خاص؛ لأن الألمان حاولوا تحقيق اختراق بقوات شديدة البأس. تشبّثت قوات بلجيكية وفرنسية بالزاوية الأخيرة إلى شمال الخط البريطاني، على طول خط إيسر إلى الساحل.

فتح البلجيكيون بوابات السد على نيووندام لغمر الأراضي المحيطة به بالماء، إنما لم يكن ذلك كافياً لإيقاف الألمان. مرة أخرى قاتل البلجيكيون بعزيمة وشجاعة كبيرين.

حقّقت أربعة فيالق ألمانية جديدة مكوّنة من 165.000 رجل اختراقاً في 16 تشرين الأول/ أكتوبر، لتصل إلى إيسر. كانت أولى معارك ذلك النهر على وشك أن تبدأ.



جنود فرنسيون يتجمّعون على ضفة نهر إيسر.

منطقة «متنازع عليها» بجانب جسر مدمّر فوق إيسر.



جنود بلجيكيون على جبهة إيسر.



السكة الحديدية المهمة في بوزينغ المتصلة بجبهة إيسر.

مقابل: غمر البلجيكيون الأرض قرب رامسكابيل بالماء لإبطاء التقدّم الألماني السريع.



جنود أستراليون ينتظرون أمر الهجوم عند إيسر.

معركة إيسر، والقتال البطولي للجيش البلجيكي

واجه 48,000 جندي بلجيكي، الذين واصلوا القتال شهرين ونصف، 100,000 جندي ألماني مع 350 مدفعاً عبر إيسر. طُلب من البلجيكيين الصمود مدة ثمانٍ وأربعين ساعة على الأقل حتى تصل التعزيزات إليهم. كانت الأرض قد تحوّلت إلى طين لزج بعدَ يوم من أمطار غزيرة، ما جعل ظروف القتال شاقّة جداً. تمركز البلجيكيون في مواقع عند ديكسماودة ونيوبورت، إلى الشمال والجنوب من إيسر، حيث سيطروا على النقاط المحتملة لعبور الألمان. من أجل تأخير التقدّم الألماني، اتخذوا أيضاً مواقع على جانبَي النهر وأنشؤوا خطاً دفاعياً ثانياً خلف ضفتيه مباشرة. نُشرت قوات فرنسية أيضاً لإبقاء خطوط المواصلات مفتوحة مع أوستند وفرنسا.

تركّز الهجوم الألماني على ديكسماودة؛ النقطة التي عمل الألمان على تحقيق اختراق فيها، وعزل البلجيكيين عن حلفائهم قبل دفعهم إلى البحر أو هزيمتهم.

مشاة بريطانيون على خط الجبهة.



نيران مدفعية ألمانية على مواقع بريطانية قبل هجوم المشاة على إيبر.



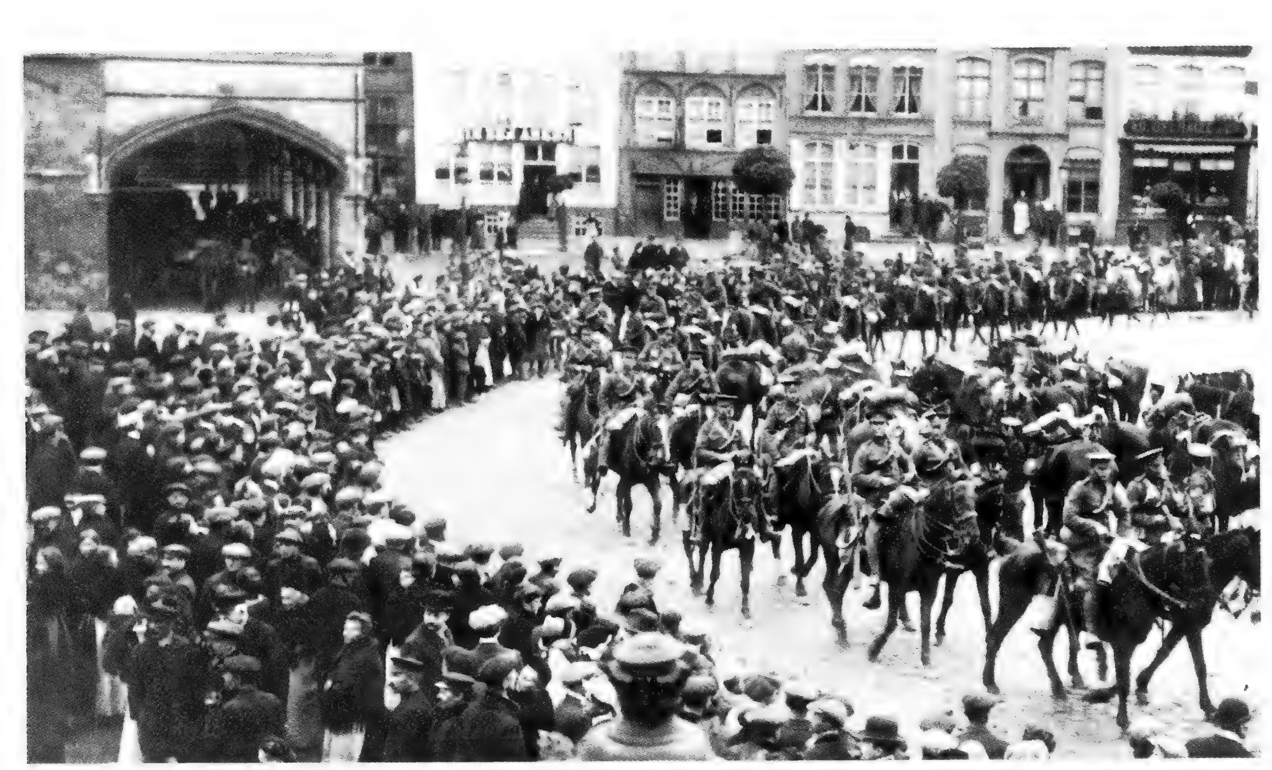
مبانٍ متضرّرة على ضفة نهر لي.



أطلقت المدفعية الألمانية قذائفها على هذا الجسر في ورميتون من دون أن تصيبه.



جنود فرنسيون يعبرون إيبر أيضاً في طريقهم إلى الجبهة. جنود فرنسيون عند غروت ماركت في أيبر، تشرين الأول/ أكتوبر 1914.



قوات بريطانية تدخل أيبر في 13 تشرين الأول/ أكتوبر 1914، بعد أن غادر الألمان البلدة.

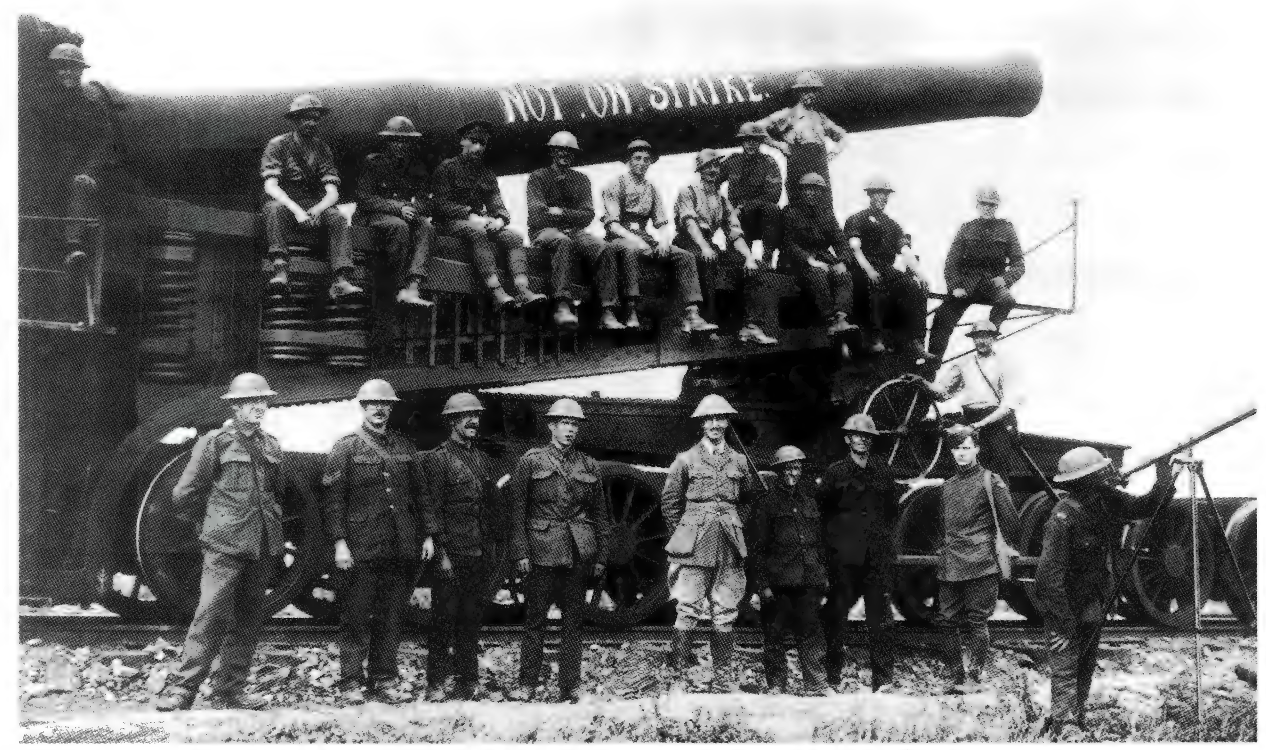
مشاة بريطانيون في خندقهم.



ضابط بريطاني وجنوده بعد وقوعهم أسرى في إيبر، 1915.

بعد ظهر السادس عشر اقتربت مجموعة استطلاع من ديكسماودة، إنما لم تنجح في الوصول إلى البلدة. وفي اليوم التالي فتحت المدفعية الألمانية النار على قرية راتنفاغنر الصغيرة، ما جعلها تحترق. في اليوم الثامن عشر بدأ قتال شرس على طول خط الدفاع البلجيكي في أيبر. عندما استعرت المعركة، أطلق أسطول صغير من البحرية الملكية البريطانية النار على جناح المهاجمين الألمان، فتعثّر الهجوم وتوقّف.

حقّق الألمان نجاحاً أكبر عند مانكسفير شمال نيوبورت، ووصلوا إلى ذلك المكان. نجحت مدفعيتهم في جعل البلجيكيين يتراجعون عن خطّهم الدفاعي الأول. شنَّ البلجيكيون تلك الليلة هجوماً مضاداً، واستعاوا المواقع التي خسروها سابقاً. في 19 تشرين الأول/ أكتوبر، نجحت وحدات بلجيكية في استعادة الأماكن النائية من مانكسفير، لتخسرها مجدداً بعد عدّة ساعات. تعرّضت ديكسماودة أيضاً إلى قصف عنيف من الألمان، وسقط معظم خط الدفاع البلجيكي في أيديهم. في الشمال عبروا قناة باشنديل واحتلوا لومباردزيد، وهاجموا ديكسماودة في الوقت نفسه. بعد قصف كثيف ظهر مشاة الأعداء من عدّة اتجاهات عند العاشرة صباحاً، إنما لم ينجحوا في التغلّب على البلجيكيين.



مدفع ثقيل بريطاني محمول على السكّة الحديدية بعد إطلاق النار منه.



مشاة يتركون خنادقهم ويهاجمون خطوط العدو في إيبر، 1917.



جندي ألماني جريح يُنقل أسيراً خلف خط الجبهة.

جرى آنذاك قتال شرس على طول إيسر، واشتعلت حرائق في ديكسماودة ونيوبورت، وانتشرت النار بسرعة كبيرة فيهما. شنَّ الألمان هجوماً عنيفاً آخر ضد ترفيت في ليلة الثاني والعشرين، واستطاعوا الاستيلاء على جسر مشاة صغير فوق النهر، وأقاموا نقطة عبور على الضفة اليسرى لإيسر. فشل هجوم مضاد بلجيكي، وفي اليوم الثالث والعشرين تمكّن الألمان من توسيع وتعزيز موطئ قدمهم على الضفة اليسرى، ما جعلهم يهدّدون خط الدفاع البلجيكي الثاني. جرى طلب المساعدة الفرنسية، فساند 6000 من مشاة البحرية الفرنسية، بقيادة الأميرال رومار، البلجيكيين للدفاع عن المنطقة حتى 10 تشرين الثاني/ نوفمبر، لكن الوقت كان قد فات آنذاك. برغم المقاومة الشرسة تغلّبت القوات الألمانية ببطء،



التلة 60 قرب أيبر. جرى عليها قتال عنيف أسفر عن خسائر كبيرة لكلا الطرفين.

فوج مشاة ألماني يقوم بتجهيز خيول ومعدّات لنقلها إلى الجبهة.

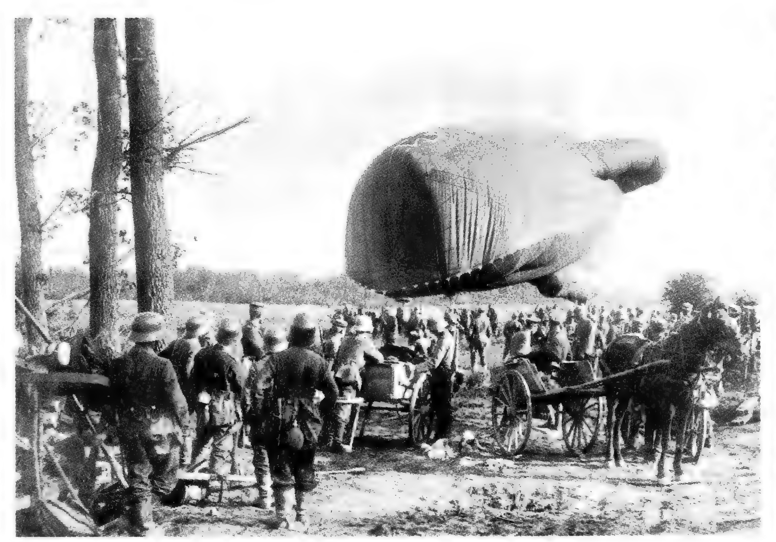
مشاة ألمان يهاجمون قرب أيبر، 1917.



حرب قرون وسطى بأدوات حديثة: فارس ألماني يضع كمّامة واقية ويحمل رمحاً.



سلاح مخيف. الأعداء يُصابون في خنادقهم بقاذفات اللهب.



منطاد ألماني على شكل مدفع في أيبر، 1917.

مشاة ألمان يستعدّون للهجوم قرب أيبر في 1917. لاحظ القنبلة اللاصقة إلى يسار الصورة.



حفرة قذيفة أحدثتها المدفعية الألمانية في المواقع البريطانية في أيبر.



قذائف تنهال على مشاة بريطانيين في أثناء معركة أيبر، 1917.



مربض رشاش ألماني قرب أيبر، 1917.

إنما بعناد، على خط الدفاع البلجيكي. وفي مساء الخامس والعشرين، وصلت أولى الوحدات الألمانية إلى ديكسماودة. انهار خط الدفاع البلجيكي الثاني في السادس والعشرين، وسقطت ديكسماودة في التاسع والعشرين، واستولت الفرقة الاحتياطية الخامسة الألمانية على رامسكابيل في اليوم الثلاثين، ما شطر الخط البلجيكي نصفين. شنَّ البلجيكيون والفرنسيون آنذاك هجوماً مضاداً عنيفاً، ووصلوا إلى المناطق الخارجية من رامسكابيل وأبعدوا الألمان عن مواقعهم الجديدة في معركة بالسلاح الأبيض. لم يستطع الألمان التقدّم أكثر، بعد أن غمر البلجيكيون المنطقة بين إيسر وخط سكّة ديكسماودة – نيوبورت بالماء، ما أرغم الألمان على إخلاء الضفة الغربية لنهر إيسر. انتهت معركة إيسر، وقد فشلت محاولة الألمان لتحقيق أي اختراق بعد ذلك، وقُدّرت خسائرهم هناك بـ 40.000 رجل. خسر البلجيكيون 25.000، لكن دفاعهم البطولي قد منع

الألمان من اختراق صفوفهم إلى القناة الإنكليزية لاحتلال الساحل. كان ذلك إنجازاً ضخماً.

معركة أيبر الأولى

حاول الألمان أيضاً تحقيق اختراق إلى البحر في أماكن أخرى. في بداية تشرين الأول/ أكتوبر، تلقّى الجيش الرابع الألماني أمراً بالهجوم على خط الدفاع البريطاني والفرنسي في أيبر، من ثمّ التقدّم نحو أبيفي في فرنسا.

كانت مثل تلك الخطوة ستجعلهم يسيطرون على الموانئ المهمة والساحل أيضاً. عندما



كانت الاستراحة قصيرة الأمد. انتقل الجنود الألمان لشن هجوم جديد عند أيبر.



دورية خيّالة ألمانية تقترب من قصر في هوترست قرب أيبر في 1917.

حفريات تحت مواقع العدو لوضع ألغام متفجّرة.



جنود ألمان يرتاحون في خندقهم على الجبهة.



أرضية غير سالكة في ساحة المعركة.



حفر قذائف مملوءة ماء قرب أيبر.



على امتداد البصر..

مربض رشاش ألماني قرب أيبر. لاحظ الدرع الجسدي للحماية من الرصاص والشظايا.



جنود بريطانيون يهاجمون قرب أيبر. كانت ظروف الأرض سيئة. حوّلت أمطار غزيرة وقصف مستمر ساحة المعركة إلى حمام وحل كبير.



جرى صراع حياة أو موت فوق هذه الأرض. مات كثيرون في حفر قذائف مملوءة ماء قرب أيبر.



خيول ومعدّات علقت في الطين، وبات مستحيلاً نقل المدفعية.



وقف جنودٌ أياماً أحياناً والماء يصل إلى ركبهم ما جعلهم يصابون بتعفّن القدم المعروف بـ«قدم الخنادق».



خنادق مملوءة ماء مع طين لزج ودبق.



أحياناً لم يكن ممكناً الوصول إلى خط الجبهة إلا على ألواح خشبية.



علقت وسائل النقل في الطين غالباً ما أخّر الغذاء والذخيرة.

فشلت معركة إيسر، أضحت أيبر الهدف الرئيس التالي لهجومهم. في 21 تشرين الأول/ أكتوبر 1914، بدأت أولى معارك أيبر من قبل الفيلقين الاحتياطيين السادس والعشرين والسابع والعشرين الألمانيين، اللذين ضمّا عدّة آلاف من الطلاب الشباب الذين تطوّعوا للقتال، وأُرسلوا إلى الجبهة بعد مدة تدريب قصيرة.

أرادوا آنذاك إظهار صلابتهم، فهاجموا أعداءهم قرب لانجمارك بحماس منقطع النظير.



جندي كندي جريح يشعل لفافة تبغ لألماني جريح في أثناء انتظار نقلهما خارج الوحل.



ضابطان بريطانيان يساعدان بعضهما للوصول إلى موقع قيادتهما.



مشاة بلجيكيون في زيلبيكي، حيث جرى قتال عنيف.



جهود لإنقاذ خيول بعد أن علقت عربة في الطين.



فرقة عمل بريطانية كُلّفت بمهمة تنظيف الخنادق من الطين. غداً سيفعلون ذلك مجدداً.



المدفعية الملكية البريطانية تُخرج مدفعاً زنة قنابله ثمانية عشر رطلاً علق في الطين عند أيبر.



ساحة المعركة في باشنديل.



حفرة لغم ضخمة في ويتشاتين.

جنود فيالق الهندسة البريطانية يشيّدون موقعاً دفاعياً على سفح باشنديل تحت العين الساهرة لـ مريم العذراء.



زونبك بعد المعركة.



ساحة المعركة في زونبك.



جنود احتياط ألمان يُنقلون على سكة حديدية إلى منين.



جنود إسكتلنديون موتى في زونبك.

بعد أربعة أيام من المعارك العنيفة اضطروا إلى التخلّي عن محاولتهم تلك. لقي نحو 3000 طالب حتفه من أجل إمبراطورهم وأرض الأجداد في ساحة معركة لانجمارك، حيث لا تزال قبورهم موجودة حتى الآن.



غابة ديلفيل بعد قصف مدفعي ألماني.





تضاريس غير سالكة في أيبر.



جرحى بريطانيون في طريقهم إلى مستشفى ميداني، وأسرى حرب ألمان يعملون حمّالي نقالات.

موقع إسعاف أوّلي تحت الأرض بجانب الطريق إلى منين.

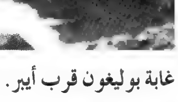


جنود جرحى في العراء ينتظرون نقلهم إلى مستشفى ميداني لتلقّي الإسعافات الأوّلية.



طريق منين. خدم أدولف هتلر هنا بوصفه حاجباً.





غابة بوليغون قرب أيبر.



بقايا أيبر.



خيّالة كنديون يعبرون بلدة أيبر المدمّرة.

زاوية الجحيم في أيبر. عربة ذخيرة أصابتها قذيفة.

جنود ألمان في خندقهم على التلة 60 سيئة السمعة.



جنود ألمان يتوقّعون هجوماً.



أحد البيوت الريفية المدمّرة الكثيرة قرب أيبر.

برغم التفوّق العددي الساحق (بلغ عدد الجنود البريطانيين 8000 رجل فقط)، إلا أن هذا الهجوم فشل بفضل المقاومة البريطانية العنيفة. وانتهت بذلك «معركة أيبر الأولى»، كما باتت



البحث عن رفيق سلاح.



جليد تكسّر نتيجة قذيفة في بومون–هامل.

ريح جليدية تهبُّ عبر ساحة المعركة. تجمّد كثيرون حتى الموت في خنادقهم.



حاول رجال تحضير شيء ساخن في خنادقهم اتقاء البرد الشديد.



كانت الظروف أسوأ في الشتاء. خيّالة بريطانيون في خنادقهم في زيلبيك.



تجمّد جنود جرحى بسرعة، ولم يتم إنقاذهم على الأغلب.



رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج في أثناء زيارة إلى الجبهة. لم يكن ينسجم مع الجنرال هيغ، وقد اتهمه بعدم الكفاءة في القيادة بسبب الخسائر البشرية الضخمة على الجبهة.

تُعرف. شنَّ الألمان عدّة هجمات أخرى. لكن في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر، قرّرت القيادة العليا إيقاف الهجوم، ما وضع حداً في ذلك الوقت لتحقيق أي اختراق إلى البحر.



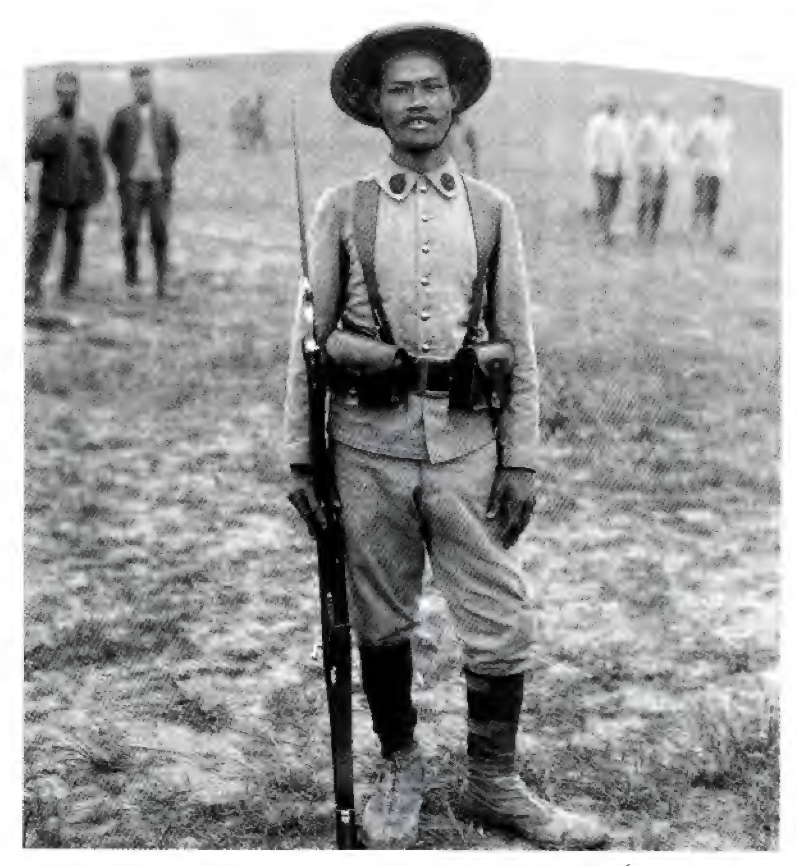
جنود هنود من الإمبراطورية البريطانية في طريقهم إلى الجبهة في أيبر.



التوثّق من أقنعة الغاز.



مشاة بحرية من مستعمرة أنام في الهند الصينية قرب أيبر في 1916.



جنّد الفرنسيون كثيراً من سكان أنام في أيبر.



اشتُهر هؤلاء الجنود الاستعماريون بقسوتهم وروحهم القتالية العنيفة ضد العدو.



جنود من أنام يرتاحون في طريقهم إلى الجبهة.



إضافة إلى جنودٍ من مستعمراتهم، جلب البريطانيون حمّالين صينيين عملوا على الجبهة.



انتشر الموت في كل مكان، ولم يكن غريباً. جنود يغسلون أيديهم في حفرة قذيفة مملوءة ماء يوجد تحتها قبور جديدة.

جنود جرحى يساعدون بعضهم للوصول إلى نقطة إسعافات أوّلية.



مقبرة أصابتها قذائف مدفعية. نُبشت الجثث وتبعثرت، من ثمّ دُفنت مرة أخرى.



جنود ألمان لقوا حتفهم في قصف مدفعي.

المعركة الثانية والهجوم بالغاز

جرت معركة أيبر الثانية بين 22 نيسان/ أبريل و25 أيار/ مايو 1915. حقّق الألمان نجاحاً أكبر آنذاك، وقد استخدموا أول مرة غاز الكلور في هجومهم الذي فاجأ تماماً القوات الاستعمارية الفرنسية بين بولكابيل وسانت جوليان، وجعلها تعاني خسائر فادحة في أثناء محاولتها الهروب. عندما تلقّت القوات الكندية على جناحهم أوامر بملء الثغرة، غلّفتها أيضاً سحبٌ من الغاز ما



جنود إسعاف بريطانيون ينقلون رجلاً جريحاً إلى مستشفى ميداني على أرضية تجعل مهمتهم شاقّة جداً. لم يكن يُعثر على الضحايا غالباً، أو يغوصون في الطين ويغرقون.



جثث ممزّقة ورفات بشرية في كل مكان. استعادة جثمان جندي غرق في الطين.



جندي كندي جريح يُنقل عبر الطين إلى مستشفى ميداني.



جنود ألمان ميتون بعد هجوم بريطاني على خندقهم.



مفقودون في المعارك، إنما عُثر عليهم لاحقاً ...



ضحية أخرى لإحدى الهجمات.



وصلت المساعدة بعد فوات الأوان لكثيرين. ماتوا نتيجة نزيف الدم، أو الإرهاق، أو عوز الماء.

جندي بريطاني جريح يحصل على إسعاف أوّلي. توفي لاحقاً متأثراً بجروحه.



إسعاف أوّلي في خندق قرب أيبر.



جعلت الخنادق الضيقة غالباً مهمة تقديم الإسعافات الأولية صعبة.



مقر قيادة ألماني أصابته قذيفة مدفعية.



عملية في المستشفى الميداني التابع لفوج الإسعاف الميداني الثالث البريطاني في أيبر.

أدّى إلى وفاة 2000 رجل من 18,000. لقد أحدث الهجوم بالغاز خرقاً عرضه نحو أربعة أميال في صفوف الحلفاء، وبعمق كبير.

كان بمقدور الألمان الاندفاع عبره، لو توافر لهم الاحتياطي المطلوب. لكن لم يحدث ذلك، واستطاع الحلفاء إغلاق الثغرة موقتاً. في 24 نيسان/ أبريل، حدث هجوم آخر بالغاز، واستولى الألمان مرة أخرى على أراض مهمة، إنما تمكن الحلفاء من استعادة مواقعهم مجدداً، لتتوقف الهجمات الألمانية في 25 أيار/ مايو. بلغت الخسائر الإجمالية في أثناء معركة أيبر الثانية 105.000 قتيل وجريح معظمهم شبان، سقطوا أو فقدوا أوصالهم في طين فلاندرز. كتب الطبيب العسكري الكندي جون مكريه القصيدة الشهيرة في حقول فلاندرز في 2 أيار/ مايو 1915، بعد وفاة صديقه ذلك اليوم، والعثور عليه بين ملايين نباتات الخشخاش النامية هناك. نشرت صحيفة بَنش القصيدة في العام نفسه في عدد 8كانون الأول/ ديسمبر، ولا تزال تُقرأ في مناسبات الذكرى السنوية.

جنود موتى ألمان إلى جانب مخبئهم.



امتلأت ساحة المعركة بجثث متفسّخة، وكانت الرائحة لا تُطاق غالباً.



نقّالة ألمانية تحمل رفيق سلاح إلى نقطة إسعاف أوّلي خلف خط الجبهة.



جنود قتلى ألمان بعد هجوم بريطاني على موقعهم.



إنذار من الغاز في أثناء أول هجوم شنّه الألمان في أيبر. لاحظ قناع الغاز البدائي.

في حقول الفلاندرز

في حُقول الفلاندرز يُزهر الخشخاش
بين الصلبان المرصوفة صفّاً صفّاً
التي تحدّد مَكانَنا، وفي السماء
لا تزالُ القبّرات، التي تشدو بشجاعة، تطير
لا تكاد تُسمعُ وسط أصواتِ البنادقِ تحتَها!
نحن الأمواتُ، وقبل أيام قلائل،
كنّا أحياء، أحسسنا بالفجّر، رأينا الأصيلَ يتألّق
أحبَبْنا وأُحبِبنْا والآن نرقدُ
في حقول الفلاندرز.
تابعوا معركتنا مع العدو
من أيد خائرات نرمي إليكم
الشعلةً، لتكن لُكم وترفعوها عالياً
وإن نقضتم العهدَ معنا، نحن الذين نموت
فلن ننام، وإن تكاثرَ الخشخاشُ
في حقولِ الفلاندرز.



جنود بريطانيون أُصيبوا بالغاز في طريقهم إلى نقطة إسعاف أوّلي. أُصيب كثيرون بالعمى وتوفوا ببطء بعد معاناة كبيرة.



جنود ألمان من فوج المدفعية السابع والعشرين مع أقنعة غاز بدائية.

المعركة الثالثة

جرت المعركة الثالثة في أيبر بين تموز/ يوليو وتشرين الثاني/ نوفمبر 1917، وهي معروفة أيضاً بمعركة باشنديل. شهدت تلك المعركة قتالاً دموياً أيضاً، واستخدم الألمان فيها نوعاً جديداً من الأسلحة؛ غاز الخردل سيّئ السمعة.

بدأت المعركة الثالثة في 31 تموز/ يوليو، وسبقها قتال قرب ميسين في 7 حزيران/ يونيو، حيث أجبَر البريطانيون الألمانَ على التراجع مسافة طويلة.

بدأ الهجوم البريطاني بانفجار تسعة عشر لغماً قد زرعتها فرق الهندسة البريطانية تحت المواقع الألمانية في أنفاق طويلة استغرق حفرها عدّة شهور. وُضعت تلك الألغام أسفل مواقع مثل التلة 60 والفوهة العالية.

مرة أخرى كانت الإصابات فادحة، وتُقّدر خسائر البريطانيين بنحو 340.000 رجل والألمان 250.000. كسب البريطانيون من الأراضي نحو خمسة أميال في الشمال وميل وربع



نهاية جيدة له. تعرّض لإصابة إنما سيعود لحسن حظه إلى الديار.



لم يحظ مقاتلون كثيرون بدفن لائق. جنود بريطانيون يحملون رفيق سلاح إلى قبره.

الميل في الجنوب. يبدو مستحيلاً وصف الظروف التي جرى القتال فيها. جعل مزيج القصف المدفعي العنيف والمطر الغزير الأرض التي تحوّلت إلى وحل غير سالكة عملياً، وقد غرق كثيرون أو اختنقوا في برك من الطين التي دار القتال عليها.

المعركة الرابعة والأخيرة في أيبر

لم تظهر معركة أيبر «الرابعة» بهذا الاسم في معظم كتب التاريخ، برغم أن القتال قد جرى فعلاً. شنّ الألمان هجوماً جديداً (وأخيراً) على الجبهة الغربية في آذار/ مارس 1918 في محاولة لتحقيق اختراق، قبل أن يزيد عدد القوات الأمريكية التي انضمت آنذاك إلى الحرب. لقد استعد الألمان لهذا الهجوم شهوراً عديدة ونقلوا جنوداً من الجبهة الشرقية إلى الغربية. ازدادت قوة الألمان، في حين تناقصت القوات البريطانية بنحو ملحوظ. جرى القتال، الذي يُطلق عليه أحياناً اسم معركة هازبروك، من 9 إلى 30 نيسان/ أبريل، بهدف دفع البريطانيين إلى البحر. نجح الألمان في استعادة بعض الأراضي التي خسروها للبريطانيين، إنما فشلوا مرة أخرى في تحقيق اختراق حاسم.

إصابات وخسائر مروّعة

خسر البريطانيون نصف مليون قتيل، أو جريح، أو مفقود في المعارك، في أثناء دفاعهم عن مثلث أيبر بين 1914 و1918، لا تُعرف قبور نحو 42.000 منهم. خسر الألمان عدداً مماثلاً من الرجال. كلّفت معارك تلك المنطقة نحو مليون إصابة من دون أن يكسب أيٌّ من الطرفين أراضٍ



القائد العام الروسي الأرشدوق نيكولا يشرف على جنوده في طريقهم إلى الجبهة.



مشاة روس يتجهون إلى الحدود الألمانية، آب/ أغسطس 1914.

واسعة. في البداية، كان الجنرال البريطاني سميث دورين قد نصح بجعل خط الجبهة مستقيماً، لكنّ كلامه ذهب أدراج الرياح.

سيثبت بعد أربعة أعوام أنه كان مصيباً في رأيه، إنما بتكلفة حياة مليون رجل: يمثّل هؤلاء جيلاً برمته تقريباً، وقد ضحوا بحياتهم في ريعان شبابهم.

الجبهة الشرقية، وهجوم الروس

توقّع الألمان هجوماً روسياً ضد شرقي بروسيا إلى الشرق من نهر فايكسل، و لم يفعلوا شيئاً لصدّه، وفقاً لخطة فون شليفن. خطّطوا للدفاع عن تلك الأرض، لكن تصوّروا أن القوات الروسية ستفوق المدافعين عدداً، وستحتل بذلك شرقي بروسيا بعض الوقت. ستكون الخسارة مؤقتة؛ لأن الجيوش الألمانية التي تقاتل في الغرب ستنتقل بسرعة إلى الجبهة الشرقية، بعد هزيمة فرنسا. شُيّدت سلسلة تحصينات لإبطاء التقدّم الروسي نحو فايكسل على طول خط ثورن، وكولم، وغراودنز، ومارينبرغ، ودانزيغ (غدانسك).

تشترك شرقي بروسيا بحدود مع روسيا على الجهتين الشرقية والجنوبية لذا، توجّب الاستعداد لشن هجمات منسّقة من الاتجاهين. كان منع الجيشين الروسيين من التغلغل عميقاً في شرقي

بروسيا، والالتقاء معاً أمراً بالغ الأهمية. أدّت بحيرات ماسوريان دوراً مهماً في هذه الخطة؛ لأن القوات الروسية من الشرق والجنوب ستضطر إلى الابتعاد عن بعضها عند البحيرات، ما سيمكّن القوات الألمانية من مهاجمتها كلٌ على حدة، وربّما هزيمتها.

أُسندت مهمة الدفاع عن شرقي بروسيا إلى الجيش الثامن الألماني بقيادة الجنرال فون بريتفيتر–غافرون الذي أمر بالتصدّي للغزاة الروس أطول مدة ممكنة، والاستفادة من مبادرته لتحديد موعد الهجوم المضاد.

تكوّنت القوات الألمانية من الفيلق العاشر بقيادة جنرال المشاة فون فرانسوا، والفيلق السابع عشر بقيادة ضابط سلاح الفرسان الجنرال فون ماكنسين، والفيلق العشرين بقيادة جنرال المدفعية فون شولتز، والفيلق الاحتياطي الأول بقيادة الفريق فون ميلوف، وعدد من وحدات المواقع العسكرية والحرس الوطني التي بلغ عددها ست عشرة فرقة. ضمّت تلك القوات ست فرق مشاة، وثلاث فرق احتياط، وثلاث فرق ونصف الفرقة من الحرس الوطني، وفرقة فرسان، وفرقتين ونصف الفرقة من جنود المواقع العسكرية. كان لدى الألمان أيضاً ما يصل إلى 846 قطعة مدفعية.

انطلق جيشان روسيّان لمواجهة الجيش الثامن الألماني: الأول بقيادة الجنرال فون رينينكامبف



جنود روس يرتاحون في طريقهم إلى الجبهة.



جنود من الجيش الأول الروسي في أثناء مسيرهم إلى الجبهة.



جنود الجيش الثاني الروسي بقيادة الجنرال سامسونوف عند يوسداو قبل بدء الأعمال القتالية في معركة تانينبرغ. انتحر الجنرال سامسونوف حين بات واضحاً أنه قد خسر المعركة.

والثاني بإمرة جنرال سلاح الفرسان سامسونوف، اللذين اقتربا من الحدود الألمانية من الجنوب. كان لدى الروس ثماني عشرة فرقة مشاة، وثلاث فرق احتياط، وعشر فرق خيّالة انطلقت نحو بروسيا، ومعها 178 سرية مدفعية فيها 1284 مدفعاً.

بعد اندلاع الحرب مباشرة، أمر الجنرال بريتفيتز قواته بالتمركز في مواقعها، وقد استغرق هذا حتى 10 آب/ أغسطس، من دون أي مواجهة مع القوات الروسية. أراد بريتفيتز مهاجمة الروس في أقرب وقت ممكن، واختار الجيش الأول لأنه سيصل إليه أولاً.

أصدر أوامر للجنرال فرانسوا باتخاذ مواقع على طول نهر أنجراب، إلا أن ذلك لم يلائم القائد الميداني، ما جعله مثالاً آخر عن جنرال ألماني يتجاهل أمراً كما جرى في معركة المارن. اندفع فون فرانسوا خمسة وعشرين ميلاً داخل الأراضي الروسية إلى شيليهن، حيث أراد مباغتة الروس.

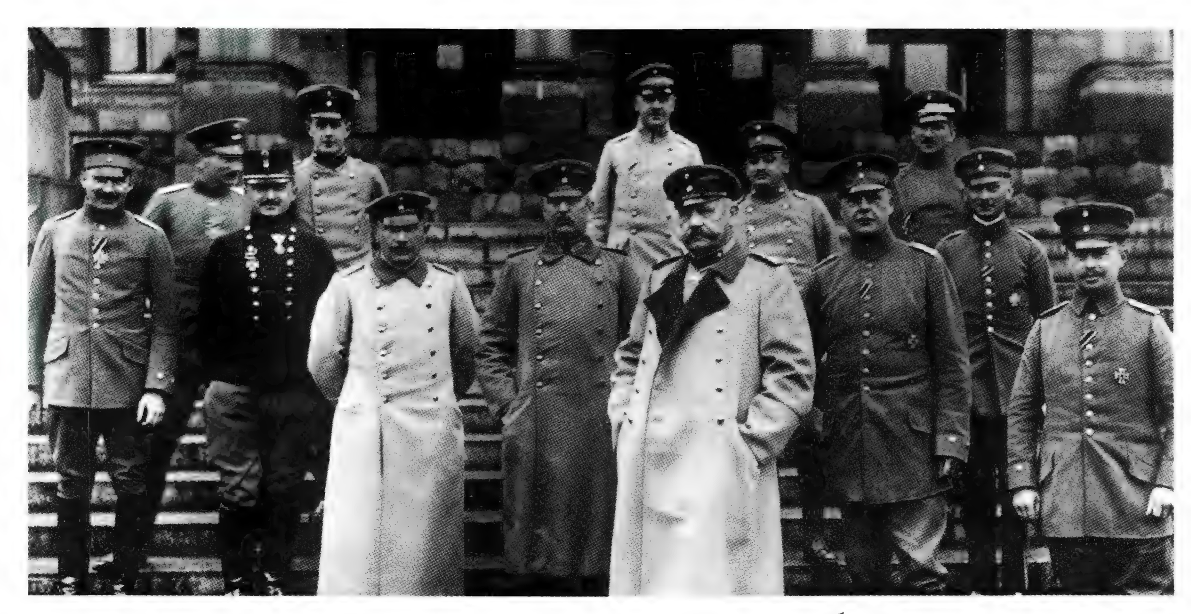


مشاة روس ينتظرون الأمر بالهجوم.

في 16 آب/ أغسطس، تحديداً بدأ الهجوم الروسي، وجرت معركة على طول خط بين شيليهن وسوالكي.

لم يكتشف الجنرال بريتفيتز حتى صباح اليوم التالي أنّ فرانسوا قد عصى أوامره، وأنّ قواته ليست حيث يجب أن تكون. أصدر أمراً فوراً بعدم الاشتباك مع العدو، والعودة إلى الخط الأصلي. مرة أخرى، تجاهل فرانسوا الأمر؛ لأنه قرّر، بنحو صحيح، أن عدم الاشتباك سيكون عملاً غير مسؤول في ذلك الوقت. لم توقف قواته الروس فقط، إنما أجبرتهم على التراجع عبر الحدود بعد أن ألحقت بهم خسائر كبيرة في الإصابات وعدد الأسرى. في القلب تراجع الخط الألماني في أثناء معركة غومبينين (20 آب/ أغسطس) بعد تكبّده خسائر فادحة. كان بريتفيتز مرغماً على التراجع إلى خلف المواقع الدفاعية على طول أنجراب، إنما دُهش حين لم يلاحقه جنود رينينكامبف، الذين عانوا أيضاً إصابات كثيرةً وتخيّلوا بعض الوقت أنهم قد خسروا المعركة.

كان عمل الجنرال فرانسوا غير المخطّط له قد عرّض خطة بريتفيتز كلها للخطر؛ لأنه قد أخّر التقدّم الألماني، ما قلّل فرص مهاجمة الجيش الأول قبل أن يصل إليه الجيش الثاني. أُصيب الجنرال بريتفيتز بالفزع، إذ توقّع هجوماً روسياً واسع النطاق يشنّه كلا الجيشين الروسيين معاً، وأبلغ قيادته بأنه يريد الانسحاب إلى خلف فايكسل لتفادي التطويق. أضاف أن ليس بمقدوره ضمان عدم التراجع مسافة أطول، لكن في اليوم التالي عندما لم يشنّ الروس هجوماً، بدت الأمور أفضل مما قد ظنّ. اقترح المقدّم هوفمان أحد ضباط أركانه تجاهل جيش رينينكامبف ونقل فيالق الجيش الأول بقيادة فرانسوا بالقطارات إلى الجنوب لتنضم إلى الجيش الثامن هناك، من أجل هزيمة الجيش الثاني الروسي. كانت خطة محفوفة بالمخاطر وكل شيء فيها يعتمد على السرعة التي سيهاجم فيها الجيش الروسي بقيادة فون رينينكامبف الجناح الألماني.



هيندنبورغ ولودندورف اللذان نفّذا الخطة بعد عزل الجنرال بريتفيتز.

قبل بريتفيتز خطة هوفمان، إنما كان الأوان قد فات آنذاك. قبل حتى إصدار الأوامر، أعفى الجنرال هيندنبورغ بريتفيتز من القيادة، واستعاض عنه بالجنرال لودندورف.

معركة تانينبرغ والدوران البطوليان لكل من هيندنبورغ ولودندورف

عندما عزل هيندنبورغ بريتفيتز من القيادة، رأى بسرعة أن الجيشين الروسيين بعيدان فعلاً عن بعضهما، ما يمنحهم متسعاً من الوقت لهزيمة كل منهما على حده. كان كل ما يجب عليه فعله هو منح موافقته الرسمية على الخطة التي قدّمها العقيد هوفمان لمهاجمة الجيش الثاني الروسي بقيادة الجنرال سامسونوف.

في ذلك الوقت، أدرك الجنرال فون رينينكامبف قائد الجيش الأول الروسي أن القوات الألمانية قد



العقل الألماني خلف معركة تانينبرغ: العقيد هوفمان.



مدافع ألمانية في طريقها إلى الجبهة.



كانت الطرق الوعرة مشكلة غالباً في نقل مواد ثقيلة.



هيندنبورغ يتفقّد قواته بعد معركة تانينبرغ.

انسحبت، و لم تعد تتمركز في مواقعها على طول خط أنجراب. بدلاً من التقدّم بسرعة، استغرق وقتاً في ذلك. عبر الجيش الروسي الآخر الحدود الألمانية وواجه الفيلق الثالث والعشرين الألماني في 23 آب/ أغسطس. تراجعت القوات الألمانية في البداية إلى الخلف، واضطرت إلى إخلاء لانا وأورلاو. أصدر لودندورف آنذاك أوامر بالدفاع عن الخط بأي تكلفة، حتى وصول فيالق الجيش الأول، بقيادة فرانسوا، التي يتم نقلها بالقطار لتعزيز الدفاع الجنوبي.

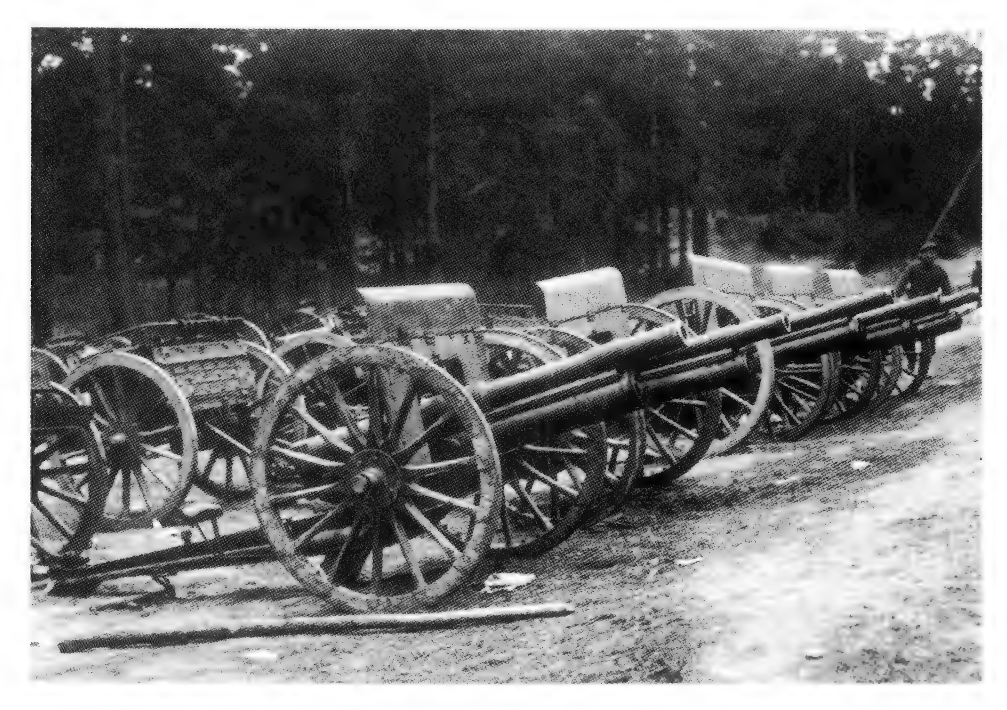
أراد الجنرال سامسونوف قطع الطريق على الألمان المنسحبين، والاندفاع نحو أولشتين– أوسترود لمنعهم من التراجع إلى خلف فايكسل. نشر جنوده ببطء شديد أيضاً، جزئياً بسبب تعبهم ونقص في الإمدادات. استطاع الألمان اعتراض الاتصالات الروسية – التي لم تكن مشفّرة غالباً – لذا عرفوا تماماً خطط الجيش الثاني الروسي.

مقابل: تفتيش أسرى حرب روس بحثاً عن أسلحة قبل اصطحابهم بعيداً.





مجموعة من الضباط الروس الذين وقعوا أسرى حرب بعد معركة تانينبرغ.



استولى الألمان على أعداد كبيرة من المدافع الميدانية الروسية.



المشير فون هيندنبورغ.

أدركوا أيضاً أن الجيش الأول الروسي بقيادة رينينكامبف موجود في المنطقة حول كونينغسبرغ، ولا يمثّل أي تهديد في ذلك الوقت للعمليات الألمانية ضد سامسونوف. وصلت فيالق الجيش الثاني الألماني بقيادة الجنرال فرانسوا على متن قطارات، وتمركزت في مواقعها الجديدة في 26 آب/ أغسطس، وشاركت فوراً في الهجوم على بعد ستة أميال من أوسدو. اندلع قتال عنيف مع قوات سامسونوف التي جرى تطويقها ببطء، إنما بثبات، وبات الجناح الأيمن الروسي مكشوفاً نتيجة سوء فهم الأوامر.

آنذاك شنّ الألمان هجوماً مباغتاً أثار الرعب بين الروس، ما جعلهم يهربون. نجحوا في الاستيلاء على أولشتين، إنما أرغموا على إخلائها بسرعة.

أُجبر الروس على تنفيذ انسحاب كامل. جرى قتال عنيف حول عقدة الطرق المهمة في نيدنبورغ، وتولّى سامسونوف شخصياً زمام الأمور على الأرض لقيادة قواته من الجبهة. أدرك بسرعة أن الوضع ميؤوس منه، وفي 30 آب/ أغسطس، بعد وداع ضباطه، انتحر في الغابة جنوب غرب ويلنبرغ، بسبب عار الهزيمة.

انتهت معركة تانينبرغ في 31 آب/ أغسطس. فقد الروس 120.000 رجل بين قتيل، وجريح، وأسير، وبات هيندنبورغ ولودندورف بطلين قوميين. طبعاً تعالت الانتقادات بسرعة بعد ذلك. لم تكن المعركة نجاحاً لـ هيندنبورغ–لودندورف، إنما العقيد هوفمان، وآخرون أيضاً، قالوا إن تانينبرغ لم تكن نصراً. أعلن الجنرال المسن بنفسه لاحقاً: «لا أعرف من انتصر في معركة تانينبرغ، لكن هناك شيء واحد واضح – لو أننا هُزمنا، لكنت قد تحمّلت اللوم».



قوات ألمانية تعبر جسراً في أثناء تقدمها في غاليسيا، أيار/ مايو 1915.



... وتتابع نحو الجبهة.



فرسان روس يتراجعون عبر فايكسل.

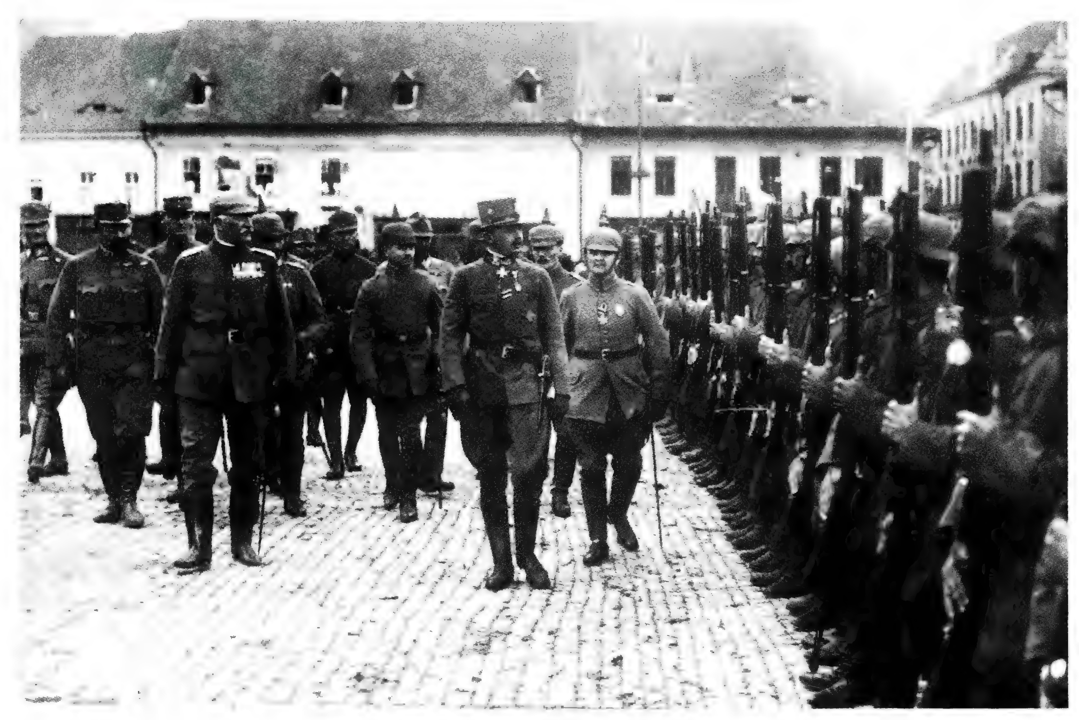


سلّم الروس أنفسهم ومدفعيتهم حين استولى الألمان على برزيمسيل.



معركة برزيمسيل في 1915. ضباط ألمان بجانب جنود قتلى روس.

جنود نمساويون يلاحقون الروس في 1915.



الإمبراطور النمساوي–المجري تشارلز في أثناء زيارة إلى الجبهة.



قوقاز روس على جبهة غاليسيا في 1917.

مقابل: الألمان يخترقون خط الجبهة الروسي في غاليسيا في تموز/ يوليو 1917. اختار القيصر الألماني هذه المناسبة لزيارة الجبهة.



جلب الألمان جنود احتياط بسرعة لتعزيز اختراقهم في غاليسيا.



مشاة ألمان يتوقفون على ضفتي فايكسل في أثناء تقدّمهم في أيار/ مايو 1915.



جنود ألمان يتجمّعون لملاحقة الروس المنسحبين في 1917.



مدفع هاوتزر ألماني دمّرته قذيفة.



معركة بحيرات ماسوريان

الهجوم الألماني

بعد هزيمة سامسونوف، تحولت القوات الألمانية مجدداً للتعامل مع جيش فون رينينكامبف. كان هذا القائد الروسي قد تابع الأحداث في أثناء معركة تانينبرغ، إنما لم يستجب لطلبات سامسونوف لمساندة الجيش الجنوبي. ظهرت إشارات كثيرة عن

تجميع أسرى حرب روس وتفتيشهم في أثناء هجوم مضاد ألماني في غاليسيا، **24** تموز/يوليو 1917.



خنادق روسية مدمّرة في تارنوبول.



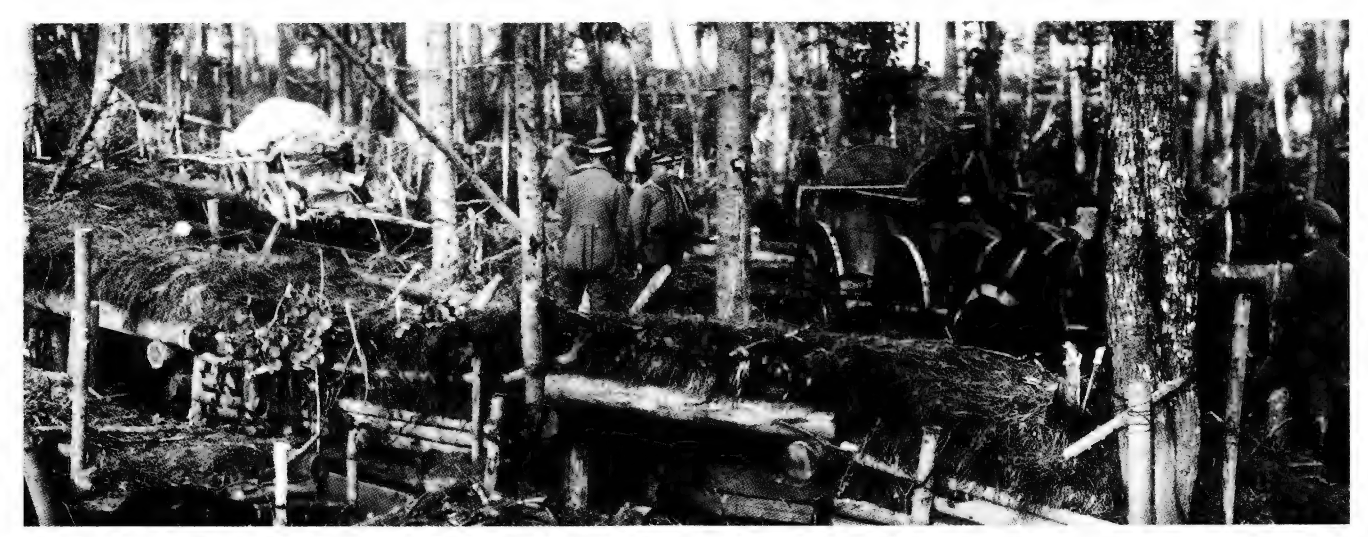
إمدادات ألمانية متجهة إلى تارنوبول التي قد جرى الاستيلاء عليها تواً آنذاك، **24** تموز/ يوليو 1917.



القيصر فيلهلم يزور قواته بعد انتصار تارنوبول.



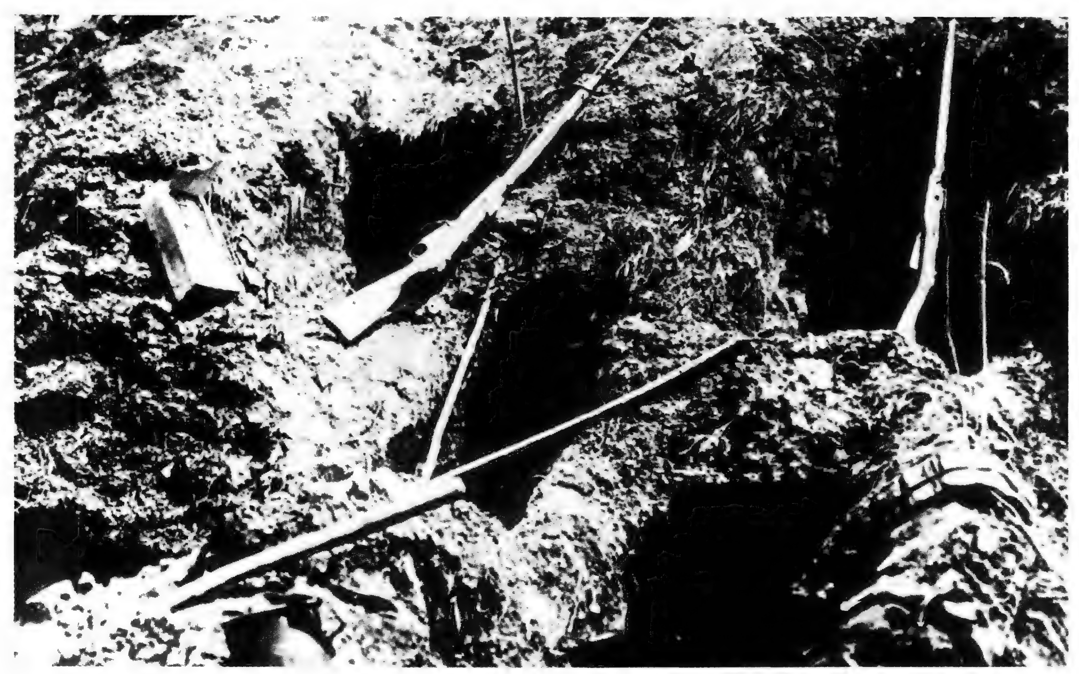
القيصر فيلهلم يتفقّد الفيلق الخامس عشر التركي في شرقي غاليسيا في 1917.



جنود ألمان يفتّشون خنادق روسية بعد الهزيمة قرب تارنوبول.

عداء كلا الجنرالين نحو بعضهما، ووجود حوافز شخصية خلف امتناع رينينكامبف عن تقديم يد العون، لكن الجنرال نفى هذا دائماً. زعم أنه لم يكن يدرك خطورة وضع الجيش الثاني، وأنه لم يلاحق القوات الألمانية ليتمكّن سامسونوف من تطويقها.

تلقّى رينينكامبف أخيراً أوامر مباشرة من مقر القيادة في 29 آب/ أغسطس، بمؤازرة سامسونوف، وهُدّد بمحاكمته ميدانياً إذا لم يتصرّف بحزم. كان الأوان قد فات آنذاك، وقد أُلغي الأمر في اليوم التالي؛ لأنه لم تعد هناك فائدة من تنفيذه.



... التي قد أخلاها الروس على عجل، تاركين أسلحتهم خلفهم.

ألمان مع مدفع روسي استولوا عليه.



موقع مراقبة وقيادة روسي بعد الاستيلاء عليه.

في ذلك الوقت، كانت قوات رينينكامبف قد تمركزت في مواقع دفاعية بين بحيرات ماسوريان وكوريش هاف، حيث شكّلت خطراً على القوات الألمانية التي تلقت أوامر بفعل كل ما بوسعها لتدمير الجيش الأول الروسي. كانت وحدات من الجيش الثاني الروسي قد انسحبت إلى شمال بحيرات ماسوريان حيث تمترست في مواقع دفاعية. امتد شمال الخط الروسي إلى كوريش هاف، وبات الجناح الجنوبي المقوّس محمياً ببحيرة موير. كان هذا موقعاً جيداً ينخفض فيه احتمال التعرّض لهجوم مباشر، في حين ستكوّن تضاريس وعرة عقبةً أمام أي تحرّكات لتطويق الجناح الشمالي، ما يجعل هجوماً على الجناح الجنوبي الطريقة الممكنة الوحيدة لتحقيق نصر.

في 5 أيلول/ سبتمبر بات الألمان مستعدين. وأصدر هيندنبورغ الأمر بشن الهجوم. حاول الألمان عزل الجيش الأول الروسي، لكن رينينكامبف منع ذلك بالانسحاب سريعاً. خسر نحو ربع قواته في أثناء أعمال قتال المؤخرة التي أعقبت ذلك، إنما نجح في الانسحاب عائداً عبر الحدود الروسية إلى بر الأمان.



جنود قوقاز من أوكرانيا قاتلوا في غاليسيا.

في أثناء معركة تانينبرغ استطاعت القوات الألمانية المتفوقة عددياً إلحاق الهزيمة بالجيشين الروسيين كلٌّ على حدة. تعرّض الجنود لضغوط كبيرة على كلا الجانبين، فقد اضطروا لقطع مسافات طويلة تصل إلى 30 كيلومتراً أو أكثر كل يوم، ليخوضوا بعد ذلك قتالاً عنيفاً. تعدُّ معركة تانينبرغ عالمياً انتصاراً ألمانياً كبيراً ومدهشاً حققته قيادة هيندنبورغ ولودندورف، وباتت لهذا السبب مرتبطة باسميهما، ما يجعلهما الأشهر في عصرهما.

القتال في غاليسيا

وصلت تقارير مثيرة للقلق من النمساويين – المجريين حين كان الألمان يقاتلون في تانينبرغ وعند بحيرات ماسوريان. ضغط الجنرال كونراد فون هوتزندورف؛ القائد العام النمساوي – المجري، لشنّ هجوم ألماني على ناريف. لم يستطع جيشه الثالث، الذي كان يدافع عن ليمبرغ، الصمود أمام الهجمات الروسية العنيفة، وأُرغم على التراجع بنحو غير منظّم في 29 آب/ أغسطس، ما عرّض جناح جيشه الرابع للخطر. سقطت ليمبرغ في 3 أيلول/ سبتمبر، وطلب

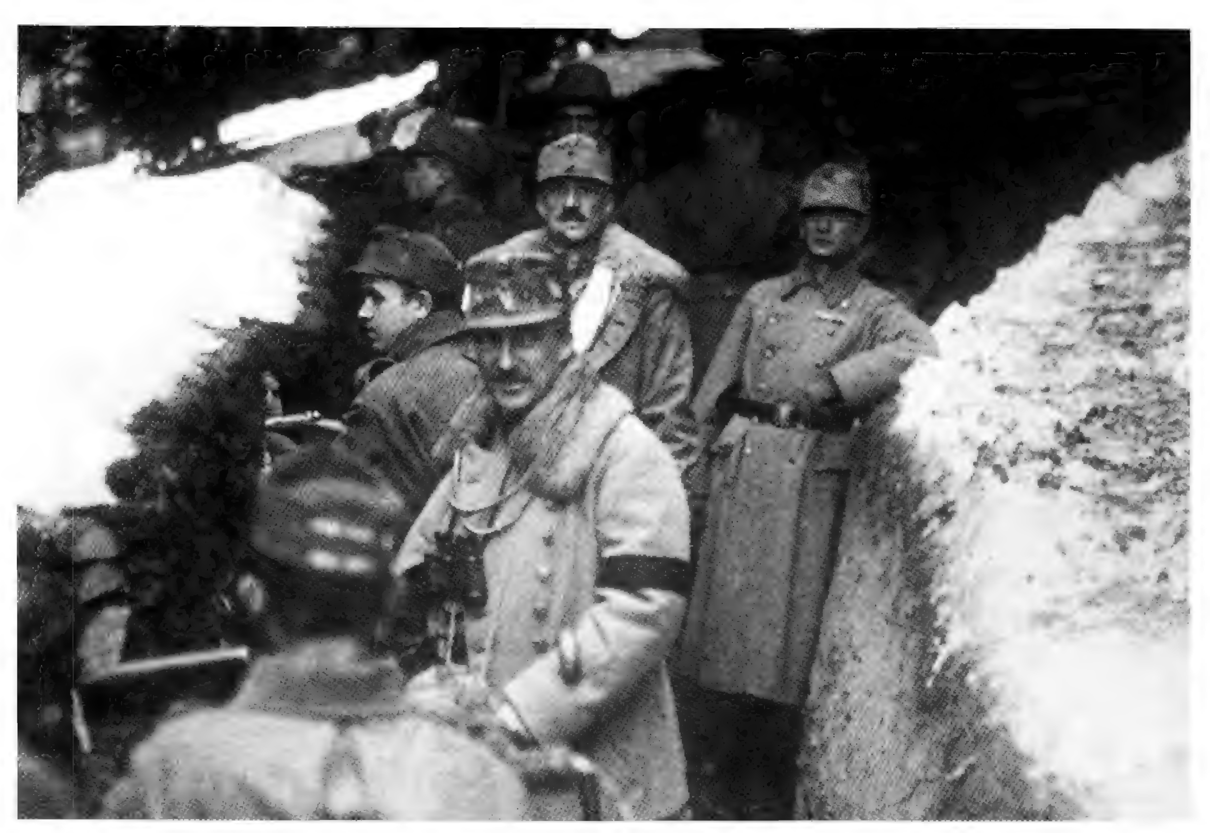
فون هوتزندورف المساعدة الألمانية وتعزيزات عاجلة تتكوّن من فيلقين ألمانيين على الأقل. رُفضت هذه المساعدة في البداية، لكن بعد هزيمة جيشي سامسونوف وفون رينينكامبف بحلول منتصف أيلول، وقيام القوات الروسية المتفوّقة عددياً بإرغام الوحدات النمساوية – المجرية على التراجع، بدا واضحاً أنها ضرورية جداً. ساد خوفٌ من وصول الروس إلى فيينا، ما قد يؤدّي إلى انهيار الحليف الوحيد لـ ألمانيا، وعُدّت مساعدة النمساويين – المجريين ضرورية سياسياً. كانت إيطاليا تتحيّن اللحظة الملائمة لمهاجمة حليفها السابق؛ لأن إضعاف الجيش النمساوي – المجري سيكون ملائماً تماماً لذلك البلد.

قرّر القائد العام الألماني الجنرال فون فالكنهاين إرسال جيشه التاسع الجديد لمساعدة النمساويين – المجريين. ضمَّ ذلك الجيش الجديد أربعة فيالق بقيادة هيندنبورغ، الذي كان مسؤولاً أيضاً عن كل العمليات على الجبهة الشرقية. سينقضي بعض الوقت قبل أن تتمركز القوات الألمانية في أماكنها.

بعد سقوط ليمبرغ شنَّ النمساويون – المجريون هجوماً رئيساً حقّق في البداية نتائج رائعة، إنما اضطروا إلى التوقف في 11 أيلول/ سبتمبر، بسبب إرهاق الجنود.



جنود روس هربوا من الأسر النمساوي–المجري.



الأرشدوق جوزيف؛ القائد النمساوي–المجري على الجبهة الرومانية، يزور الجبهة في 12 أيلول/ سبتمبر 1917.

أُرغم فون هوتزندورف على تجميع رجاله حول برزيمسيل وإلى شمالها لينالوا قسطاً من الراحة، لكن الروس واصلوا القتال، وعبروا نهر سان في 15 أيلول/ سبتمبر. تداعت المقاومة النمساوية – المجرية في نهاية أيلول/ سبتمبر، ما أرغمهم على التراجع إلى خط يمتد من الحدود البولندية إلى دوكلاباس، وستريل، وستانيسلاف، إلى تشيرنيفتسي في الجنوب. بعد سقوط تشيرنيفتسي بأيدي الروس، اضطرت قوات فون هوتزندورف إلى التقهقر أكثر خلف نهري بيالا ودوناجيك إلى بر الأمان. كانت الخسائر ضخمة، وصلت إلى نحو 400.000 رجل و300 قطعة مدفعية. عانى الروس إصابات فادحة أيضاً بلغت 250.000 رجل بين قتيل، أو جريح، أو أسير. كان أمل فون هوتزندورف الوحيد آنذاك معلقاً بالجيش التاسع الألماني المكوّن حديثاً، الذي شنَّ هجوماً في 25 أيلول/ سبتمبر. وصل الجيش التاسع إلى فايكسل بحلول 6 تشرين الأول/ أكتوبر، ومنح النمساويين – المجريين جرعة جديدة من الشجاعة، فاستطاعوا الوصول إلى نهر سان مرة أخرى، واستعادة برزيمسيل في 11 تشرين الأول/ أكتوبر. توقّف الهجوم بعد ذلك، وفي 27 تشرين الأول/ أكتوبر، أُرغم النمساويون – المجريون على التراجع مرة أخرى. بعد عدّة أيام، استعاد الروس كل الأراضي التي قد خسروها، وبدؤوا يتقدّمون نحو كاربات وسيليزيا. أُرغم

الجيش التاسع الألماني على التقهقر أيضاً لمنع تطويقه، وتخلّى عن مساحات شاسعة من الأراضي التي استولى عليها. لم يكن بمقدور الروس مواصلة الهجوم؛ لأن خطوط الإمداد باتت أطول باستمرار. بدأت الموارد تنفد، فتوقفت الأعمال القتالية. في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر، شنَّ الألمان هجوماً مضاداً مباغتاً من اتجاه ثورن، بعد نقل جيش كامل على متن قطارات إلى هناك. أسندت إلى الجيش الثاني النمساوي – المجري مهمة الدفاع عن سيلزيا في بروسيا. بدأ القتال في الوقت نفسه الذي شنَّ فيه الروس هجومهم ضد شرقي بروسيا. لم يكن الهجوم من اتجاه ثورن متوقّعاً إطلاقاً، وحقق الألمان في البداية نجاحاً كبيراً، لكن الهجوم الروسي على شرقي بروسيا لم يتوقف، واندفعوا عميقاً في تلك الأراضي حتى وصلوا إلى أنجراب. خسر الجيش التاسع الألماني 100.000 رجل في أثناء الهجوم، نتيجة الإصابات أو الإرهاق. لم يستطع الروس مواصلة القتال أيضاً، نظراً إلى نقص الطعام والذخيرة. بات الوضع أفضل قليلاً للنمساويين – المجريين برغم انتشار الأمراض بينهم، وانخفاض المعنويات يوماً بعد آخر. لم يعد هناك قتال عنيف، وتوقفت المعارك على الجبهة الشرقية في ذلك الوقت.



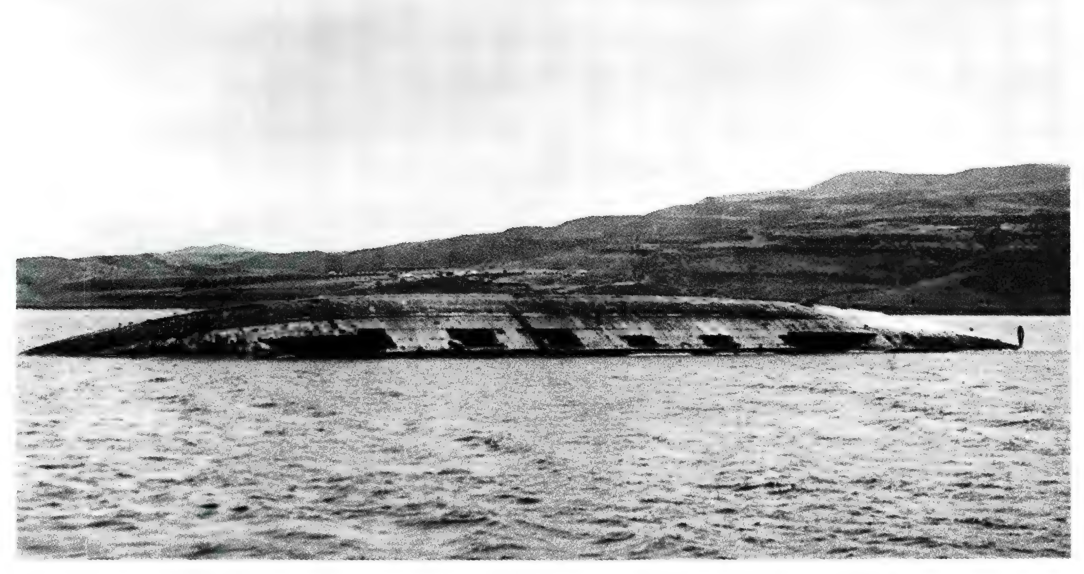
جنود ألمان يلاحقون الروس عبر كاربات حيث ألحقوا بالقوات الروسية هزيمة نكراء.

المعارك الكبرى
في 1915 و 1916
مجازر مرعبة وعقيمة من كلا الطرفين

جاليبولي (شناق قلعة)
بدء المعركة

عندما اندلعت الحرب، لم يكن واضحاً إن كانت تركيا ستشارك فيها، وإلى جانب أي طرف. كان النفوذ الألماني فيها كبيراً، والسفير والبعثة العسكرية الألمانيان فاعلون جداً، لكن البلاد لا تزال محايدة رسمياً آنذاك، ويمكنها اتخاذ قرارٍ خاصٍ بها.

أثار قرار تشرشل احتجاز سفينتَين حربيتين تركيتَين يجري بناؤهما في مسفنين بريطانيين للبحرية الملكية، ردَّ فعلٍ قوي من الأتراك. كان أسلوب اتخاذ ذلك القرار من دون أي نقاشٍ أو عرضٍ بالتعويض، قد أحدث صدمة كبيرة. احتجّت تركيا، وطردت الملحق العسكريّ



دخلت الغواصة البريطانية B11 المضيق في 13 كانون الأول/ ديسمبر 1914، وقصفت بطربيدات السفينة الحربية التركية ميدوسا الراسية في الميناء. غرقت السفينة فوراً تقريباً ولقي 400 شخص حتفهم.



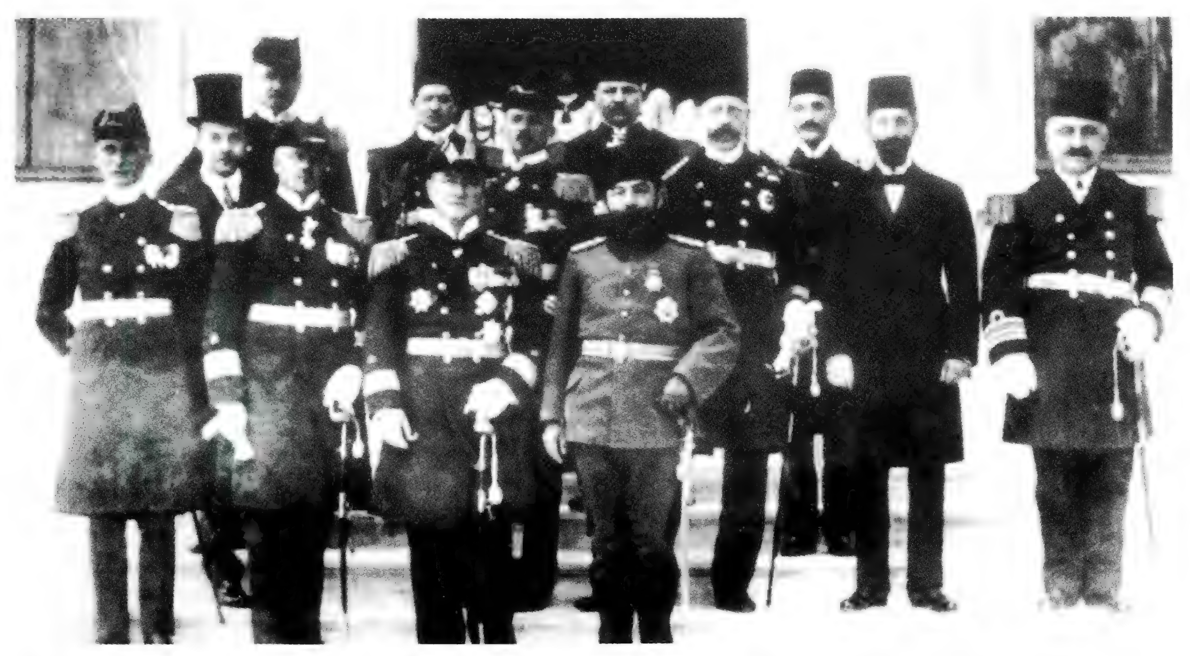
حطام ميدوسا مع نحو 400 رجل في بدنها.

البريطاني لديها. ردَّ الألمان بسرعة بتقديم السفينتَين الحربيتين الألمانيتين جوبن وبرسلاو بدلاً من المركبين البريطانيين. اتخذ البريطانيون خطوة نفسية سيئة ثانية في 29 أيلول/ سبتمبر، حين أوقفوا طرّاداً تركياً أراد عبور الدردنيل وأمروه بالعودة من دون إبداء الأسباب. أغلقت هذه الخطوة الباب بين الطرفين، وبعد إصرار السفير الألماني أغلق الأتراك البوسفور والدردنيل أمام حركة الملاحة، ما أوقف بذلك إمدادات الحلفاء إلى حليفهم الروسي.

في الوقت نفسه، سمح الأتراك لسفينتين حربيتين ألمانيتين بدخول المضيق والرسو قبالة إسطنبول حيث رُفع عليهما العلم التركي، برغم بقاء فريقهما الألمانيين وقائدهما العميد البحري سوخون على متنهما. تخلّت تركيا بذلك الفعل عن حيادها عملياً، واختارت التحالف مع قوى المركز، إنما من دون إعلان الحرب. في 28 تشرين الأول/ أكتوبر، قاد سوخون سفينتيه إلى البحر الأسود، وأطلق النار على عدّة موانئ روسية ومصفاة نفط، ما جعل روسيا تعلن الحرب فوراً على تركيا.



العقيد فرايهر فون در غولتس؛ القائد الألماني لأسطول البحر الأسود التركي، في أثناء معركة جاليبولي.



الأميرال الألماني سوخون الذي دخل المضيق مع برسلاو وجوبن، اللتين أطلقتا النار لاحقاً على موانئ البحر الأسود الروسية وهما ترفعان العلم التركي.



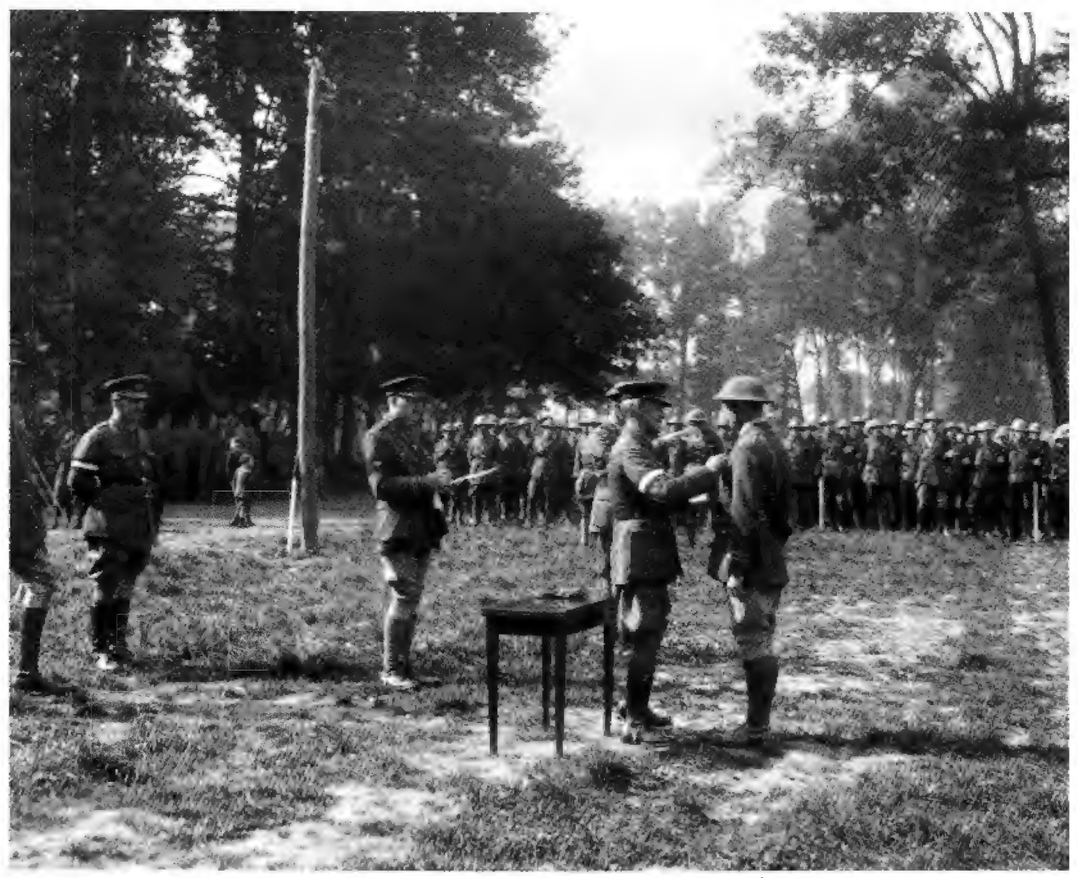
قصف البريطانيون الحصون التي تحمي مدخل الدردنيل في سيد البحر الظاهرة هنا، وكوم الكيل في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914.

تصرّف البريطانيون بسرعة، بعد أن عرفوا مواقف الدول كافة. في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر، دخلت سفن من البحرية الملكية مضيق الدردنيل، وأطلقت النار على حصنَي سيد البحر وكوم الكيل فألحقت بهما أضراراً فادحة. في 13 كانون الأول/ ديسمبر، دخلت الغواصة البريطانية ب11- المضيق، وأطلقت طربيدات على السفينة الحربية التركية ميدوسا، التي غرقت في دقائق، ما تسبّب بمقتل كثير من أفراد فريقها. منح هذان العملان البحرية البريطانية انطباعاً بأن عبورها هذين الممرين المائيّين بالقوة سيكون سهلاً نسبياً. سيثبت لاحقاً أن ذلك خطأ مكلف.

في تلك الأثناء، طلب الروس من البريطانيين إشعال جبهة جديدة ضد الأتراك للتخفيف من خطرهم في القوقاز. وافقت الحكومة البريطانية، واقترح تشرشل إرسال البحرية الملكية إلى الدردنيل. كانت السفن الأولى ستستخدم مدافعها بعيدة المدى لإخراج الحصون هناك من الخدمة، من ثمّ ستُزيل كاسحاتُ الألغامَ من المضيق، حتى يكون بمقدور الإسطول الاقتراب من إسطنبول حيث سيدمّر برسلاو وجوبن. كان ذلك سيعيد أيضاً تشغيل خط الإمداد الأساسي إلى روسيا. أبدت الحكومة حماساً بشأن هذا الاقتراح وقرّرت بدء العمل به في شباط/ فبراير.



اشتركت السفينة الحربية ألبيون أيضاً في القتال في جاليبولي.



تلقى القائد البريطاني الجنرال هاميلتون أمراً بالاستيلاء على شبه جزيرة جاليبولي في 11 آذار/ مارس 1915.



تعرّضت السفينة الحربية أماتيست لنيران معادية كثيفة حين حاولت شق طريقها بالقوة إلى المضيق، فتضرّرت كثيراً وخسرت 20 قتيلاً و28 جريحاً.



الحصن القديم في سيد البحر. استولى البريطانيون على البلدة في 26 نيسان/ أبريل 1915.

شارك الطرّاد الروسي القديم أسكولد في المحاولة الأولى لاحتلال المضيق.



جمع البريطانيون أسطولاً ضخماً في ميناء مودروس لغزو جاليبولي.



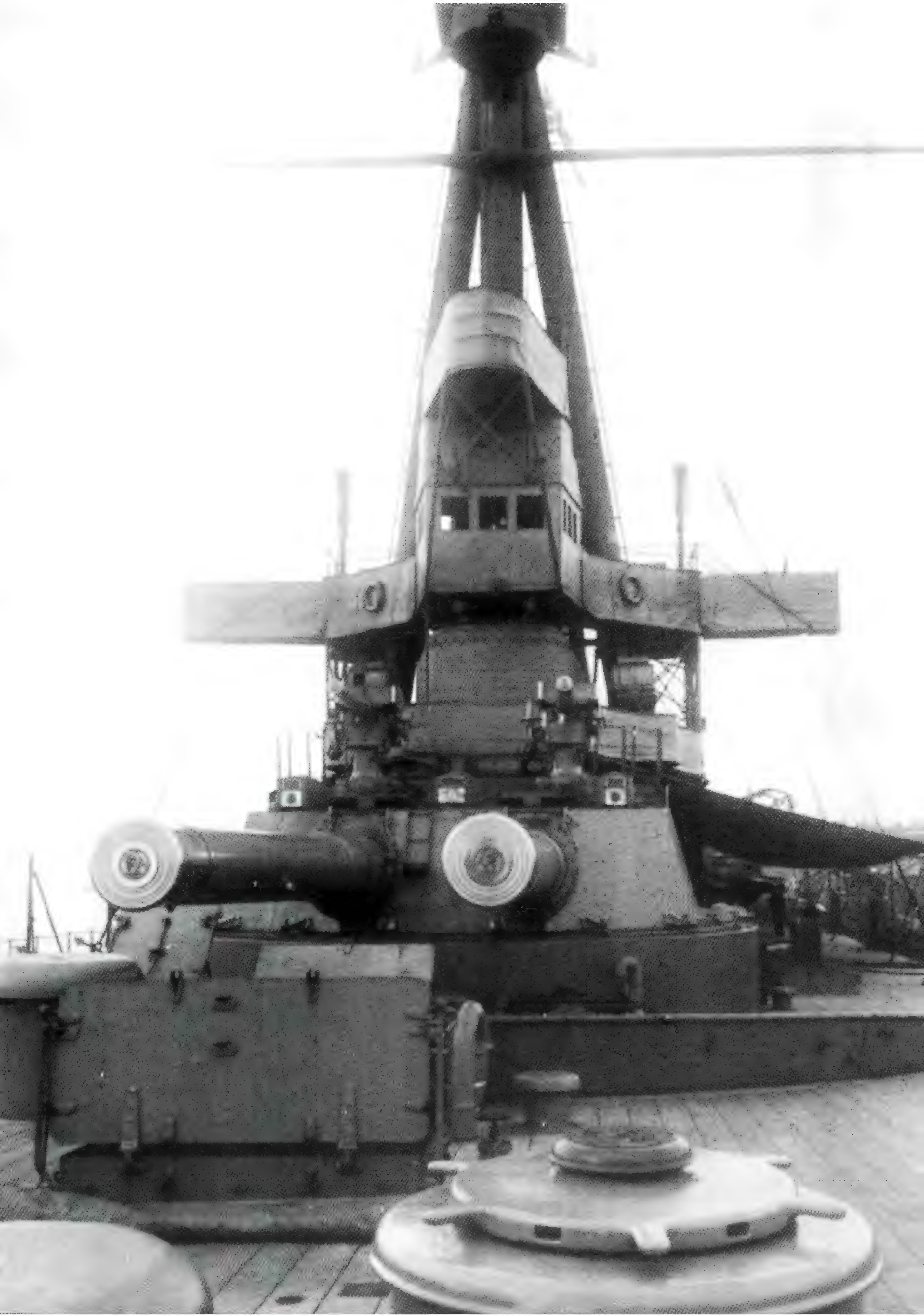
انضم الفرنسيون أيضاً إلى الهجوم على جاليبولي. اعتنوا كالعادة بالإنسان: مخزن نبيذ فرنسي في مودروس.



رأى الأتراك أسطولاً كبيراً من السفن الحربية يتجه نحوهم في صباح 18 آذار/ مارس 1915. هنا تتقدّم السفينة الحربية إنفلكسيبل في الطليعة إلى الدردنيل.

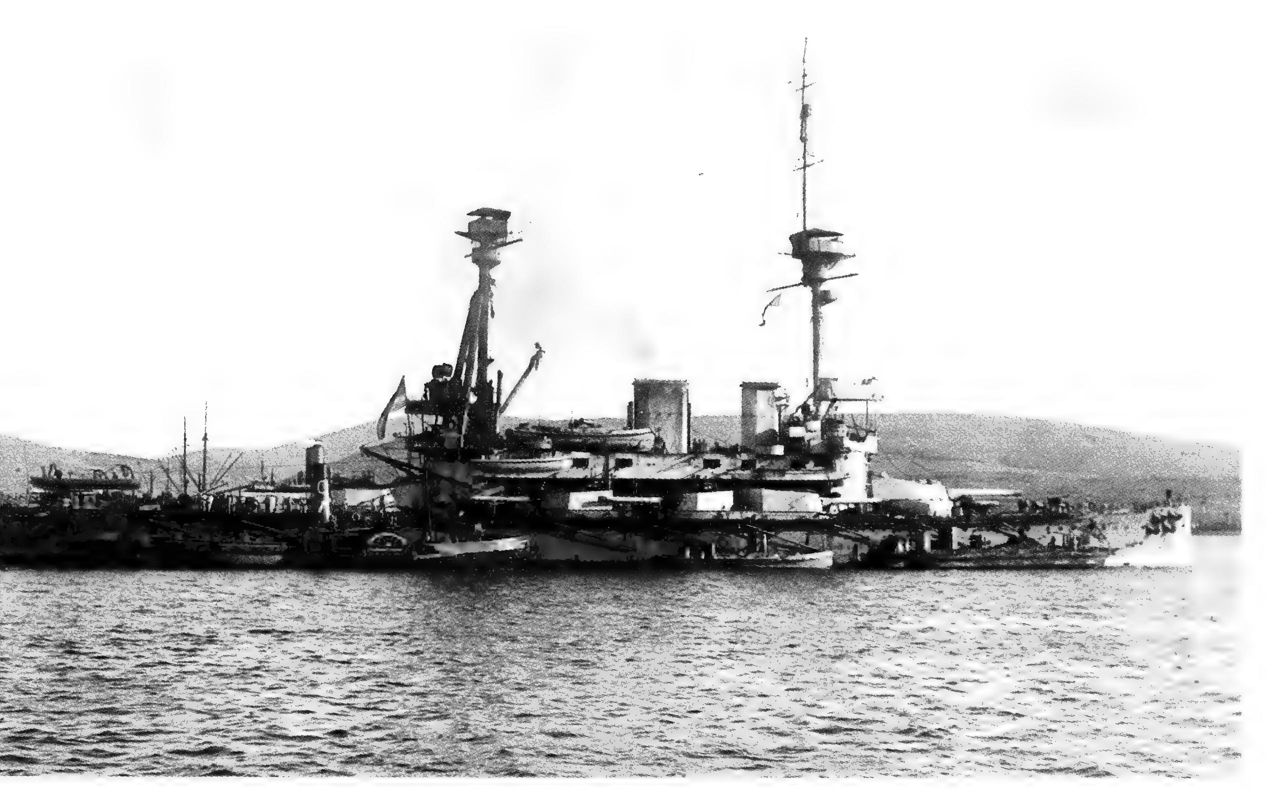
في 15 كانون الأول/ ديسمبر، أُبلغ الأميرال غاردن؛ قائد الأسطول البريطاني في إيجة بالخطط. وافق الفرنسيون أيضاً على أن تقدّم سفنهم المساعدة. قرّرت البحرية الملكية تعزيز الأسطول بالباخرة الحربية الحديثة جداً الملكة إليزابيث، برغم أن مدافعها لم تكن جاهزة بعد للمعركة. تلقّى الأميرال أمراً ببدء الغزو في 15 شباط/ فبراير.

بدأت شكوك تراود الأميرال جاك فيشر؛ أحد راسمي الخطة البريطانية، وأراد إيقاف العمل بها، إنما بعد فوات الأوان. تبيّن أن ملحوظته: «تباً للدردنيل، سيكون مقبرتنا»، ستتحقّق في وقت أبكر مما قد توقّع.



بعد اعتراض فيشر آنذاك، قرّرت لندن إنزال جنود على شبه جزيرة جاليبولي لاحتلال الأرض. أُسندت إلى الفرقة التاسعة والعشرين، التي كُلّفت أصلاً بالعمل في اليونان، مهمة تنفيذ العملية. عُزّزت الفرقة بكتيبتين من مشاة البحرية الملكية، وقوات من أستراليا ونيوزيلندا. كان يُفترض حشد 50.000 جندي في جزيرة ليمنوس اليونانية، لكن بعد وصول أول 5000 تبيّن أن الجزيرة الصغيرة غير ملائمة إطلاقاً لعدم وجود أماكن كافية لإيوائهم، ما أرغم الرجال على البقاء على سفن صغيرة نسبياً. أُرسلت وحدات من مشاة البحرية إلى أماكن أخرى بسبب امتلاء ميناء لينموس.

في ذلك الوقت، تأخّر العمل البحري عدّة أيام بسبب عمليات الإنزال، لكن الأميرال غاردن دخل الدردنيل في 19 شباط/ فبراير، وأطلق النار على الحصنين التركيين من دون نتيجة. أدّت مشكلات في الاتصال إلى إيقاف العملية. كرّر غاردن محاولته في 25 شباط/ فبراير ونجح في إخراج أحد الحصنين من الخدمة.



السفينة الحربية اللورد نلسون تدخل المضيق إلى جانب إنفلكسيبل.

مقابل: المدافع الثقيلة على متن السفينة الحربية إنفلكسيبل. أصاب لغم بحري السفينة وبدأت تميل فوراً.



كانت السفينة الحربية الأمير جورج واحدة من 18 قطعة بحرية بريطانية في الهجوم.



شاركت سوفرن في موجة الهجوم الثاني وتفادت الهزيمة بأعجوبة.

دخلت ثلاث سفن الدردنيل، إنما تلقّت وابلاً من قذائف مدافع هاوتزر الميدانية المخفية بمهارة. نزل مشاة البحرية على الساحل، ونجحوا في تدمير نحو خمسين مدفعاً تركيّاً بين 27 شباط/ فبراير و3 آذار/ مارس. كان ردّ الفعل في لندن حماسياً، ونسي الناس أن ذلك العمل قد نبّه الأتراك أن جاليبولي هي الهدف البريطاني، لذا لم يعد ممكناً شنُّ هجوم مباغت عليها. تحلّى كيتشنر بالواقعية، وأشار إلى أن مجرد وجود البحرية الملكية في الدردنيل، سيكون كافياً لجعل الأتراك يخوضون القتال، وأنه لا داع للإنزال البريطاني. ظنَّ غراي وزير الخارجية البريطاني أنه سيكون ممكناً الاستيلاء على الدردَنيل بعد تنفيذ انقلاب عسكري في البلاد. رسم كيتشنر خططاً لضم إسكندرون وحلب، في حين اقترحت البحرية الملكية الاستيلاء على كامل حوض الفرات، وأراد وزير المستعمرات ضمَّ ميناء مرمرة أيضاً.



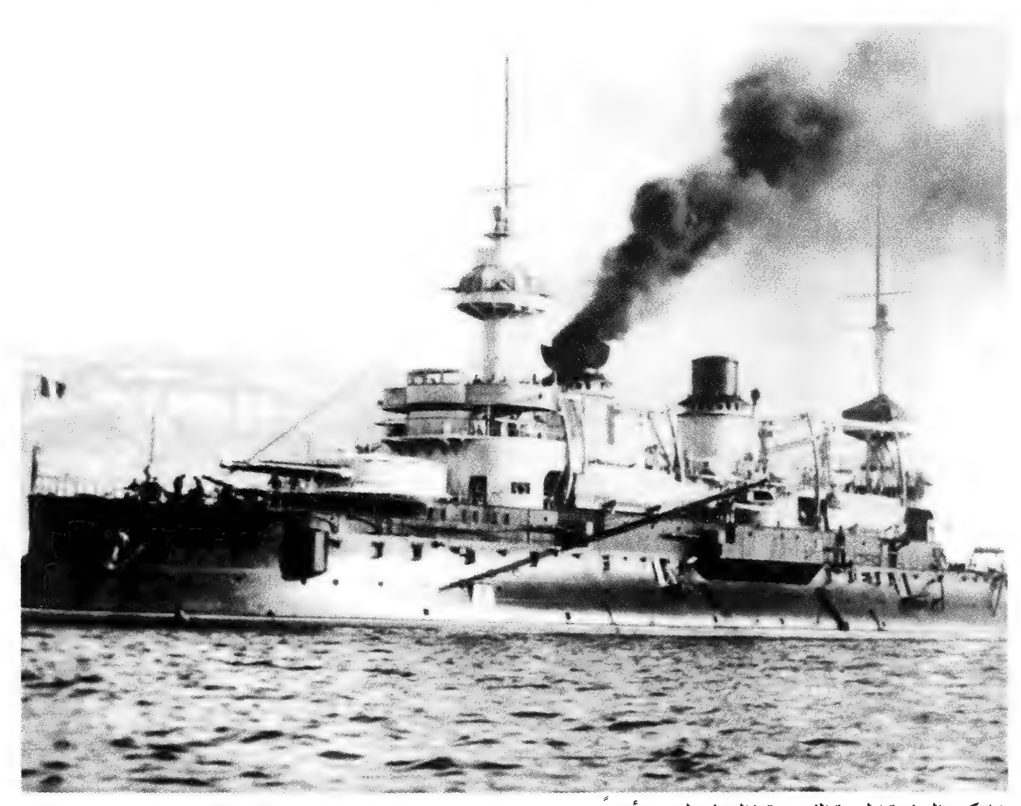
اصطدمت السفينة الحربية إريسيستبل بلغم أيضاً واضطر فريقها إلى هجرها.



انقلبت السفينة الحربية الفرنسية على ميمنتها وحصل انفجار ضخم على متنها. غرقت في دقيقة واحدة، وفقد 60 رجلاً حياتهم.



السفينة الحربية أوشن تهبُّ لمساعدة إريسيستبل وتصطدم بلغم أيضاً. أُرغم فريقها على هجرها.

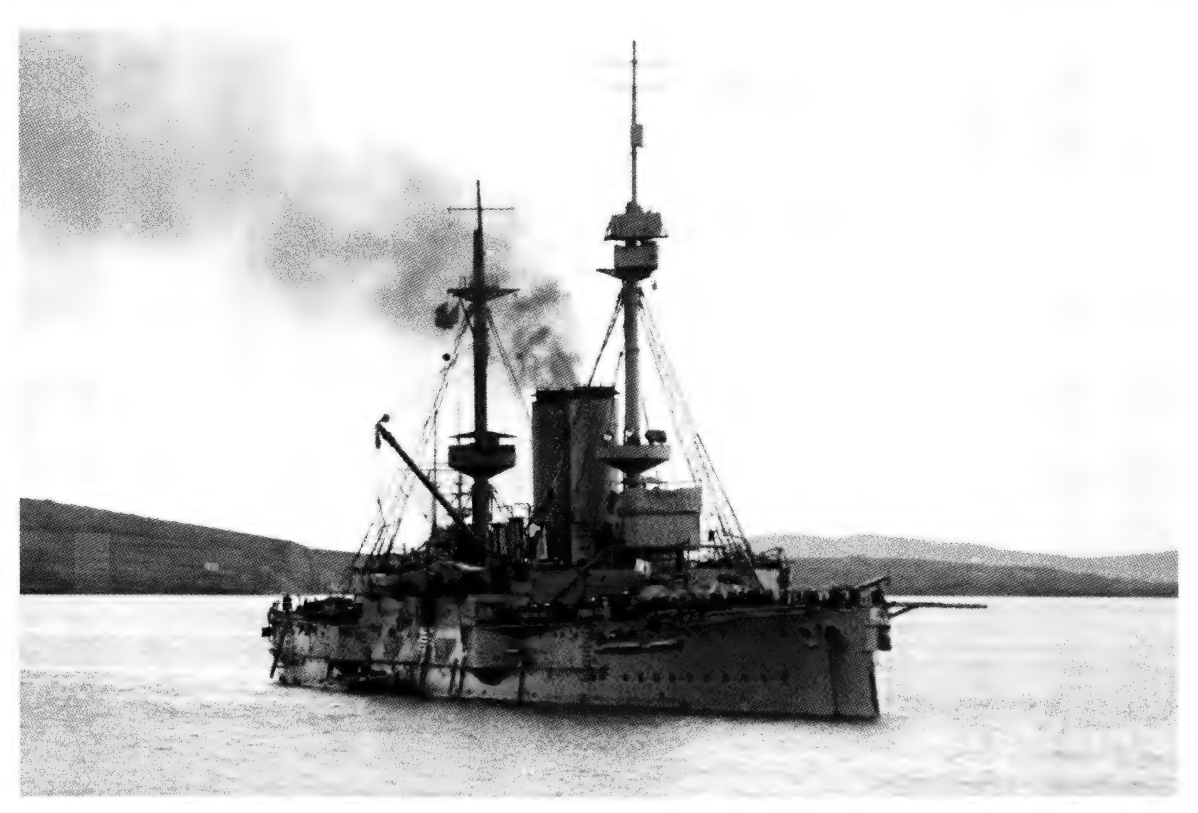


شاركت السفينة الحربية الفرنسية غالوا في الهجوم أيضاً.



شارلمان تبحر قرب بوفيه حين اصطدمت تلك السفينة بلغم من دون أن تتضرّر.

السفينة الحربية كورنواليس تدخل الدردنيل ليستقبلها وابل من النيران التركية.



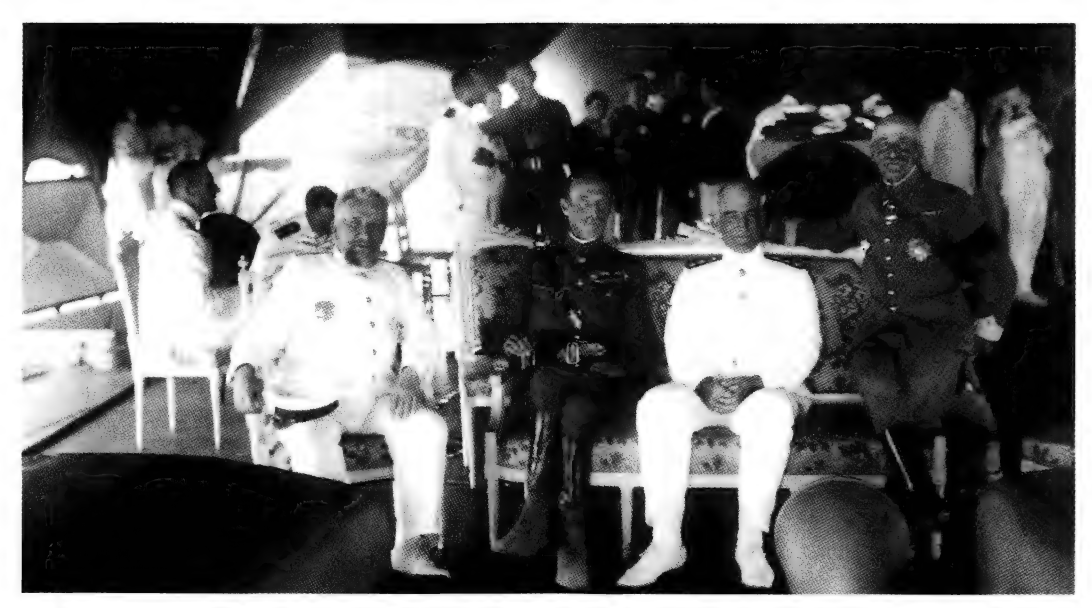
اشتركت السفينة الحربية كانوبس في موجة الهجوم الثاني. هنا تغادر مودروس.



الأميرال دي روبيك الذي حلَّ مكان الأميرال غاردن المريض.

قُسّمت الأراضي التي لم تكن قد احتُلت بعد، قبل حتى أن تبدأ المعركة. لسوء حظ المخطّطين، لم تجرِ الرياح كما تشتهي السفن.

كانت المقاومة التركية عنيفة جداً، ما اضطر مشاة البحرية إلى الانسحاب، وإنهاء الإنزال في 4 آذار/ مارس. لم تُكلّل محاولات أخرى لدخول الدردنيل بالنجاح، ما جعل الحكومة تقرّر في 12 آذار/ مارس إجراء محادثات سرّية مع الأتراك. عرض مبعوث بريطاني على الأتراك خمسة ملايين جنيه إسترليني للانسحاب من الحرب، ومبالغ إضافية إذا سلّموا جوبن وبرسلاو. طلبت الحكومة التركية ضمانة بعدم احتلال إسطنبول، إنما لم يكن بمقدور البريطانيين الموافقة؛ لأنهم قد وعدوا الروس بالمدينة،

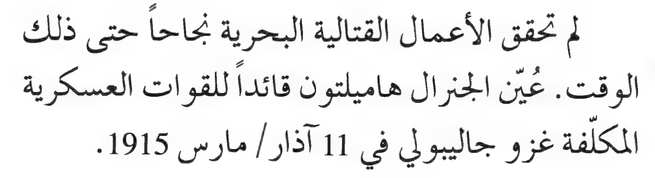


عُقد مجلس حرب على متن السفينة الحربية الملكة إليزابيث في 22 آذار/ مارس 1915. من اليسار إلى اليمين: العميد البحري بو دي لابريه؛ قائد أسطول البحر المتوسط الفرنسي، والجنرال هاميلتون، والعميد البحري دي روبيك، والجنرال الفرنسي بيلار.



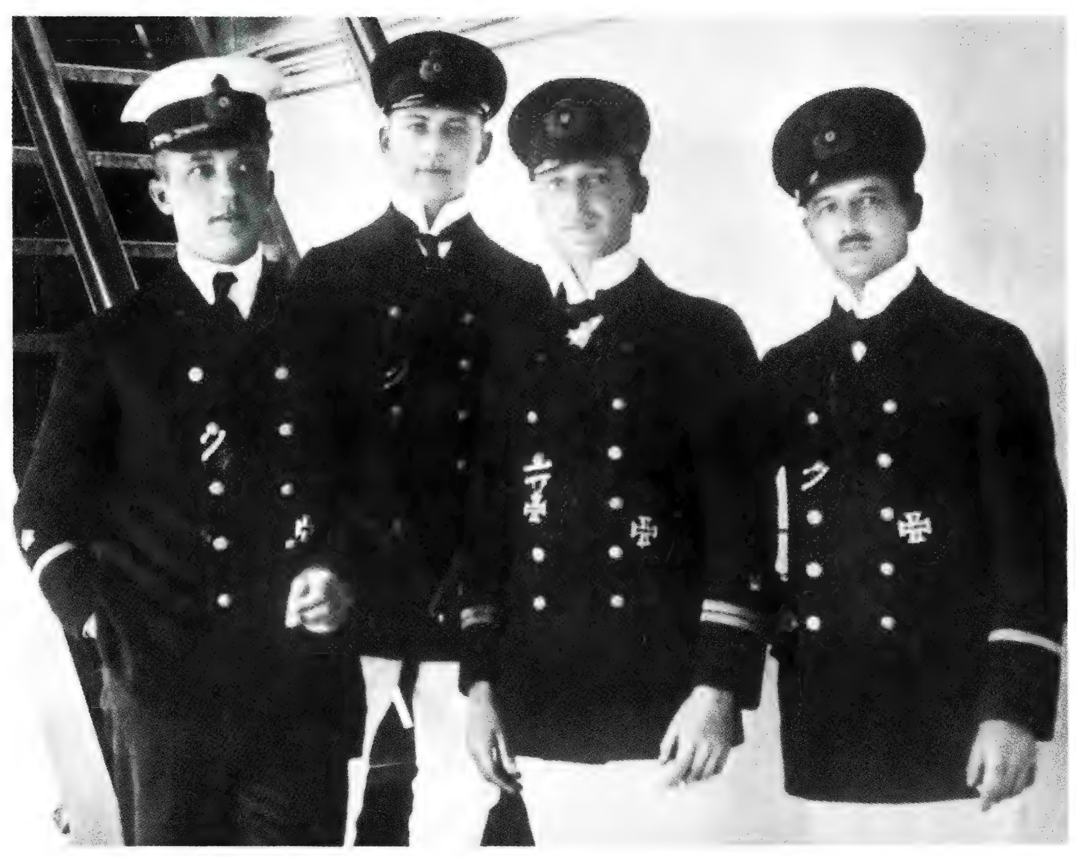
الجنرال الألماني ليمان فون ساندرز؛ القائد العام للقوات التركية في جاليبولي.

لذا تعثّرت المحادثات السرية وفشلت. استؤنفت الأعمال القتالية البحرية بمحاولات لإزالة الألغام التركية من المياه، إنما فشلت تلك الجهود، وتعرّضت سفينة بعد أخرى إلى نيران كثيفة من مدافع هاوتزر الميدانية التركية التي أحدثت أضراراً جسيمة، وقتلت كثيراً من الجنود. تعرّض أماتيست؛ طرّادٌ رافق السفن الحربية، إلى نيران معادية ما أدّى إلى مقتل عشرين شخصاً، وجرح ثمانية وعشرين على متنه، وتضرّرِ دفّة توجيهه.



لم تحقق الأعمال القتالية البحرية نجاحاً حتى ذلك الوقت. عُيّن الجنرال هاميلتون قائداً للقوات العسكرية المكلّفة غزو جاليبولي في 11 آذار/ مارس 1915.

ضمّت قواته آنذاك نحو 70.000 رجل، وتكوّنت من الفرقة التاسعة والعشرين، وفيلق أسترالي ونيوزيلندي، وفرقة من مشاة البحرية، وفيلق فرنسي. ستشرف غرفة عمليات برية وبحرية مشتركة على المعارك في جاليبولي منذ ذلك الوقت.



الملازم أوتو هرسينغ، قائد يو 21- التي أغرقت السفينتين الحربيتين البريطانيتين باثفايندر وترايمف في 5 أيلول/ سبتمبر.

عمليات برّية وبحرية مشتركة سيئة التنفيذ

لم تكن الاستعدادات البريطانية لتنفيذ عمليات برّية وبحرية مشتركة، من أجل الاستيلاء على جاليبولي احترافية إطلاقاً. كانت معرفة هاميلتون بالتضاريس المطلوب غزوها معدومة تقريباً. استعان ببعض الأدلّة، والخرائط السياحية، وكُتيّب عن القوات المسلحة التركية للحصول على معلومات، ولم يتسنَّ له إلا عدّة أيام فقط لتعيين أركانه وإنشاء إدارته. لم تكن هناك خطة أبداً للتواصل بين الجيش والبحرية، ولم يجرِ تزويدهما بالمعلومات المتوافرة في لندن عن مواقع المدفعية والقوات التركية في شبه الجزيرة. كان يُفترض توفير الموارد اللازمة محلياً، إنما لم تكن هناك مقاربة منسّقة بين القوات المختلفة. الأكيد أنها كانت عملية واسعة النطاق قد نُفّذت بطريقة ساذجة، وغير احترافية إطلاقاً، ولم يُعر أحدٌ اهتماماً للحفاظ على سرّية العملية. نتيجة ذلك، كانت الاستخبارات التركية والألمانية تعرفان تماماً ما ينوي البريطانيون فعله.



حطام السفينة الحربية ترايمف التي أغرقتها يو 21 –.

أرسل الجنرال ليمان فون ساندرز تعزيزات بسرعة إلى شبه الجزيرة بعد الهجوم الفاشل للحلفاء.



قوة برمائية كبيرة تنفّذ إنزالاً على ساحل جاليبولي في صباح 23 آذار/ مارس.



نزل جنود حلفاء في المكان الخطأ على ساحل «زد»، وتعرّضوا لنيران فتّاكة من الأتراك.



جنود يحاولون التجمّع بعد الإنزال على الشاطئ «زد».

مشاة أستراليون ونيوزيلنديون يهاجمون مواقع تركية، 17 كانون الأول/ ديسمبر 1915.



طلب الجنرال البريطاني بيردود إذناً لإخلاء الشاطئ «زد»، وقوبل بالرفض.

صدر الأمر بتنفيذ إنزال جاليبولي في 18 آذار/ مارس، الذي سيكون يوماً كارثياً تماماً على البحرية الملكية. رأى المدافعون الأتراك أسطولاً ضخماً من السفن الحربية يتجه نحوهم ذلك الصباح. اندفعت ثماني عشرة سفينة حربية عملاقة، وعدّة طرّادات ومدمّرات، وعدد كبير من كاسحات الألغام عبر مدخل الدردنيل بسرعة كبيرة. وصلت السفن على دفعتين. تقدّمت أكبر وأقوى السفن في الطليعة بوجود إنفلكسيبل واللورد نيلسون على الميمنة وأجاميمنون والملكة إليزابيث على اليسار. أطلقت السفن النار معاً على الحصنين، وبعد وقت قصير اشتبكت السفينتان الأخريان - الأمير جورج وترايمف - مع الحاميتين بالقوة المدوّية



دراما بكل معنى الكلمة على الشاطئ «في» حيث حاولت ريفر كلايد إنزال 2000 رجل، لقي نحو نصفهم حتفه.

ريفر كلايد في سيد البحر. صعد نحو 2000 رجل على متن هذه السفينة لتنفيذ إنزال إلى الشاطئ «في».



منظر للشاطئ «في» من البحر.

نفّذ الحلفاء عدّة عمليات إنزال في أماكن مختلفة على شاطئ رأس حلس.



انتظر جنود أتراك الإنزال وحوّلوا المهاجمين إلى أشلاء.



إنزال الحلفاء على الشاطئ «في» في نيسان/ أبريل 1915.



جنود أتراك يشنّون هجوماً مضاداً على شاطئ «في».

لمدافعهما. جاءت الموجة الثانية بقيادة فرنسية خلفها مباشرة وشاركت فيها سوفرن، وبوفيه، وشارلمان، وغالوا، وكانوبس، وكورنواليس.

تجاوزت موجة الهجوم الأولى وأطلقت النار من مسافة قريبة. انهمر وابل من القذائف على تلك السفن، وعند 12.30 تقريباً أُصيبت غالوا واضطر فريقها إلى الانسحاب. تعرّضت عدّة سفن أخرى لإصابات وأضرار أيضاً، لكن نيران الحلفاء الكثيفة جداً جعلت المدفعية التركية أقل فاعلية بنحو ملحوظ. كانت تلك هي الإشارة ليسحب الأميرال قائد العملية الموجة الثانية من السفن، ويفسح المجال أمام كاسحات الألغام لتقوم بعملها. ستقع كارثة مروّعة آنذاك.

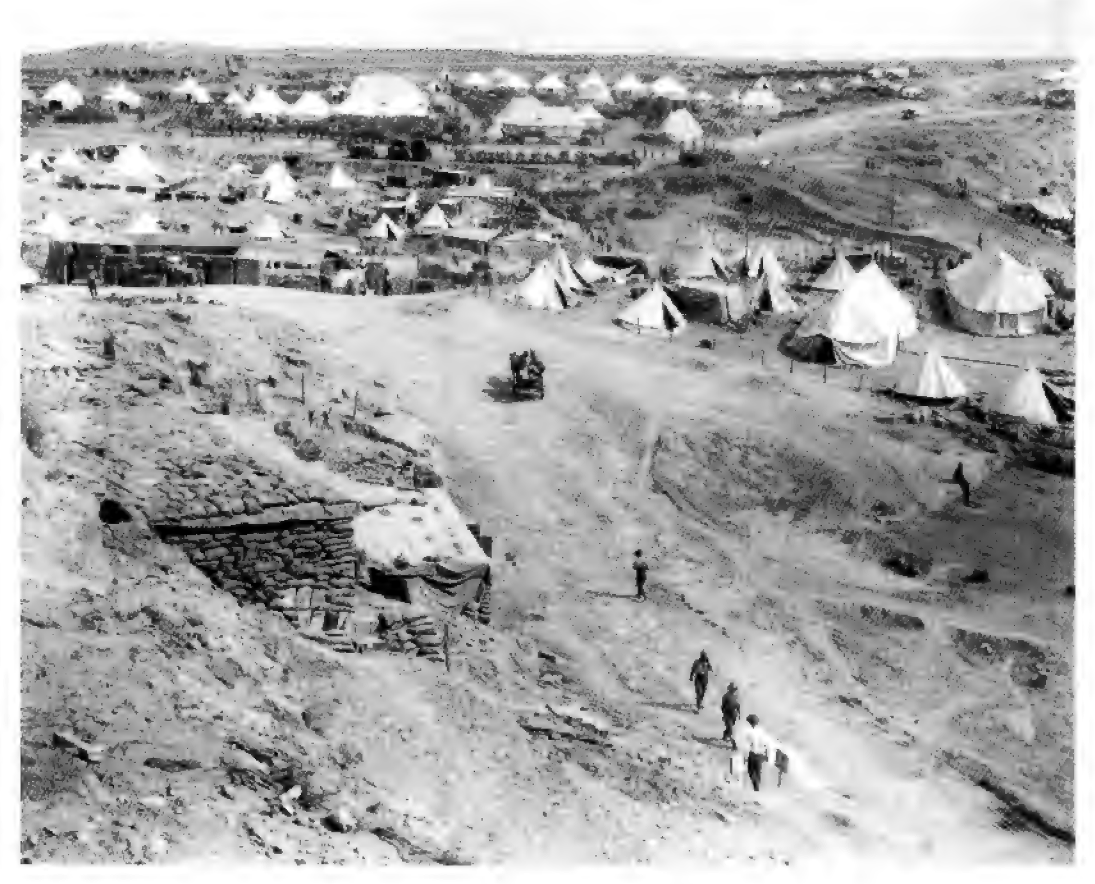
تحركت بوفيه الفرنسية إلى الميمنة خلف سوفرن وتبعتها إلى خليج إرن كوي، وظنّ قبطانها أنها بأمان من الألغام بسبب وجودها على الجهة اليمنى من القناة. فجأة سُمع صوت



ميناء على الشاطئ «دبليو» أغلقته سفن شحن قديمة غارقة.



رجال من فوج إسكس ينزلون على شاطئ «دبليو»، ويعانون خسائر كبيرة من دون اكتساب موطئ قدم عليه.



إنزال الحلفاء على الشاطئ «دبليو». مات نحو نصف المهاجمين البالغ عددهم 1000 رجل في الساعات الأولى.

تمترس جنود الحلفاء بسرعة بعد عمليات الإنزال.



وصلت تعزيزات تركية بسرعة. مدفع ميداني تركي في طريقه إلى شاطئ «دبليو».



كان الشاطئ «أ» أحد مواقع إنزال عديدة.



الشاطئ «ب» على خليج سوفلا. فشل القائد البريطاني في احتلال مرتفعات تيكي تيبي، ما أدّى إلى نتائج رهيبة.



بعد فشل الحلفاء في الاستيلاء على تيكي تيبي، احتلها الأتراك بسرعة وتصدّوا للحلفاء على الشاطئ.

انفجار ضخم، وشاهد المراقبون الذاهلون السفينة الضخمة تختفي إلى قاع القناة في دقيقة، مع نحو 600 رجل على متنها. قد يكون الانفجار ناجماً عن قذيفة أصابت مخزن ذخيرتها في اللحظة نفسها التي اصطدمت فيها بلغم بحري. لم ينجُ كثير من بحارتها.

تعرّضت كاسحات الألغام التي كانت تستعد آنذاك للبدء بعملها إلى وابل من القذائف، وابتعدت واحدة بعد أخرى عن المكان بحثاً عن الأمان خارج نطاق القصف. وقع انفجار آخر عند الساعة 16.00 تقريباً. اصطدمت إنفلكسيبل بلغم وبدأت تميل فوراً، ولقيت إريسيستبل المصير نفسه بعد بضع دقائق. اندفعت أوشن لنجدتهما إنما اصطدمت أيضاً بلغم وأُرغم فريقها على هجرها، وغادر فريق إريسيستبل سفينتهم أيضاً.

توقف القتال وصدر أمرٌ للسفن بالانسحاب وإعادة التجمّع. كلّف ذلك العمل الحلفاء حياة نحو 700 رجل وخسارة ثلث أسطولهم: غرقت ثلاث سفن حربية كبيرة، وتضرّرت ثلاث أخرى، إضافة إلى أضرار أصابت عدداً من كاسحات الألغام. جرى إخراج أربعة مدافع



إنزال الحلفاء على الشاطي «واي».

قوات إسكتلندية تنزل على خليج سوفلا، فتمطرها مدافع تركية عيار ست بوصات بالقنابل، وتلحق بها إصابات جسيمة.



ساحل رأس حلس حيث جرت خمس عمليات إنزال.



سوفلا، 7 آب/ أغسطس 1915. نزل نحو 2000 أسترالي ونيوزيلندي على الشاطئ، إنما أدّى ضعف القيادة والتنسيق إلى فشل المهمة.



مركب طربيد بريطاني ينقل جنوداً إلى الشاطئ «زد».



الطرف الشمالي من رأس حلس، مع حطام سفينة للحلفاء في مقدمة الصورة.

تركية فقط من الخدمة، وخسر الأتراك أربعين قتيلاً وسبعين جريحاً. بقيت حقول الألغام موجودة والممر المائي إلى إسطنبول مغلقاً أمام سفن الحلفاء.

يبدو واضحاً أن العملية مُنيت بفشل ذريع، لكن العميد البحري روجر كيرز؛ رئيس أركان الأميرال غاردن الذي أُصيب بالمرض آنذاك، لم يجد صعوبة في إبلاغ لندن بهزيمة العدو وأن العملية حقّقت «نجاحاً باهراً» و لم يبقَ أمامهم إلا مهمة إزالة الألغام البحرية. كان الأميرال دي روبيك؛ رئيسه المباشر ونائب الأميرال غاردن، أكثر واقعية ووصف الهجوم بأنه «كارثة» حقاً.

أُصيبت إمارة البحر بخيبة أمل كبيرة جعلها تتخلّى عن كل أفكار تكرار العملية.

عقد الجنرال هاميلتون اجتماعاً على متن السفينة الحربية الملكة إليزابيث في 22 آذار/مارس، لإقرار عمل مشترك. قرّر دي روبيك أنه لن يخاطر بسفنه في تلك المياه مجدداً، حتى

يستولي الجيش على شبه جزيرة جاليبولي، إنما «نسي» إبلاغ هاميلتون بهذا. اتُفق على المضي قدماً بخطط الإنزال في 14 نيسان/ أبريل، والاستعداد جيداً لذلك. كان الأتراك قد استعدّوا جيداً لهذا، بعد أن سنح لهم وقتٌ كافٍ لإصلاح أضرارهم، وبناء مواقع جديدة. عُيّن المشير الألماني ليمان فون ساندرز لقيادة الجيش الخامس التركي المكوّن من 50.000 رجل، والمكلّف بالدفاع عن شبه الجزيرة، في حين عُيّن الجنرال كولمار فرايهر فون در غولتس قائداً لفيلق البحر الأسود التركي. استفاد ليمان فون ساندرز جيداً من المهلة التي منحها البريطانيون له وأمر بإنشاء مواقع دفاعية جديدة شُيّدت بسرعة مدهشة. مرة أخرى أهدر البريطانيون فرصة الاستفادة من ضعف دفاع العدو. كانت شبه الجزيرة ستسقط بسهولة على الأرجح، إنما استطاع الأتراك تعزيز دفاعاتهم إلى حدٍ كبير.



الجنرال هنتر ويستون في أثناء إنزال على رأس حلس.



جنود فرنسيون بأحمالهم الثقيلة ينزلون على رأس حلس.



خنادق للحلفاء في إحدى نقاط الإنزال.

بدت الاستعدادات من جانب الحلفاء أقل سلاسة وسرعة، وقد دبّت الفوضى في نقل الإمدادات إلى قوات الإنزال، و لم تجرِ الرياح كما تشتهي السفن. وصلت المدافع من دون ذخيرة، أو مع ذخائر غير ملائمة، ما أدّى إلى نقص في القذائف. لم تكن هناك مراكب إنزال، ما اضطر الحلفاء إلى الحصول عليها محلياً، وقد أحدث هذا مشكلات جمّة. ليس مبالغة وصف تحضيرات الإنزال بأنها غير منظّمة، وأنها تميّزت بسوء تقدير الصعوبات القائمة. لكن لم تكن هناك طريقة أخرى. كانت سمعة كلٍ من تشرشل ووزير الحرب اللورد كيتشنر على المحك، وقد فعلا كل شيء لضمان المضي قدماً. عمليات الإنزال كُلّفت الفرقة التاسعة والعشرون

أخيراً بمهمة الإنزال على حلس، في حين تولّى جنود أستراليون ونيوزيلنديون الاستيلاء على جابا تيبي في الشمال. كان مشاة فرقة البحرية الملكية سينزلون على شاطئ بولايس مع وحدة فرنسية، لصرف الانتباه في كوم كيل وخليج باسيكا، في حين ستصل كتيبة بريطانية إلى شاطئ خليج مورتو. قُرّر في اللحظة الأخيرة إرسال 2000 رجل أيضاً إلى غرب كريثيا. كان التوقّع أن يثمر الإنزال نتائج إيجابية في ثمانٍ وأربعين ساعة من دون مواجهة مقاومة عنيفة، وأنه بمجرد توفير نقطة عبور سينهار الدفاع تماماً. حلَّ اليوم المنشود أخيراً في صباح 23 نيسان/ أبريل، وانطلق الأسطول الذي تجمّع عند جزيرة ليمنوس وميناء مودرا ببطء إلى وجهته. أبحرت سفينة بعد أخرى من نحو 200 بارجة في مسارها إلى مواقعها المحدّدة سابقاً في الدردنيل الذي وصلته في ليلة 24–25 نيسان/ أبريل. بدأ الغزو عند 3.00 صباحاً بنقل نحو 70.000



خنادق للحلفاء في إحدى نقاط الإنزال.



جنود فرنسيون في طريقهم إلى مواقع في سيد البحر.

رجل إلى مراكب أوصلتهم في حالات كثيرة إلى مرقدهم الأخير. كانت إحدى أكبر المآسي في التاريخ العسكري البريطاني على وشك أن تبدأ.

في 25 نيسان/ أبريل، نزلت قواتٌ على أماكن مختلفة، وفيها رأس حلس على الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة، وميدوس أيضاً على الطرف الشمالي المقابل. كان الهدف الإطباق على العدو بفكّي كمّاشة، وأن يصل 12.000 جندي أسترالي ونيوزيلندي في ثمانية وأربعين مركباً إلى الشاطئ «زد» في الشمال، إنما أخطؤوا الموقع ونزلوا في مكان ذي تضاريس وعرة حيث قابلتهم نيران فتّاكة من الأتراك. طلب الجنرال بيردود إذناً للانسحاب، لكن قوبل بالرفض. حاول الأستراليون والنيوزيلنديون أخيراً تسلق مرتفعات ساري بير التي تدافع عنها وحدات من الفرقة التاسعة عشرة التركية. كلّف القتال الذي دام حتى 4 أيار/ مايو، الأستراليين والنيوزيلنديين نحو 10.000 رجل. تمترس كلا الجانبين في مواقعهما بعد ذلك، وتوقفت المعركة بعض الوقت.

في ذلك الوقت، نُفّذت عمليات إنزال في خمسة أماكن مختلفة من رأس حلس سُمّيت شواطئ «إس»، و»في»، و»دبليو»، و»إكس»، و»واي». وقعت مأساة كبيرة أخرى على الشاطئ «في» حيث جلب البريطانيون ريفر كلايد؛ سفينة شحن قديمة حوّلوها إلى مركب

إنزال، ووضعوا على متنها 2000 جندي. ثبّتوا عدداً من الأعمدة الفولاذية لتكون منصات إنزال للجنود، وساد انطباعٌ لدى الموجودين على متن السفينة أنهم لن يجدوا مقاومة تنتظرهم؛ لأنهم لم يتعرّضوا لإطلاق نار في أثناء القيام بكل تلك الاستعدادات. لكن في اللحظة التي بدؤوا فيها الحركة للانتقال إلى الشاطئ، أطلقت الرشاشات التركية النار عليهم وقتلت نصف المهاجمين.

وقعت إصابات كثيرة أيضاً على الشاطئ «دبليو». لقي نحو ثلاثة أرباع الرجال البالغ عددهم 1000 حتفهم، وأُصيب 283 بجروح خطرة أخرجتهم من الخدمة. كانت المقاومة على الشواطئ الأخرى أقل عنفاً، وبحلول مساء 26 نيسان/ أبريل، أنزل الحلفاء 30.000 رجل تقريباً هناك. لم يتأثّر الفرنسيون كثيراً، ونفّذوا الإنزال المقرّر، واستولوا على حصن وبلدة كوم كيل من دون مقاومة كبيرة. في 26 نيسان/ أبريل، احتل الحلفاء بلدة سيد البحر واندفعوا نحو كريثيا التي هاجموها بعد يومين، لكن الأتراك صدّوهم. حاولوا مجدداً من دون فائدة في 6 أيار/ مايو، إنما أُرغموا على التخلّي عن محاولاتهم في الثامن من الشهر، برغم وصول قوات هندية من مصر لتعزيز صفوفهم. اضطر الجنود هناك أيضاً للتشبث بمواقعهم، و لم يكسبوا متراً واحداً إضافياً من الأرض.

أرسل الحلفاء مزيداً من التعزيزات آنذاك إلى جاليبولي، وقرّروا تنفيذ إنزال جديد على



قتلى أتراك بعد معركة في سيد البحر.



مشاة من فوج مانشستر السادس في أثناء هجوم.



كان اللورد كيتشنر قلقاً جداً بشأن الوضع وقرّر رؤية الأمور بنفسه. وصل في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر 1915 وصُدم من الحقيقة في جاليبولي.



القائد العام اللورد كيتشنر في خنادق رأس حلس.



تمتع الجنرال مونرو الذي خَلف هاميلتون بالشجاعة لينصح بإنهاء ذلك العمل غير المنظم ومغادرة جاليبولي.

سوفلا في 17 آب/ أغسطس بالاستفادة من هؤلاء الجنود. في البداية حقّق الإنزال نجاحاً، وجرى توفير نقطة عبور بسرعة، لكن الأتراك نجحوا في صدِّ الهجمات، وعزل رأس الجسر ذاك. في أثناء حدوث كل ذلك، كان الأتراك مشغولين أيضاً وقد عزّزوا قواتهم على شبه جزيرة جاليبولي إلى حد كبير. واجهت أربع عشرة فرقة تركية عدداً مماثلاً من الفِرق البريطانية والفرنسية، ما جعل فرص الحلفاء بالنصر تتضاءل بمرور الوقت.

لم يكن دور البحرية الملكية في أثناء تلك الأعمال القتالية واضحاً أبداً. عند الأخذ بالحسبان رغبة الأميرال دي روبيك بالحد من استخدام سفنه حتى يسيطر الجيش على شبه الجزيرة، يبدو جلياً أن دور البحرية اقتصر على نقل الرجال. زعم شهود عيان أن السفن الحربية لم تطلق وابلاً نارياً كثيفاً ضد المدافعين الأتراك.



جنود يتجمّعون للإخلاء بعد تدمير إمداداتهم.

نهاية التهوّر: استدعاء هاميلتون

كان الوضع الطبي في جاليبولي مقلقاً جداً أيضاً، ويشبه المأساة التي أصابت الرعاية الأوّلية في أثناء حرب القرم. مرة أخرى، لم يحظَ آلاف القتلى والجرحى بمعاملة لائقة، واستلقى كثيرون منهم في العراء وماتوا بطريقة مروّعة من دون العناية بجروحهم، في حين نُقل عدّة آلاف من الجنود الجرحى من أماكنهم بنحو غير ملائم. برغم هذا، أرسل هاميلتون برقية إلى رؤسائه في 27 نيسان/ أبريل، أكّد فيها أن كل شيء يجري وفقاً للخطة، وطلب تعزيزات أيضاً. أُرسلت قوات إضافية، إلا أنها شنّت هجمات لا فائدة منها، وأدّى كل فشل إلى مزيد من الوفيات والإصابات بين قوات الحلفاء.

بدا واضحاً للندن بحلول 14 أيار/ مايو، أنه يجب فعل شيء، فقرّروا إرسال تعزيزات أخرى لمواصلة الضغط على الأتراك. كان هذا عبثياً فعلاً؛ لأن الأتراك لم يكونوا يواجهون أي ضغط، إنما هم من يضغطون على الحلفاء.

تواصل القتال في الشهور التالية، وبرغم التصدّي لهجمات الأتراك، إلا أنه لم يتم إحراز أي تقدّم، أو إنهاء معاناة الجندي العادي التي لم تنتج عن أعمال العدو فقط، إنما عن السياسة المضلّلة والقيادة غير الجيدة أيضاً.

أخيراً في 14 تشرين الأول/ أكتوبر، تحقّق ما كان يجب أن يحدث في وقت أبكر كثيراً، وعُزل الجنرال هاميلتون من منصبه، واستُعيض عنه بالجنرال مونرو.

كُلّف مونرو بتقديم النصيحة بشأن ما يجب فعله، لإنهاء ذلك الوضع. أوضح أنه بحاجة إلى 400.000 رجل على الأقل ليضمن الانتصار. لم يكن بمقدور لندن توفير هذا العدد من الرجال، لذا نصح بإيقاف المعارك فوراً والتخلّي عن شبه الجزيرة للأتراك. تلقّت لندن هذا النبأ بمشاعر متناقضة، وقرّر اللورد كيتشنر رؤية الأمور في جاليبولي بنفسه. صُدم بما شاهده، وبات لديه انطباع عميق بأن الموقف يائس، وأرسل في 15 تشرين الثاني/ نوفمبر، برقية إلى رئيس الوزراء أسكويث يبلغه فيها أن الاستيلاء على جاليبولي مستحيل.

دامت المعركة التي ظنّوا أنها ستستغرق ثمانٍ وأربعين ساعةً ثمانية شهور ونصف الشهر في الحقيقة، وكلّفت البريطانيين 205.000 رجلٍ بين جريح، أو قتيل في المعارك، أو مريض في أثنائها. كانت خسائر الفرنسيين كبيرة أيضاً وبلغت نحو 47.000 رجل. تعرّض الأتراك أيضاً لخسائر فادحة وفقدوا 251.000 جريح، أو قتيل، أو ميت نتيجة المرض، إنما استطاعوا على الأقل الدفاع بنجاح عن بلادهم، وردَّ الغزاة. تبقى معركة جاليبولي صفحة سوداء في التاريخ العسكري البريطاني، ومثالاً مروّعاً على فشل السياسة والقيادة برغم بطولة البريطانيين والقوات الاستعمارية، والفرنسيين أيضاً الذين بذلوا كل ما بوسعهم.



المغامرة الدامية انتهت. جنود بريطانيون يغادرون خليج سوفلا بسلام.



لقي كثير من جنود الحلفاء حتفهم في معركة جاليبولي.

الثمن كان باهظاً جداً

الجدير بالملاحظة أن بعض المؤرّخين قد حاولوا لاحقاً تحسين صورة هذا الإخفاق الذريع باقتراح أن العملية قد أدّت دوراً مهماً، برغم الإصابات الفادحة تمثّل في تدمير «نخبة الجيش التركي». يجادلون أن حملة جاليبولي قد أجبرت أربع عشرة فرقة تركية من أصل ست وثلاثين على البقاء في شبه الجزيرة، ما أتاح فرصة للاستيلاء على قناة السويس وإلحاق الهزيمة بالأتراك في نهاية المطاف. هذا غير صحيح ومُضلّل أيضاً، ويمكن الجدال بأن أربع عشرة فرقة تركية قد أبعدت عدداً مماثلاً من فرق الحلفاء ثمانية شهور ونصف الشهر عن الجبهة الغربية وساحات معارك أخرى، حيث كان بمقدورها مع ربع المليون إصابة التي لحقت بها أن تؤدّي دوراً حاسماً، إنما ضاعت جهودها هباء. علّق مؤرّخ آخر أن جاليبولي أظهرت أن الجندي البريطاني يعرف كيف يقاتل وكيف يموت. ردَّ الكاتب جون لافين في مؤلّفه تباً للدردنيل قائلاً إنه كان من الأجدى للبريطانيين أن يتعلّموا كيف يقاتلون وكيف يبقون أحياء، وأن هذا يتطلّب شجاعة مماثلة ومهارة أكبر!

معركة فردان

عملية جريشت لجعل الجيش الفرنسي ينزف حتى الموت

كان 1915 عاماً سيئاً للحلفاء على كلا الجبهتين الغربية والشرقية. دفعت قوى المركز الجيوش الروسية إلى الخلف حتى بولندا ملحقة بها خسائر فادحة. بحلول أيلول/ سبتمبر من



لم يغادروا أبداً. مقبرة الأستراليين والنيوزيلنديين في جاليبولي.

ذلك العام، بات لدى الألمان نحو 750.000 أسير حرب. وجد البريطانيون والفرنسيون أنفسهم في موقف شائك على جاليبولي، وفي تلك الأثناء هزمت دول المركز صربيا واحتلتها.

الأهم أن البحرية الملكية البريطانية الفخورة بنفسها لم تستطع منع الغواصات الألمانية من مهاجمة السفن التجارية. تعرّضت باخرة بعد أخرى لطربيدات من دون أن تتمكن البحرية الملكية من إيقافها. في أفريقيا قاتل البريطانيون وحدة صغيرة ألمانية بقيادة الجنرال الأسطوري فون ليتو فوربيك، التي أرغمتهم على إبقاء قوة كبيرة هناك كانوا بأمسّ الحاجة إليها في مكان آخر.

عانى الفرنسيون كثيراً أيضاً. بحلول نهاية 1915 كان أغلب الضباط الفرنسيين الذين بدؤوا المعارك في 1914 قد قُتلوا أو جُرحوا، ومُنيت قواتهم بخسائر فادحة أخرى أيضاً. لم يكن مفاجئاً أن يعقد الحلفاء مؤتمراً في كانون الأول/ ديسمبر لرسم خططٍ لإنهاء ذلك الوضع الكارثي في 1916.



القائد العام الألماني ووزير الحرب فالكنهاين (يسار) الذي ابتكر فكرة «عملية جريشت». يظهر فالكنهاين هنا في دوره الجديد على الجبهة في أوكرانيا بعد عزله.



الجنرال الألماني ليتوف فوربيك الذي شاغل قواتٍ بريطانية في القتال في أفريقيا.



زار ولي العهد الألماني فيلهلم رجاله بانتظام.

أطلق نحو 1200 مدفع من عيارات مختلفة النار على مواقع فرنسية في 21 شباط/ فبراير 1916.



أحد المدافع الثقيلة التي استُخدمت في 21 شباط/ فبراير.



مدفع هاون عيار 245 ملم (10 بوصات) من 1916 استُخدم في فردان.



مدفع هاون عيار 175 ملم (7 بوصات) من 1916.



كان هذا الهاون في الخندق مفيداً جداً في مهاجمة خطوط العدو.

يبدو واضحاً أن الألمان أيضاً فكّروا في المستقبل القريب. كتب القائد العام الجنرال فون فالكنهاين في تقرير إلى القيصر أن: «جهداً أخيراً، مع الأخذ بالحسبان الموقف الراهن، سيجعل الميزان يميل لكفّة ألمانيا». كان الحصار البحري البريطاني يعني أن ألمانيا ستعاني نقصاً حاداً في المواد، وأن الوضع قد يزداد سوءاً بمرور الوقت. كتب فالكنهاين أيضاً أنه يتوقع أن يحاول الحلفاء تحقيق اختراق في 1916 من أجل دفع ألمانيا إلى الدفاع، وأضاف: «يجب الحيلولة دون هذا».



جنود ألمان يغادرون خنادقهم لشن هجوم.



جنود ألمان قبل الهجوم مباشرة.

اقترح فالكنهاين آنذاك إلحاق الهزيمة بالفرنسيين أولاً؛ لأن البريطانيين لن يجدوا فائدة في مواصلة الحرب إن نجح الأمر. أوصى باختيار موقع في فرنسا سيدافع الفرنسيون عنه بأي ثمن، ونصح بأن «ذلك المكان هو فردان».

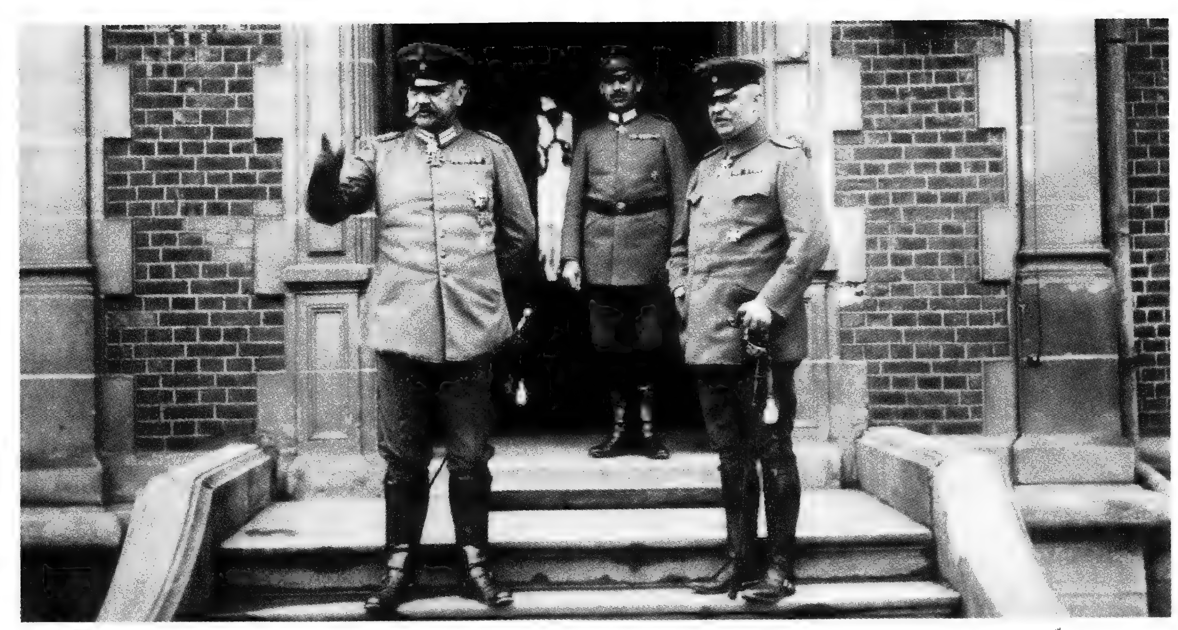
جادل أن الفرنسيين سينزفون حتى الموت إذا دافعوا عن فردان، وأن معنوياتهم ستتلقّى ضربة قاضية إذا اضطروا بالمقابل إلى التراجع عنها، ما يجعل الاختراق الضروري ممكناً.

أراد فالكنهاين إنهاء قتال رجلٍ لرجل، الذي لم يكن مفيداً وأدّى إلى إصابات فادحة، والتخطيط بدلاً من ذلك لاستخدامٍ قوة ضخمة من المدفعية ضد جبهة محدودة للقضاء على مشاة العدو في خنادقهم، والحد من خسائر جيشه. بعد وابلٍ مدفعي عنيف، سيتمكن المشاة الألمان من الاستيلاء على مواقع العدو بسهولة، من ثمّ يمكن تحريك الغطاءً الناري إلى الأمام. اقترح فالكنهاين التركيز على قصف المواقع الفرنسية واحداً بعد آخر. بدت هذه الخطة جيدة في البداية، لكن فالكنهاين ارتكب عدّة أخطاء مهمة. أولاً، أراد تركيز الهجوم على الضفة اليمنى لنهر الميز، وثبت لاحقاً أن ذلك كان غلطة فادحة. ثانياً، لم يأبه كثيراً لظروف الطقس

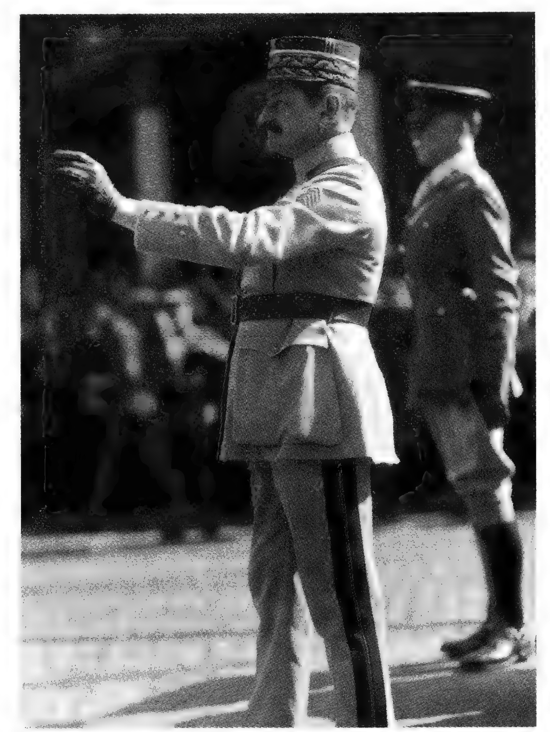
مقابل: مشاة ألمان يهاجمون قرب قرية دومون التي دافعت عنها الكتيبتان الأولى والثالثة من الفيلق الخامس والتسعين الفرنسي، تعزّزهما وحدات جزائرية وكتيبة زواف مشاة مغاربة]. قضى نحو 4000 جندي فرنسي وألماني في الهجوم.



إحدى الحفر التي أحدثتها قذائف لا تُعد في ساحة المعركة قرب مور–أوم والتلة 304.



تولّى المشير فون هيندنبورغ والجنرال لودندورف قيادة معركة فردان بعد عزل الجنرال فون فالكنهاين.



الجنرال الفرنسي مانجان الذي لقّبه رجاله «الجزّار» بسبب طريقته القاسية في خوض الحرب.

والأرض غير الملائمة غالباً حول فردان، وتبين أن ذلك خطأ فتّاك أيضاً.

وافق القيصر على الخطة، وبدأت التحضيرات في كانون الثاني/ يناير 1916 في سرّية تامّة. كانت تلك الاستعدادات واسعة النطاق، إذ اشترك نحو 50.000 رجل في مدِّ خطوط السكك الحديدية الضرورية لنقل الجنود والإمدادات، وجرى بناء طرق جديدة، وعشر تقاطعات حديدية، وأربع وعشرين محطة، ومراكز إيواء، ومخازن ضخمة للذخائر. أسندت مسؤولية الهجوم على فردان إلى الجيش الخامس بقيادة ولي العهد، ورئيس أركانه الجنرال فون نوبلسدورف. جُهّزت ست فرق جيدة العتاد يبلغ تعداد أفرادها 90.000 رجل للمعركة، ووُضعت قوات احتياطية على الضفة الغربية وإلى الغرب من الميز. لضمان سرّية هذه العملية لم يبلّغ معظم الضباط بالهدف الحقيقي لتلك الجهود الضخمة، برغم أن الخطّة تضمّنت إخلاء عدّة قرى في المنطقة.



فريق رشاش ألماني في موقعه على الضفة اليسرى لنهر الميز في أثناء قتال للاستيلاء على التلّة 304 سيئة الصيت في فردان.



الحقيقة الكئيبة في فردان في 1916.



كانت نتيجة نيران المدفعية الألمانية مروّعة.



زار القيصر فيلهلم جبهة فردان في نيسان/ أبريل 1917. هنا القيصر يتفقّد فوجاً في طريقه إلى الجبهة.



الزاوية الغربية من ساحة حصن دومون.



باتت الأرض حول حصن دومون غير سالكة إطلاقاً.

جنود ألمان يتسلّقون السياج المحيط بحصن دومون ويجدونه مهجوراً تقريباً، 25 شباط/ فبراير 1916.

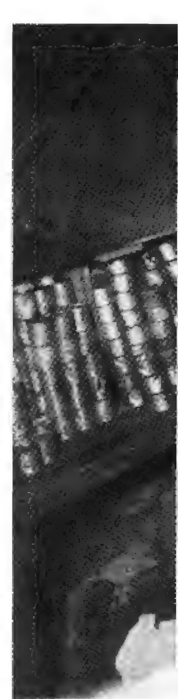
غرفة تخزين فرنسية في حصن دومون.



الملازم الأول الألماني فون برانديس (جالس)؛ بطل دومون الذي كان أول من تسلق الحصن ودخله. يظهر هنا مع شقيقيه اللذين جُرحا على الجبهة الغربية.

بعد تجهيز تقاطعات السكك الحديدية، نُشر 1250 مدفعاً، وفيها «بيرثا البدينة»، لتغطّي جبهة عرضها عشرة أميال فقط بنيرانها. كان كل مدفع من «بيرثا البدينة» تلك تحتاج إلى اثنتي عشرة عربة لنقله، وعشرين ساعة لجعله جاهزاً للعمل. أخيراً نقل 213 قطاراً ذخائر نحو 2.5 مليون قذيفة – تكفي ستة أيام.

كان يجب أن تبدأ عملية جريشت، كما دعا الألمان الهجوم على فردان، في 12 شباط/ فبراير، لكن عندما انتقلت القوات إلى مواقعها في ليلة 11 شباط/ فبراير، ساء الطقس. هطل وابلٌ من البَرَد، والثلج، والأمطار على المنطقة، وامتلأت الخنادق وأماكن الإيواء بالماء ولم يعد بمقدور الرجال البقاء هناك. انعدمت الرؤية تقريباً أيضاً، وعُدّت الرماية المدفعية مستحيلة، فاضطّروا إلى تأجيل الهجوم. بقي الطقس سيئاً في الأسبوع التالي كله، ولم يتحسّن حتى العشرين من ذلك الشهر، فُحدّد الحادي والعشرين موعداً جديداً لشن الهجوم.



أخيراً، انهال أكبر وابل من نيران المدفعية عند 7:45 من صباح 21 شباط/ فبراير مستهدفاً المواقع الفرنسية في فردان. سقطت عشرات آلاف القذائف بنحو متواصل تسع ساعات، ما غيّر تضاريس المنطقة إلى مناظر قمرية بدا مستحيلاً أن ينجو منها أي كائن حي. توقّف وابل النيران فجأة عند الخامسة مساء، وبات ممكناً بدء عملية «جريشت» التي خُطّط لها أن تجعل الفرنسيين ينزفون حتى الموت. انتظر نحو 90.000 جندي ألماني في خنادقهم واثقين بالنصر ومستعدّين لاجتياح مواقع العدو. أمسى بمقدور «آلة الفرم في فردان»، كما قد وُصفت المعركة لاحقاً، حصد أولى ضحاياها.



قرية فلوري قرب دومون حيث جرى قتال عنيف تبدّلت فيه السيطرة على المنطقة سبع عشرة مرة. لم يبقَ حجر على حجر في النهاية.



ساحة المعركة في فروداتر.



آذار/ مارس 1916. اختفت قرية أورني أيضاً عن وجه الأرض وباتت منطقة قاحلة.



مساعدان ألمانيان يستخدمان نقّالة بدائية لحمل جندي جريح.



موقع رشاش فرنسي بعد سقوط حصن دومون في تشرين الثاني/ نوفمبر 1916. كانت خسائر الفرنسيين كبيرة جداً.

القتال في بوا دو كور يؤخّر التقدّم الألماني

لم تكن فردان قطاعاً مهماً إلى حد كبير للفرنسيين، الذين لم يتوقعوا هجوماً ألمانياً هناك، برغم أن القائد المحلي المقدّم دريان الموجود على خط النار قد حذّر عدّة مرات من أن الأعمال الدفاعية غير ملائمة إطلاقاً. كان الأوان قد فات حين اهتم رؤساؤه بكلامه، وبدأ الهجوم فعلاً.

في أثناء التمهيد الأوّلي سقطت نحو 80.000 قذيفة في منطقة عرضها 800 متر فقط وعمقها ثلاثة كيلومترات من بوا دي كور وفقاً لتقديرات لاحقة من الجنرال بيتان. في كل لحظة قذفت أياد غير مرئية قنابلَ عالياً، لتسقط بعد ذلك على الأرض وتملؤها حفراً، وتتطاير شظاياها تهسُّ وتئزُّ إلى كل مكان، فتدمّر كل شيء في دربها. لقد بدأ الهجوم الألماني على فردان.

بعد نحو تسع ساعات بدت المنطقة مدمّرة تماماً، من دون أي إشارة على وجود حياة. غادر مشاة ألمان خنادقهم حين بدأ الثلج يهطل مجدداً، واندفعوا إلى الأمام نحو خطوط العدو.



الأب والابن: القيصر فيلهلم الثاني وولي العهد في أثناء تفقّدهما قواتٍ قبل الهجوم على حصن فو مباشرة.

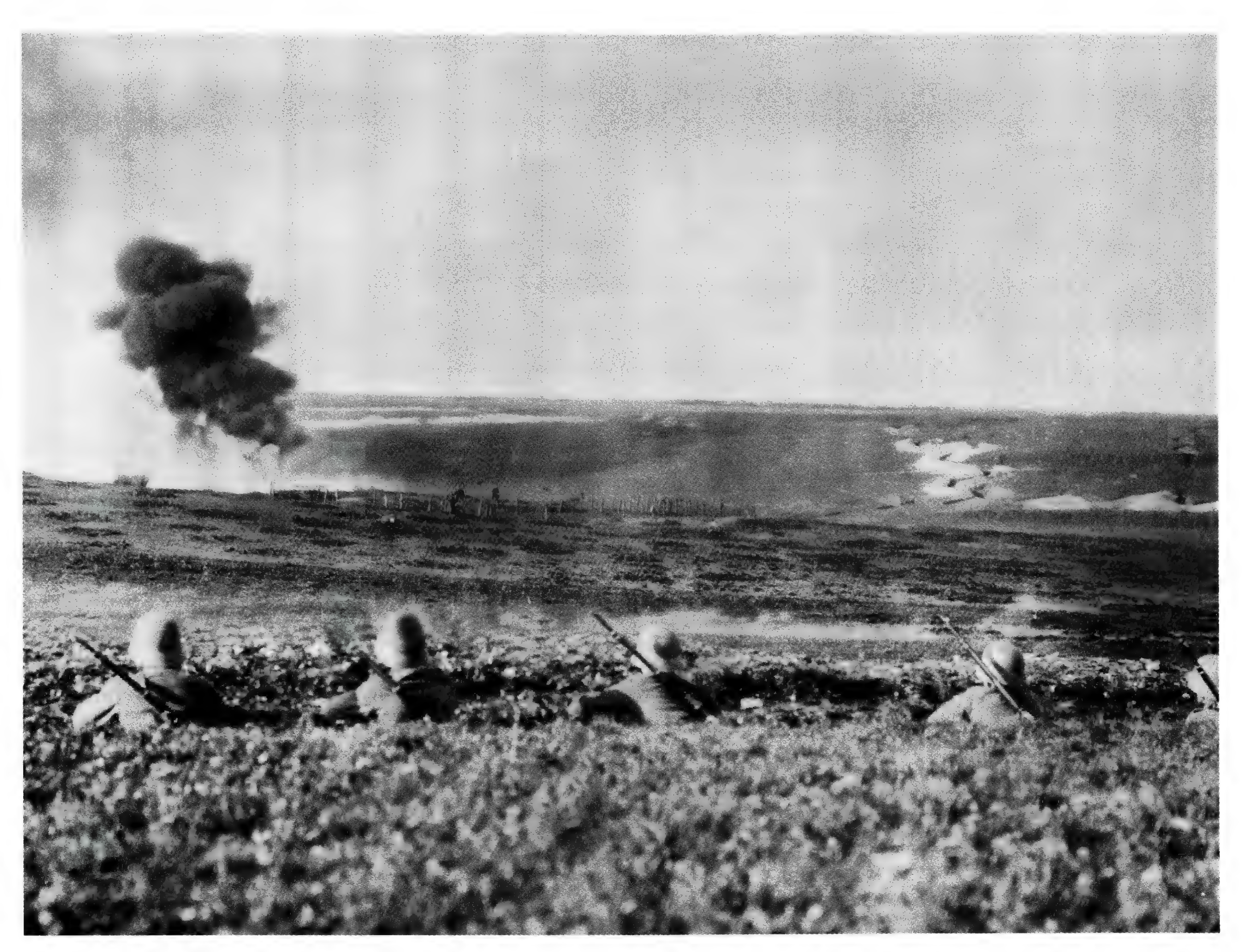


حصن فو حيث جرى قتال عنيف امتد عدّة شهور.

لم تتوقّع القيادة العليا أي مقاومة، إنما برغم ذلك واجهت السرايا الأولى التي أرسلتها إلى الأمام مقاومة عنيفة. بحلول المساء أرغم هؤلاء على الانسحاب إلى المواقع التي انطلقوا منها. أمرت القيادة العليا في الصباح التالي بتكرار التمهيد المدفعي الذي ظنّوا أنه سيقضي على آخر جيوب المقاومة.

توقّفت المدافع عن القصف عند الظهر تقريباً واجتاح المشاة بوا دي كور بأعداد كبيرة. لم يكن يدافع عن المنطقة آنذاك إلا كتيبتان منهكتان من المحاربين بقيادة المقدّم دريان. لم يكن

تقدّم الألمان سهلاً، ودامت المعركة ثلاثة أيام جرى القتال فيها على كل بوصة من الأرض. أصابت رصاصة رأس المقدّم دريان في أثناء المعركة ومات فوراً. أرسلت تعزيزات واستعاد الفرنسيون بعض أجزاء الغابة، لكن التفوق العددي أرغمهم على إخلائها في 23 شباط/ فبراير، ليسيطر الألمان عليها. لم يعد من كتيبة القوات الخاصة السادسة والخمسين إلا خمسة ضباط وستون رجلاً آخر، ومن الكتيبة التاسعة والخمسين ثلاثة ضباط وخمسة وأربعون جندياً. مُني الألمان أيضاً بخسائر كبيرة، وغير متوقّعة إطلاقاً، وتوقّف تقدّمهم أربعاً وعشرين ساعة، ما منح الفرنسيين وقتاً لجلب تعزيزات ومواصلة القتال.



جنود ألمان يتجمّعون في خنادقهم قبل أول هجوم على حصن فو.



جنود مشاة ألمان يحتمون في حفرة قنبلة ...



... ويهاجمون.



مات من أجل بلاده. واحد من نحو 5000 رجل لقوا حتفهم عند حصن فو.



امتلأت ساحة المعركة بجثث وأشلاء، وحبست الرائحة الأنفاس.





رشاش فرنسي في حصن فو يطلق النار على المهاجمين.



قطاع رشاش فرنسي قرب بيكل، 20 تشرين الأول/ أكتوبر 1916.

مقابل: جنديان فرنسيان يعملان على قاذفة قنابل يدوية في خندق في مور–أوم.



هجوم ألماني بقاذفة لهب عند حصن فو.



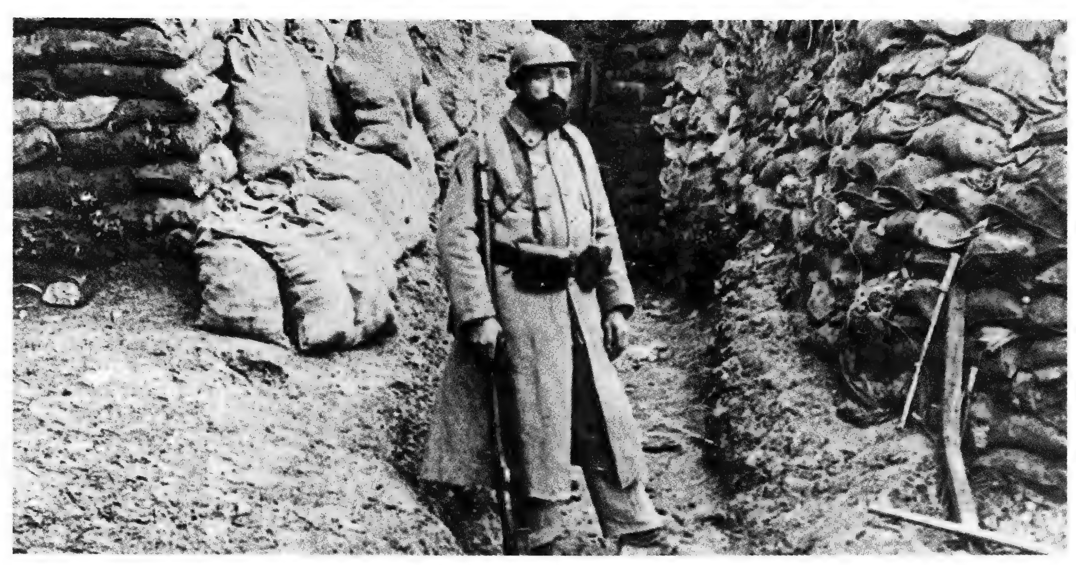
جندي مشاة ألماني في أثناء الهجوم على حصن فو إلى جانب جثة جندي فرنسي.

سقوط حصن دومون، تحوّل ميمون للأحداث

بعد سقوط بوا دو كور لم يشن الألمان هجوماً جديداً حتى مساء الرابع والعشرين من الشهر. حققوا اختراقاً عميقاً في خط الدفاع الفرنسي بين بيزونفو والتلة 378، واحتلوا مواقع في قرية بيمون، ليهدّدوا مباشرة حصن دومون المحصّن والمنيع. دبَّ الذعر بين الفرنسيين، وعدَّ الجنرال هير قائد القوات الفرنسية في منطقة فردان أنه لا يمكن الدفاع عن المواقع الفرنسية على الضفة اليمنى لنهر الميز، وأراد الانسحاب منها، لكن القائد العام الجنرال جوفر لم يسمح بذلك. عُزل هير من القيادة، واستُعيض عنه بالجنرال بيتان الذي تلقّى تعليمات بالدفاع عن فردان حتى آخر رجل.



سقط حصن فو أخيراً في 7 حزيران/ يونيو 1916. أُصيب المدافعون بالإرهاق، بعد صمودهم شهوراً. كان نقص الماء السبب الرئيس في فشل مقاومتهم. اضطر بعضهم إلى شرب بوله.



أخرج الألمان من حصن فو 5000 قتيل، وقد استعاده الفرنسيون بعد خمسة شهور لأسباب تكتيكية ومن دون إطلاق رصاصة واحدة.



كانت فوا ساكريه أو «الطريق المقدّسة» طريق الإمداد الوحيدة التي يمكن نقل جنود فرنسيين ومواد عليها إلى الجبهة في فردان.

في تلك الأثناء خطط الألمان لشنِّ هجومٍ على الجبهة من دون أن يعرفوا أن الفرنسيين كانوا مشغولين بنقل سلاحهم، بناءً على أوامرَ من مقر القيادة الفرنسي في آب/ أغسطس 1915. صدر الأمر لأن سقوط الحصون البلجيكية حول ليج قد أظهر أنهم لا يستطيعون الصمود أمام المدفعية الثقيلة الألمانية من عيار 400 ملم (16 بوصة). بدا منطقياً نقل المدفعية من الحصون الفرنسية. وقد شمل الأمر مواقع في أماكن أخرى، إضافة إلى حصن دومون. في 25 شباط/ فبراير، غادرت حامية الحصن، لكن بقيت وحدة من مهندسين ورجال مدفعية لإنهاء



مدافع ميدان فرنسية في طريقها إلى الجبهة.

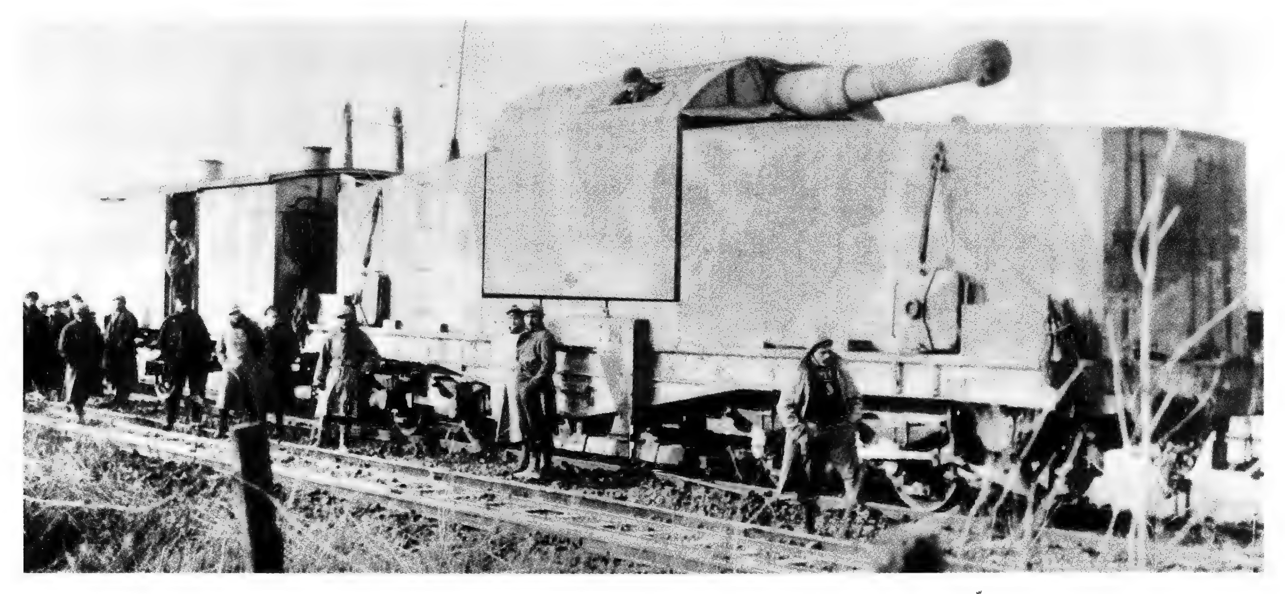
جلب الفرنسيون بسرعة تعزيزات بعد القتال في بوا دو كور. قافلة ذخائر فرنسية في طريقها إلى مور–أوم.



مدفع هاون فرنسي عيار 220 ملم (9 بوصات) بعد إطلاق قذيفة.



مدفع فرنسي محمول على سكة حديدية عيار 320 ملم في فردان.



مدفع فرنسي ثقيل على سكّة حديدية.

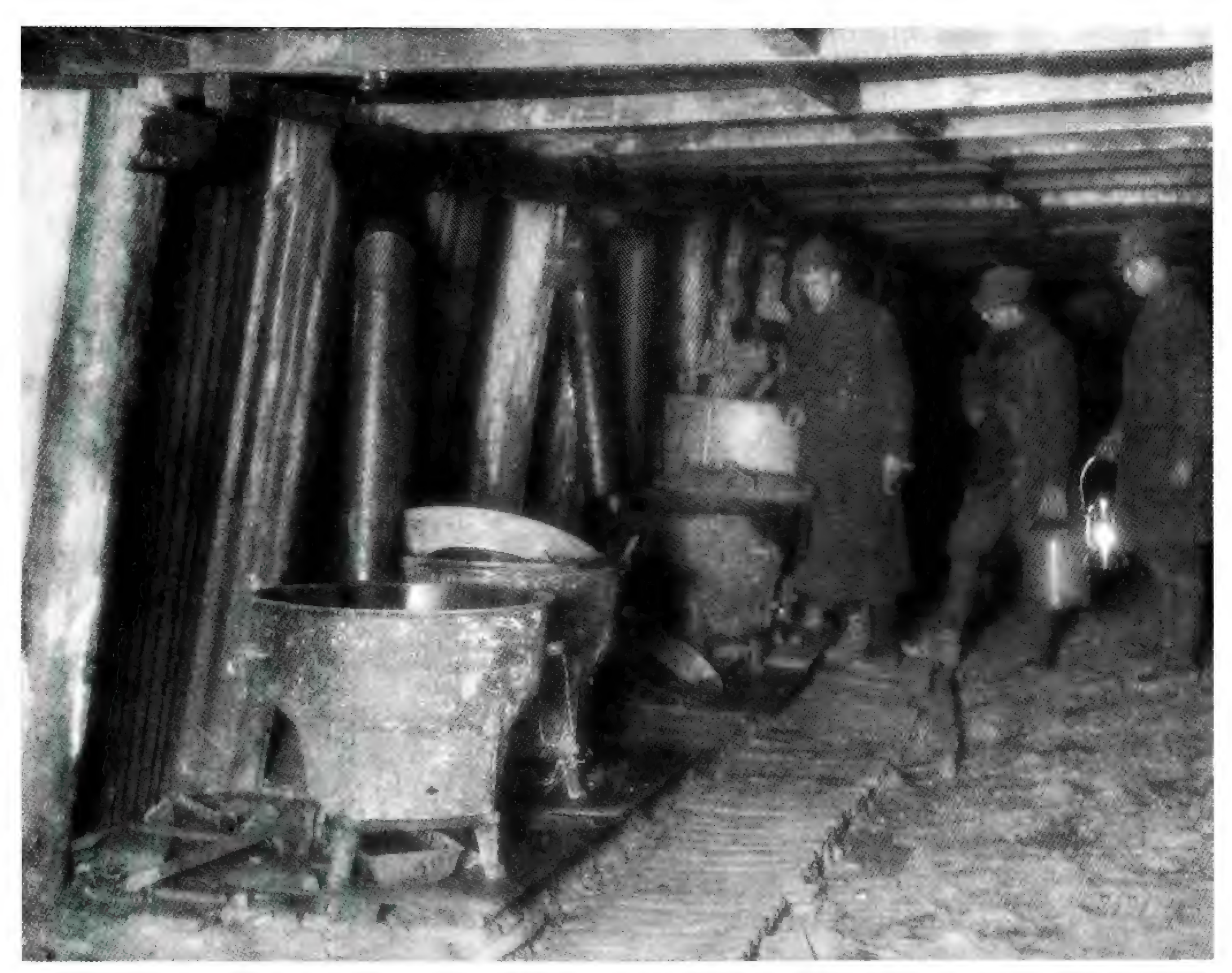
مدفع ميدان فرنسي في مربضه.



التلة 304 بعد المعركة. مات آلاف الجنود الفرنسيين والألمان في القتال للسيطرة عليها.

تحضيرات نقل الأسلحة من هناك. لم يكن لدى أحد في الحصن فكرة عن الهجوم الآتي، وقد أطلقت مدافع عيار 155 ملم (6 بوصات) النار بنحو متقطّع على مفترق الطرق عند أزان إلى الشمال.

تلقى مشاة فوج براندنبورغ الرابع والعشرين أمراً عند الساعة 16:00 تقريباً من 25 شباط/ فبراير، للاستعداد لشن هجوم في اليوم التالي. كان الحصن يمثّل تهديداً كبيراً أمامهم. وتوقّعت القوات المكلّفة بالهجوم معركة مريرة وصعبة. في ذلك الوقت، ذهب عدّة ضباط لاستطلاع الوضع كلٌّ بمفرده، ووصلوا إلى الحصن من دون أن يراهم أحد، ونجحوا في دخول الخندق المحيط به.



«نفق بسمارك» في مور–أوم. حُفرت مئات الأنفاق لتكون ملاجئ، وأماكن تخزين، ومراكز إيواء للجنود المقاتلين.



قاذفة لهب ألمانية في أثناء العمل.

لدهشهم لم يجدوا مقاومة إطلاقاً، وفاجؤوا الجنود الفرنسيين الستين في أثناء عملهم وأسروهم. استدعوا تعزيزات بسرعة، فسقط حصن دومون، الذي كان يُعدُّ آنذاك الموقع الأكثر منعة في العالم، في أيدي الألمان من دون إطلاق رصاصة واحدة. نقلت الصحافة الألمانية بابتهاج أن: «قوات ألمانية استولت على حصن دومون المنيع؛ حجر الزاوية في خطوط الدفاع الفرنسية في فردان، بعد قتال عنيف». صدحت أجراس الكنائس في كل أرجاء ألمانيا وتهلّل الشعب فرحاً.

كان لسقوط الحصن وقع الصاعقة على الفرنسيين، الذين جرّبوا شنَّ هجمات مضادة إنما من دون فائدة. بقي الحصن في ذلك الوقت في أيدي الألمان.



جنود سلاح المدفعية الألماني يجهّزون مواقع جديدة.



خنادق فرنسية تتعرّض للقصف. دمّرت القنابل المواقع الأمامية وقتلت الجنود فيها.

مقابل: فرسان ألمان في فردان. الخيول لها كمّامات أيضاً.





مدفعية ميدان ألمانية تعمل قرب دومون.

الاستيلاء على قرية دومون

بعد احتلال حصن دومون مباشرة أدرك الألمان أن الاستيلاء عليه لم يكن يعني الكثير لهم؛ لأنه مطوّق تقريباً بقوات فرنسية. برزت حاجة إلى السيطرة أيضاً على القرية التي تحمل الاسم ذاته ويقطنها 280 نسمة فقط، وتطهيرها من المشاة الفرنسيين. كان يدافع عنها بقايا الكتائب الأولى، والثانية، والثالثة من الفوج الخامس والتسعين يعزّزها مقاتلون جزائريون وكتيبة مغاربة. تلقى هؤلاء أمراً بالصمود في المدينة حتى الرجل الأخير. كانت حال الطقس سيئة والخنادق مملوءة بماء جليدي من ثلج ذائب، والرجال يعانون نقصاً في الطعام وماء الشرب.

قصفت المدفعية الألمانية القرية كل ليلة الخامس والعشرين – السادس والعشرين، واستمر الوابل في اليوم التالي. عندما بدأ الألمان الهجوم قصفتهم المدفعية الفرنسية وألحقت بهم إصابات كبيرة. تتالت الهجمات، لكن الفرنسيين دافعوا بعناد و لم تسقط القرية بأيدي الألمان إلا في 3 آذار/ مارس، بعد اللجوء إلى الحيلة.

قصفوا القرية ساعات، من ثَم توقفوا فجأة، وظنَّ الفرنسيون أن الهجوم يكاد يبدأ فغادروا



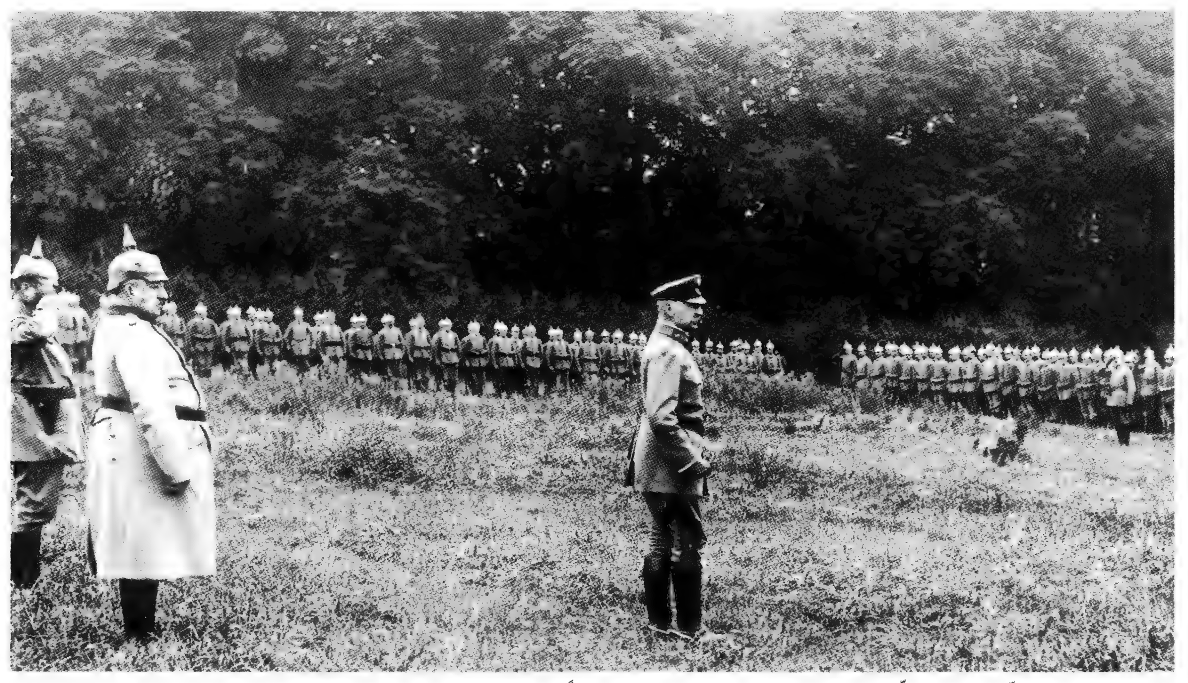
واحد من ملايين الجنود الذين قُتلوا على الجبهة الغربية.



قاذفات لهب ألمانية تقضي على آخر جيوب المقاومة في أثناء هجوم على مواقع فرنسية.

جندي فرنسي ميت في فروادتر.

مجموعة من الجنود الجرحى الذين انتظروا العون عدّة أيام، لكن ماتوا بنحو رهيب نتيجة القصف.



الجنرال فون مودرا يتفقّد قواته بعد تولّيه قيادة مجموعة الهجوم الشرقية المكوّنة حديثاً لخوض معركة فردان.



استفاد الفرنسيون كثيراً من القوات الاستعمارية. هنا جنود سنغاليون يصلون للمشاركة في معركة فردان، 22 حزيران/ يونيو 1916.



جنود جزائريون في أثناء تدريب في سانت غودرين، 16 حزيران/ يونيو 1916.



شيّد جنودٌ غرفاً مريحة وآمنة قدر المستطاع خلف الخطوط.



أحد المباني الكثيرة في فردان التي دمّرها القصف المدفعي.



مشاة فرنسيون بجانب قنابل ألمانية لم تنفجر في حصن سوفيل.

خنادقهم للدفاع عن مواقعهم، وفي تلك اللحظة بدأ القصف الألماني مرة أخرى مستهدفاً خط الجبهة الفرنسي، وقتل كثيراً من الجنود. توقّف القصف بعد ساعة، ومرة أخرى خرج الفرنسيون من خنادقهم وتكرّر ما جرى سابقاً، ليلقى مزيد من الفرنسيين حتفهم. تكرّر هذا مرة ثالثة، لكن الفرنسيين قرّروا آنذاك البقاء في خنادقهم، فهاجمهم الألمان فوراً في مخابئهم وسيطروا على القرية، ما جعل الطريق إلى حصن فو مفتوحاً أمامهم. كان القتال حول قرية دومون أحد أكثر الأعمال دموية في معركة فردان.





لم تنفجر القنابل أحياناً، وتُركت تبرز من الطين. قنبلة ألمانية عيار 220 ملم لم تنفجر في فردان.

مات نحو 4000 فرنسي، إضافة إلى عدد مماثل من الألمان، في أثناء محاولة الاستيلاء على هذه القرية الصغيرة، ما أخّر التقدم الألماني، ومنحَ الجنرال بيتان وقتاً لإرسال تعزيزات إلى الجبهة. أسهم المدافعون بفاعلية في إفشال الخطة الألمانية التي قضت بجعل الفرنسيين ينزفون حتى الموت في فردان، وأوقفوا هجومهم في نهاية المطاف. لم يكن القتال قد وصل إلى تلك المرحلة بعد، ولن تنتهي معركة فردان الدموية حتى 1918.

معركة حصن فو

كان حصن فو المنيع مشمولاً أيضاً بقرار نزع سلاح التحصينات الذي اتخذ في آب/ أغسطس 1915، إنما لم يكن قد طُبّق بعد، وبقي المكان مملوءاً رجالاً وعتاداً. تعرّض الحصن لقصف مدفعي ألماني عنيف في بداية آذار/ مارس، وأُصيب اثنان من أبراج مراقبته الثلاثة بأضرار فادحة. دمّرت ضربة مباشرة الخندق المائي والنفق المؤدّي إلى المدفع عيار 75 ملم (3 بوصات) ما جعل الوصول إليه متعذّراً.

مقابل: مشاة فرنسيون على الجبهة في قرية نيغر، شباط/ فبراير 1916.



جرّاح عسكري فرنسي مع ممرّضي مستشفى ميداني في نقطة إسعاف أوّلي محميّة بأكياس رمل قرب حصن سوفيل. كان هذا الحصن أبعد نقطة تصل إليها قوات ألمانية.



ممرّضون فرنسيون مع جرحى في موقع تضميد في بوكسرل.



كان القتال حول مور–أوم عنيفاً ودامياً. هنا جرحى يُنقلون خلف الخطوط في مركبات إسعاف.

في 8 آذار/ مارس، استطاع مشاة ألمان الاقتراب من الحصن، وعندما أبلغوا عن هذا، عبر خطوط اتصالهم، لم تُفهم رسالتهم بنحو صحيح، ما جعل قسم المعلومات في الجيش الألماني يعلن في اليوم التالي سقوط حصن فو أيضاً بيد الألمان. تلقى الجنرال غورتسكي الذي تولّى ظاهرياً قيادة هذا النصر المظفّر وساماً رفيع المستوى على هذا العمل البطولي. اتضحت معالم هذا الخطأ الفادح بسرعة؛ لأن حصن فو كان لايزال بأيدي الفرنسيين، وسيبقى كذلك وقتاً طويلاً.

في 24 آذار/ مارس، وصل قائد جديد للحصن؛ الرائد رينال البالغ من العمر 49 عاماً، وسيُثبت أنه خصم عنيد للمهاجمين الألمان الذين ستصبح محاولاتهم أشد عنفاً بازدياد. قصفت المدفعية الحصن ليلاً ونهاراً وأبلغ رينال رؤساءه أنّ نحو 8000 قذيفة استهدفتهم «في يوم هادئ».

داخل الحصن، كان جنود كثيرون قد فرّوا إليه من أماكن قريبة، إضافة إلى حاميته المكوّنة

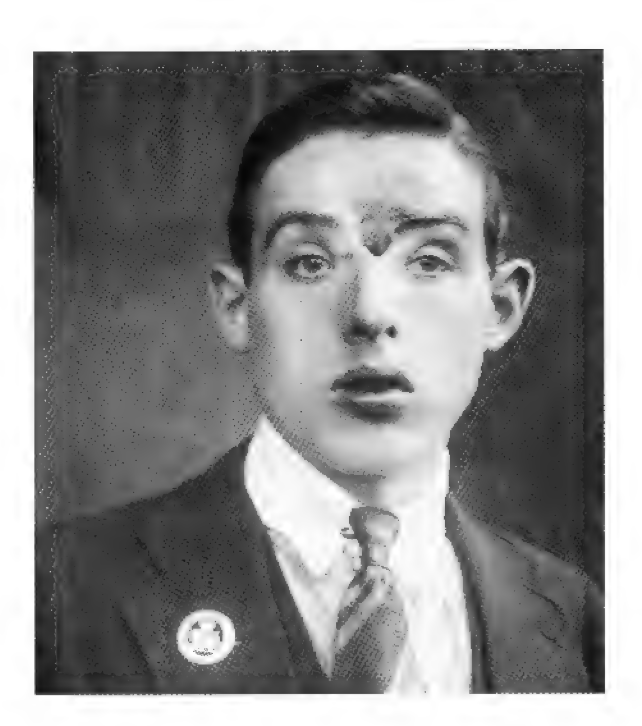


متطوعون بريطانيون في الوحدة الطبية إس-إس-إيه-10 الملحقة بالفرقة الحادية والثلاثين الفرنسية يستعدون لإجلاء جرحى من فردان.

رجال إسعاف متطوعون بريطانيون ينتظرون في تانوا قرب بار-لو-دوك بجانب فردان موجة جديدة من الجرحى.



كان الطلب ضخماً على الأطراف الاصطناعية لمئات آلاف الجنود الجرحى. برزت صناعة طبية جديدة مثل هذه الورشة لتلك الأطراف.



جندي تعرض لإصابة شوّهت جبينه...



... يحظى بوجه جديد – ليس بمساعدة الجراحة التجميلية إنما من قناع اصطناعي.



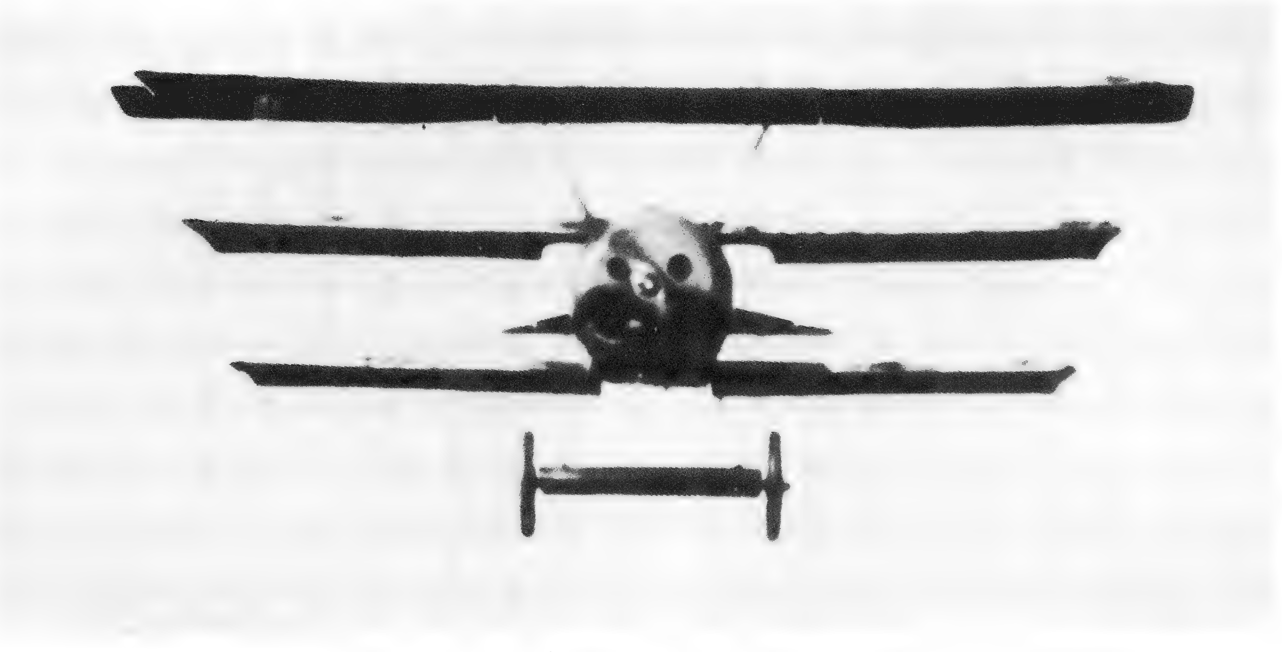
كمّامة صُنعت لجندي تعرّض لإصابة بليغة من شظية قنبلة.

من 280 رجلاً، ما رفع العدد إلى 600 داخل أسواره. عانى هؤلاء ندرةَ الطعام والماء، وكانت حصصهم الغذائية مقنّنة كثيراً.

هاجم الألمان مرة أخرى في 1 حزيران/ يونيو، بعد تمهيد مدفعي عنيف أحدث مجزرة أكبر بين الجنود الفرنسيين على جانبي الحصن، ونجحوا في الاستيلاء على سدّ فو المعروف، وأصبحوا ضمن مدى رشاشات رينال. أطلق الفرنسيون نيران رشاشاتهم بكثافة فامتلأت خنادق الألمان بالقتلى والجرحى، ما أرغم المهاجمين على التغاضي عن إصاباتهم، للوصول إلى المنطقة المكشوفة ومتابعة التقدّم. بدا منظر ساحة المعركة مرعباً، فقد استلقى



بات الطيّار الألماني مانفريد ألبرخت فرايهر فون ريتشهوفن (1892–1918) مشهوراً بالسرب الذي حمل اسمه. أسقط ثماني طائرات معادية، قبل أن يجري إسقاطه أخيراً في 21 نيسان/ أبريل 1918.



باتت طائرة فوكر دي–آر1– الخاصة بـ فون ريتشهوفن سيئة الصيت لدى الحلفاء وأكسبته لقب «البارون الأحمر».



سرب فون ريتشهوفن. طائرته الثانية من اليمين.


فون ريتشهوفن في المستشفى بعد تعرّضه لإصابة بليغة في الرأس في أثناء قتال جوي في 6 حزيران/ يونيو 1917.

الموتى حديثاً بين جثث قد بدأت تتحلّل وأشلاء من إصابات سابقة. كانت الرائحة لا تُطاق، وصرخات الجرحى تفطر القلوب، وقد توفي كثيرون بسبب الافتقار إلى الإسعاف أو الرعاية الأوّلية. تمدّد آخرون هناك ساكنين من دون حراك حين شنَّ الفرنسيون هجوماً مضاداً في الأسبوع التالي، واحترقوا للأسف حتى الموت، حين قصفت القوات الفرنسية المنطقة بقذائف فوسفورية.

بات حصن فو آنذاك محاصراً. في ليلة 2 حزيران/ يونيو، شنّت اثنتا عشرة كتيبة ألمانية تدعمها وحدة مهندسين هجوماً جديداً. تعرّض الحصن لأضرار كبيرة نتيجة القصف المدفعي العنيف، إنما لم يستسلم المدافعون عنه، وأطلقوا نيرانهم الفتّاكة ضد المهاجمين.

استطاع الألمان الوصول إلى أعلى طوابق الحصن ودخول الأنفاق المؤدّية إلى البوابة. كانوا قد نزعوا مسامير أحذيتهم حتى لا تُسمع خطواتهم، لكن الفرنسيين نثروا علباً فارغة كشفت تقدّم المهاجمين. كانت هناك عقبات في النفق، منها رشّاش أطلق النار آنذاك، لكن الألمان تمكنوا من التغلب عليها بعد تكبّدهم خسائر فادحة. أرسل الألمان تعزيزات بعد ظهر ذلك اليوم وضابطاً لتولّي القيادة.

الغريب أن الحصن ضمَّ قائدين آنذاك: فرنسي في القسم الرئيس للحصن، وألماني في الجزء الأعلى من البناء.

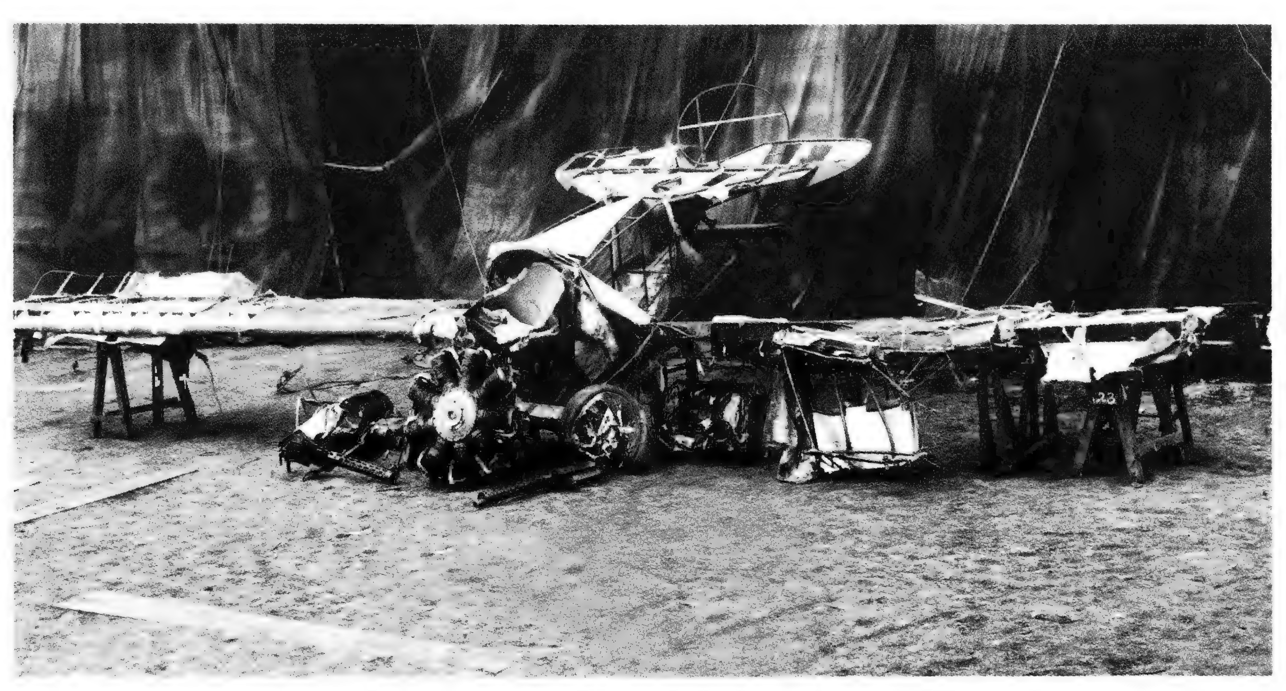

سيطر سلاح الجو الألماني على الأجواء في 1916.



البارون الأحمر يستعد للطيران فوق أراض معادية.

اضطر الفرنسيون إلى إغلاق فتحات التهوية؛ لأن الألمان رموا قنابل يدوية إلى داخل الحصن عبرها، ما جعل الوضع لا يُطاق. ملأ الدخان والغاز آنذاك الحصن من قاذفات لهب استخدمها الألمان، وأصبح الهواء سيئاً جداً، ما جعل المدافعين يضعون كمّامات على وجوههم. لم تعد مصابيح الزيت تعمل بسبب نقص الأوكسجين. وفقد جنود كثيرون وعيهم من الجو السام. استُنفدت مخزونات المياه أيضاً بعد عدّة أيام، وبات الوضع ميؤوساً منه. فبدأ رجالٌ شرب بولهم، وحاول آخرون لعق الرطوبة من الجدران. ازداد عدد الجرحى، لكن مخزون الضمادات والأدوية نفد تماماً.

الملازم أول غورينغ؛ قائد سرب فون ريتشهوفن.



بقايا فوكر فون ريتشهوفن بعد أن أسقطها النقيب الكندي روي براون في 21 نيسان/ أبريل 1918.



النقيب البارون فون ريتشهوفن. التقط ضابط بريطاني هذه الصورة بعد وفاة «البارون الأحمر» مباشرة.

دفن البريطانيون فون ريتشهوفن في جنازة عسكرية مهيبة في 22 نيسان/ أبريل 1918.

عانى المهاجمون في أعلى الحصن أيضاً. صبّت المدفعية الفرنسية نيراناً لا ترحم عليهم، و لم يكن هناك مكان يختبئون فيه لذا ازدادت الإصابات بينهم. دام هذا الوضع حتى 6 حزيران/ يونيو، حين حاول مشاة فرنسيون فك حصار الحصن، لكن جهودهم باءت بالفشل، ومات معظم المهاجمين الفرنسيين أو احتضروا في ساحة المعركة.

اتخذ المقدّم رينال قراراً حاسماً ذلك المساء. في صباح اليوم التالي، جمع الجنود الناجين معاً وأبلغهم أنه ينوي الاستسلام بشروط للألمان. بكى البعض حين سمعوا النبأ، في حين لم يهتم آخرون بذلك. أُرسل ضابط إلى خارج الحصن يحمل راية بيضاء، وجرى الاستسلام الرسمي بعدئذ. وضع ذلك حداً لمعركة حصن فو التي كلّفت 5000 قتيل أو جريح، وخاضها كلا الجانبين بشجاعة، وعناد، وتضيحة كبيرة. عاد حصن فو إلى أيدي الفرنسيين بحلول تشرين الثاني حين أخلاه الألمان بمحض إرادتهم لأسباب تكتيكية.

معركة مور – أوم والتلة 304

في بداية آذار أدرك الألمان أنه من الخطأ تجاهل الضفة اليسرى لنهر الميز. كسب الفرنسيون وقتاً لجلب تعزيزات ومدافع أمطروا بها القوات الألمانية بالقنابل من دون رحمة على الضفة



ممثلون عن أسراب بريطانية يضعون أكاليل زهور على قبر البارون فون ريتشهوفن.



الجانب الآخر من الصورة: واحد من الضحايا الثمانين لـ فون ريتشهوفن.

اليمنى. لهذا اتُخذ قرار في 6 آذار/ مارس، بتوسيع الهجوم إلى الضفة اليسرى.

في أثناء عاصفة ثلجية شديدة، وبعد قصف مدفعي تمهيدي، هاجمت وحدات من الفيلق الاحتياطي السادس بوا دو فورج، وفي الوقت عينه عبرت قوات ألمانية أخرى الميز عند سامونيو، حيث تعرّضت لنيران فرنسية كثيفة. لم ينفجر الكثير من القنابل الفرنسية في الطين، لذا لم تكن الإصابات فادحة. في 7 آذار/ مارس، استولى الألمان على ريغنيفيل، وبوا دو كوربو، وبوا دو كومير، وأسروا نحو 3000 جندي، وسقطت قرية فورج مساء ذلك اليوم أيضاً. شنَّ الفرنسيون هجوماً مضاداً في صباح اليوم التالي، واستعادوا بوا دو كوربو. في 8 آذار/ مارس، هاجم الألمان التلّة الشهيرة مور—أوم، إنما مُنيوا بهزيمة نكراء. في 14 آذار/ مارس نجحت الفرقة الاحتياطية الثانية عشرة الألمانية في الوصول إلى القمة الشمالية للتلة، وإبعاد المدافعين الفرنسيين عنها، بعد قتال شرس.



مقاتلة ألمانية في أثناء معركة جوية فوق الجبهة الغربية.

بق المعركة قصف مدفعي عنيف حوّل التلّة إلى عمود نادر ودخان لا مكان للحياة عليها. بدت التلّة مثل جحيم دانتي تشتعل ناراً، وقد انتشر الموتى أو الجرحى في كل مكان عليها، وتناثرت جثث مشوّهة على أرضها. لم يكن هناك أمل بالحصول على رعاية طبية أو دفن لائق، وعبقت رائحة أجساد عفنة لا تُطاق في الجو. عندما حاول المهاجمون المرهقون الحصول على بعض الراحة في الخنادق الفرنسية سابقاً، تعرّضوا لنيران الفرنسيين من القمة الأخرى، وتواصل القتال. لقد كلف احتلال القمة الشمالية الألمان 3000 رجل، إلا أن ذلك لم يُحدث فرقاً؛ لأنهم لم يسيطروا على القمة الأخرى أيضاً، وقد فشلت كل محاولاتهم، وبات الوضع ميؤوساً منه.

دام القتال على مور–أوم طوال شهري آذار/ مارس ونيسان/ أبريل، وانتهى بنجاح الفرنسيين في إبعاد الألمان عن التلة. قرّروا آنذاك الهجوم أولاً على التلة 304 القريبة.

السيطرة على كلتا التلّتين

في 3 أيار/ مايو، بدأت ست وثلاثون كتيبة مدفعية معركة التلة 304، ودام القصف نهارين وليلتين متواصلين. قُدّر بعد الحرب أن نحو 10.000 جندي فرنسي فقدوا حياتهم في الدفاع عن التلّة، وقد قضى الألمان ثلاثة أيام قبل الاستيلاء على المرتفع الإستراتيجي.

استخدم الألمان الطريقة عينها في مور–أوم التي استعادوها في 20 أيار/ مايو. كانت المعركة عنيفة جداً والخسائر كبيرة على كلا الجانبين.

استمرار القتال

لقد دامت معركة فردان مئة يوم، وبحلول آخر أيار/ مايو، وصلت الخسائر الألمانية إلى نحو 174.000 رجل. بدا واضحاً أن خطة فالكنهاين بجعل الجيش الفرنسي ينزف حتى موته في فردان قد فشلت. بدا فعلاً أن الجيش الألماني هو الذي ينزف حتى الموت، لكن القيادة العليا لم ترَ الأمر على هذا النحو، واستعدّت لشن هجمات إضافية.



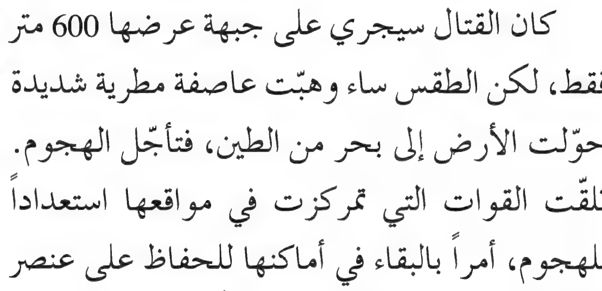
منطاد زبلين للبحرية الألمانية، ل12–، في طريقه لقصف بريطانيا.



شتراسر؛ قائد فرقاطة ورئيس قسم سلاح الجو في البحرية الألمانية. أُسقط منطاده زبلين ل–70 فوق بريطانيا، فتحطّم واشتعلت فيه النيران ما أدّى إلى وفاته.

هجوم بقنابل غاز يدوية على حصن سوفيل

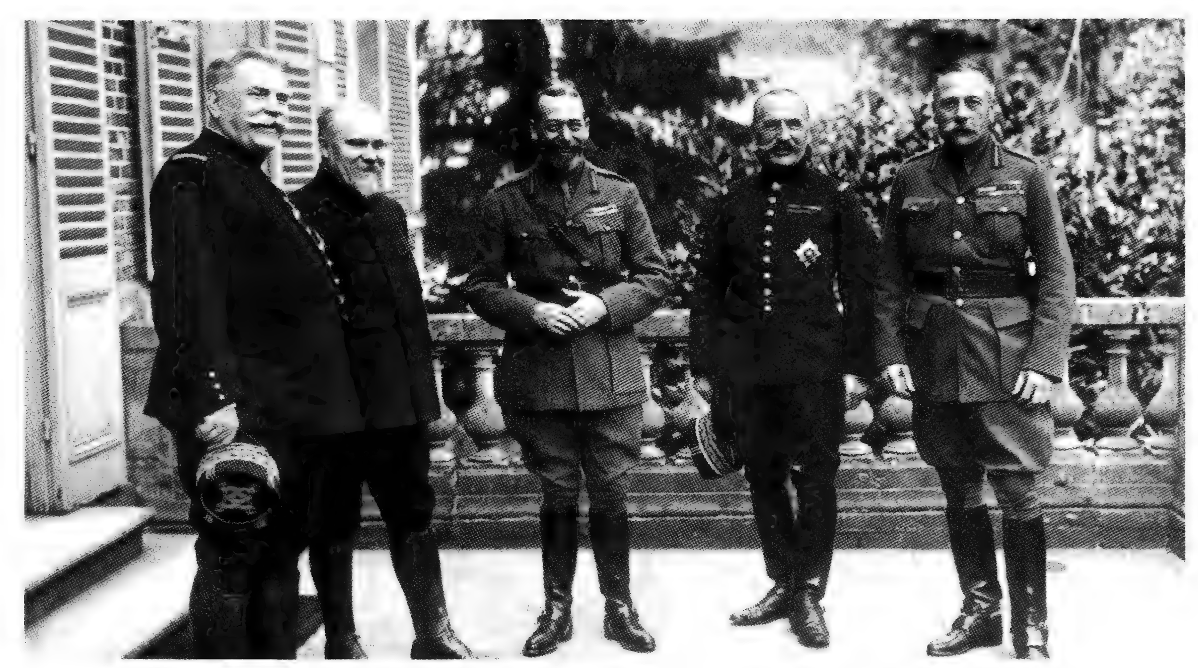
تواصلت المعركة في ذلك الوقت على الضفة الشرقية لنهر الميز. جرى قتال عنيف حول تيامون، وفروا تير، وقرية فلوري التي تبدّلت السيطرة عليها سبع عشرة مرة، وتحوّلت إلى أنقاض. خطّط الألمان آنذاك لشنّ هجوم على حصن سوفيل؛ النقطة الأخيرة في خط الدفاع الخارجي حول فردان.



كان القتال سيجري على جبهة عرضها 600 متر فقط، لكن الطقس ساء وهبّت عاصفة مطرية شديدة حوّلت الأرض إلى بحر من الطين، فتأجّل الهجوم. تلقّت القوات التي تمركزت في مواقعها استعداداً للهجوم، أمراً بالبقاء في أماكنها للحفاظ على عنصر المفاجأة. كان هذا يعني البقاء يوماً بعد آخر من دون ملتجأ وطعام في ثياب مبللة تماماً بالماء، وتحت رحمة قصف مستمر من المدفعية الفرنسية، ما ألحق بالألمان خسائرَ كبيرةً قبل حتى أن



حطام ل–70 التي تم إسقاطها.



أبرز رجال الحلفاء: (من اليسار إلى اليمين) المشير جوفر، والرئيس بونكاريه، والملك جورج الرابع، والجنرال فوش، والجنرال هيغ.

يبدأوا القتال، وجعل معنوياتهم تنهار.

أخيراً، عملت المدفعية الألمانية في صباح 10 تموز/ يوليو، وأطلقت نحو 63.000 قنبلة غاز سام. وضع الجنود الفرنسيون كمّامات ما حدَّ من تأثير الغاز، وعندما شنَّ المشاة الألمان هجومهم، تعرّضوا فوراً لوابل رهيب من النيران ألحق بهم خسائر كبيرة. فشلت محاولة أخرى أيضاً للاستيلاء على الحصن في 12 تموز/ يوليو، ورُدَّ المهاجمون على أعقابهم، بعد تكبّد إصابات فادحة.



الجنرال هيغ على صهوة حصان في أثناء جولة لتفقّد الجبهة.

لم يستطع الألمان التقدّم خلف حصن سوفيل. أدرك الجنرال فالكنهاين أن خطته قد فشلت، وإن يكن متأخراً وبعد خسارة 600.000 جندي فرنسي وألماني ضحّوا بحياتهم في تلك المعركة التي لا فائدة منها. قرّر فالكنهاين إيقاف كل الهجمات في ذلك الوقت، والتركيز على التحصين والدفاع. كانت عملية جريشت عقيمة ولم تحقّق نتائج ملموسة. في 27 آب/ أغسطس، عُزل فالكنهاين من القيادة، ونُقل إلى رومانيا، واستُعيض عنه ببطلي تانينبرغ، الثنائي هيندنبورغ ولودندورف.



الجنرالان هيغ وفوش مع جوفر يغادرون مقر قيادة الأخير حيث ناقشوا إشعال جبهة ثانية في السوم.



الجنرال رولينسون، قائد الجيش الرابع البريطاني المكوّن حديثاً آنذاك الذي جرى نشره ليقاتل في السوم مع الجيش السادس الفرنسي.



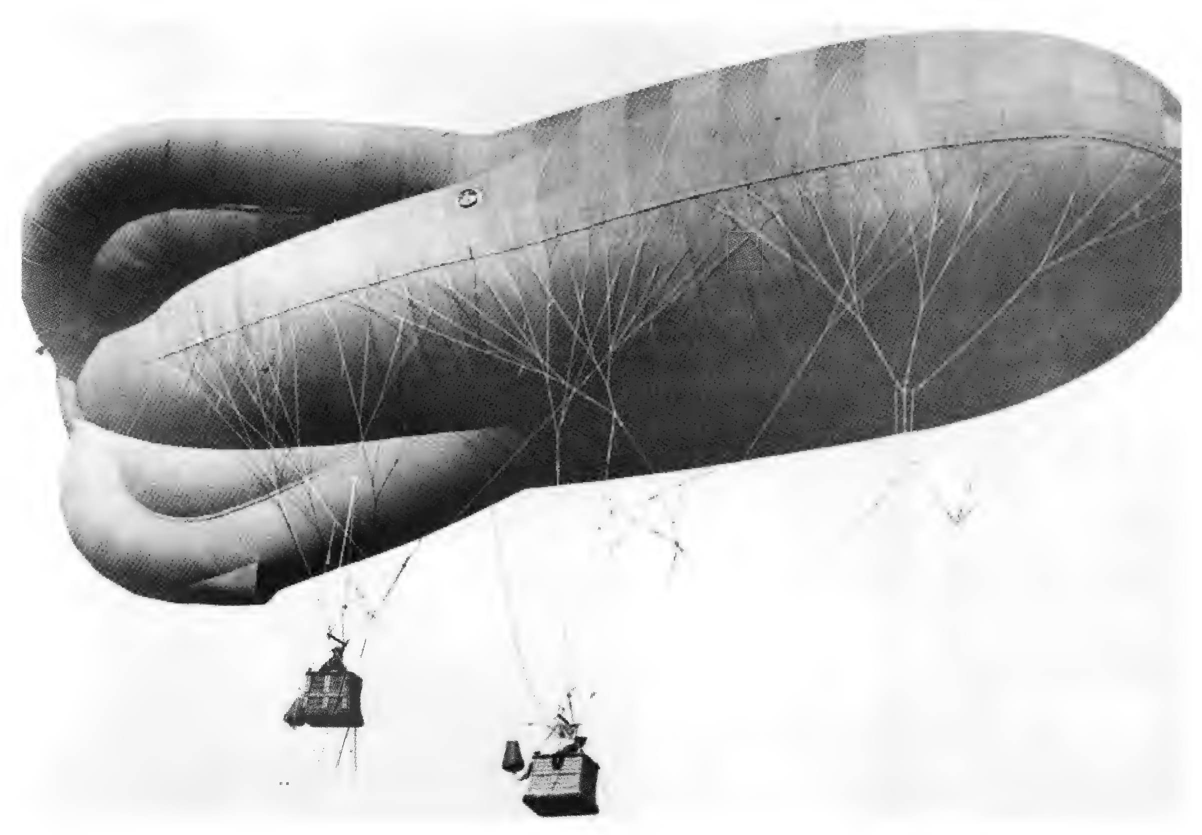
الجنرال رولينسون مع عدّة ضباط أركان يتعرّفون بأنفسهم على منطقة السوم.



مدفع فرنسي عيار 400 ملم (16 بوصة) استُخدم في السوم. بدأت المعركة في 25 حزيران/ يونيو 1916 بتمهيد مدفعي دام سبعة أيام.



سرية مدافع هاوتزر بريطانية في أثناء قصف تمهيدي. أطلقت المدفعية البريطانية أكثر من مليون قنبلة على مواقع ألمانية.



«طائرة شراعية» بريطانية أو منطاد مراقبة مع مرصدَي مدفعية فوق السوم.

مخزن ذخائر بريطاني في السوم.



جنود مدفعية يحرّكون قنبلة هاوتزر عيار 15 بوصة.

معركة السوم الدامية

أدّى الموقف السيّئ للحلفاء إلى قيام الجنرال جوفر بالدعوة إلى مؤتمر لقادة الحلف البارزين لوضع خطط لاستعادة زمام المبادرة في 1916.

بعد الهجوم الألماني على فردان الذي تعرّض الفرنسيون فيه إلى خسائر فادحة، أراد جوفر شنَّ هجومٍ فرانكو – بريطاني مشترك في السوم لتخفيف الضغط على تلك الجبهة.



حشد البريطانيون قوة مؤثّرة من الجنود لخوض معركة السوم.



جنود هنود مع درّاجات هوائية على طريق ماميتز، تموز/ يوليو 1916.

مقابل: قنابل يدوية في الخنادق جاهزة للاستخدام.

زار جوفر شخصياً القائد العام البريطاني هيغ واتفقا على أن يكون البريطانيون مستعدين قبل 1 تموز/ يوليو. كان الهجوم سيبدأ في ذلك التاريخ، في حين سيشنُّ الفرنسيون هجوماً ثانياً بعد عدّة أيام إلى الجنوب سيفاجئ الألمان على الأرجح. لم يكن هيغ واثقاً جداً بشأن هذه النقطة الأخيرة؛ لأنه خشي أن ينكث الفرنسيون بذلك الوعد، وأن يتركوا البريطانيين يقاتلون بمفردهم، على أن ينضمّوا إليهم لاحقاً للمشاركة في النصر. اتفق الاثنان فعلاً بشأن التوقيت وهدف الهجوم: الوصول إلى خط بابوم – بيرونيه – هان، على أن يهاجم الفرنسيون بيرونيه والبريطانيون رانكور – كومبل.



تعزيزات فرنسية في طريقها إلى جبهة السوم.



جنود سلاح الهندسة البريطاني في طريقهم إلى خط الجبهة لوضع أسلاك شائكة.



جنود بريطانيون ينتظرون في خنادقهم إشارة بدء الهجوم.



كان الفرنسيون مستعدين أيضاً لبدء الهجوم.



موقع مراقبة بريطاني في خندق محصّن جيداً.



عشر دقائق قبل ساعة الصفر: لغم ينفجر تحت إحدى تحصينات هاوثورن. معركة السوم تكاد تبدأ.



فجّر البريطانيون لغماً تحت موقع ألماني في بومون–آمل في 1 تموز/ يوليو 1916.



جنود أستراليون على خط الجبهة قبل الهجوم.



بدء الهجوم في السوم في 1916. لم يعد إلا القليل.

كان فتح جبهة السوم حاسماً لـ جوفر لتخفيف الضغط الكبير على الفرنسيين في فردان، وخسائرهم الفادحة هناك. بدا مهماً جداً التخفيف من الضغط على تلك الجبهة. لم يكن تشكّك هيغ بالطرف الآخر في غير محله تماماً؛ لأن جوفر أبلغه لاحقاً أن الفرقتين الثانية والعشرين والسادسة والعشرين الفرنسيتين لن تشاركا في الهجوم بعد الإصابات الكبيرة التي مُنيتا بها في فردان، وأن المساهمة الفرنسية ستقتصر على اثنتي عشرة فرقة.

في ذلك الوقت، كوّن البريطانيون جيشاً رابعاً جديداً بقيادة الجنرال رولينسون (سبع عشرة فرقة، وثلاث احتياط) نُشر، إضافة إلى الجيش الثالث، على جبهة طولها تسعين ميلاً تقريباً من السوم في الجنوب، حيث تمركز بجانب الجيش السادس الفرنسي، إلى جوميكور في الشمال حيث انتشر الجيش الثالث البريطاني.

كانت الاستعدادات البريطانية منظّمة، و لم تترك سَوقيَات معركة السوم شيئاً للمصادفة، مقارنة بالإخفاق الذريع في جاليبولي. أمر هيغ بتكديس إمدادات ضخمة في المنطقة حول



لم يخرج بعضهم من خنادقهم أبداً.



خرج جنود موجة الهجوم الأولى من خنادقهم بهدوء؛ كأنهم يتنزّهون، ليلقوا حتفهم الأكيد تقريباً.

ترك البريطانيون والفرنسيون خنادقهم عند 7.30 تماماً لمهاجمة الألمان.



موجة الهجوم الثانية، لا يزالون واثقين بالنصر.

مقابل: من دون تغطية ومتقاربون؛ كأنهم ينفّذون تدريباً.



خرج جنودٌ في موجة بعد أخرى من خنادقهم لتقضي عليهم الرشاشات الألمانية من دون رحمة.

جنود احتياط ينتظرون الأمر بالانتقال إلى خط الجبهة.



حاول الناجون القلائل يائسين العثور على فتحة في الأسلاك الشائكة الألمانية التي بدا واضحاً أنها لم تتضرّر كثيراً برغم استمرار القصف العنيف سبعة أيام.



... ماتوا أيضاً. كان أمام الألمان ميدان رماية مكشوف في المنطقة المتنازع عليها.

ألبرت وأراس وتوثّق من سلامة خطوط الاتصالات. نُشر نحو مدفع ميداني، و180 قطعة مدفعية ثقيلة، و245 مدفع هاوتزر ثقيل مع ثلاثة ملايين قنبلة. جُهّزت مواقع هجومية للقوات التي ستشارك في المعركة. زُودت الفرقة التاسعة والعشرون التي قد تآكلت تماماً في جاليبولي بالرجال والعتاد مجدداً، وتمركزت على الجبهة. كانت «كتائب» ما يدعى «الأصدقاء» في جيش كيتشنر جاهزة أيضاً بين القوات المكلّفة بالهجوم، وستكون تلك المعركة أول تجربة قتالية لكثير من أفرادها.





أرسل الألمان بسرعة تعزيزات إلى السوم بعد الهجوم البريطاني الأول. جنود من فردان في طريقهم إلى السوم.



تعزيزات ألمانية في طريقها إلى السوم. لا يزال هؤلاء الجنود يعتمرون خوذات قديمة الطراز.

مقابل: لم يكن للقصف البريطاني تأثير كبير على الملاجئ الإسمنتية الألمانية.

اقتضت خطّة هيغ اختراق صفوف العدو في ١ تموز/يوليو، بعد تمهيد مدفعي متواصل مدّته سبعة أيام على الأقل. ظنّوا أن القصف المدفعي العنيف سيقضي على الألمان، الذين لن يُبدوا أي مقاومة. أُسندت إلى الوحدات المهاجمة مهمة الاستيلاء على الخنادق الألمانية، واحتلالها، من ثمّ التقدّم ستة أميال إلى بابوم. كان هيغ وضباط أركانه مقتنعين أنه سيكون «انتصاراً سهلاً» للمشاة. وأمروا أن تكون المسافات بين موجات الهجوم قصيرة. اقتضت الخطّة أن تتعامل المدافع الميدانية مع عقبات الأسلاك الشائكة والخنادق الألمانية في حين تستهدف المدفعية الثقيلة مدافع العدو وتحصينات محدّدة. كان تمهيد ناري سيسبق هجوم المشاة بعد القصف المدفعي، في حين لا يزال الجنود الأعداء في خنادقهم.



ملاجئ ألمانية على جبهة السوم.



مدفع هاوتزر ألماني عيار 210 ملم (8 بوصات) في السوم.



خندق ذخائر ألماني يؤدّي إلى سرية مدافع هاوتزر.



حاول جنود ألمان إقامة غرف مريحة لهم قدر المستطاع على الجبهة باستخدام الخشب والحديد المموّج.

مقابل: قنبلة ثقيلة تنفجر بين جنود بريطانيين يشنّون هجوماً.

بحلول نهاية يوم 1 حزيران/ يونيو، كانت الحصيلة وفاة 21.392 جندياً بريطانياً، وجرح 36.000 آخرين.



فريق مدفع ميدان ألماني ينتظر بصبر المهاجمين.



المدفعية الألمانية تطلق النار على خنادق الجبهة البريطانية والمنطقة خلفها.

جنود بريطانيون جرحى يحاولون الانسحاب زحفاً إلى خطوطهم.



استخدم الألمان قاذفة لهب في هجوم مضاد.





لقي حتفه في انفجار قنبلة قربه.

بدا الأمر بسيطاً جداً، لكن هيغ لم يأخذ بالحسبان ما قد حدث مع وابل ناري مماثل في بداية الهجوم الألماني على فردان. لو أنه انتبه لذلك، لربما كان أقل تفاؤلاً، و لم يكُن آلاف الرجال قد ماتوا من دون فائدة في ريعان شبابهم، أو تعرّضوا لإصابات شوّهت أجسادهم. لم تكن تضاريس المنطقة التي تم اختيارها قرب السوم مثالية لشن هجوم، فقد تمركز الألمان في مواقع محصّنة، وحفروا خنادق في التلال الكلسية. مرة أخرى فشل البريطانيون في جمع معلومات استخباراتية كافية.

في أثناء التمهيد المدفعي قبل الهجوم لم تحظَ تقاريرُ من دوريات استطلاع بأن الألمان لا يزالون في مخابئهم، وأن الأسلاك الشائكة لم تتضرّر، باهتمام كبير. كرّر الجنرال هنتر ويستون؛ قائد الفيلق الثامن، الأخطاء نفسها التي ارتُكبت في جاليبولي، فقد أبدى تفاؤلاً أكبر من اللازم، و لم يتكبّد عناء التوثّق من المعلومات بنفسه. قدّم تقريراً يقول إن الأسلاك الشائكة الألمانية في قطاعه قد دُمّرت كلياً، وإن جنوده يستطيعون «السير بأمان»، في حين كانت تلك الأسلاك لا تزال قائمة في الواقع، وستودي بحياة كثير من الرجال. الحقيقة هي أن هيغ افترض زوال خطر الأسلاك الشائكة، وقد دوّن هذا في مفكّرته ليوم 30 حزيران/ يونيو.

لم يغفل الألمان طبعاً عن الاستعدادات البريطانية. خيّم هدوء على منطقة السوم حتى ذلك الحين، وقد استفاد الألمان من الوقت المتاح لتنظيم وبناء تحصينات دفاعية ضخمة. زُوّدت تلك

مقابل: واحد من 21.392 جندي لم يعودوا.



جنود موتى في أرض متنازع عليها.



وصل إلى الخطوط الألمانية إنما لم يجد طريقاً سالكاً وقُتل.



قبر جُهّز على عجل لرفيق سلاح سقط قتيلاً.



جنود بريطانيون موتى في السوم قرب أراس.



المعركة تتواصل: جنود بريطانيون ينقلون جرحى في أثناء هجوم بالغاز.



لم تبقَ إلا يد، ترتفع عالياً وتتوسّل المساعدة كما يبدو.

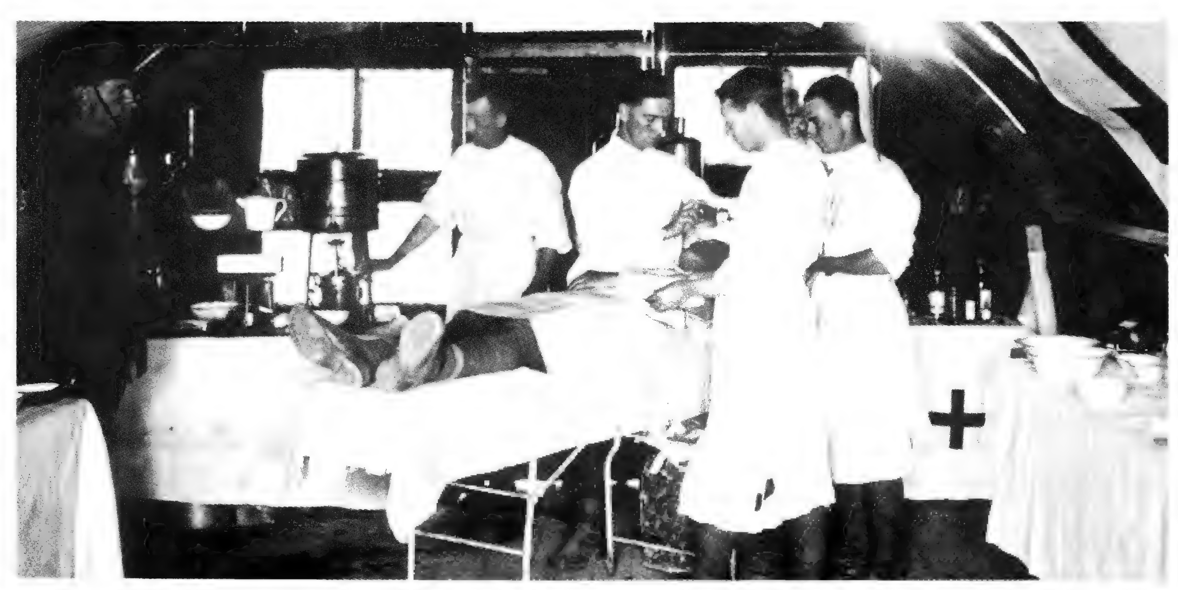


جندي قتيل وآخر جريح ينتظران نقلهما بعيداً.



جندي جريح يتلقّى إسعافاً أوّلياً من مركز إسعاف قرب الجبهة.

سيارات إسعاف تأتي وتذهب لنقل الجرحى.



خيمة جراحية في مستشفى ميداني في السوم.

دعاية ألمانية في السوم: «لا تغضبوا كثيراً بشأن هذا».



دعابة بريطانية سمجة في المحنة (فندق للبيع).

الكاتدرائية المدمّرة في بيرونيه.



خندق فرنسي في السوم.



هجوم آخر: جنود بريطانيون يستعدّون لتقدّم الألمان.

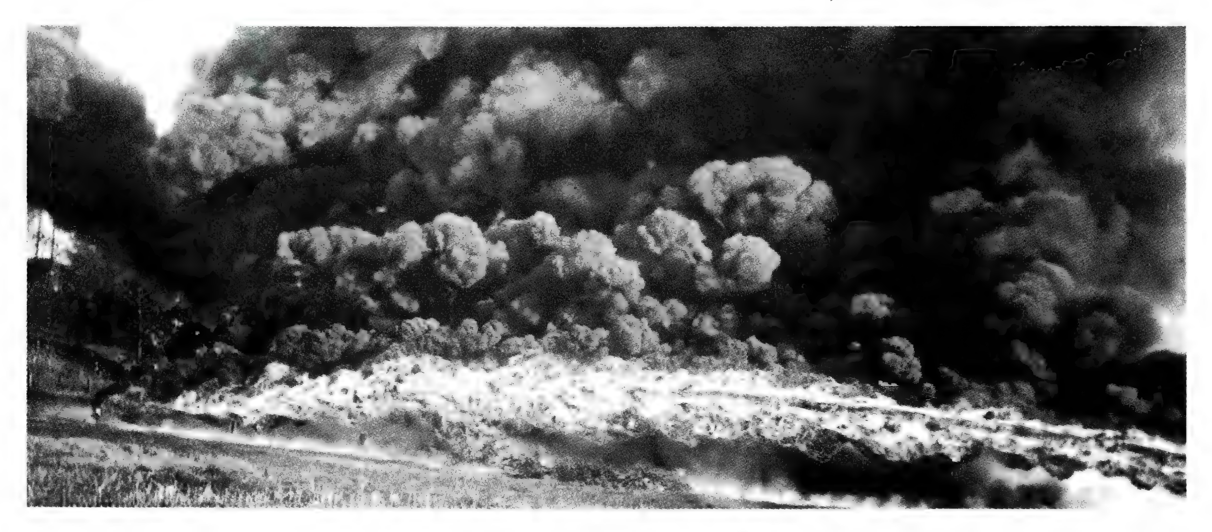
ضابط بريطاني يزوّد رجاله بالتعليمات قبل الهجوم.



جنود بريطانيون وبإشراف مباشر من ضباطهم يضعون قذائف في أسطوانات مصنّعة خصيصاً أثناء استعدادهم لشن هجوم بالغاز.



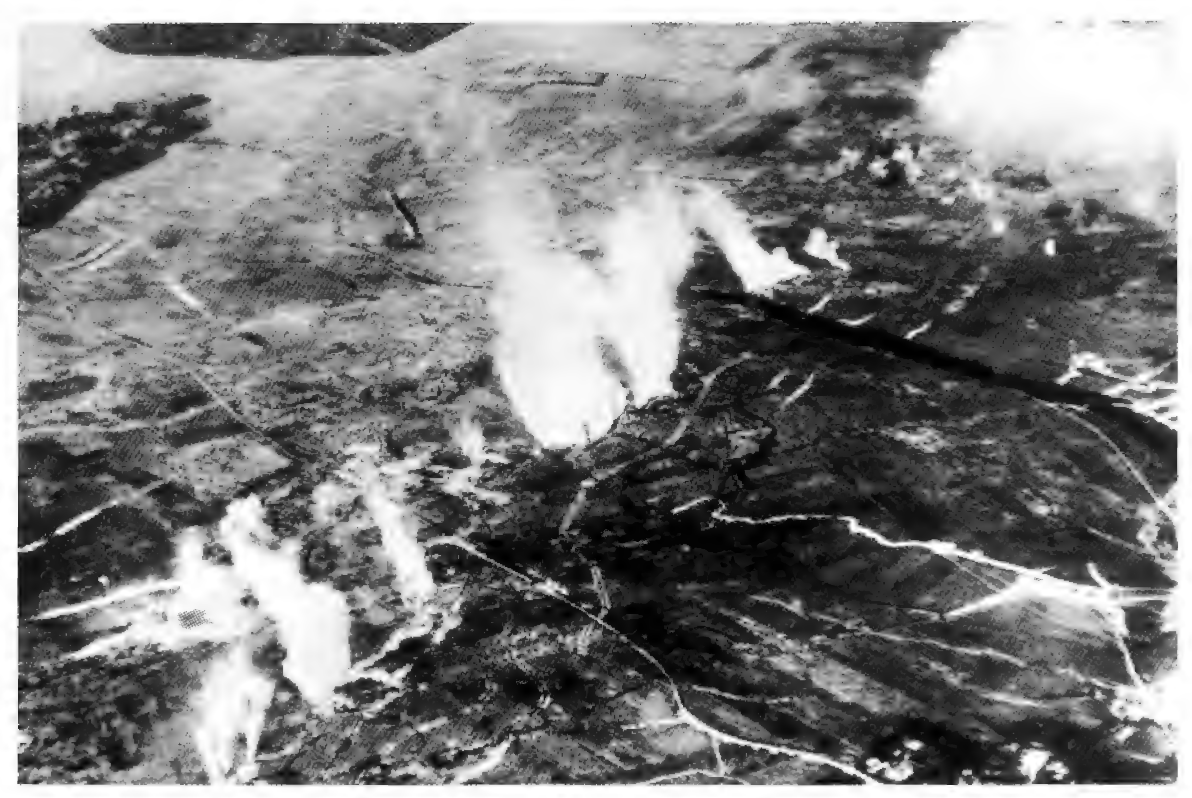
هاجم البريطانيون مجدداً تحت غطاءٍ دخاني كثيف.



ابتكار جديد استُخدم أول مرة في السوم: قاذفة لهب بريطانية، 1 تموز/ يوليو 1916.

المواقع الإستراتيجية برشّاشات وخنادق عميقة للتواصل بينها مع ملاجئ إسمنتية للرجال تحت سطح الأرض بعشرة أمتار لحمايتهم من الشظايا. أخيراً زُرعت حواجز من الأسلاك الشائكة أمام الخنادق. بالمختصر، كانت الدفاعات الألمانية معدّة جيداً وملائمة تماماً للدفاع ضد الهجوم الوشيك.

أصدر هيغ تعليماته النهائية لضباطه قادة الجيشين الثالث والرابع في 16 حزيران/ يونيو، وحدّد الأهداف مرة أخرى. بدأ القصف المدفعي للمواقع الألمانية في 25 حزيران/ يونيو. أُطلقت أكثر من مليون قنبلة من مختلف العيارات بنحو متواصل سبعة أيام. باتت المنطقة كلها كتلة من دخان ولهب، وبدا مستحيلاً أن ينجو أحد فيها. أخيراً طلع فجر 1 تموز/ يوليو؛ اليوم الذي شهد أكبر كارثة على الإطلاق في التاريخ العسكري البريطاني. كان ذلك هو اليوم الذي فقد فيه البريطانيون الثقة بالنفس و لم يستعيدوها أبداً، اليوم الذي لم يرَ فيه 20.000 شاب الشمس تغرب.



هجوم ألماني بالغاز على السوم في 1916.



زاد الطين من صعوبة النقل أيضاً في السوم.



لا شيء باستثناء الموت، والدمار، والرائحة الكريهة، وكثير من الطين.

الأول من تموز/ يوليو

بزغ فجر الأول من تموز/ يوليو بسماء زرقاء وشمس ساطعة. عند 7:30 تماماً صدر أمر للرجال بالهجوم، فغادروا خنادقهم وانطلقوا نحو تحصينات العدو تحت غطاء من الدخان، وبعد قصف مدفعي رهيب. أبلى الجيش السادس الفرنسي بقيادة الجنرال ريميل فايول إلى جنوب السوم حسناً، لكن على الجانب البريطاني حيث قاتل مجنّدون أول مرة (فرضت بريطانيا الخدمة العسكرية الإلزامية في 12 كانون الثاني/ يناير 1916) بدا كل شيء على خطأ. انتقل القصف المتحرّك الذي علّق هيغ آمالاً كبيرة عليه، وكوّن جزءاً مهماً من خطته بسرعة كبيرة، ووصل إلى الخطوط الألمانية قبل المشاة بوقت طويل. استطاع الألمان لهذا السبب العودة إلى خنادقهم، وسنح لهم وقتٌ كاف لتوجيه رشاشاتهم نحو قطاعات محدّدة. وصل الجنود البريطانيون إلى مدى الرمي الألماني في العراء، وغير محميين إطلاقاً، وبأعداد كبيرة، ولقوا حتفهم بالآلاف. تبعتهم موجات جديدة لقيت المصير نفسه. وبرغم هذا، تتالى تقدّم خطوط جديدة من الجنود. وصلت خمس فرق بريطانية فقط من سبع عشرة إلى الخط الأول من الخنادق الألمانية، في حين لم تتجاوز الاثنتا عشرة الأخرى ميدان المعركة، ومات كثيرون حتى قبل أن يغادروا خنادقهم. عبّر جنود ألمان لاحقاً عن دهشهم من الطريقة العقيمة تماماً التي هاجم البريطانيون بها.

لم يضطر الألمان حتى إلى التسديد لإصابة ضحاياهم، وعندما تراجع البريطانيون في النهاية، توقّف الألمان عن إطلاق النار لمنع سقوط مزيد من الإصابات.

انتهت هجمات البريطانيين في ذلك اليوم بموت 21.392 شاباً بريطانياً في حين بقي 35.000 آخرين تعرّضوا لإصابات خطرة في ميدان المعركة. ستُسمع صرخاتهم طلباً للمساعدة من الأرض المتنازع عليها طوال أيام، من دون أي أمل بإنقاذهم. أخيراً صمتت أصواتهم بعد احتضارهم نتيجة نزيف الدم، أو الإرهاق أو عوز الماء.

مقابل: طبيعة كئيبة وباهتة اضطر رجالٌ إلى العيش فيها، والقتال، والموت الأكيد تقريباً في النهاية.



خنادق مملوءة ماء، وطيناً، ومقابر.



حفر ألغام مملوءة ماء في ماميتز.



جنود على الجبهة يحاولون الاستراحة بين جولات القتال. جنود أستراليون يخمّرون شاياً في خندقهم.

باتت الظروف على الجبهة لا تُحتمل إطلاقاً بعد حلول الشتاء.



يتوقّعون هجوماً.



على صهوة الجياد في ميريكور، 1916.

طرقات مزدحمة، وجنود، وسيارات إسعاف، وطين: السوم 1916.



خندق ألماني أصابته قنبلة بريطانية قرب أفيلر.



أسرى حرب ألمان يُنقلون إلى المؤخرة. انتهى جحيم السوم بالنسبة إليهم.

لم تكن معركة السوم قد انتهت بعد. تراجع الألمان في أثناء الشتاء إلى خط دفاعي جديد؛ خط هيندنبورغ. سيطر الحلفاء على المنطقة التي قد أخلاها الأعداء من دون قتال في آذار/ مارس 1914، لكن في أثناء الهجوم الذي شنّه الألمان في آذار/ مارس 1918، أخرجوا الحلفاء من تلك المواقع في يوم واحد، وفي أسبوعين أرغموهم على التراجع أكثر من ثلاثين ميلاً. مرة أخرى مات عشرات آلاف الجنود في ساحات معارك السوم، و لم ينتهِ الأمر إلا في تشرين الثاني/ نوفمبر 1918.

الشعب البريطاني

تعرَّض هيغ إلى انتقاد لاذع ومتواصل. ولا تزال قيادته آنذاك موضوع نقاش صاخب حتى يومنا هذا. كتب في يومياته أن القتال في السوم كان يستحق تلك التضحيات لأن الألمان قد أرغموا على نقل قوات ومدفعية بعيداً عن فردان و لم يعد بمقدورهم مواصلة تلك المعركة.



النهاية الحزينة لمعركة يائسة: مقبرة ألمانية تضم 500 قبر لأولئك الذين لم يعودوا أبداً.



جنود روس يدخلون مبتهجين بالنصر بلدة استولوا عليها.



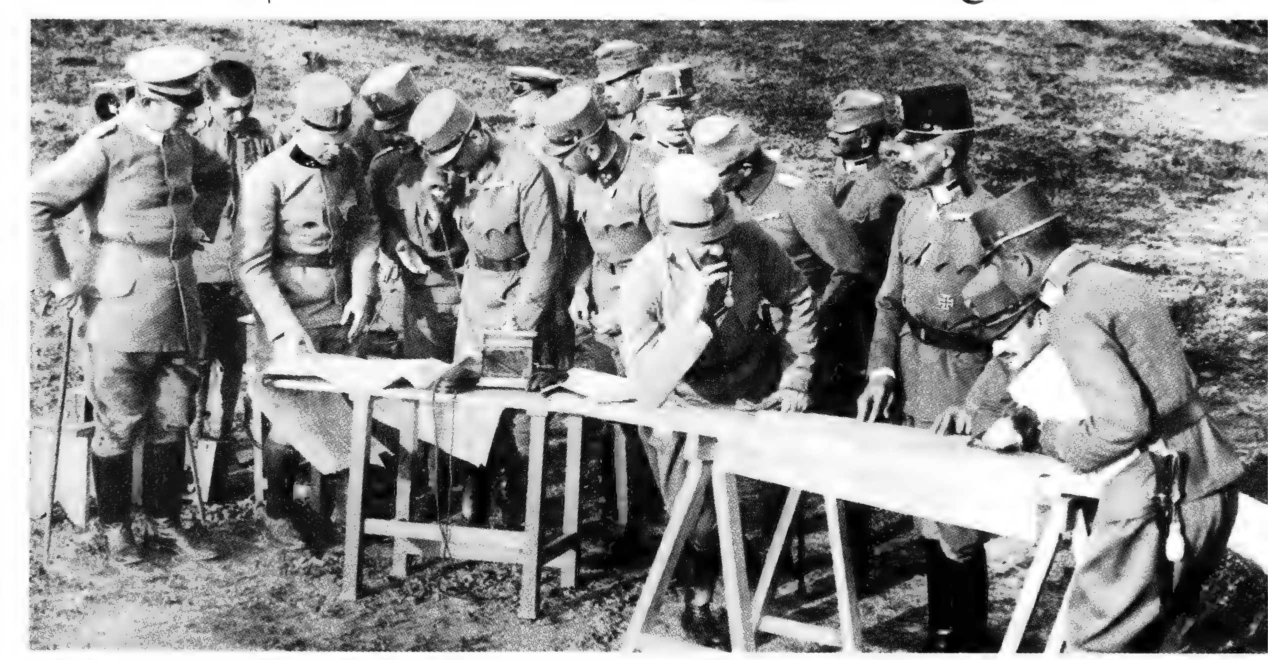
ضباط نمساويون – مجريون مع أسرى حرب روس.



في ٨ تموز/ يوليو، وصل الروس إلى دالاتين التي تبعد نحو اثنين وثلاثين ميلاً عن الحدود الهنغارية، وبحلول نهاية تموز/ يوليو، سقطت بلدة برودي في شرقي غاليسيا ووقع 40.000 جندي في الأسر. في 7 آب/ أغسطس، سقطت بلدة ستانيسلاو بيد الجيش السابع الروسي، الذي أسر 7000 جندي نمساوي – مجري و3500 ألماني. تداعت الجبهة النمساوية – المجرية على مسافة 260 ميلاً تقريباً.

بعد استراحة قصيرة زوّد فيها بروسيلوف قواته بالإمدادات وشدَّ من عزيمة رجاله، بدأ حملته مرة أخرى، واستولى على بوكوفينا، ووصل إلى جبال كاربات. في تلك الأثناء، هبَّ الألمان لمساعدة النمساويين – المجريين في حين باتت الإمدادات مشكلة للروس بسبب طول خطوطها. أُصيب جنود بروسيلوف بالإرهاق واستُنفدت الاحتياطيات، وحين طلب تعزيزات لم يكن أيٌّ منها متوافراً، ما أرغمه على إيقاف هجومه في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر .

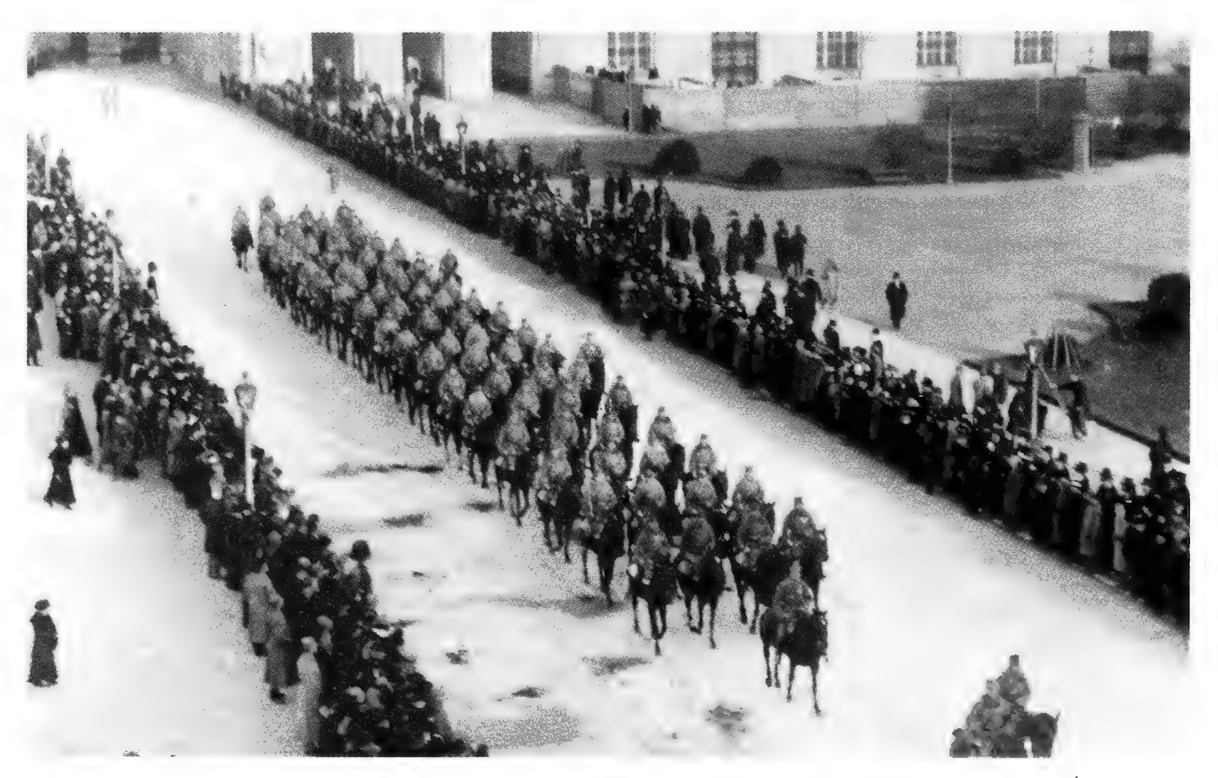
كانت خسائر الروس ضخمة، وصلت إلى نحو مليون قتيل، أو جريح، أو مفقود. بلغت خسائر النمساويين – المجريين نحو 600.000، وانتهى أمر 400.000 آخرين أسرى حرب في معسكرات روسية. في جهودهم لمساعدة النمساويين – المجريين، فقد الألمان 350.000 رجل. لقد حطّم بروسيلوف العمود الفقري للقوات المسلحة النمساوية – المجرية. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، أمست المَلَكية الثنائية تعتمد تماماً على حليفها الألماني الذي باتت له الكلمة العليا في عملية اتخاذ القرار، وأرغم النمساويين – المجريين على الإصغاء إليه. عُيّن هيندنبورغ قائداً عاماً للجبهة الشرقية كلها وصولاً إلى تارنوبول، وبرغم أن الأرشدوق كارل



مقر قيادة الجبهة في الجيش النمساوي – المجري.



توفي فرانز-جوزيف إمبراطور النمسا - المجر في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916 عن 86 عاماً بعد أن حكم ثمانية وستين عاماً.



دُفن الإمبراطور في جنازة مهيبة في 30 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916.



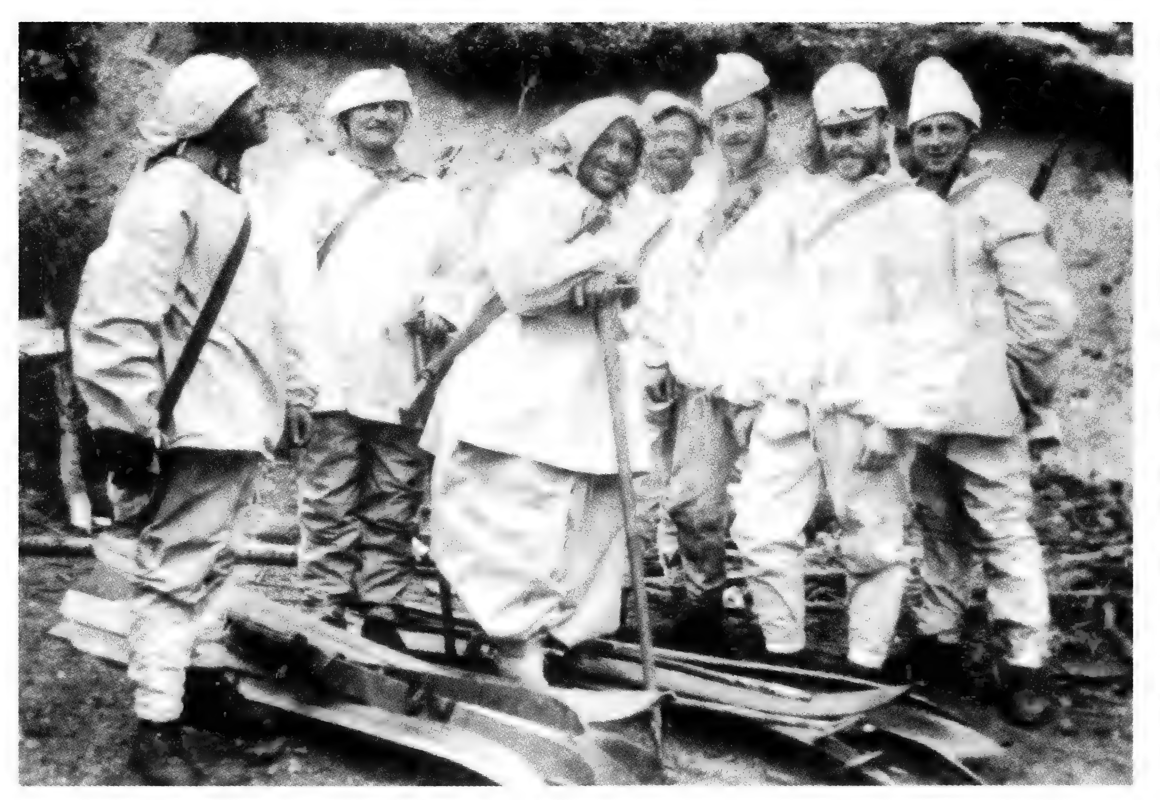
القيصر فيلهلم الثاني وإمبراطور النمسا - المجر تشارلز في 1917.

برينر ليكون حدوداً طبيعية، وترينتين، وتريستر، وإستريا، وموانئ في دالاماسيا وأراضٍ تركيّة في آسيا الصغرى، وأجزاء من المستعمرات الألمانية. كان الشعب في إيطاليا متحمساً كثيراً للحرب، وضغط على الملك والحكومة للاشتراك فيها. قطعت إيطاليا أخيراً علاقاتها مع ألمانيا والنمسا - المجر، وانفكت عن التحالف الثلاثي لتنضم إلى الحلفاء في 24 أيار/ مايو 1915.



الجنرال أوتو فون بيلوف يزور جبهة إسونزو.

جنود نمساويون – مجريون على الجبهة الإيطالية.



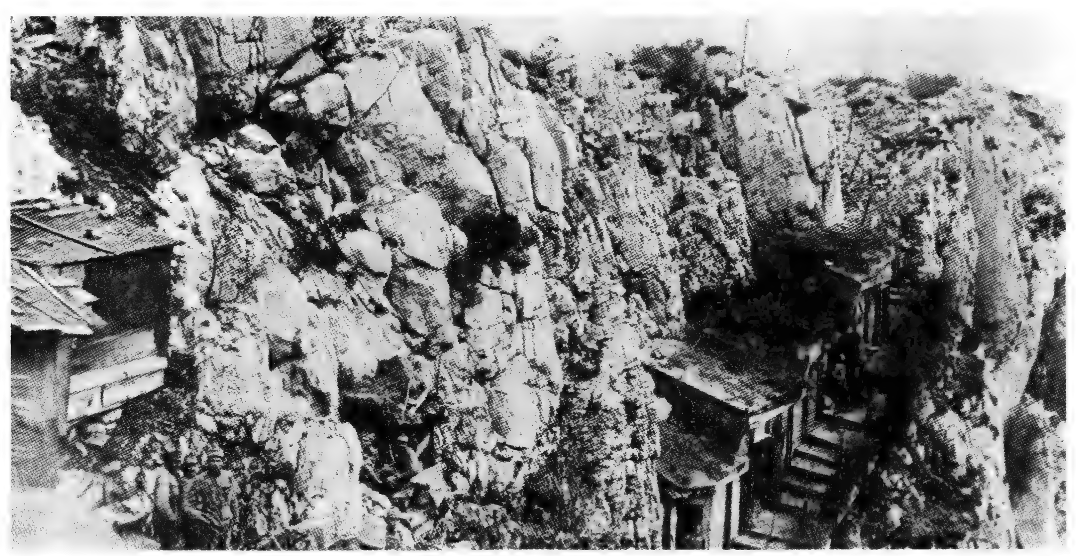
جنود نمساويون يستخدمون مزالج في الحرب ضد إيطاليا.



مواقع نمساوية عالياً في الجبال.



جريح نمساوي – مجري أسير لدى الإيطاليين.



مواقع نمساوية – مجرية على الألب الإيطالية.

كان نهر إسونزو إحدى ساحات العمليات الحربية التي خاض فيها جنود نمساويون – مجريون وإيطاليون قتالاً ضد بعضهم بعضاً في اثنتي عشرة معركة دامية، أدّت إلى وفاة وجرح مئات آلاف الأشخاص.

كان النهر يجري آنذاك في أراض نمساوية – مجرية على طول الحدود مع إيطاليا، من خليج البندقية في الجنوب إلى بيزو في الشمال. أراد الإيطاليون الاستيلاء على الميناء الكبير في تريستي، من ثمّ التقدّم إلى ليوبليانا.





قصف مدفعي نمساوي – مجري على جبهة إسونزو.

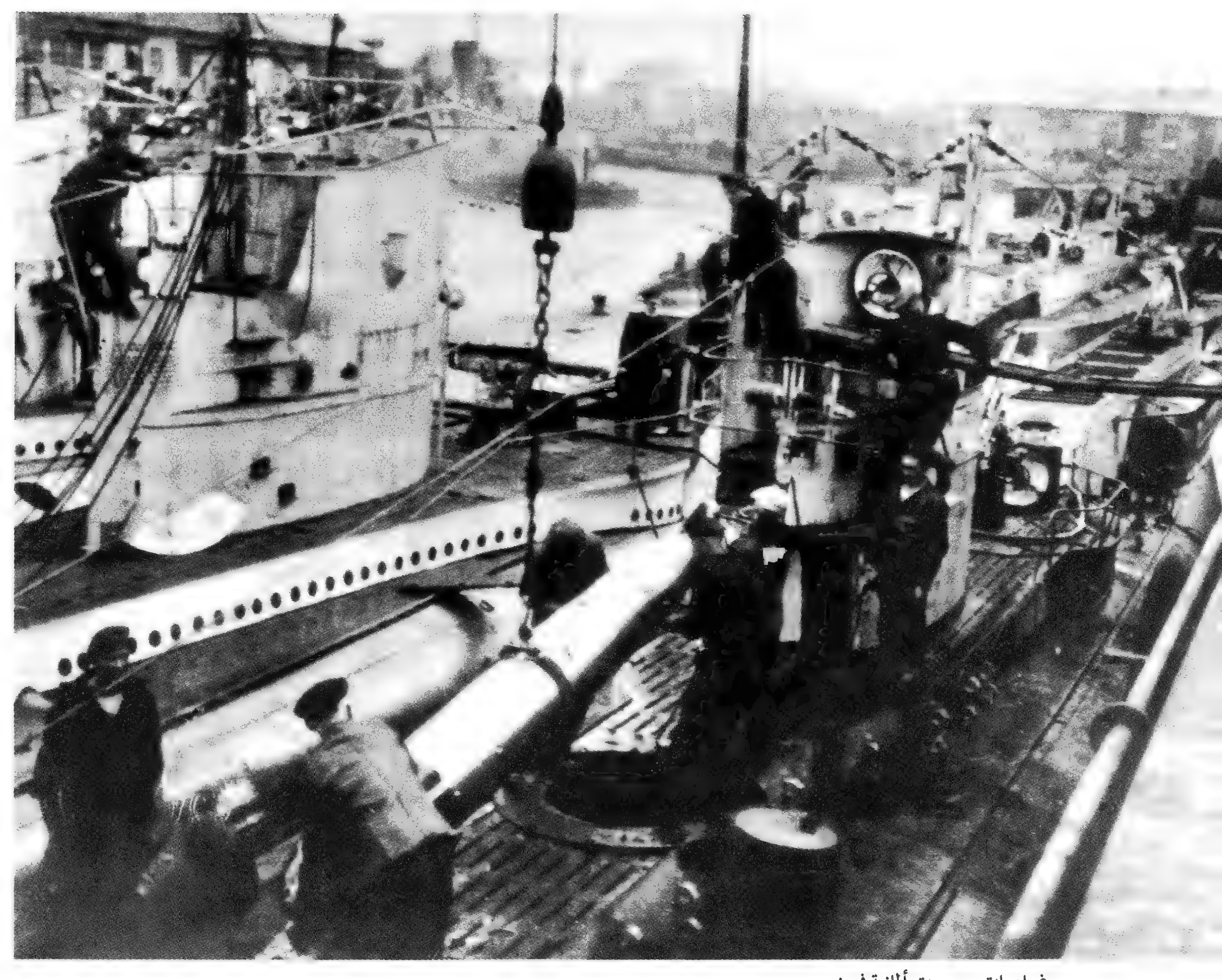
أسرٌ تودّع أفرادها في أثناء مغادرة قوات احتياطية نمساوية – مجرية إلى الجبهة.

في 27 تشرين الأول/ أكتوبر، أُرغم الإيطاليون على ترك مواقعهم في إسونزو. كلّفت المعركة حياة نحو 200.000 إيطالي ونمساوي – مجري، وأدّت إلى فرار 200.000 جندي إيطالي. أثارت هذه النتيجة السيئة أزمة كبيرة في إيطاليا.

صدّت مؤازرة من الحليفين البريطاني والفرنسي التقدّم النمساوي – المجري في النهاية، وتوقف القتال في 18 حزيران/ يونيو. بقي الوضع على تلك الحال حتى تشرين الأول/ أكتوبر 1918، حين أرغمت قوات متحدة من الإيطاليين، والبريطانيين، والفرنسيين القوات النمساوية–المجرية على العودة إلى إسونزو وأسرت 300.000 جندي وغنمت مدافع كثيرة. عندما انتهت الحرب بلغت خسائر الإيطاليين 615.000 قتيل ونحو مليون جريح. كانت تلك نهاية حزينة لفعل حماسي بدأ استجابة لإرادة الشعب الإيطالي.



اتسخ الجنود وأُصيبوا بالقمل، وانتشرت الجرذان بينهم. هنا يتخلّص رجال من القمل على الجبهة الإيطالية.



غواصات يو–بوت ألمانية في زيبروج.

يبدو واضحاً أن هذا النمو السريع قد أثار طلباً متزايداً على المواد الأوّلية. باتت ألمانيا تعتمد بازدياد على بلاد أجنبية، والسفن التجارية البريطانية.

بدا منطقياً من وجهة نظر تجارية، أن تسعى ألمانيا للحصول على بواخر شحن خاصة بها. كانت الخطوة الأولى البدء في بناء أسطولهم التجاري الخاص. وقد نتج عن ذلك، نموّ صناعة بناء السفن والموانئ الألمانية، ما أدّى إلى زيادة المنافسة مع دول أخرى، وخاصة بريطانيا العظمى. مثّلت السياسة الاقتصادية حجر أساس السياسة الخارجية الألمانية. لم يعد بمقدور ألمانيا آنذاك، بنموها السكاني السريع، أن تقتصر على أوروبا فقط، وشعرت بضرورة تطوير سياسة «عالمية». لم ينظر الجميع إلى هذا الأمر بعين الرضا، وبُذلت جهودٌ فعلية لإعاقة أو معارضة هذه السياسة، كما جرى في تأجير كيو تشو في 1897، ومحاولات الألمان في 1898 لترسيخ وجودهم على جزر سليمان، وافتتاح بعثة تجارية في الفيلبين، وتأسيس محطات لخدمة السفن في عدن والخليج العربي على الطريق إلى الهند، وغيرها. في كل مكان وجد الألمان أن



تزويد يو–بوت بإمدادات في البحر.



لقاء في البحر في طقس عاصف.

كان تيربتز قد وضع خططاً لبناء أسطول ألماني في 1897، وقد وافق الرايخستاغ عليها في العام التالي. في 1900 قدّم اقتراحه الثاني لقانون البحرية، مع التأكيد على أن يكون الأسطول الألماني كبيراً كفاية، لردع أي هجوم تشنّه قوةٌ أخرى. أصرَّ في الوقت عينه، على عدم فعل شيء يضر بالمصالح البريطانية في أثناء بناء الأسطول. كان يجب إدارة العلاقة مع بريطانيا بحرص، وأن لا تُفرط ألمانيا في تسليح نفسها، أو تثير عداءً مع أي طرف.

حدّد قانون البحرية الذي اقترحه تيربتز نسبة سفينتين حربيّتين ألمانيتين لكل ثلاث بريطانية. لم يكن ينبغي على الأسطول الألماني أن يكون متفوقاً، إنما رادعاً فقط ضد أي هجوم. سيكون ذلك الأسطول عاملاً يؤخذ بالحسبان، وهذا ما كان مطلوباً بالضبط لتطبيق «السياسة العالمية» الجديدة لتصبح ألمانيا قوة عظمى.



العدو ظاهر للعيان! الفصيلة تعمل على المدفع.



البريطانية الذي قارن البحرية الملكية والأسطول الألماني وزعم أن الألمان سيمتلكون إحدى وعشرين «دريدنوت» في 1912. يصف تشرشل التقرير بأنه جزء من سياسة عدائية من جانب المحافظين قد أثارت الذعر في البحرية الملكية.

ويستنتج بأن الأمن القومي البريطاني لم يكن مهدّداً إطلاقاً نتيجة توسيع ألمانيا لبحريّتها، وأن تلك الاقتراحات قُدّمت لأسباب سياسية حزبية. كان تقرير إمارة البحر خاطئاً فعلاً. في 1912، امتلكت ألمانيا اثنتي عشرة «دريدنوت» فقط، لا إحدى وعشرين كما قالت إمارة البحر البريطانية.

لم يأخذ البريطانيون بالحسبان أن ألمانيا تحتاج إلى أسطول كبير، لذا عدّوا بناءه أمراً عدائياً وموجّهاً ضد بريطانيا العظمى. في البداية، ظهر هذا الرأي منطقياً تماماً، إنما لا يتفق مع الحقيقة إطلاقاً. وفقاً للبريطانيين، أخلّ توسيع البحرية الألمانية بتوازن القوى القائم آنذاك، لكن في الواقع لم يكن هناك توازن؛ لأن بريطانيا امتلكت أقوى بحرية في العالم وأرادت بقاء الوضع على حاله بأي ثمن. لم يكونوا ليسمحوا لأي بلد بأن يصبح قوياً جداً، أو يمتلك قوة تعرّض التوسّع الاستعماري البريطاني للخطر. كان وجود بحرية ألمانية قوية يتعارض تماماً مع مثل هذا التفكير البريطاني.



مطعم ضباط على متن يو-بوت.



ناجون يغادرون سفينتهم الغارقة.

ومنها الولايات المتحدة، والنرويج، والسويد على تلك الإجراءات المخالفة للقانون الدولي، لكن البريطانيين لم يكترثوا بذلك.

لم يكن الحصار شرعياً في القانون الدولي، أو حتى عملاً أخلاقياً. مثّل ذلك، المرّة الأولى التي يصبح فيها السكان المدنيون لبلد ما أهدافاً عسكرية (سيموت مئات آلاف الألمان جوعاً نتيجة ذلك). أدرك البريطانيون هذا، إنّما برّروا بأن الحرب جعلت الحصار ضرورياً.

رداً على ذلك الإجراء البريطاني، أعلنت ألمانيا أن كل الأماكن حول الجزر البريطانية، إضافة إلى القناة الإنكليزية، منطقة حربية محظورة على كل سفن الشحن التجارية المعادية، التي ستستهدفها من دون استثناء غواصات ألمانية بطربيداتها. أضاف الألمان أن الاتفاقية الدولية المعروفة بـ« قواعد الاشتباك»، التي يُسمح بموجبها للبحّارة بركوب زوارق النجاة، لم تعد سارية المفعول؛ لأن ذلك يمثّل خطراً كبيراً على الغواصة نفسها.



إخلاء سفينة بعد إصابتها بطربيد.

مقابل: يو-بوت تطلق النار على سفينة تجارية.



نقل فريق سفينة تجارية على متن يو-35.

في نهاية 1916، وبعد معركتَي فردان والسوم تحوّل الوضع ضد ألمانيا على الجبهة، وضغطت القيادة العليا الألمانية لاستئناف حرب الغواصات من دون قيود. عارض بتمان هولفيغ المستشار الألماني بقوة تلك العمليات، وبدا مقتنعاً أن ذلك سيدفع الأمريكيين إلى الحرب، ورفض منح موافقته عليها. استقال الأميرال تيربتز نتيجة ذلك، واستُعيض عنه بالأميرال فون كابيل.

تابع القائد العام الألماني توكيد ضرورة استئناف حرب الغواصات الشاملة. كان الأميرال الألماني هنينغ فون هولتزندروف؛ رئيس أركان البحرية الألمانية، قد قدّر أنه إذا استطا ع الألمان إغراق 600.000 طن من طاقة الشحن البريطانية كل شهر، ستضطر بريطانيا إلى إيقاف الحرب بعد خمسة شهور بسبب نقص الطعام والمواد. أعلن أن خطر اشتراك الولايات المتحدة في الحرب لهذا السبب ضئيل جداً؛ لأن المعارك ستكون قد انتهت قبل أن يصبح الأمريكيون مستعدين لها. في 7 تشرين الأول/ أكتوبر، قرّرت ألمانيا استئناف حرب الغواصات، وأصدرت أوامر إلى تابع القائد العام الألماني توكيد ضرورة استئناف حرب الغواصات

مقابل: سفينة شحن بريطانية أصابها طربيد من يو-35.

كان لاستئناف حرب الغواصات نتيجة أخرى أيضاً. قطعت الحكومة الأمريكية العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا، وأعلنت الحرب عليها في 6 نيسان/ أبريل 1917.

منذ بداية الحرب حتى تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، أغرق الألمان أكثر من ألفي سفينة تجارية وحربية، وفَقد اثنا عشر ألف شخص حياتهم على متنها. تضرّرت أكثر من مئتي يو-بوت أو دُمّرت أو فشلت في العودة إلى قواعدها. لقد أخطأ الألمان الحسابات حين قدّروا أنه يمكن إخضاع بريطانيا. في الوقت الملائم تماماً، تحوّل الحلفاء إلى نظام النقل بالقوافل، وانخفض عدد حوادث الطربيدات كثيراً. لم يتحقّق أمل ألمانيا بإنهاء الحرب لمصلحتها، قبل وصول قوات أمريكية إلى أوروبا. حدّدت المشاركة الأمريكية في الحرب، في نهاية المطاف، مصير ألمانيا بطريقة درامية.



أميرال الأسطول الألماني فون شير، الذي حقّق انتصاراً تكتيكياً على البريطانيين في معركة جوتلاند.

معركة جوتلاند

هوكسي فلوته الألماني يبحر

في 31 أيار/ مايو 1916 أبحر هوكسي فلوته، أو أسطول أعالي البحار الألماني، إلى بحر الشمال بقيادة الأميرال شير، ليشارك في الحرب ضد البريطانيين في ما سيُعرف لاحقاً بمعركة جوتلاند. تبقى الآراء منقسمة بشأن نتيجة هذه المعركة البحرية، إذ يعدّها بعض المؤرّخين نصراً إستراتيجياً للبريطانيين، في حين يراها آخرون انتصاراً للتكتيكات الألمانية. ما الحقيقة؟

التكتيكات الألمانية

أدرك الألمان أن أسطولهم الصغير نسبياً، لن يستطيع كسر الحصار البريطاني. لهذا، ركّزت سياسة البحرية الألمانية على تفادي مواجهة مباشرة مع «الأسطول الرئيس»، وشنّ هجمات مباغتة ضده تصيبه بأضرار وتخفض حجمه، حتى يصبح قريباً من حجم الأسطول الألماني. آنذاك فقط يمكن الاشتباك معه مباشرة.

كانت دراما مثيرة، ستُشغل العالم بها عدّة أعوام قادمة، على وشك أن تبدأ. اشتبكت نحو 250 سفينة، وفيها أكبر وأحدث البوارج في ذلك العصر، يشغّلها نحو 100.000 بحّار قد تدرّبوا على مثل تلك المواجهة، مع بعضها بعضاً بأقصى سرعتها.

عند الساعة 14:30 رأت السفن المتقدّمة من كلتا الطليعتين بعضهما، وحاول الأميرال بيتي المناورة لسد طريق عودة هيبر إلى الأسطول الرئيس، لكن هيبر استدار وفقاً للأوامر التي تلقاها نحو الأسطول الألماني المقترب فأبحرت سفن كلا الأسطولين جنباً إلى جنب بعض الوقت على مسارين متقاربين. بعد ثلاث ساعات باتت السفن



قاد الأميرال جليكو الأسطول الرئيس في معركة جوتلاند. كلّفه تردّده في القيادة وخوفه من هجمات زوارق الطربيد النصر في المعركة.

هوكسي فلوته الألماني يخرج إلى البحر. واجهت 250 سفينة حربية تقريباً بعضها.

السفينة الحربية سوبرب تطلق النار.

أمراً بتغيير المسار نحو الأسطول الرئيس الذي كان يقترب أيضاً بسرعة كبيرة. أدّى ضعف الاتصالات إلى سوء فهم أوامره، وأخطأت السفن الأربع من الفرقة البحرية الخامسة التي قد هبّت لنجدته في تفسير الإشارة وتابعت طريقها مباشرة نحو الألمان، الذين أطلقوا النار وأصابوا ورسبايت بسرعة، فاضطرت إلى الخروج من المعركة، في حين تضرّرت البوارج الثلاث الأخرى أيضاً.

عند 18:30 بدأ الألمان هجوماً بالطربيدات، إنما توقفوا بعد إصابة ف–27 وف–29 وغرقهما. خسر البريطانيون ثلاثة زوارق طربيد في هذا العمل؛ غرق اثنان منهما فوراً.

في ذلك الوقت باتت سفن هيبر ضمن مدى الأسطول الرئيس. نجح الألمان في إطلاق النار على السفينة الحربية تشستر، إنما بعد وقت قصير أصيبت فايزبادن واشتعلت النيران فيها. أصابت قنابل بريطانية بيلاو وفرانكفورت أيضاً، اللتين تعرّضتا لأضرار جسيمة. عندما تحرّكت ديفنس للإجهاز على فايزبادن، هبَّ الأميرال شير للنجدة، فدُمّرت ديفنس وبدأت ورير تحترق.

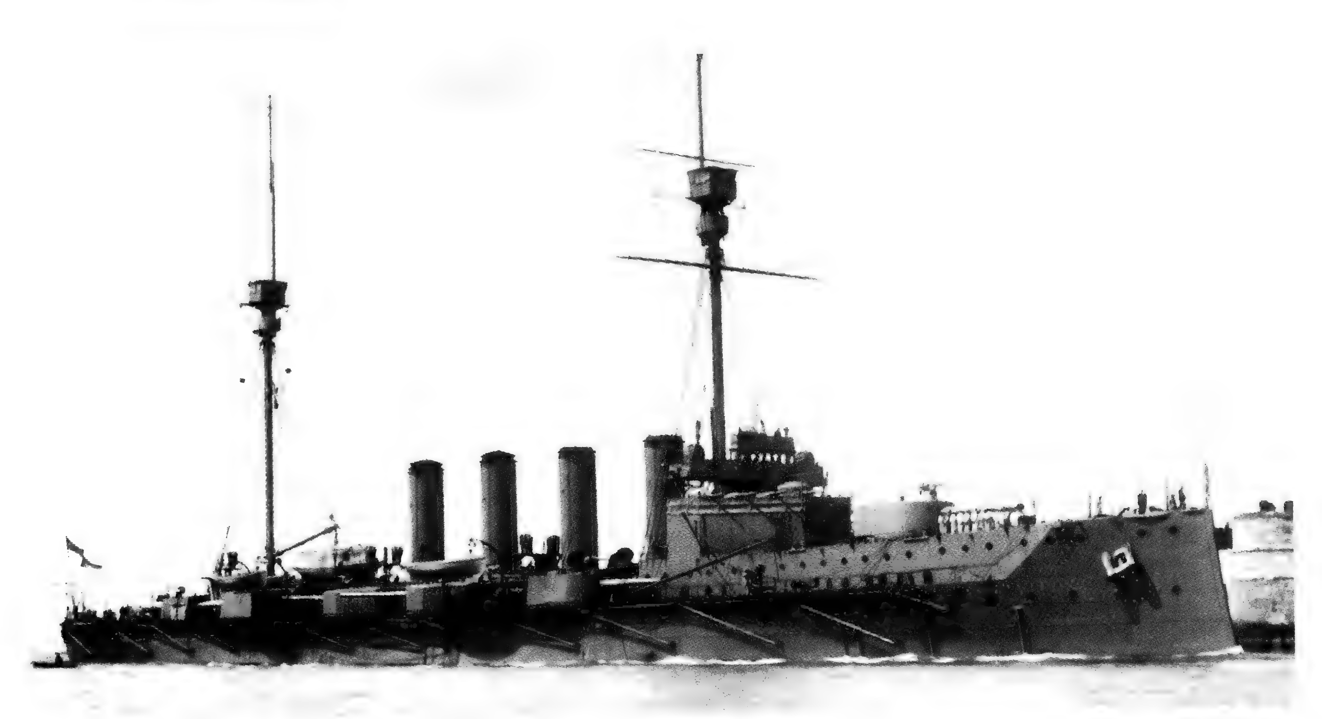
أمر شير، الذي كان يعرف أن قوّته الأصغر كثيراً لا تتمتع بأي فرصة لهزيمة الأسطول الرئيس، سفنه بفض الاشتباك وتحويل مسارها بعيداً عن المكان. في مناورة جديرة بالملاحظة غيّر



دمّر الطرّاد الألماني فون در تان البارجة إنديفاتيغابل، فخسر 1000 بريطاني حياتهم على متنها.



انفجرت السفينة الحربية كوين ماري بعد وقت قصير من إصابتها بقذيفة ألمانية. أخذت السفينة 1200 رجل معها إلى القاع.



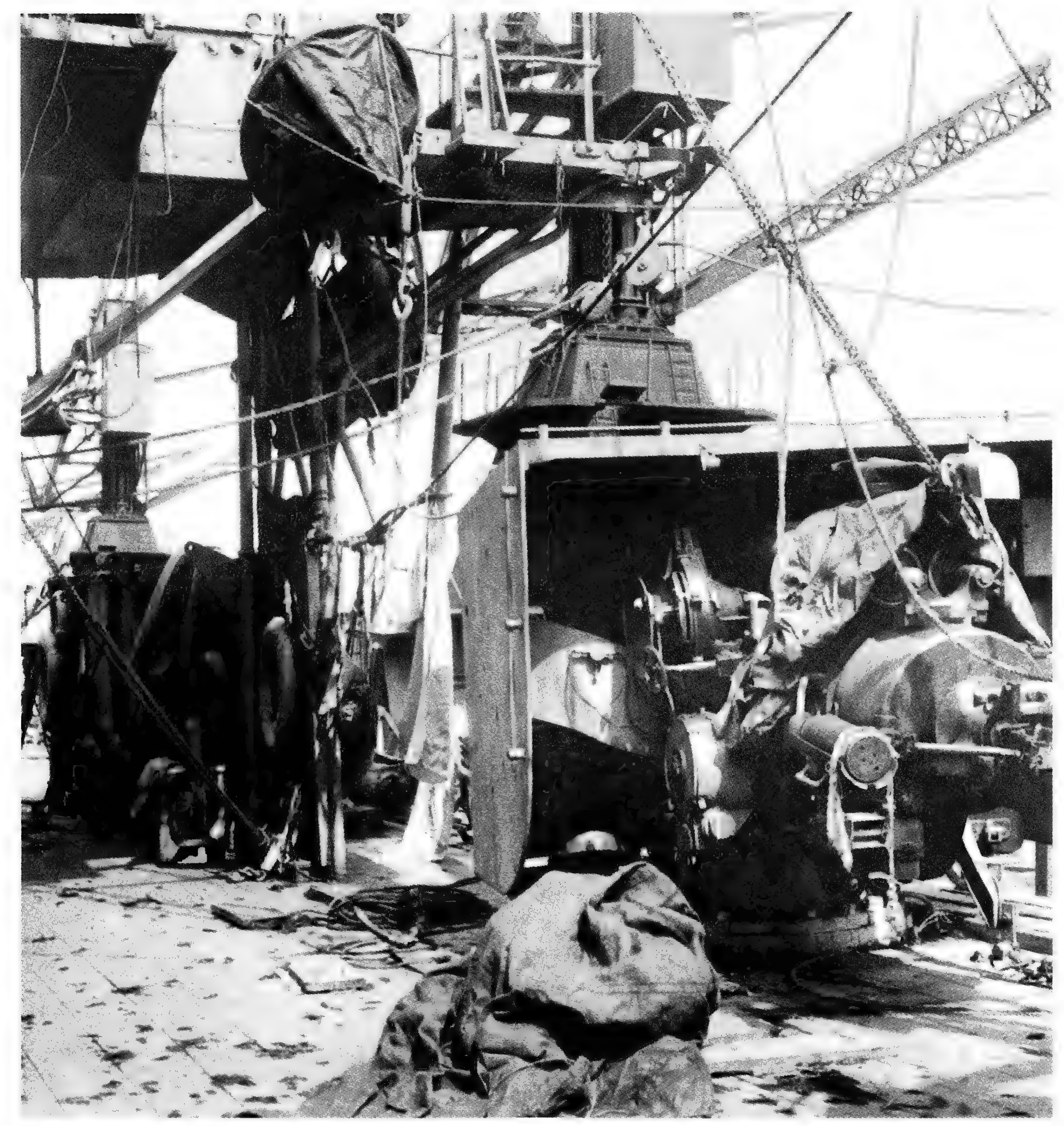
اشتعلت النار في السفينة الحربية تشستر نتيجة قنابل ألمانية.



في الفوضى اللاحقة واصل أحد المدافع إطلاق قنابله على الألمان. كان البحّار جاك كورنول (16) يعمل عليه، وتابع إطلاق النار برغم جروحه حتى مات. كوفئ لاحقاً بأرفع وسام بريطاني للشجاعة؛ صليب فيكتوريا.

بالطربيدات، وفي أثناء ذلك غيّر الأسطول الألماني كله مساره مجدداً، واختفى مرة أخرى باتجاه الغرب. كما حدث سابقاً، دُهش؛ لأن الأميرال جليكو لم يفعل شيئاً لملاحقته فاختار أقصر طريق للعودة إلى القاعدة، وأصدر أوامر عبر اللاسلكي بالمرور عبر الأسطول البريطاني مباشرة إلى بر الأمان. مرة أخرى لم يشنَّ جليكو هجوماً مضاداً، لكن الأميرال بيتي اعترض الألمان وطلب إذناً بمهاجمتهم. منح جليكو، وإن يكن متردداً نوعاً ما، الإذن بذلك، وفي إطلاق النار الذي أعقب هذا أصيبت سيدليتز ولوتزوف مجدداً وأخرج البرج الثاني على متن ديرفلينغر من الخدمة، لكن الألمان تمكنوا من فض الاشتباك والاختفاء في الظلام.

في أثناء الليل جرى اشتباك مرة أخرى مع فرقة الطرّادات الثانية البريطانية، تضرّرت فيه السفينتان الحربيتان ساوثامبتون ودبلن، وغرق الطرّاد

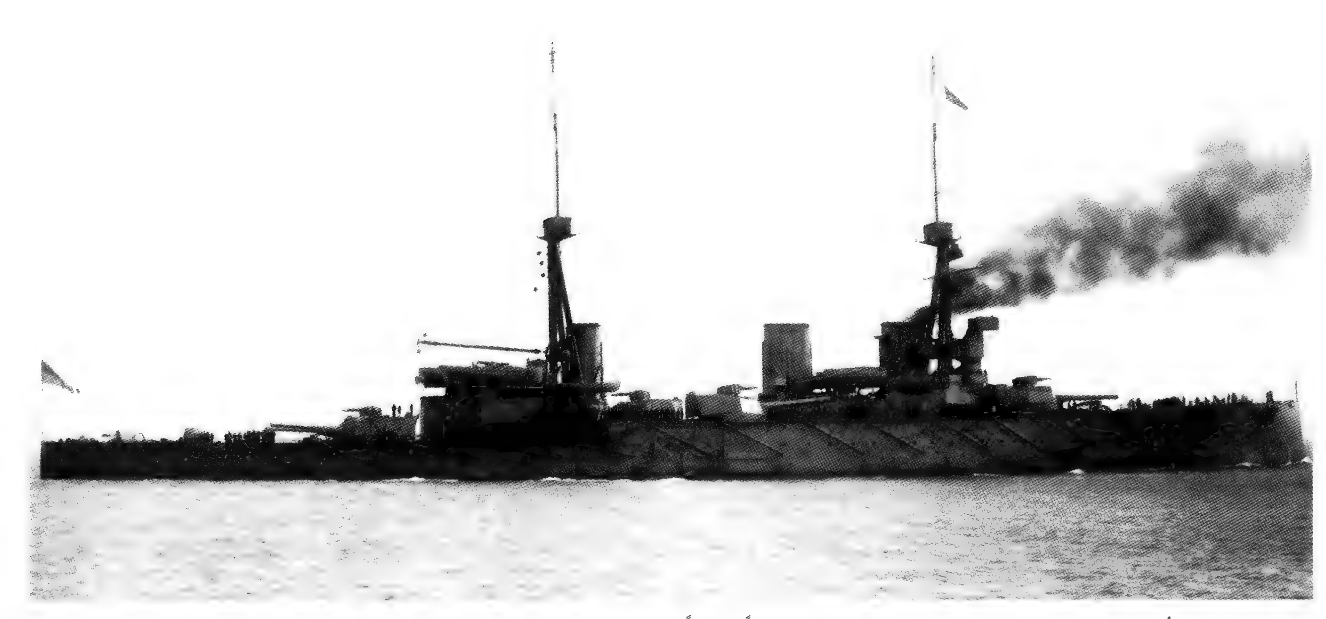


السفينة الحربية تشستر في الميناء لإجراء إصلاحات بعد المعركة.

الألماني الخفيف فراونلوب.

في تلك الأثناء اعتُرض أمر شير اللاسلكي بالعودة إلى القاعدة وفُكت شفرته، وسُلّم مساره وموقعه إلى جليكو، الذي كان عليه الإبحار فقط في مسار موازٍ لقطع الطَريق عليه عند مطلع الفجر. لم يثق جليكو بالمعلومات التي تلقاها وحافظ على مساره باتجاه الجنوب الغربي. لاحقاً تلك الليلة، جرى اشتباك آخر حين وجد شير نفسه وسط الأسطول الرابع التابع للبحرية الملكية، وخرجت بسببه المدمّرتان تيبراري وبروك من الخدمة، وحدثت فوضى عارمة أدّت إلى ارتطام سبتفاير مع ناساو واصطدام سباروهوك مع بروك المتضرّرة كثيراً. تلقّى الطرّاد





دُمّرت إنفنسيبل؛ سفينة الأميرال هود، وفقد 1025 بحاراً بريطانياً حياتهم على متنها. كانت ثالث طرّاد تخسره البحرية الملكية ذلك اليوم.

غرقت السفينة الحربية إنفنسيبل عند 18:34 في كتلة من نار ودخان.



السفينة الحربية ديرفلنغر التي شاركت في معركة جوتلاند، وتظهر هنا تطلق النار على سكاربورو وويتبي على الساحل الإنكليزي في 16 كانون الأول/ ديسمبر 1914.

(لوتزوف)، وطرّاداً مصفّحاً (بومرن)، وأربعة طرّادات خفيفة (فايزبادن، وفراونلوب، وإلبينغ، وروستوك)، وخمسة زوارق طربيد، وقُتل أو جُرح 2551 رجلاً.

خسر البريطانيون 6097 قتيلاً، و510 جرحى، في حين أنقذ الألمان 177 آخرين وباتوا أسرى حرب لديهم. فقدوا أيضاً ثلاثة طرّادات (إنديفاتيغابل، وكوين ماري، وإنفنسيبل)، وثلاثة طرّادات مصفّحة (بلاك برنس، وورير، وديفنس)، وثماني مدمّرات (أردنت، وفورتشن، ونستور، ونوماد، وشارك، وسباروهوك، وتيبراري، وتربولنت).

النتائج

من انتصر حقاً في معركة جوتلاند؟ ادّعى الألمان تحقيق النصر في حين أكّد البريطانيون أن الألمان قد فشلوا في رفع الحصار البحري البريطاني، لذا لم يحقّقوا هدفهم. يبدو واضحاً من الأدلّة أن هوكسي فلوته الألماني قد ألحق أضراراً فادحة بالأسطول الرئيس للبحرية الملكية، وأن مقاومة السفن الألمانية كانت أفضل من مثيلاتها البريطانية. خسر البريطانيون أربع عشرة

بعد أن غيّر الأميرال شير وجهة سفنه، وجدوا أنفسهم في وسط الأسطول الرئيس، وأُصيبت البارجة سيديتز واشتعلت فيها النيران.

أسفل: أُصيبت السفينة الحربية لوتزوف أيضاً ما أرغم شير على نقل مقر قيادته إلى البارجة مولتكه (الظاهرة هنا).

الطرّاد الخفيف البريطاني غالاشيو في جوتلاند.

السفينة الحربية آيرون ديوك.



السفينة الحربية إندوميتابل والسفينة الحربية إنفلكسيبل في أثناء معركة جوتلاند.

لم تهاجم البحرية الملكية، التي أعلنت جاهزيتها للعمل مرة أخرى بعد أربعة أيام من المعركة، الساحل الألماني إذاً، مع الأخذ بالحسبان أن الأسطول الألماني كان يخضع لإصلاحات، و لم يصبح جاهزاً للعمل إلا في آب من ذلك العام. ليس صحيحاً أيضاً القول إن الأسطول الألماني لم يدخل بحر الشمال بعد جوتلاند، فقد قاد شير سفنه إلى هناك عدّة مرات.

في 18 آب/ أغسطس، هاجم سندرلاند على أمل أن يغوي الأسطول الرئيس بالخروج إلى أعالي البحار. لفتت دائرة الاستخبارات في البحرية الملكية الأنظار إلى حركة الأسطول الألماني،

كانت معركة جوتلاند في الواقع هزيمة للبحرية الملكية، التي لم تتعافَ تماماً أبداً من الضربة التي تلقّتها من البحرية الألمانية، برغم أنها لم تستطع رفع الحصار المفروض على بلادها. أقرَّ الأميرال شير بنفسه هذه الحقيقة حين أوصى القيصر باستئناف حرب الغواصات؛ لأن هوكسي فلوته الألماني لم يستطع إرغام البريطانيين على إنهاء الحرب بمفرده. لقد تحطّمت أسطورة البحرية الملكية التي لا تُقهر، لكن للأسف لم يتحقّق السلام المنشود.

إغراق الأسطول الألماني عند سكابا فلو

دبّت الفوضى في هوكسي فلوته الألماني في فيلهلمسهافن عند نهاية الحرب. اندلع تمرّد على متنه أدّى إلى عصيان وثورة عامة تركت آثاراً عميقة عليه. تولّت «مجالس ثورية» القيادة من الضباط، وتلاشى الانضباط، وتوقفت عمليات الصيانة. اعتُقل الضباط على متن بعض السفن في حين خضعوا للأمر الواقع على بعضها الآخر، لكنّ بحّارة عاديين تولوا زمام الأمور بأي حال.

كان ذلك هو الوضع عند نهاية الحرب، حين طالب الحلفاء باحتجاز الأسطول الألماني كله في بند من اتفاقية الهدنة. أرادوا من أسطول البحرية الألمانية، المكوّن من 200 سفينة، الإبحار إلى هارويتش حيث سيُعامل بحّارتها على أنهم أسرى حرب.

لم يتفق الحلفاء بشأن مصير هوكسي فلوته، وقرّروا احتجاز الأسطول الألماني في موانئ حيادية. اتضح بسرعة أنه لا توجد مرافئ محايدة مزوّدة بمنشآت ملائمة لذلك، فصدر أمر بتجميع سفن الألمان من دون استشارتهم في القاعدة البحرية البريطانية في سكابا فلو.



الطرّاد الخفيف البريطاني ميرنينغهام يصيبه طربيد ألماني.

حان الوقت أخيراً في 19 تشرين الثاني/ نوفمبر، لمغادرة الأسطول الألماني، وصعد رويتر على متن سفينة القيادة فريدريش در غروس في الطليعة إلى المكان الذي حدّده البريطانيون. لدى مغادرتهم، كان رويتر قد حذّر المتمرّدين من أن الحلفاء سيعدّون الأسطول سفن قراصنة، إذا استمروا في رفع الراية الحمراء،

وسيطلقون النار عليهم. عندما خرجوا إلى البحر قبل المتمرّدون هذا، وأنزلت السفن واحدة بعد أخرى راياتها الحمراء، واستبدلت الراية الإمبريالية الألمانية بها ما أثار سعادة ضباطهم.

تكوّن الأسطول الذي خرج من الميناء من إحدى وسبعين سفينة، فيه خمسة طرّادات في المقدّمة، تبعتها تسع بوارج، وسبعة طرّادات خفيفة، وخمس مجموعات من عشر مدمّرات. في أثناء المغادرة من الميناء، اصطدمت ف—30 بلغم وغرقت، لذا وصلت سبعون سفينة فقط إلى مكان التجمّع الذي اختاره الحلفاء.

عند مطلع صباح العشرين من الشهر رأى المراقبون الألمان الأسطول الرئيس البريطاني كله تقريباً ينتظرهم ما أثار دهشهم. كوّنت السفن صفين طويلين تابع الأسطول الألماني طريقه بينهما.

نظّمت نحو 250 سفينة للحلفاء، وفيها الأسطول الرئيس البريطاني برمّته، وعدد من السفن الحربية الأمريكية والفرنسية وبوراج للحلفاء الآخرين، حفل استقبال أبحر آنذاك بقيادة الأميرال بيتي على متن السفينة الحربية الملكة إليزابيث حتى مصب نهر فورث حيث تلقى الألمان أمراً بإلقاء مراسيهم.



الرائد مارسدن، الناجي الوحيد من إحدى المدمّرات البريطانية التي غرقت في جوتلاند.

تبع ذلك فوراً أوامر صدرت عبر اللاسلكي بإنزال كل الرايات الإمبريالية عن السفن الحربية الألمانية، وعدم رفعها مجدداً. برغم احتجاجات غاضبة من رويتر، رفض بيتي إلغاء هذا القرار، وهدّد بتنفيذه بالقوة بإرسال جنوده إذا لم تُنزل الرايات فوراً.

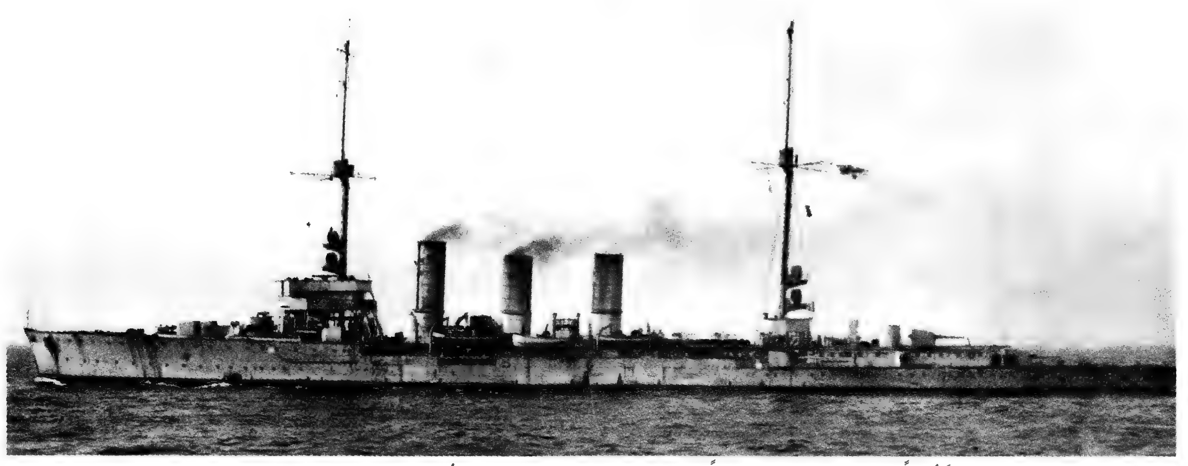
بعد عدّة ساعات من رسو السفن، تلقّى رويتر التعليمات الخاصة بالأسطول المحتجز. كان تبادل إشاراتٍ بين السفن

البريطانيين لم تكن لديهم أي نية للالتزام بذلك الجزء من اتفاقية الهدنة. اتضح ذلك سريعاً حين صدر أمر للأسطول الألماني، بالإبحار إلى سكابا فلو، بذريعة تعرّضه لرياح شرقية قوية. أدرك رويتر آنذاك فقط أن ذلك سيكون مقصدهم النهائي وأنهم لن يستطيعوا المغادرة إلى موانئ حيادية.

احتج رويتر طبعاً، إنما لم يكن لديه خيار باستثناء القيام برحلة طولها 280 ميلاً إلى سكابا فلو والاحتجاز هناك. رفعت سفن الأسطول البالغ عددها سبعين مراسيها في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر، وعلى متنها نحو 20.000 رجل لتبحر إلى سكابا فلو. بعد أربعة أيام، في 26 تشرين الثاني/ نوفمبر، وصلت مرساها النهائي، ولن تغادر ذلك المكان أبداً إلا في مهمات إنقاذ فقط.

في بداية الاحتجاز طالب البريطانيون بأن يقوم الألمان أنفسهم بتزويد سفنهم بالطعام، والوقود ومعدّات الصيانة. لهذا السبب قامت سفن إمداد من ألمانيا بزيارات منتظمة إلى الأسطول وجلبت التموين والمواد اللازمة. طلب البريطانيون بعد ذلك، خفض عدد البحّارة. فأُنشئت خدمة نقل منتظمة مع فيلهلمسهافن أعادت نحو 15.000 رجل إلى وطنهم. بقي خمسة آلاف رجل فقط لصيانة السفن.

في تلك الأثناء، انقطع الاتصال المباشر الرسمي بين رويتر وإمارة البحر الألمانية، ونُقلت كل الرسائل آنذاك عبر سفينة القيادة البريطانية، وحجبت عنه كل الأنباء بشأن تقدّم محادثات الهدنة. راقب البريطانيون كل الرسائل، و لم يسمحوا للبحارة إلا بقراءة صحف بريطانية بعد أربعة أيام من صدورها. حصل رويتر على بعض الأخبار طبعاً، من وقت إلى آخر، من سفن الإمداد وعرف أن مباحثات السلام لا تتقدّم جيداً.



السفينة الحربية إمدن تغادر ميناءً ألمانياً آخر مرة. نقل رويتر لاحقاً مقر قيادته إلى هذه السفينة بسبب حُسن التنظيم والانضباط عليها.



السفينة الحربية سيدليتز تبحر إلى مكان الاحتجاز، تتبعها مولتكه وهيندنبورغ.

أُعلن عيداً وطنياً في ألمانيا.

كانت إحدى أهم الأوامر للقادة في البحرية الألمانية هي عدم السماح بوقوع سفنهم في أيدي العدو. إذا حدث هذا، يمكن أن يُحاكم الضابط بتهمة الخيانة في محكمة عسكرية. بقي هذا الأمر ساري المفعول، ووجّه رويتر ضباطته بالتنبّه لأي محاولة لصعود البريطانيين إلى السفن، وإغراقها عند أول إشارة على حدوث هذا. حلَّ 31 أيار/ مايو، وانقضى اليوم من دون أن يفعل البريطانيون شيئاً.

في اليوم نفسه، تلقّى رويتر نبأ اجتماع مجلس الوزراء الذي عقده المستشار الألماني شايدمان في الرايخستاغ قبل يوم، ورفض فيه شروط الحلفاء. بدا خطر قيام البريطانيين بشيء ما داهماً آنذاك. وضع البريطانيون خططاً تفصيلية فعلاً للاستيلاء على السفن الألمانية عند توقيع الاتفاق، وقبل إقراره من الحكومات المختلفة، لمنع بحارتها من إغراقها.



السفينة الحربية قيصر، فور مغادرتها ألمانيا.



بات ضباط ألمان من السفن الغارقة أسرى حرب.

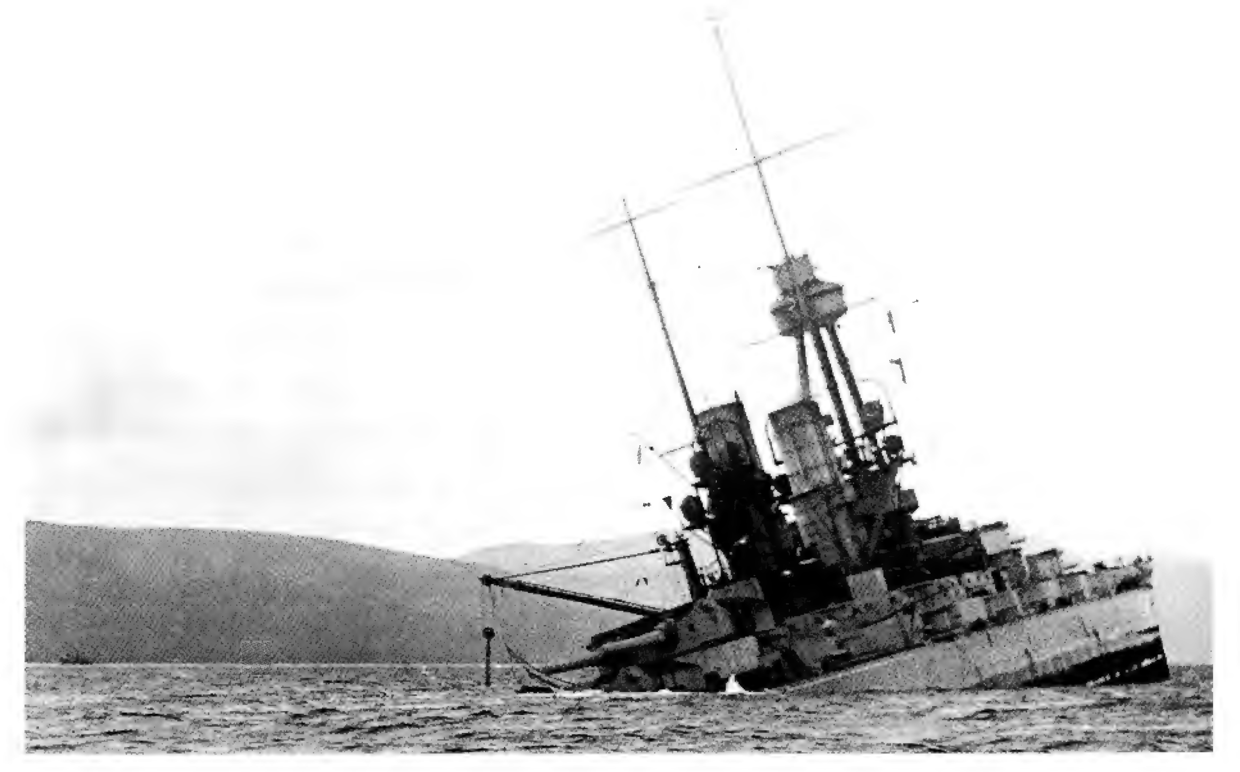
يونيو، وأن الرايخستاغ قبل شروط الحلفاء بأغلبية 237 صوتاً مقابل 138. لم يعرف أيضاً أن الحلفاء قد مدّدوا مهلة إنذارهم حتى 23 حزيران/ يونيو.

في أمره إلى هوكسي فلوته الألماني، كتب رويتر أنه يجب إغراق السفن إذا حاول البريطانيون الاستيلاء عليها من دون موافقة الحكومة الألمانية. إذا وافقت حكومة ألمانيا على تسليم السفن بموجب بنود اتفاق السلام، ينبغي تقديمها عندئذ سليمة إلى الحلفاء. كان واثقاً، بعد قرار شايدمان، أن الحكومة لن تقبل الشروط، وأن واجبه يقضي بعدم السماح بوقوع السفن في أيدي العدو.

بزغ فجر اليوم الأخير على هوكسي فلوته الألماني الذي سيشهد دماره الذاتي للحفاظ على شرف البحرية الألمانية. ظهر رويتر على جسر بارجة القيادة باكراً في الصباح، وقد دُهش حين لم يرَ أي أثر للبحرية الملكية. لقد اختار الأميرال البريطاني ذلك اليوم تحديداً لإخراج سفنه من أجل إجراء مناورة والعودة في الثالث والعشرين (حين ينتهي الإنذار النهائي) للاستيلاء على السفن الألمانية.

أمر رويتر آنذاك برفع رايتي الإشارة «دي» و«جي» التي تطلب من ضباطه الذهاب إلى مواقعهم وانتظار أوامر أخرى. بعد نصف ساعة رُفعت راية «توكيد الفقرة الحادية عشرة»، في إشارة إلى ذلك القسم من أوامره المكتوبة التي أمر فيها قادته بفتح صمّامات المياه. رفعت سفينة بعد أخرى راية استلام الرسالة في حين فتح ضباط داخل السفن الصمّامات.

لم يحدث الكثير في وقت قصير، أو يتغيّر الوضع، وبدا أن الأوامر لم تُنفّذ. لكن بعد ساعة عند 12:10، خرج بحارة البارجة فريدريش در غروس فجأة إلى قواربهم، وبعد ست دقائق



انقلبت السفينة الحربية بايرن وغاصت تحت السطح.

أسطوله ليجد عشر سفن فقط من أصل سبعين. استقرت السفن الأخرى على قاع البحر، إنما كان لا يزال ممكناً رؤية أجزاء من بعضها، في حين ملأت قوارب النجاة، والبحارة الألمان على متنها، المياه المحيطة بها.

مرة أخرى أثار هوكسي فلوته الذعر بين البريطانيين، الذين أطلقوا نيران رشاشاتهم بكثافة، في حين استهدفت بعض المدمّرات قوارب النجاة فقتلت تسعة رجال وجرحت ستة عشر آخرين. استطاع البريطانيون انتشال ثلاث مدمرات ألمانية لم تكن قد غرقت تماماً بعد، لكن عند الساعة 17:00 تماماً غرقت آخر السفن الألمانية؛ البارجة هيندنبورغ، إلى القاع و لم يعد يُرى منها إلا الصواري فوق سطح البحر عند سكابا فلو.

عدَّ البريطانيون 1700 بحّار وضابط تقريباً أسرى، وفيهم الأميرال رويتر، الذي اتُهم بخرق الهدنة وردَّ بالقول إن أوامره الدائمة تنص على عدم السماح بوقوع سفنه في أيدي العدو. عند نقلهم إلى معسكرات لأسرى الحرب اتهم الأميرال فريمانتل الألمان بعدم الولاء والخيانة، لكن الأميرال رويتر ردَّ بالقول إن ذلك غير منصف، وأن كل ضابط بريطاني كان سيفعل الشيء نفسه في الموقف عينه. أنهت تلك الكلمات دراما سكابا فلو، ووجود هوكسي فلوته، الذي كان يمثّل فخر وأمل الشعب الألماني. جرى التوقيع أخيراً على معاهدة السلام ووضع حد لأربعة أعوام من الصراع المرير الذي أودى بحياة عشرات الملايين. استقرت صنيعة الأميرال تيربتز وحلم القيصر خردة على قاع البحر في سكابا فلو.

أمريكا تدخل الحرب
الولايات المتحدة تحدّد مصير ألمانيا

الولايات المتحدة المحايدة؟

قيل الكثير عن موقف الولايات المتحدة الأمريكية عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، وفي أثناء الأعوام الباكرة منها، حين التزمت أمريكا الحياد وأعلنت رسمياً البقاء خارج النزاع. برغم أن أغلبية الشعب الأمريكي أيّدت وجهة النظر هذه، إلا أنه يجب الاعتراف بأن التعاطف العام مال لمصلحة الحلفاء، وضد ألمانيا الاستبدادية التي عُدّت بلداً قد أشعلت حرباً من أجل فرض إرادتها على الدول الديمقراطية لتصبح قوة عظمى.

كان الرئيس ودرو ويلسون قد اتخذ موقفاً مسالماً، وأعلن أن الولايات المتحدة يجب أن تبقى خارج النزاع. تعرّض لانتقادات لاذعة من قبل الجمهوريين، خاصة من ثيودور روزفلت؛ رجل الدولة البارز فيهم، الذي دافع بقوة عن التجنيد الإلزامي والتدخل الأمريكي.

بانقضاء الوقت، ازداد التعاطف مع الحلفاء بسبب تجارة السلاح والذخائر الضخمة، والمواد الحربية الأخرى من الصناعة الأمريكية.

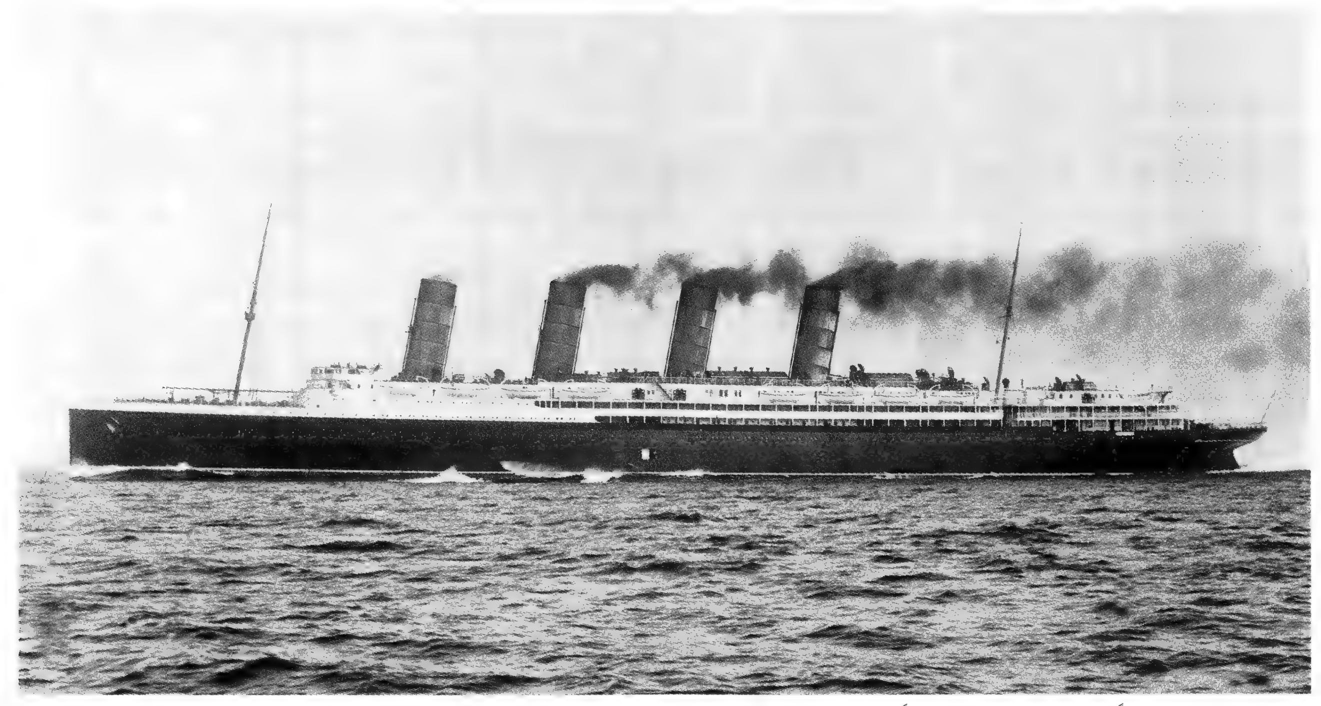
كان شرعياً تماماً في ذلك الوقت أن تقدم شركاتٌ عتاداً حربياً إلى دول تخوض حروباً، لكن التجارة بدت أحادية الجانب تماماً. استفاد الحلفاء كثيراً من هذا، في حين استُثنيت ألمانيا وحليفاتها. لتفادي توريط البلاد بأي طريقة بتلك الإمدادات التي قدّمتها شركات خاصة، وتعريض حالة الحياد للخطر، حظّرت حكومة الولايات المتحدة القروض، بهدف تمويل شراء الأسلحة. تدفّقت مبالغ طائلة بسرعة على البلاد، وبُنيت معامل إضافية، ووُلدت صناعات جديدة، واختفت البطالة. خشيت حكومة الولايات المتحدة أن لا يتمكن الحلفاء من تنفيذ ما يترتّب عليهم، بموجب تلك الطلبيّات الضخمة. وشعرت بأنها ملتزمة بتمويل الإمدادات بقروض ضخمة، بدلاً من مواجهة انكماش قاسٍ أو انخفاض النمو الاقتصادي، على الأقل مع عواقب ذلك على العمالة والاضطراب الذي قد يحدثه الأمر. نصح وزير الخارجية الأمريكي لانسينغ الرئيس ويلسون بتقديم قروض حربية للحلفاء على أسس اقتصادية فقط. قبل ويلسون

هذا الاقتراح، مودّعاً في الواقع مبدأ الحيادية؛ لأنه بدا واضحاً أن الألمان وحلفاءهم لن يكونوا مؤهلين لمثل تلك القروض.

كانت الصناعة الأمريكية القوية تضغط منذ بعض الوقت، من أجل الحصول على قروض حربية، وقد أيّدتها وسائل الإعلام في ذلك. اكتسب البريطانيون نفوذاً واسعاً في الصحافة الأمريكية، ولعب قطب الإعلام البريطاني نورثكليف دوراً بارزاً في هذا. انحازت الصحافة الأمريكية بازدياد إلى الحلفاء؛ لأن المصالح الأمريكية كانت كبيرة معهم، ما أدّى إلى تنامي المشاعر المعادية للألمان لدى الشعب الأمريكي.

جرى خرقٌ ثانٍ للحياد، حين سمح الأمريكيون لسفن تجارية مسلّحة بدخول موانئهم. كان القانون والأعراف الدولية تعدُّ السفن التجارية المسلحة بوارج حربية، ويجب من ثَمّ احتجازها. برغم أن السفير الألماني احتج عدّة مرات، إلا أن الحكومة الأمريكية غضّت الطرف عن الأمر.

حذّرت حكومة الولايات المتحدة البريطانيين رسمياً بشأن تلك الأعمال، إنما لم تتخذ أي خطوة لإنهائها، في خرقٍ واضحٍ للحياد الأمريكي. ينطبق الأمر نفسه على استخدام السفن



تبيّن لاحقاً أن لوسيتانيا كانت تحمل عتاداً للبريطانيين، فيه 5000 قنبلة، وذخائر، ومتفجرات أخرى. اعتبر الألمان أن السفينة تساعد المجهود الحربي البريطاني، وأصدرت السفارة الألمانية قبل مغادرتها مباشرة تحذيراً بأن الباخرة قد تُستهدف بطربيد.

REMEMBER THE LUSITANIA!

One mother lost all her three young children, one six years, one aged four, and the third a babe in arms, six months old. She herself lives, and held up the three of them in the water, all the time shrieking for help. When rescued by a boat party the two eldest were dead. Their room was required on the boat, and the mother was brave enough to realise it. "Give them to me," she cried. "Give them to me, my bonnie wee things. I will bury them. They are mine to bury as they were mine to keep."

With her hair streaming down her back and her form shaking with sorrow, she took hold of each little one from the rescuers and reverently placed it into the water again, and the people in the boat wept with her as she murmured a little sobbing prayer to the great God above.

But her cup of sorrow was not yet completed. For just as they were landing, her third and only child died in her arms.

BERLIN, MAY 8.

Hundreds of telegrams have been sent to Admiral von Tirpitz congratulating him.

* * *

ARTICLE IN COLOGNE GAZETTE.

The news will be received by the German people with unanimous satisfaction, since it proves to England and the whole world that Germany is quite in earnest in regard to her submarine warfare.

* * *

ARTICLE IN KOLNISCHE VOLKSZEITUNG.

With joyful pride we contemplate the latest deed of our Navy and it will not be the last.

* * *

NEW YORK, MAY 8.

Riotous scenes of jubilation took place last evening amongst Germans in the German clubs and restaurants. Many Germans got drunk as the result of toasting "Der Tag."

ENLIST TO-DAY.

ملصق تجنيد بريطاني بعد كارثة لوسيتانيا.

البريطانية العلم الأمريكي بنحو غير شرعي إطلاقاً، الذي أثار احتجاجات رسمية أيضاً، إنما لا شيء أكثر.

كانت الخطوة الأهم هي قبول حكومة الولايات المتحدة الحصار الاقتصادي الذي فرضه البريطانيون على ألمانيا. عُدَّ ذلك مخالفاً تماماً لإعلان لندن في 1909، الذي كان البريطانيون طرفاً فيه. برغم أن تلك المحاولة لإقرار قانون بحري دولي لم تحظَ بموافقة مجلس اللوردات البريطاني، إلا أن كل الدول اتفقت على أن الإعلان «قانون عرفي». لم يكن الحصار البريطاني مشروعاً وفقاً لتلك المبادئ، وتعرّضت سفن تجارية أمريكية أيضاً إلى عمليات تفتيش، ما أثار غضب وزارة الخارجية الأمريكية. اضطرت حكومة الولايات المتحدة إلى الإقرار بأن السفن التي تحمل شحنات يعدّها البريطانيون ممنوعة – شمل هذا كل شيء بسرعة – ستُحتجز وتُصادر حمولاتها. أثار هذا انزعاجاً كبيراً لدى الأمريكيين الذين فكّروا في إيقاف شحنات الأسلحة إلى البريطانيين.

عندما اقترح عدّة وزراء ذلك في اجتماع لهم، اعترض الرئيس ويلسون بقوة على الفكرة. أصرَّ على أن موقف الحلفاء صعب في معركة مع «وحوش همجيين»، وأنه لا يريد أن يكون طرفاً في أي شيء قد يجعل انتصارهم في الحرب أكثر صعوبة.

كانت تلك لغة واضحة أظهرت للألمان أن الرئيس ويلسون ليس محايداً في أفكاره. برغم أن ألمانيا احتجّت بقوة لدى الولايات المتحدة بشأن الحصار غير الشرعي الذي يستهدف السكان المدنيين – إيقاف إمدادات الغذاء وسلعاً أساسية أخرى – بقيت الحكومة الأمريكية أحادية الجانب في حيادها، ولم تلقِ بالاً لتلك الاعتراضات. من أجل تخفيف الحصار، قرّرت الحكومة الألمانية فرض حصار مضاد في بحر الشمال والقناة الإنكليزية بإعلانها منطقة حربية، وبدء حرب غواصات شاملة فيها. نصحت ألمانيا الحكومات المحايدة بعدم السماح لسفنها بعبور تلك المنطقة؛ لأن يو–بوت الألمانية قد لا تستطيع دائماً تمييز البواخر المحايدة.

يبدو تخمين طبيعة الموقف في حال لم تغض الولايات المتحدة الطرف عن الحصار البريطاني، وخرق حقوق الدول المحايدة مثيراً للاهتمام. كانت نتائج الحصار ستتخذ على الأرجح منحى مختلفاً، ولم يكن الألمان ليستأنفوا حرب الغواصات. جواباً على سؤال من وزير الخارجية الأمريكي لانسنيغ بشأن التزام ألمانيا بالقانون البحري الدولي وفقاً لإعلان لندن في 1909، ردّت الحكومة الألمانية بإيجابية.

قالت بريطانيا العظمى، من ناحية أخرى، إنها تحتفظ بحق إجراء تعديلات عليه. طالت تلك التغييرات أساساً سلعاً عُدّت محظورة، أُضيف إليها الطعام، والأدوية، والقطن، والنحاس، وأشياء أخرى، ما جعل استيرادها من دول محايدة أمراً مستحيلاً.



الباخرة البريطانية لوسيتانيا في رحلتها الأخيرة إلى بريطانيا حيث أصابتها غواصة يو–20 ألمانية بطربيد في 7 أيار/ مايو 1915. فقد نحو 1200 راكب حياتهم في الأمواج.



السفينة الحربية القديمة البريطانية جونو التي استُدعيت فجأة إلى الميناء بعد إبحارها لمرافقة لوسيتانيا عبر الألغام.

في ذلك الوقت أدلى ويلسون ببيان أكّد فيه أن الولايات المتحدة ستبقى خارج الحرب. برغم الانتقادات الحادّة لهذا الموقف، خاصة من قبل الجمهوريين، إلا أن كثيراً من الأمريكيين شاطروه رأيه. عندما رشّح ويلسون نفسه لانتخابات 1916، خاضها تحت راية «أبقانا خارج الحرب»، و لم يفوّت الرئيس فرصاً لإلقاء خطب في كل أرجاء البلاد دافع فيها عن موقفه الذي حظي بانطباع رائع.

برغم هذا، يبقى التساؤل قائماً عن مدى تصديق ويلسون نفسه لموقفه ذاك؛ لأن بحثاً عميقاً يشير في الواقع إلى أنه فكّر بنحو مغاير تماماً. في 1915 يبدو أنه استنتج أن أمريكا يجب أن تساند الحلفاء وتنضم إليهم في الحرب.

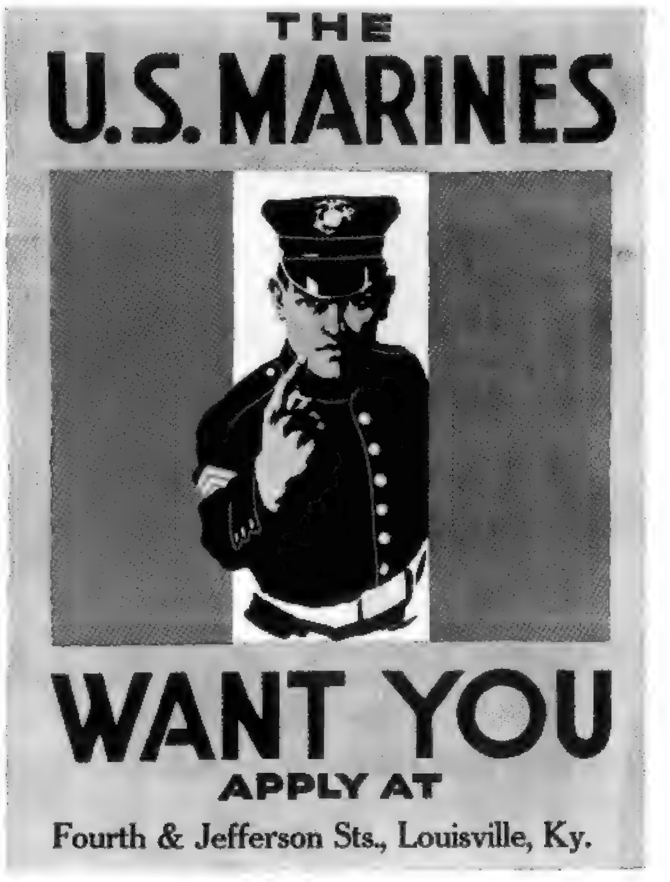
ما الحقيقة إذاً؟ في عام 1915، أرسل ويلسون مبعوثه الخاص العقيد هاوس إلى بريطانيا للقاء وزير الخارجية البريطاني إدوارد غراي. في أثناء الزيارة، طلب هاوس من غراي أن يخبره عمّا

يريده البريطانيون من الأمريكيين لمساعدة الحلفاء للانتصار في الحرب. هذا سؤال مفاجئ يُظهر أن الولايات المتحدة لم تكن حيادية حقاً.

بعد عودة هاوس إلى الولايات المتحدة، كتب إلى غراي في 17 تشرين الأول/ أكتوبر 1915، يعلمه بموافقة الرئيس على ذلك. تؤكّد الرسالة بوضوح خوضَ أمريكا الحربَ إلى جانب الحلفاء في ظل ظروف معينة. في تلك الرسالة، قال هاوس إنه سيأتي إلى أوروبا ليناقش رغبات الحلفاء، من ثمَ سيزور ألمانيا، وتوقّع أن يرفض الحلفاء عرضاً بعقد مؤتمر للسلام. كان واثقاً تماماً تقريباً، بأن الألمان سيقبلون بمثل هذا الاقتراح، إنما إذا لم يفعلوا، سيكون ذلك سبباً لانضمام الولايات المتحدة إلى الحلفاء، والتخلّي عن أفكار محادثات السلام.

إذا جاءت ألمانيا إلى المحادثات فعلاً، ستؤيد الولايات المتحدة مطالب الحلفاء، وفي حال رفض الألمان ذلك، ستُنهي أمريكا المفاوضات بانضمامها إلى الحلفاء.

في كانون الثاني/ يناير 1916، سافر هاوس إلى بريطانيا مجدّداً، وأكّد الاتفاقَ بشأن انضمام الولايات المتحدة إلى الحرب في لندن. ذهب من هناك إلى باريس حيث التقى رئيس الوزراء الفرنسي بريان والسفير كامبون، وأبلغهما أن الولايات المتحدة ستشترك قريباً – ذلك العام على الأرجح – في الحرب إلى جانب الحلفاء. لم يصدّق الفرنسيان أذانهما، وطلبا منه تكرار ما قد قاله، من ثمّ دوّناه. لكن هاوس كتب في مفكّرته بأنه قد وعد فقط بأن أمريكا ستتدخّل، إذا أوشك الحلفاء على خسارة الحرب، وترك بحكمة تعريفه لكلمة «تدخّل» معلّقاً في الهواء. في شباط/ فبراير، عاد هاوس إلى لندن، والتقى مرة أخرى، وزير الخارجية غراي الذي سأله عمّا يعنيه بالضبط بكلمة «تدخّل». كرّر هاوس التفاصيل، ودوّن الاثنان ذلك في مذكّرة مؤرّخة في 17 شباط/ فبراير 1916،



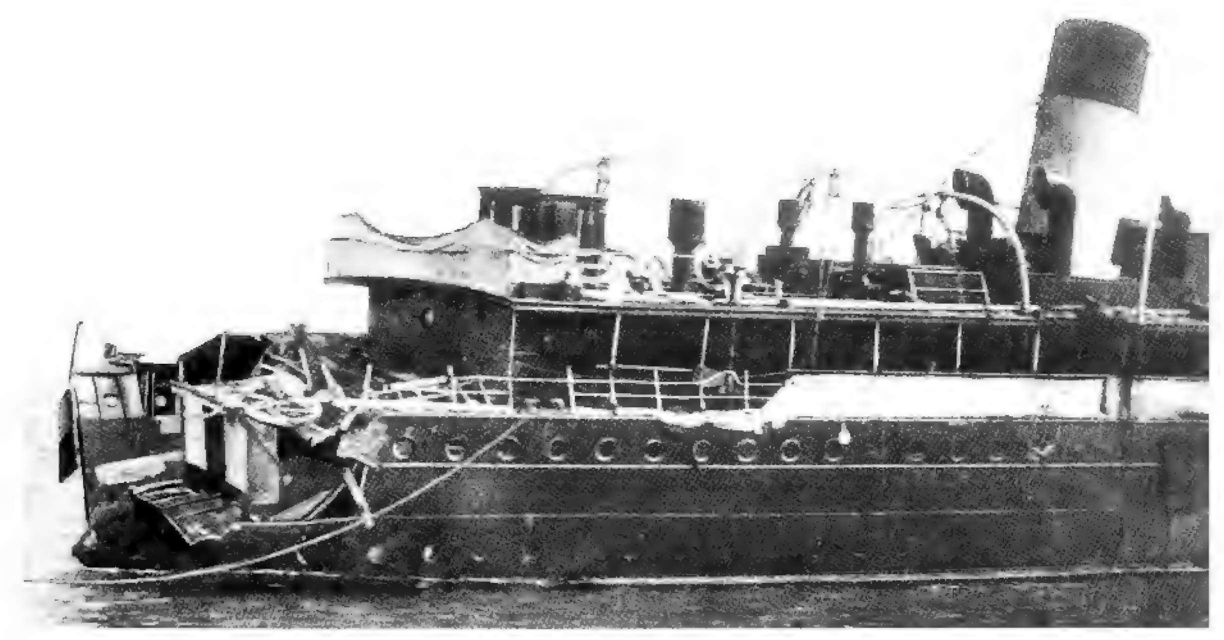
ملصق تجنيد أمريكي يشبه الملصق البريطاني الشهير الذي يُظهر كيتشنر.

ضمّت المقترحات الأمريكية. نصّت الصياغة بعناية على أن الرئيس ويلسون سيدعو إلى إجراء محادثات سلام في وقت ملائم للحلفاء. وإذا رفضت ألمانيا، فستنضم أمريكا على الأرجح إلى الحلفاء في الحرب. تتابع المذكّرة القول إن العقيد هاوس قد أعلن أن حكومة الولايات المتحدة ستقدّم مقترحات في أثناء المحادثات تصبُّ في مصلحة الحلفاء، وأنه إذا رفضتها ألمانيا وتصرّفت بنحو غير عقلاني ولم يتحقّق السلام، ستغادر أمريكا المفاوضات، بوصفها أحد الحلفاء.

يكمن السمُّ في دسم مذكّرة غراي–هاوس تلك، التي تبدو للوهلة الأولى لمصلحة الحلفاء. في الحقيقة، إن الأمريكيين كانوا هم من سيحدّد بنود السلام، ما أثار امتعاضاً كبيراً لدى الفرنسيين. وصلت الخطة لهذا السبب إلى طريق مسدود، ما أدى إلى أسف ويلسون.

تُظهر هذه القضية برمّتها أن ويلسون كان ينوي فعلاً في 1915 فرض السلام بالوقوف إلى جانب الحلفاء، والضغط على الألمان لقبول ذلك، في حين أدار، في الوقت نفسه، حملة إعادة انتخابه تحت راية «أبقانا خارج الحرب». يبدو واضحاً من هذا أنه قد خطّط سراً للأمر، وقد تُرجمت تلك الخطط إلى أفعال بعد إعادة انتخابه.

اتّسم موقف رئيس الولايات المتحدة بتناقض كبير. برغم أنه لم يكن يحب الحرب إطلاقاً، وبذل جهوداً حتى النهاية لتحقيق سلام عادلٍ، إلا أن دوافعه بقيت غير واضحة، وقد انقسم



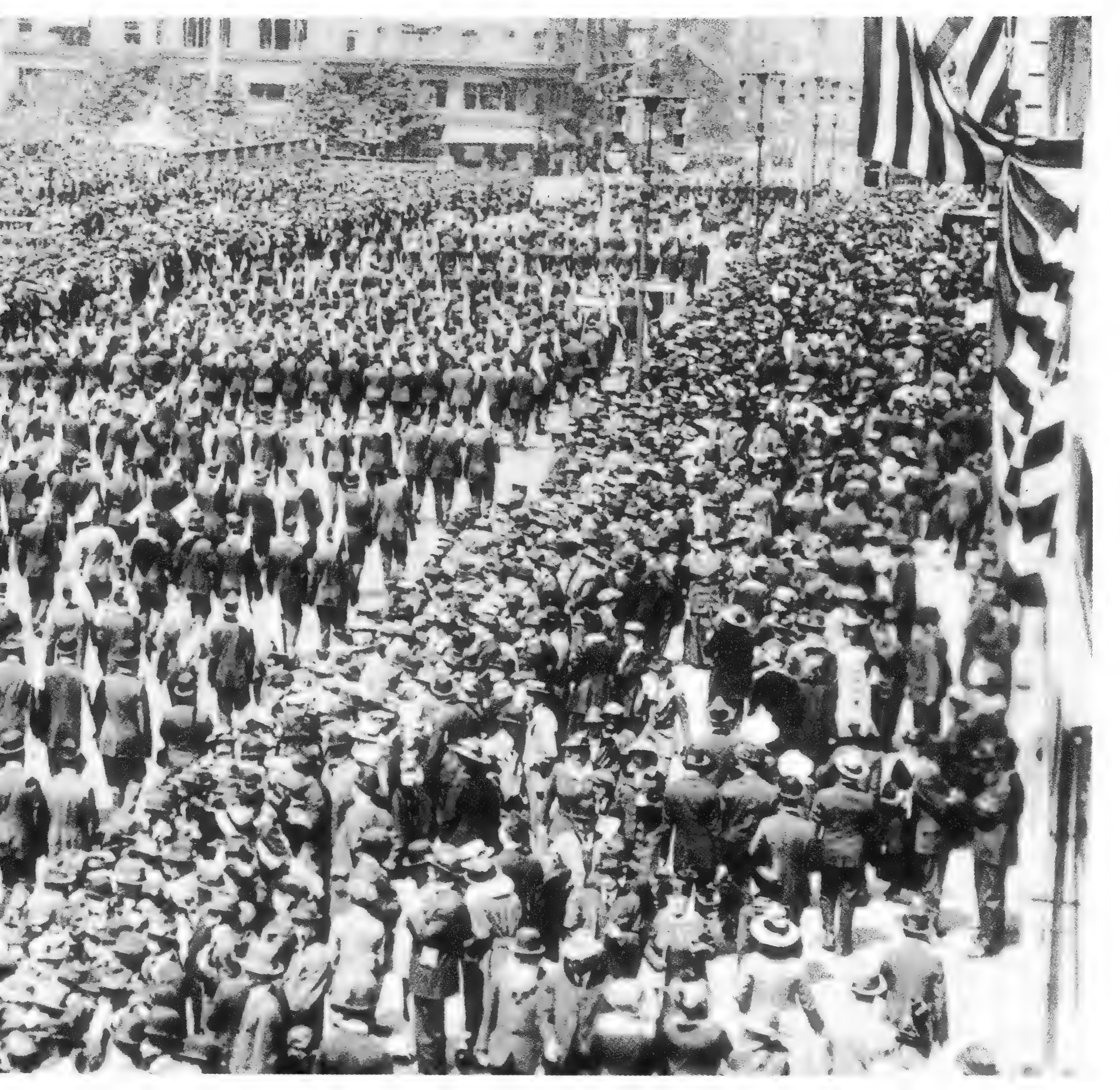
لقي مزيد من الأمريكيين حتفهم بعد حادثة لوسيتانيا حين استُهدفت أرابيك وساسكس بطربيدات.



البحرية الأمريكية تستعد للحرب. السفينة الحربية نيومكسيكو تغادر الميناء لإجراء مناورات.

المؤرّخون في حكمهم عليه. كان واضحاً أن ويلسون يؤيّد البريطانيين، وعدَّ انتصار الألمان شيئاً لا يُحتمل. بعد أن ازداد ارتباط الولايات المتحدة الأمريكية مادياً واقتصادياً بقضية الحلفاء، بات الضغط من الصناعة – والصحافة أيضاً – أقوى. كان لذلك تأثير كبير على الشعب الأمريكي، وقد غيّر إغراق لوسيتانيا الذي أدّى إلى خسارة فادحة في أرواح الأمريكيين، ومن بعدها أرابيك وساسكس، المزاج الشعبي لمصلحة الحلفاء.

في تلك الأثناء، أمسى ويلسون مقتنعاً أن خططه لإنجاز «سلام عادل، سلام من دون منتصرين، ومن دون عقاب»، لا يمكن أن تتحقّق من دون انحياز أمريكا إلى أحد طرفَي النزاع. كانت فكرته المثالية هي استعادة السلم العالمي، على أن تلعب أمريكا دوراً رائداً في ذلك، وقد أيّده في ذلك وزير الخارجية لانسينغ والمستشار الخاص للرئيس العقيد هاوس، الذي تبنّى منذ البداية الرأي القائل إن أمريكا لا يمكن أن تبقى خارج الحرب، وإنها يجب أن تنضم إلى الحلفاء. قرّر ويلسون آنذاك أن تخوض بلاده الحرب، إذا سمح الشعب الأمريكي بهذا. حدث ذلك حين أعلنت ألمانيا استئناف حرب يو–بوت، ما اضطر حكومة الولايات المتحدة إلى قطع العلاقات الدبلوماسية في ضوء مراسلات سابقة بينهما، وإعلانها الحرب ضد ذلك البلد، بعد وقت قصير فقط. يعدُّ هذا القرار مفهوماً؛ لأن الحكومة الأمريكية لم تكن محايدة أبداً في الواقع. كان استئناف حرب الغواصات عذراً فقط لا سبباً لقرار أمريكا دخول الحرب.

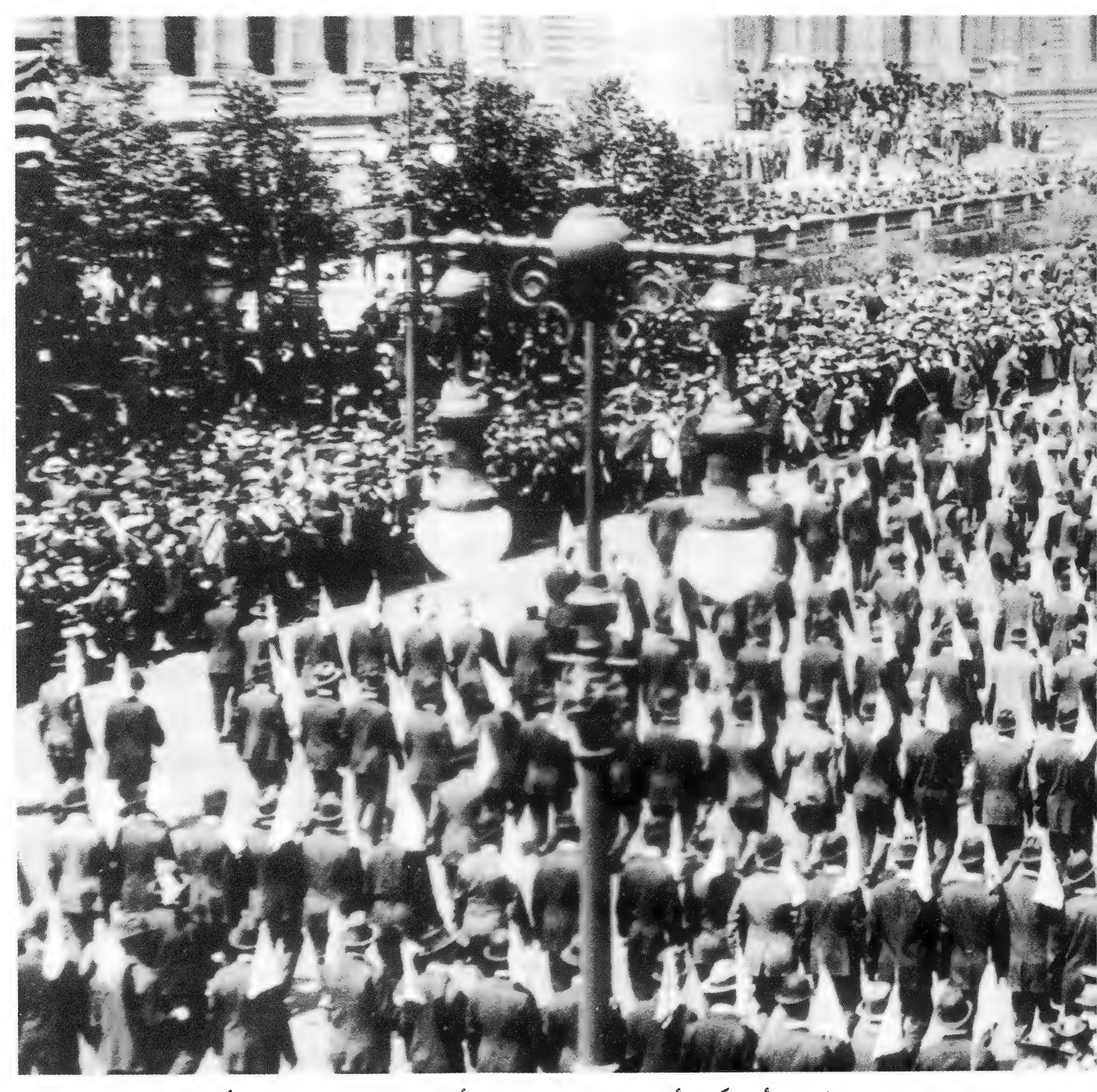


قرّر الرئيس ويلسون في 1 أيار / مايو 1916 تجهيز أمريكا للكارثة النهائية. «استعراض للجاهزية العسكرية» في نيويورك في 13 أيار/ مايو 1916.

هجوم بالطربيد على لوسيتانيا (2)

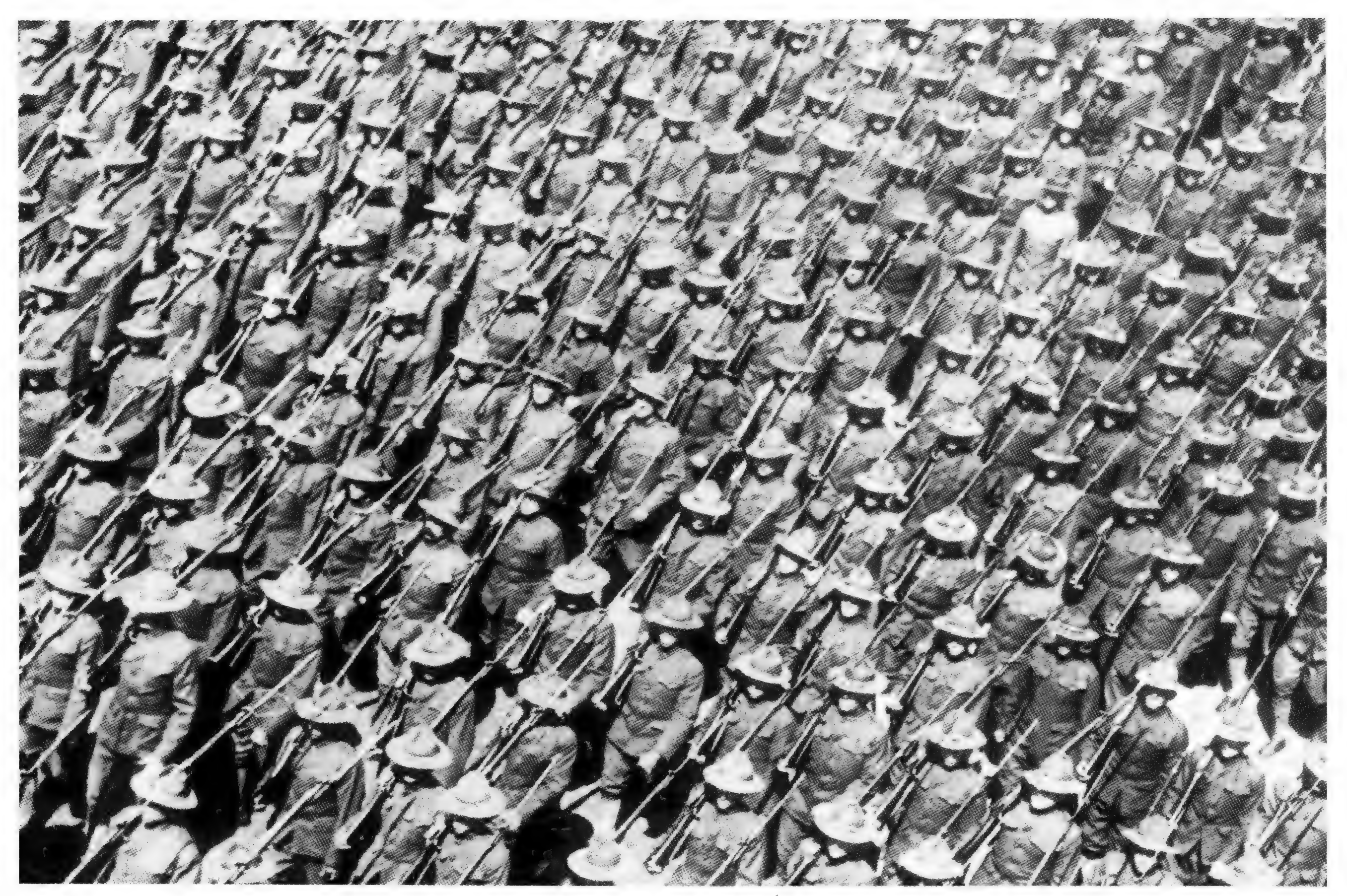
يوم كئيب

كان 7 أيار/ مايو 1915 يوماً حزيناً. اقتربت الباخرة لوسيتانيا بطوابقها المملوءة ركاباً من الجزر البريطانية، بعد رحلة هادئة من الولايات المتحدة الأمريكية. كان على متنها نحو 1700



مسافر بريطاني وأمريكي أرادوا إلقاء النظرة الأولى على الساحل في أثناء اقترابهم منه. لن يصل 1198 من هؤلاء إلى الشاطئ أبداً، وسيلقون حتفهم في ساعات غرقى في البحر الموحش والبارد. مات رجال، ونساء، وأطفال، بينهم 128 أمريكياً، غافلين تماماً أن وفاتهم ستكون أحد الأسباب التي جعلت حكومة الولايات المتحدة تقرّر خوض الحرب ضد ألمانيا.

لقد أثارت دراما لوسيتانيا انفعالات منذ ذلك الوقت، ولا يزال المؤرّخون يقدّمون آراء مختلفة بعد كل تلك السنين، والنقاش بشأنها مستمراً حتى يومنا هذا.



بدأ تجنيد واسع النطاق في أمريكا. هنا فرقة مشاة مكوّنة حديثاً في تشكيلها العسكري.

ماذا كانت الحقيقة؟ جرت رحلة الباخرة لوسيتانيا من دون أي مشكلة. بموجب «قواعد الاشتباك»، كان يجب على الغواصات وفقاً للعرف الدولي، أن تسمح أولاً للركاب والبحارة بمغادرة السفينة في قوارب النجاة قبل إغراقها، ما منح المسافرين شعوراً زائفاً بالأمان. بات الساحل في مرمى البصر، وانضمّ الطرّاد البريطاني القديم جونو إليهم لمرافقتهم عبر الألغام إلى مرسى آمن.

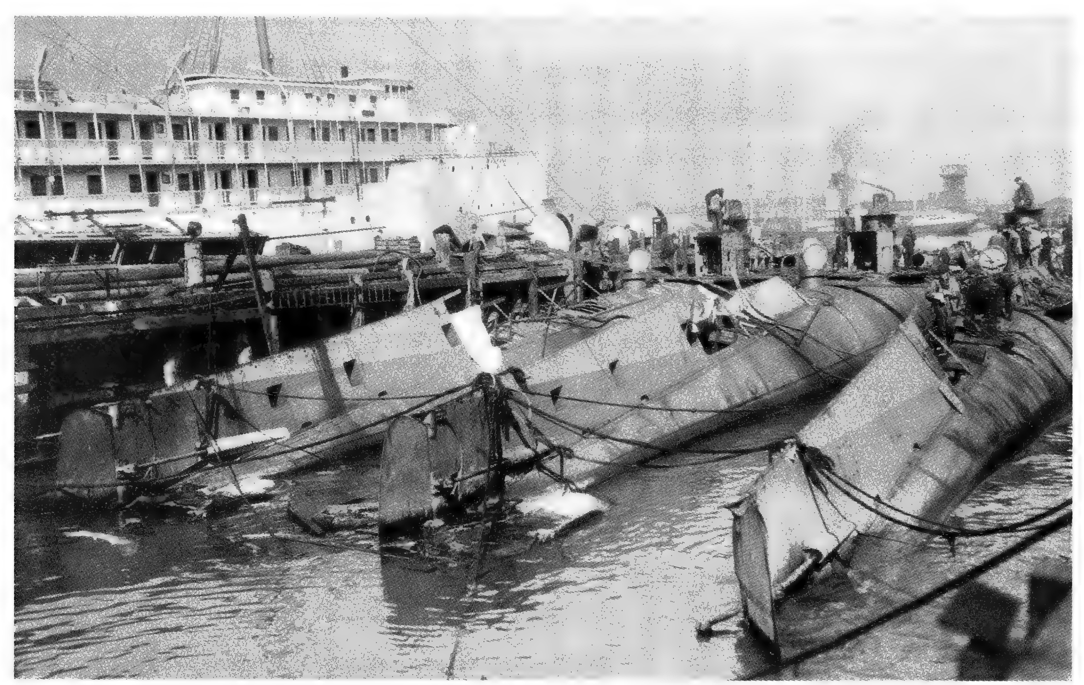
فجأة سمعوا صراخ «أرى طربيداً»، وتبع ذلك فوراً تقريباً انفجار ضخم بين الحجيرتين الثالثة والرابعة، من ثمّ وقع انفجارٌ ثان، أضخم من الأول. مالت السفينة بسرعة واختفت تحت الأمواج في أقل من عشرين دقيقة. نجا بضع مئات فقط على متنها، وغرق نحو 1200 شخص معها إلى قبورهم.

شعر العالم بالصدمة، وبدأ الجدال بشأن تلك الدراما فوراً، وقدّم البريطانيون والألمان سردَين مختلفين تماماً لما جرى. هناك روايتان عن الأحداث، أقصّهما هنا.

القصة البريطانية

استشاط البريطانيون غضباً طبعاً. عدّوا ذلك عملاً همجياً آخر من قبل الألمان الذين قتلوا نحو 1200 شخص بريء، وفيهم نساء وأطفال، لقوا حتفهم غيلة من دون أي تحذير، أو منحهم فرصة للنجاة. كان الأمر خرقاً للقوانين الدولية التي تحترمها كل أمّة متحضّرة. وجد العالم بأسره ذلك العمل مقيتاً، وازداد الاشمئزاز حين قالت الصحافة البريطانية إن الحكومة الألمانية قد أصدرت وساماً تذكارياً لتمجيد ذلك «النصر» ضد العدو. أثار قتلٍ هؤلاء الأبرياء في عملية خفيّة نفّذتها الغواصة يو—20، والاحتفال بهذا العمل في ألمانيا شكل صدمة وكراهية للألمان في كل أرجاء العالم. تلاشى تماماً أي حسن نوايا باقٍ نحو ألمانيا.

جرى تحقيق رسمي في الكارثة طبعاً، وتوصّلت اللجنة المكلّفة إلى استنتاج معاد للألمان بالإجماع. أكّدت أنه جرى إغراق لوسيتانيا بطربيد من دون سابق إنذار، وأن هناك دليلاً على إصابتها بطربيد ثان، وأن السفينة غرقت في عشرين دقيقة فقط. ندّدت اللجنة بما سمّته «فعل القرصنة» ذاك، الذي أثبت أن قيام «الجنود الألمان» بأعمال همجيّة مثل تسميم الآبار، واستخدام الغاز السام، وقتل مدنيين في بلجيكا بطريقة مرعبة لا يزال مستمراً. لقد وسّعت ألمانيا جرائمها آنذاك بقتل ركاب أبرياء بنحو متعمّد وبدم بارد؛ جريمة لم يشهد التاريخ مثيلاً لها في أعالي البحار، ووصمة عار على جبين الألمان لا يمكن نسيانها أبداً.



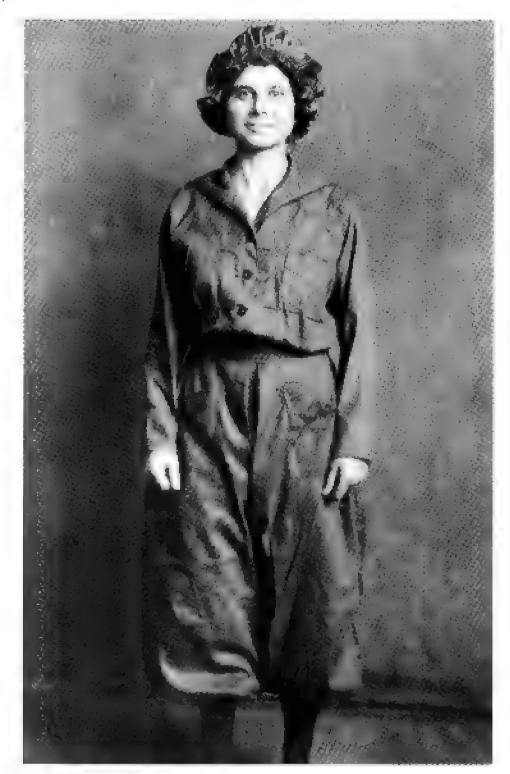
بناء غواصات في مسفن أمريكي.

بعد استخدام هذه اللغة العاطفية، سُرد ملخص واقعي للحقائق ذُكر فيه أن لوسيتانيا كانت باخرة ركاب غير مسلحة، وليست جزءاً من البحرية الملكية، أو على متنها قوات أو أسلحة. لم يكن استهداف الألمان للسفينة بطربيد من دون إنذار مبرراً بموجب قواعد الاشتباك، لذا تعدُّ ألمانيا مذنبة بوضوح في خرق القانون البحري الدولي وقتل 1198 راكباً.

دحضت ألمانيا تماماً هذا الوصف، لكن الحجج الألمانية لم تكن مقنعة، وتغيّرت المواقف نحوها في الولايات المتحدة. استحوذ إغراق لوسيتانيا بطربيد على مخيّلة العامّة، وتبدّل الرأي العام تماماً ضد دولة يمكن أن تقوم بمثل تلك الأعمال الهمجية.

القصة الألمانية

شعرت الحكومة الألمانية بالصدمة من رد الفعل القوي، خاصة من جانب الأمريكيين. في رسالة إلى حكومة الولايات المتحدة أكّدوا أنه لم يعد ممكناً الالتزام بقواعد الاشتباك في أثناء عمل الغواصات؛ لأنها تعرّض بحارتها للخطر. جعل القرار البريطاني بتسليح السفن التجارية، والطلب منها محاولة استهداف الغواصات الألمانية عند مواجهة إحداها، الالتزام بالاتفاق – كما جادلوا – أمراً غير ممكن. كانت حرب الغواصات الشاملة نتيجةً مباشرةً للحصار البريطاني غير الشرعي، وقرار البريطانيين تسليح السفن التجارية.



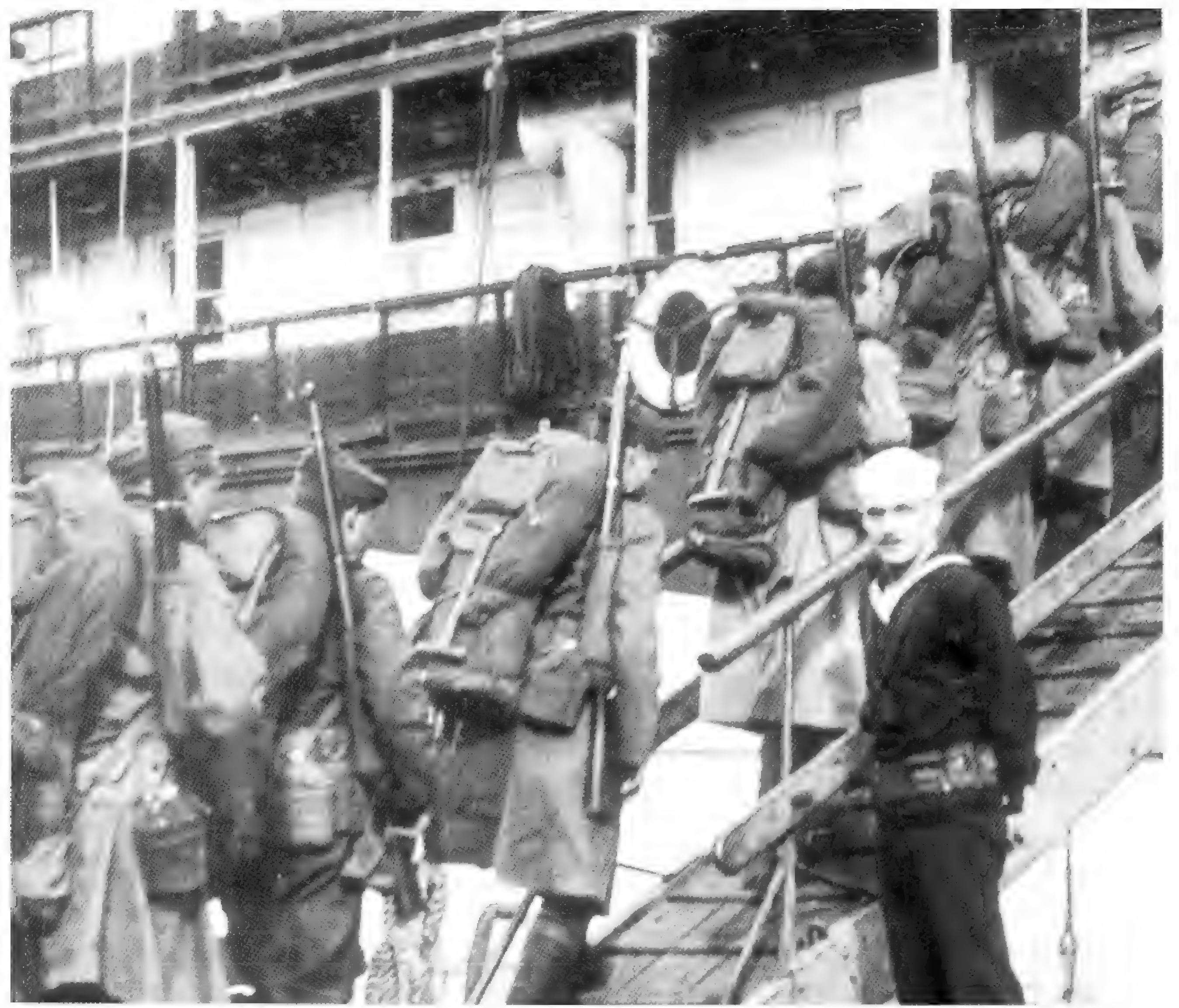
آنا أولندا، التي حطّمت الرقم العالمي في تجهيز القنابل، وأنجزت 10.600 في يوم واحد.

أعلنوا أن لوسيتانيا كانت باخرة بريطانية مسلّحة تنقل مواداً محظورة تشمل أسلحة وذخائر، وأن استخدام الطربيدات يعدُّ، لهذا السبب، مبرَّراً. أضافوا أنهم قد نبّهوا بوضوح إلى هذا الخطر عبر إعلانات

في صحف أمريكية، وإعلان المياه حول الجزر البريطانية منطقة عسكرية، حيث تواجه أي سفينة بريطانية أو للحلفاء خطر إصابتها بطربيد، وأن سفر الركاب على متن مثل تلك السفن ينطوي على مخاطر كبيرة. أخيراً أشارت الحكومة الألمانية

مقابل: إنتاج ضخم للقنابل في مصنع ذخائر أمريكي. كانت عاملات يملأن القنابل الفارغة آنذاك بالمتفجرات.



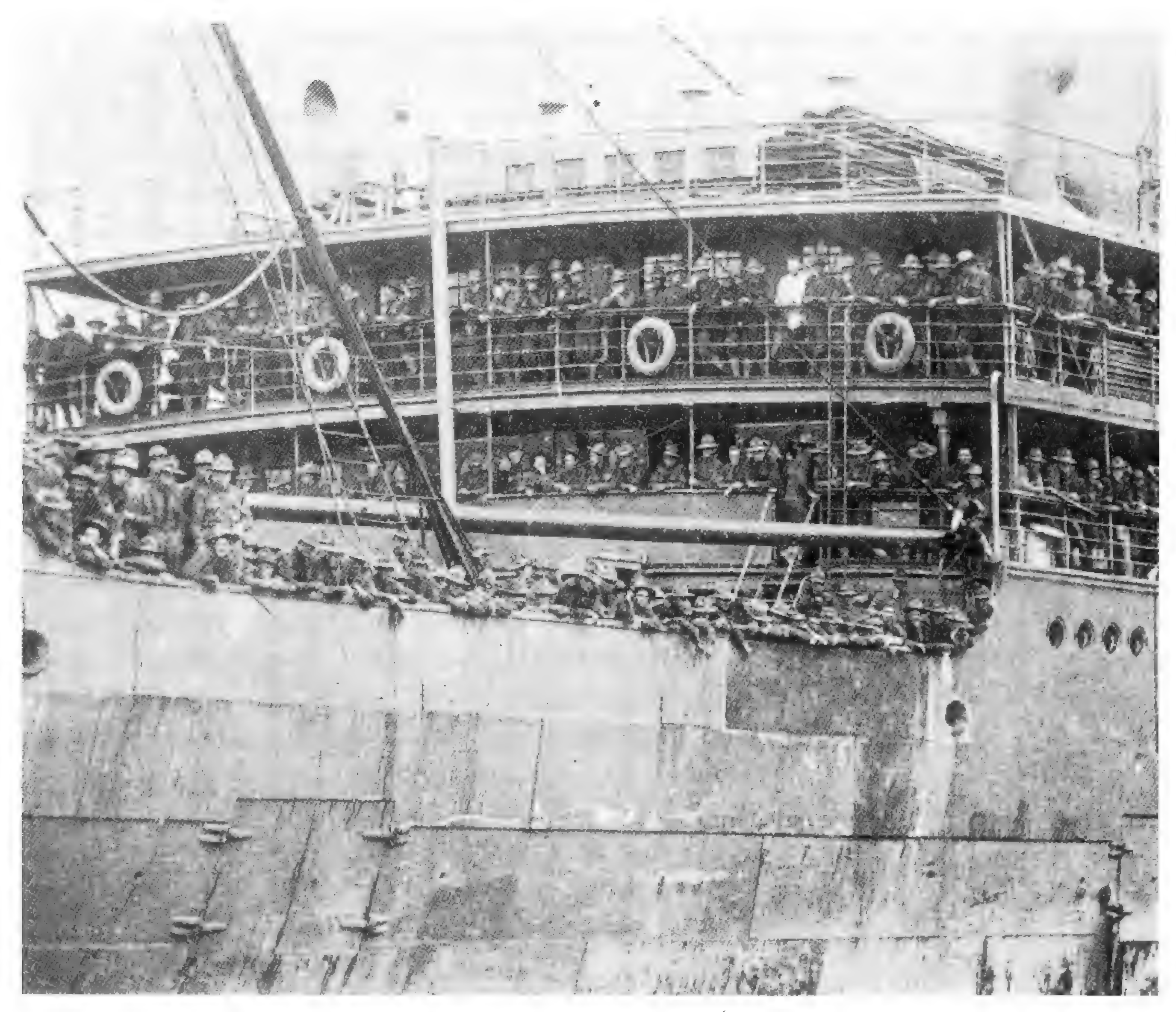


طلب الرئيس ويلسون من الكونغرس إذناً لإعلان الحرب ضد ألمانيا في 2 نيسان/ أبريل 1917. غادر أوائل الجنود الأمريكيين إلى فرنسا بعد وقت قصير. هنا يصعد جنود من فوج المشاة 142 على متن السفينة تشارلز.

إلى رسالتها التي وجّهتها إلى كل الدول المحايدة وأعلنت فيها سياسة حرب الغواصات الشاملة وشرحت أسبابها.

الموقف الأمريكي

كان موقف الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها بلداً محايداً بعد كارثة لوسيتانيا، صعباً جداً بسبب الضحايا الأمريكيين. لم تكن الحكومة قد أصدرت أبداً أي تحذير لمواطنيها بأن السفر



غادرت سفينة بعد أخرى موانئ أمريكية مملوءة جنوداً في طريقهم للقتال في فرنسا. ذهب نحو 200.000 إلى 250.000 جندي كل شهر إلى أوروبا.

على متن السفن البريطانية قد يكون خطراً، أو اتخذت أي إجراءات لتفادي تلك المخاطر. ظنَّ الركاب أن قواعد الاشتباك لا تزال سارية المفعول، وأنهم بذلك في أمان. بالمحصّلة كانت أي غواصة ستحذّرهم قبل أن تطلق طربيداً.

كانت الرسالة من الحكومة الألمانية صعبة على الأمريكيين؛ لأنهم إذا قبلوا مبرّرات الألمان فسيتحمّلون مسؤولية فشلهم في منع مواطنين أمريكيين من دخول منطقة حرب. جرى تبادل للرسائل بين الحكومتين إنما من دون جدوى. طالبت الحكومة الأمريكية بأن يتحمّل

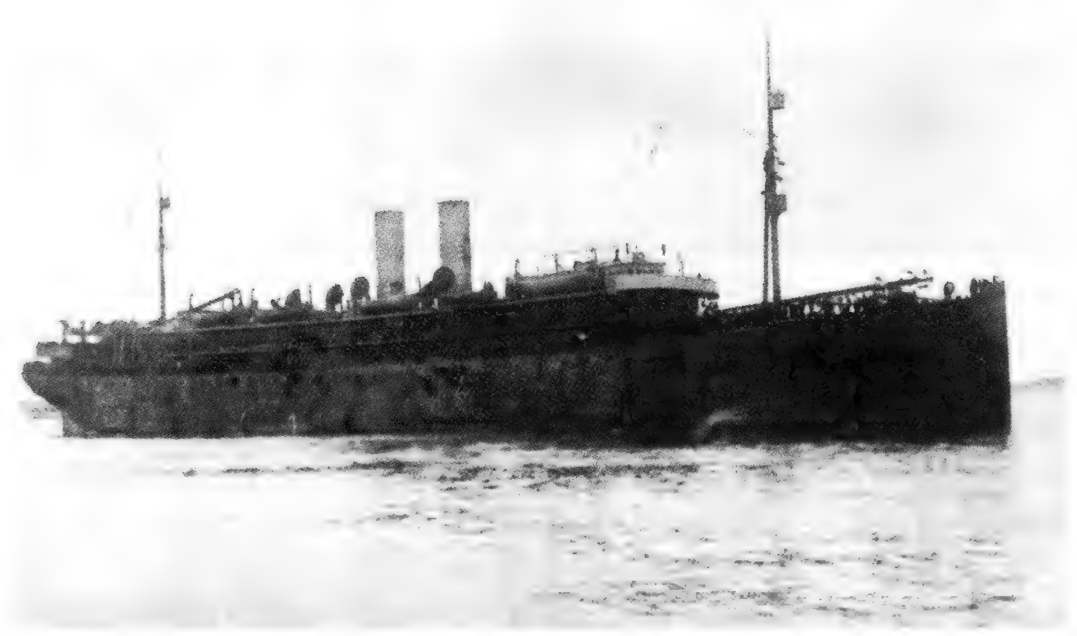
الألمان كامل المسؤولية، ويعترفوا بأن استخدام الطربيدات في تلك الظروف كان خطأ وغير شرعي، إلا أن الحكومة الألمانية لم توافق على الأمر.

أبدى الألمان استعداداً لدفع تعويض ملائم، في إشارة عن حسن النية، ولمنع تدهور العلاقات مع الولايات المتحدة، إلا أن الأمر قوبل بالرفض. وصلت النقاشات الخاصة بالسفينة لوسيتانيا إلى طريق مسدود بسبب وقوع هجمات طربيد أخرى. وقرّرت الحكومة تأجيل أي ردود فعل أو اتخاذ إجراءات إضافية إلى ما بعد الانتخابات الرئاسية في 1916.

أيٌّ من تلك الروايات عن الكارثة التي استحوذت على مخيّلة العامّة وقتاً طويلاً، وجعلت حكومة الولايات المتحدة تقطع العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا، هي التي تمثّل الحقيقة إذاً؟ الجواب ليس بسيطاً، ولا يزال الجدل بهذا الشأن قائماً إلى يومنا هذا، وقد لا نعرفه أبداً. هناك أجوبة طبعاً، والحقائق الآتية معروفة عموماً.

الحقائق

يبدو منطقياً تماماً أن تعدّ ألمانيا لوسيتانيا باخرة بريطانية مسلّحة. جرى تسجيلها على قائمة جين للسفن القتالية؛ نشرة دولية تقدم تفاصيل عن كل السفن الحربية في العالم. جاءت أول إشارة إلى أن لوسيتانيا تعمل لمصلحة البحرية الملكية، حين حاول قطب الشحن الأمريكي ج.



سفينة جنود أمريكية في لو هافر. بحلول نهاية نزل مليونا جندي أمريكي في فرنسا.



وصول القائد الأمريكي الجنرال بيرشينغ، وضباط أركانه، إلى بولونيا في 13 حزيران/ يونيو 1917.

ب. مورغان الاستحواذ على كونارد لاين في 1902، ليواجه حظراً من الحكومة البريطانية التي أعلنت أن سفن الركاب التابعة لـ كونارد لاين ضرورية للبحرية، لذا يجب أن لا تخرج من السجل البريطاني للشحن.

لقد اتُخذ قرار بناء لوسيتانيا في ذلك العام تحديداً، وقدّمت الحكومة البريطانية إعانات مالية كبيرة لهذا الغرض، إنما ربطت ذلك بعدّة شروط. كان يجب أن تبلغ سرعة السفينة 24 عقدة، وتكون ملائمة لحمل عدّة مدافع، وأن توظّف كونارد أيضاً عدداً من ضباط احتياطي البحرية الملكية على متن الباخرة. نص هذا الاتفاق، الذي وُقّع في 30 تموز/ يوليو 1903، أن تقدّم لوسيتانيا، مثل معظم سفن الركاب، المساعدة لسلاح البحرية في وقت الحرب. كان الألمان يعرفون هذا كله.

في 19 شباط/ فبراير 1903، صدر أمر لشركة الشحن بوضع السفينة في حوض جاف لإجراء عدّة تعديلات عليها وجعلها ملائمة أكثر لأعمال البحرية. نُزعت ست مراجل من خمس وعشرين، ووُسّع العنبر الأمامي بإزالة بعض غرف الإدارة. خُصّصت تلك المنطقة كلها لشحن حمولات لإمارة البحر. يبدو أن شائعات تثبيت ستة مدافع على متن السفينة في ذلك الوقت، لا أساس لها من الصحة. في 24 أيلول/ سبتمبر 1914، تلقت شركة الشحن نصيحة بأن لا تكون السفينة احتياطاً للبحرية الملكية، وأن تحمل بضائع فقط لإمارة البحر بين الولايات المتحدة وبريطانيا، ويفترض المرء أن هذا يعني نقل عتاد ومعدّات عسكرية أخرى، أو بكلمات أخرى مواداً محظورة. كتب ألفرد بوث؛ رئيس مجلس إدارة كونارد لاين عن هذا: «بالجوهر، تلقيت أمراً بأن أصبح مهرّباً رفيع المستوى من أجل المصلحة الوطنية».



حفل استقبال للجنرال بيرشينغ على مرسى في بولونيا.



السفير الأمريكي بيج، وعضو البرلمان البريطاني اللورد دارلينغ، والجنرال البريطاني فرنش في أثناء استقبال بيرشينغ.

يؤكّد هذا أن رأي الألمان القائل إن لوسيتانيا لم تكن مجرد باخرة ركاب عادية، وإنما سفينة تساعد البحرية الملكية، ليس جزافاً. يستند الجزم بتسليحها على حقيقة أن البحرية الملكية أمرت بتخصيص اثني عشر مدفعاً من عيار ست بوصات لـ لوسيتانيا، إنما من دون أن تُثبّت على متنها، بعد صدور قرار في اللحظة الأخيرة بعدم استخدام السفينة للدعم العسكري.

كان الألمان محقّين في توكيدهم أن السفينة حملت موادّاً محظورة، أو بكلمات أخرى أسلحة لشن حرب ضد ألمانيا. عُرف أن السفينة كانت تحمل 1248 صندوقاً (أكّدت الجمارك الأمريكية لاحقاً أنها 1250) يحتوي كل منها على أربع قنابل متشظّية – زنة الواحدة 1.25 رطلاً تقريباً – لمدافع بريطانية يستخدمها سلاح الفرسان الملكي، بإجمالي يصل إلى 5000 قذيفة ووزن 6250 رطلاً. كانت القنابل مزوّدة بصمام توقيت مملوء فلمنات الزئبق شديد الانفجار.

إضافة إلى 5000 قنبلة، كانت لوسيتانيا تحمل أيضاً صناديق أخرى من الذخائر، ومعدّات عسكرية، ومتفجّرات متجهة إلى الجيش البريطاني. من وجهة نظر ألمانية، عُدّت سفينة معادية (بريطانية)، وجزءاً من البحرية الملكية، تنقل أسلحة وذخيرة من بلد محايد إلى بريطانيا لاستخدامها في الحرب ضد ألمانيا. شعر الألمان، لهذا السبب، بأن إغراق السفينة سيكون مبرراً.

بشأن قضية عدم تصرّف قائد يو–بوت الألمانية وفقاً لقواعد الاشتباك، أصرّت الحكومة الألمانية على أن ذلك بات ضرورياً بعد القرار البريطاني بتسليح السفن التجارية، وأشاروا

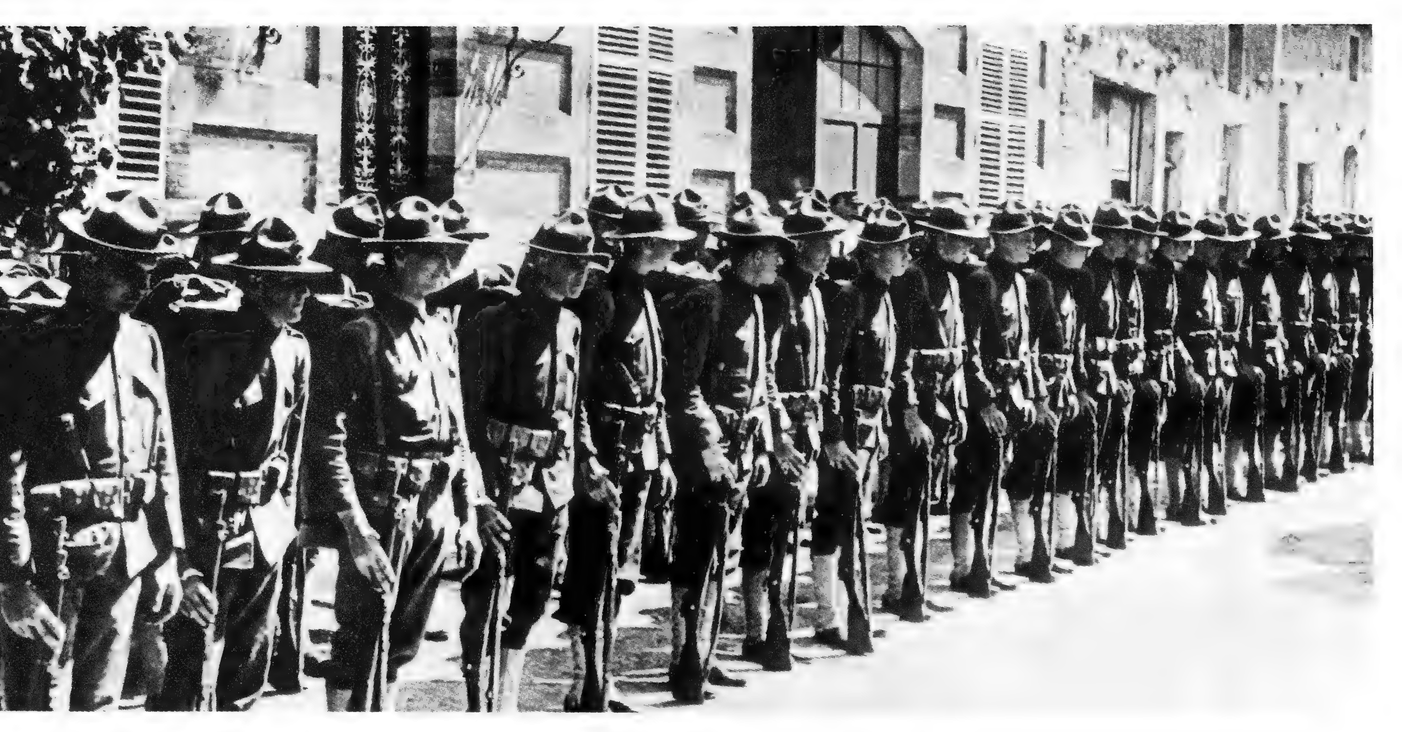


أيضاً إلى حقيقة أن حكومة الولايات المتحدة سمحت لتلك السفن التجارية المسلّحة بدخول موانئها المحايدة، و لم تستنكر الحصار البريطاني غير الشرعي.

لقد أصدر تشرشل فعلاً أوامر بتسليح السفن التجارية، وأن يتجاهل قباطنتها أوامر من يو-بوت الألمانية بالتوقف. كان عليهم الإبحار بأقصى سرعة ممكنة نحو الغواصات في محاولة لإغراقها أو تدميرها بمدافعهم. أكّد تشرشل أيضاً أن تسليم القباطنة سفنهم إلى العدو سيعرّضهم إلى محاكمة عسكرية بوصفهم مخرّبين. كان الألمان يعرفون جيداً هذا الأمر، فقد وقعت نسخة

سارت طليعة الجنود الأمريكيين في باريس في 5 تموز/ يوليو 1917.





جنود بحرية أمريكية يستعدون للمغادرة إلى الجبهة، 18 آذار/ مارس 1918.

منه في أيديهم حين أوقفوا بن كروشان في 30 كانون الثاني/ يناير 1915 قبل إغراقها. أدّت تلك التعليمات إلى عدم تقيّد الألمان بقواعد الاشتباك بعد ذلك.

قدّم الألمان وجهة نظر سديدة أيضاً، حين زعموا أن الحصار الاقتصادي البريطاني يعدُّ خرقاً للقانون الدولي. صحيحٌ أن البريطانيين لم يصادقوا على إعلان لندن لعام 1909 الذي نظّم القانون الدولي لفرض الحصار، إلا أنهم وقّعوا على معاهدة باريس في 1856 التي حدّدت قواعد فرض مثل هذا الحصار، ونالت اعترافاً عالمياً. كانت حكومة الولايات المتحدة توافق أيضاً على أن البريطانيين يخالفون القانون الدولي باحتجاز سفن محايدة، ومصادرة حمولاتها، وتعترض على النطاق الواسع لما يعدّونه مواد محظورة. كان تخلّي الألمان عن الالتزام بقواعد الاشتباك مخالفاً أيضاً للقانون الدولي.

اقترحت حكومة الولايات المتحدة على كلا الطرفين أن يلتزم الألمان مجدّداً بقواعد الاشتباك، وأن يسمح البريطانيون للسفن المحايدة بنقل مواد غذائية مخصّصة للسكان المدنيين في ألمانيا. قبلت ألمانيا هذا الاقتراح، إنما رفضه البريطانيون، ليبقى الوضع على حاله. برغم أن حكومة الولايات المتحدة احتجّت فعلاً، إلا أنها لم تفعل شيئاً عملياً، ويعزى هذا أساساً إلى رغبتها – وعينها على المستقبل – بعدم الإساءة إلى علاقتها مع الحلفاء.

برغم أن ألمانيا قدّمت الحجة الأقوى، إلا أن استهدافها لسفينة ركاب بطربيد قلَبَ الرأي العام الأمريكي ضدها. مرة أخرى، لم يقطع الرئيس ويلسون العلاقات الدبلوماسية معها برغم الضغط القوي من الصحافة والجمهوريين. يجب النظر إلى الهجوم بالطربيد على أنه نقطة تحوّل، وأحد الأسباب التي دفعت أمريكا لخوض الحرب إلى جانب الحلفاء في نيسان/ أبريل 1917. حدّد اشتراك أمريكا في الصراع مصير ألمانيا، وأدّت وفاة 128 مواطناً أمريكياً إلى سقوط الرايخ الألماني في نهاية المطاف.



الشقيقان مكدونالدز في أثناء تدريب.

برقية زيمرمان، القشّة الأخيرة

غيّر الهجوم بالطربيد على الباخرة لوسيتانيا المزاج العام في الولايات المتحدة الأمريكية نحو ألمانيا، إنما لم يدفع أمريكا نحو الحرب فوراً. أثار استئناف حرب الغواصات ومحاولة لتأليب المكسيك ضد الولايات المتحدة انزعاجاً كبيراً، وعُدّا مسؤولين مباشرة عن قرار الرئيس ويلسون خوض الحرب إلى جانب الدول الحلفاء.

ما السبب؟ كان هناك صراع ضمن الحكومة الألمانية بشأن استئناف حرب الغواصات من دون قيود. عارض المستشار الألماني بتمان هولفيغ الأمر بقوة، وبدا مقتنعاً أن ذلك سيدفع الأمريكيين إلى خوض الحرب. كان رأي زيمرمان؛ الذي بات وزيراً للخارجية بدلاً من ياغو في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916، مختلفاً تماماً. اتفق مع هيندنبورغ ولودندورف وإمارة البحر الألمانية أن حرباً شاملة باستخدام الغواصات قد تُنهي الحرب في 1917، وقلّلوا من احتمال تدخّل الولايات المتحدة.



قبل الذهاب إلى الجبهة، تلقّى الجنود الأمريكيون الأغرار تدريباً مدته شهران في فرنسا.

قد لا يبدو هذا غريباً من الوهلة الأولى؛ لأن الجيش الأمريكي في ذلك الوقت كان صغيراً و لم يظنّوا أنه يستطيع حشد قوة كبيرة، وتدريبها، ونقلها إلى أوروبا في وقت قصير. بحلول وقت إنجاز ذلك، ستكون ألمانيا قد انتصرت بالتأكيد في معارك يو-بوت، ما جعل استئنافها خياراً منطقياً لإنهاء الحرب بسرعة.

أعلنت ألمانيا في 1 شباط/ فبراير، عن استئناف عمليات الغواصات من دون قيود، ما دفع الولايات المتحدة إلى حافة الحرب. في 3 شباط/ فبراير، أعلن الرئيس ويلسون أن حكومة الولايات المتحدة قد قطعت العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا، إنما من دون اتخاذ قرار بخوض الحرب. دفعته برقية بسيطة فوق تلك الحافة، وجعلته يتخذ القرار النهائي بالانضمام إلى الحلفاء. في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر، أرسل زيمرمان برقية إلى سفيره إيكارت في المكسيك يطلب فيها التوثّق من رغبتها بعقد تحالف مع ألمانيا. كان الجواب الذي تلقّاه إيجابياً بنحو كافٍ ليرسل برقية إلى إيكارت في 19 كانون الثاني/ يناير 1917:





أفراد الفوج الأمريكي 307 يسيرون نحو فارنشون على أنغام فرقة موسيقية عسكرية بريطانية.

«ننوي البدء بأعمال قتالية باستخدام الغواصات في الأول من شباط/ فبراير. سنسعى برغم هذا إلى إبقاء الولايات المتحدة الأمريكية محايدة. في حال لم ينجح الأمر، سنقدّم للمكسيك اقتراحاً أو تحالفاً على الأساس الآتي: خوض الحرب معاً، وتحقيق السلام معاً، ودعم مالي سخي وتفهّم من طرفنا لحق المكسيك في استعادة الأراضي التي قد خسرتها في تكساس، ونيومكسيكو، وأريزونا. سأترك إنجاز تفاصيل التسوية لك. ستبلغ الرئيس بالمعلومة السابقة السرية جداً حين تصبح الحرب مع الولايات المتحدة أمراً واقعاً، وأن تضيف اقتراحاً بأن عليه دعوة اليابان، بناءً على مبادرة منه، للانضمام فوراً إلى الحلف، والتوسّط في الوقت نفسه بيننا وبين اليابانيين. أرجو أن تلفت انتباه الرئيس إلى حقيقة أن استخدام غواصاتنا بنحو شامل قد يؤدّي إلى إرغام إنكلترا على طلب السلام في بضعة شهور فقط». التوقيع زيمرمان.

ما لم يعرفه زيمرمان أن الاستخبارات البريطانية كانت تعترض بنجاح البرقيات الدبلوماسية

الألمانية وتفك شِفرتها منذ بعض الوقت. في 24 شباط/ فبراير، سُلّمت نسخة من برقية زيمرمان إلى والتر بيج؛ السفير الأمريكي في لندن، الذي أرسلها فوراً إلى واشنطن. كانت تلك هي القشّة التي قصمت ظهر البعير، وفي 20 آذار/ مارس 1917، قرّر الرئيس الأمريكي انضمام بلاده إلى الحلفاء. أُعلنت الحرب في 2 نيسان/ أبريل، وذهبت فرص ألمانيا للانتصار فيها أدراج الرياح.

الفعل الأخير: الولايات المتحدة الأمريكية تعلن الحرب

انقلب الرأي العام الأمريكي بحدّة ضد الألمان بعد استهداف لوسيتانيا وساسكس بطربيدات. كانت برقية زيمرمان القشّة الأخيرة التي قصمت ظهر البعير، وأقنعت الرئيس ويلسون بأن الوقت قد حان؛ لأن الشعب الأمريكي لم يعد يعارض المشاركة في الحرب إلى جانب الحلفاء. اتخذ آنذاك القرار بجعل الولايات المتحدة تخوض الحرب.

في 2 نيسان/ أبريل 1917، خاطب الرئيس الكونغرس مقترحاً إعلان الحرب ضد ألمانيا. قال الرئيس الكلمات الآتية: «برغم الإحساس العميق بالأسى وحتى الصفة المأساوية للخطوة



جنود أمريكيون في خيمتهم في أثناء تدريب في فرنسا.



جنود أمريكيون يتدرّبون على القتال بالحراب. التُقطت الصورة في 3 آب/ أغسطس 1918.

التي أُقدم عليها والمسؤوليات الجسيمة التي تنطوي عليها، لكن التزاماً مني من دون تردّد بما أعدّه واجبي الدستوري، أنصح بأن يعلن الكونغرس بأن المنهج الحالي لحكومة ألمانيا.

الإمبريالية لا يمثّل في الواقع أقل من حربٍ ضد حكومة وشعب الولايات المتحدة، وأنها تتصرّف رسمياً مثل دولة عدوانية تحاول فرض إرادتها علينا، وأن الأمر يتطلّب القيام بخطوات فوريّة لا لوضع البلاد في حال دفاع شامل فقط، إنما لبذل كل قوّتها وطاقتها وتوظيف مواردها لجعل حكومة ألمانيا الإمبريالية تخضع للأمر الواقع وإنهاء الحرب أيضاً». أعلن الرئيس أن الولايات المتحدة ستحشد فوراً كل طاقاتها لإرغام ألمانيا على إنهاء الحرب وإحلال السلام.

أيّد الكونغرس الأمريكي بالإجماع الرئيس حين أعلن الحرب رسمياً ضد ألمانيا في 2 نيسان/ أبريل. كانت الإمكانيات الضخمة للقوى البشرية والقدرة الصناعية الأمريكية ستقف كلها آنذاك خلف الحلفاء ضد ألمانيا، ما حدّد مصيرها في المستقبل. بعد اثني عشر شهراً من خطاب ويلسون أُرغمت ألمانيا على الجنوح إلى السلم وإنهاء الحرب، إلا أن ذلك لم يضع حداً لمعاناة الشعب الألماني. لم تجلب معاهدة فرساي التي كرّست ذلك «السلام» الأمن المنشود، إنما زرعت بذور حرب عالمية ثانية أكثر فظاعة فقد فيها ملايين الأشخاص حياتهم. «التاريخ يكرّر نفسه»، ولن تكون الحرب العالمية الثانية نهاية كل الحروب في العالم.



النهاية
«سلام من دون منتصرين»، مجرّد وهم

الثورة الروسية

أدّت الحرب إلى تنامي مستويات الاضطراب في روسيا، وجعلت الخسائر الكبيرة، والجوع المتزايد، وغياب القيادة في الداخل وعلى الجبهة، الشعبَ أكثر تمرّداً. تعرّض القيصر، الذي قد تولّى قيادة القوات الروسية برغم عدم كفاءته لتلك المهمة، لنوبات يأس متكرّرة. خضعت زوجة القيصر لنفوذ المستشار المؤتمن على الأسرار، الراهب المعروف باسم راسبوتين، الذي استغلّها لمحاولة تدمير أعدائه. تضاءلت الثقة بالبلاط، وأذعن القيصر لكل ما طلبته زوجته تقريباً.

قَتَل أرستقراطيان، هما الأمير رومانوف والأرشدوق ديمتري، راسبوتين عشيّة عيد الميلاد في 25 كانون الأول/ديسمبر 1916، بما يتفق مع إحدى توقّعات الراهب، الذي تنبأ أيضاً بسقوط القيصرية. تحقّق الجزء الثاني من توقّع راسبوتين، بعد عشرة أسابيع فقط، حين تنازل القيصر عن العرش، واشتعلت ثورة في البلاد.

أبقت الحكومة الألمانية قنوات اتصال مفتوحة منذ بداية الحرب في 1914 مع شيوعيين روس عاشوا في المنفى، خاصة في سويسرا. كان بينهم لينين؛ أهم قائد شيوعي. وقد جهّز نفسه للعودة إلى روسيا، في الوقت الملائم.



ملصق روسي يدعو الناس للحصول على قروض حربية بفائدة 5.5%



القيصر مع القائد العام الروسي الأرشدوق نيكولاس، الذي عزله لاحقاً ليتولّى قيادة قواته بنفسه في 1917.



الجنرال سوخوملينوف؛ وزير الحرب الروسي الأسبق، الذي حوكم لاحقاً بتهمة الفساد.

في ربيع 1917، بات الوضع في روسيا خطراً جداً. حذّر مايكل رودشانكو؛ رئيس الدوما أو البرلمان الروسي، القيصر أن وجوده ضروري جداً، وأن الأمور قد تخرج عن السيطرة. لكن العاهل الروسي تجاهل تماماً هذا النداء العاجل، و لم يعره اهتماماً. في بداية شباط/فبراير، اندلعت أعمال شغب واسعة النطاق في سانت بطرسبرغ، طالب الناس فيها بالطعام، ونهبوا المحال التجارية. أرسل القائد المحلي جنوداً قوقازيين للتعامل مع الحشود، لكن هؤلاء رفضوا القيام بأي شيء، وشاركوا في بعض الحالات في عمليات السلب.

تكرّرت الاضطرابات بعد عدّة أسابيع ومات فيها 250 من مثيري الشغب، حين أطلقت الشرطة النار عليهم، ومرة أخرى لم يساعد الجيش الشرطة. رفض فوجان من الحرس كُلّفا بتقديم الدعم إطاعة الأوامر. وفي تلك اللحظة، تولّى الشعب في سانت بطرسبرغ السلطة بنفسه، وبدأت الثورة تترسّخ. فُتحت السجون وأُطلق سراح السجناء السياسيين، وأُشعلت النار في قلعة بيتر وبول، وجرت عمليات نهب على نطاق لا مثيل له. انتشرت الثورة مثل نارٍ في الهشيم، وأبلغ وزيرُ الحرب القيصرَ أن أفواجاً ووحدات عديدة قد تمرّدت.

في 27 شباط/ فبراير، أرسل رئيس الدوما رسالة عاجلة إلى القيصر أبلغه فيها أن القيصرية ستنهار، إذا لم يعد إلى سانت بطرسبرغ لتولّي القيادة، لكن القيصر لم يزعج نفسه حتى بالرد. لم تدفعه حتى تقارير أخرى عن اتساع نطاق التمرّد إلى أفواج أخرى، إلى فعل شيء، وتجاهل كل صرخات المساعدة تلك؛ كأنها لم تكن موجودة. بات الوضع على حافة الانفجار، و لم يمتنع الجيش عن اتخاذ

البطل الروسي الرقيب تشيينكو من الجيش السيبيري الخامس، الحائز خمس مرات وسام سانت جورج؛ أعلى وسام يُمنح لصف ضباط في الجيش الروسي.

قطار محمّل بثوّار مؤيدين لـ لينين أُرسلوا إلى الجبهة يصل إلى كييف، حيث أُعدم معظمهم.



بعد اندلاع الثورة الروسية حدثت حالات فرار جماعي من الجبهة. هنا سيطر جنود جرحى على قطار لينقلهم إلى الوطن بعد هروبهم من غاليسيا.



جنود بلشفيون في كرونستات في 1917. قائد الفوج السادس والخمسين يتكلم إلى الجنود.

أي إجراء فقط، إنما على العكس، رفض الجنود إطاعة أوامر رؤسائهم، وشاركوا في عمليات النهب، وساعدوا الثائرين. لقد اندلعت ثورة وانتشرت في البلاد بسرعة البرق. طلب القيصر، بعد أن فهم أخيراً أن الأمور أسوأ مما قد تخيّل، المشورة من رئيس الدوما، وقد نصحه هذا، بالتنازل عن السلطة. كان الشعب قد أشعل ثورة، والجيش تمرّد، في حين كوّن العمّال والجنود في كل مكان مجالس تولّت السلطة، و لم يكن هناك شيء يستطيع القيصر فعله، باستثناء التخلّي عن العرش. في 16 آذار/ مارس، وقّع على وثيقة التنازل لمصلحة شقيقه مايكل، وبات في قيد الاعتقال.

تخلّى خليفته أيضاً عن حقّه بالعرش في اليوم نفسه، وبات وزير العمل كيرنسكي رئيساً

للحكومة الثورية المؤقتة، الذي قرّر مواصلة الحرب إلى جانب الحلفاء. بدا أن النظام قد استتبّ، لكن في الواقع كانت الأمور مختلفة تماماً. انضمّ القيصر إلى زوجته وأولاده في قصر تسارسكوي سيلو حيث احتُجزت الأسرة القيصرية، وتعرّضت إلى إذلال كبير.

نقل هؤلاء بعد بعض الوقت إلى يكيترنبورغ حيث قُتلوا بوحشية في ليلة 16–17 تموز/ يوليو 1918. انتهت بذلك سلالة آل رومانوف الموغلة في القدم قروناً.

روسيا تنسحب من الحرب

راقب الألمان الأحداث في روسيا باهتمام كبير، وظنّوا أنه يمكن عقد اتفاق مع الحكومة الروسية المؤقتة، لكن عندما تبيّن أن كيرنسكي يريد مواصلة الحرب، قرّروا مساعدة الثورة.



بدأت الثورة في سانت بطرسبرغ بالنار والدمار. هنا ضحايا يُدفنون في 3 أيار/ مايو 1917.



تكوّنت مجالس للجنود في أثناء الثورة. هنا اجتماع أحدها في سانت بطرسبرغ.



وقت اضطراب كبير. جندي يقرأ أحد البيانات الكثيرة للجنود.

منحوا لينين إذناً بالسفر إلى روسيا من أجل تقوية المجموعات المتشدّدة. في 9 نيسان/ أبريل 1917، غادر لينين وفريقه المكوّن من ثلاثين شخصاً مخلصاً له على متن قطار خاص من زيوريخ إلى سانت بطرسبرغ، حيث وصلوا في السادس عشر. استُقبل بحماس، وقد تولّى منذ العام التالي حتى وفاته في 1942 قيادة الدولة السوفييتية الجديدة.

لكن هذا خاص بالمستقبل. أصبح كيرنسكي وزيراً للحرب في الحكومة الجديدة، وأمر من منصبه ذاك الجنرال بروسيلوف بشنِّ هجوم جديد. كانت تلك هي بداية النهاية. في 1 حزيران/ يونيو 1917، هاجم بروسيلوف القوات الألمانية والنمساوية – المجرية في جبال كاربات بخمس وأربعين فرقة. في أسبوع تقدّمت قواته نحو تسعة عشر ميلاً، وبدا العمل



زار رئيس الوزراء الروسي كيرنسكي، الذي كان وزيراً للحرب، الجبهة في 12 أيلول/ سبتمبر1917 بعد تخلّي القيصر عن العرش في 27 آذار/ مارس، واستلام لينين السلطة في نيسان. كيرنسكي في الوسط يشير بإصبعه.

ناجحاً جداً، لكن الروس توقفوا بعد ذلك وفقد الهجوم زخمه تماماً. رفض جنوده الالتزام بالأوامر، وفرَّ كثير منهم وذهبوا ببساطة إلى منازلهم. فاستعاد الألمان بسرعة الأراضي التي خسروها. استُدعي بروسيلوف وكُوّنت حكومة مؤقتة جديدة، برئاسة كيرنسكي مجدداً. فقدت حامية سانت بطرسبرغ الثقة بالحكومة المؤقتة، واستولى لينين على السلطة. كوّن مجلساً لمفوّضي الشعب، وأعلن أنه يريد إنهاء الحرب، حتى إذا كان هذا يعني خسارة أراضٍ روسية. عيّن لينين ليون تروتسكي، الذي قد نُفي إلى أمريكا في أثناء تولّي القيصر السلطة، إنما عاد إلى روسيا في شباط/ فبراير، مسؤولاً عن العلاقات الخارجية. اتصل بالألمان وعرض سلاماً منفصلاً معهم، وعُقدت محادثات بهذا الشأن في برست–ليتوفسك، لكن تروتسكي عدَّ المطالب الألمانية غير مقبولة. أعلن من طرف واحد آنذاك أن الحرب مع قوى المحور قد انتهت، وتوقّع أن تقبل ألمانيا هذا، لكن القائد العام الألماني أمر بمواصلة الحملة على الأراضي الروسية، فتغلغلت قوات ألمانيّة بسرعة داخل روسيا.

مقابل: أمر كيرنسكي الجنرال بروسيلوف في 1 حزيران/ يونيو 1917 بشنّ هجوم جديد ضد الألمان. يظهر هنا جنود روس مستعدون للهجوم الكبير النهائي. حقق الهجوم في البداية نجاحاً كبيراً، وتقدّم نحو تسعة عشر ميلاً، لكن الجنود رفضوا بعد ذلك مواصلة القتال، فتوقفت الأعمال القتالية.





في تقدمهم نحو تارنوبول انتقل الجنود الروس من حفرة قذيفة إلى أخرى، وتعرّضوا لقنابل متشظّية من عيار ست بوصات وثمانٍ، التي قتلت الكثير منهم.

مفاوض روسي يُنقل معصوب العينين إلى مقر القيادة الألماني.



... ويُستقبل هناك لمناقشة هدنة.



النهاية قريبة. تروتسكي يصل إلى برست–ليتوفسك لإجراء محادثات سلام مع الألمان.



الغرفة في يكتيرنبورغ حيث أمضت زوجة القيصر أيامها الأخيرة محتجزة قبل أن تُقتل وأسرتها بوحشية.



شيّد البلشفيون سوراً حول فيلا يكتيرنبورغ لمنع أي تواصل مع العالم الخارجي.



الغرفة التي احتُجزت فيها بنات القيصر قبل أن يُقتلن بوحشية في ليلة 16-17 تموز/ يوليو.

تدخّل لينين آنذاك، وأمر بإنهاء القتال بأي ثمن. هكذا وضعت الحرب بين ألمانيا وروسيا أوزارها أخيراً في 3 آذار/ مارس 1918. خسرت روسيا ثلث أراضيها لألمانيا، وبات تسعون في المئة تقريباً من كل مناجم الفحم الروسيّة في أيدي الألمان آنذاك، مع ثلث الأراضي الزراعية ونحو نصف الصناعة الروسية.

ابتهج الألمان بذلك، ونقلوا بسرعة قواتهم من الجبهة الشرقية إلى الغربية على أمل جعل الكفّة تميل لمصلحتهم. نعرف الآن طبعاً، أن هذا لم يكن مفيداً؛ لأن الجنود الذين نُقلوا أصابتهم كما يبدو عدوى الثورة الروسية التي انتشرت بينهم. ظهر آنذاك خصم جديد أيضاً على الجبهة هو الولايات المتحدة الأمريكية، وانتهت بذلك فرص ألمانيا في الانتصار بالحرب.

الهجوم الألماني في آذار/ مارس 1918
محاولة واحدة أخيرة

في آذار/ مارس 1918 استؤنفت الحرب على كل جبهة باستثناء الشرقية مع روسيا، حيث أنهت الثورة الروسية الأعمال القتالية مع ألمانيا. في الغرب، كان الحلفاء مرهقين وحاولوا تفادي أي معارك واسعة النطاق، وانتظروا الوقت الملائم ليصبح الأمريكيون، الذين دخلوا الحرب آنذاك، أقوياء كفاية لتحقيق انعطافة إيجابية في الصراع. توقّع الجميع استمرار الحرب في 1919، و لم تكن الأحداث قد حُسمت بعد لمصلحة الحلفاء.



كان خوض الحرب خارج إمكانيات ألمانيا في 1918، وحاولت الحكومة جمع الأموال الضرورية لمواصلة القتال عبر قروض حربية.

قام الألمان بعدّة محاولات لإجراء محادثات مع الحلفاء. بذل البابا أيضاً جهداً للتوسّط، إنما من دون نتيجة مجدداً.

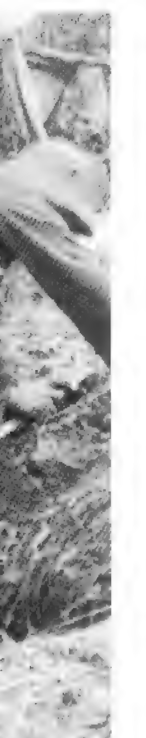
في كانون الأول/ ديسمبر 1916، أجرى الرئيس ويلسون محاولة لعقد مباحثات سلام، لكن الحلفاء رفضوا ذلك.

أوضح هذا أن ألمانيا لا تستطيع الاعتماد على أي حسن نيّة تجاهها من الحلفاء. لقد غيّر قرار أمريكا خوض الحرب الوضع لمصلحة هؤلاء، لذا لم تكن اللحظة ملائمة للحديث عن السلام. فهم القائد العام الألماني هذا أيضاً، وقرّر المجازفة بكل شيء بخوض معركة حاسمة نهائية، قبل وصول أعداد ضخمة من القوات الأمريكية، التي ستبدّل ميزان القوى وتجعل فرض سلام لمصلحة ألمانيا مستحيلاً.

تعدُّ هذه الأسباب الدافع إلى حد كبير خلف شنِّ هجوم آذار، الذي كان يهدف إلى منح ألمانيا نصراً سريعاً. جادلت رئاسة الأركان الألمانية أنه:



قرّرت ألمانيا شنَّ هجوم كبير أخير في آذار/ مارس 1918 لجعل الكفّة تميل لمصلحتها. جنود ألمان في طريقهم إلى الجبهة في آذار/ مارس 1918.





معسكر لجنود ألمان قرب تمبلو، آذار/ مارس 1918.



تفقّد نهائي آخر من قبل المشير هيندنبورغ.



عملية مايكل تبدأ: جنود قوات خاصة من الجيش الثامن الألماني يشنّون الهجوم.

- يُتوّقع ألا تتوافر قوات أمريكية بأعدادٍ كبيرةٍ قبل صيف 1918.
- عدد الجنود الألمان على الجبهة الغربية أكثر من جنود الحلفاء.
- يمكن نقل مليون جندي من الجبهة الشرقية إلى الجبهة الغربية لتحقيق تفوّق أكبر.

كانت تلك حججاً عسكرية منطقية لشنِّ هجوم، وقد أيّدها موقف سياسي أكّد تنامي الاضطراب في ألمانيا من نقص الغذاء، ما قد يؤدّي إلى المطالبة بإنهاء الحرب.

العملية مايكل تبدأ

لم يكن الهجوم، الذي سُمّي عملية مايكل، مباغتاً للحلفاء مثل رعد في سماء صافية، إنما أدهشهم نطاقه الواسع.

تدرّب مئات آلاف الرجال، ونُقلت إمدادات وجنود إلى الجبهة طوال عدّة شهور، وجُهّزت مواقع، وخنادق وملاجئ، وكميات ضخمة من الذخائر من دون أن تثير انتباه العدو. جرت كل التحرّكات في الليل، في حين بدا كل شيء هادئاً في النهار، وقد توارى الجنود الجدد

جنود القوات الخاصة يهاجمون العدو.



مدفع ميدان ألماني عيار 77 ملم (3 بوصات) يُحرّك إلى الأمام لمهاجمة أيبر القريبة.

مقابل: جنود بريطانيون منسحبون في بيكاردي.





مشاة بريطانيون يتراجعون قرب أفيلاي.

عن الأنظار قدر المستطاع في الغابات. أحياناً، عند تعرّضهم لخطر اكتشاف أمرهم، كانوا يسيرون بعض الوقت بعيداً عن الجبهة قبل أن يعودوا مع حلول الظلام.



مخزن ذخيرة غنموه من البريطانيين.



لم يقع كل شيء في أيدي الألمان. جنود بريطانيون ينقلون مخزن ذخيرة قبل الانسحاب.

كانت خسائر الحلفاء مرعبة، وبدا مستحيلاً معالجة الجرحى. مستشفى ميداني.

جرحى بريطانيون ينتظرون نقلهم.



دفع البريطانيون كل شيء في الدفاع. مدفع ميداني زنة قنابله ثمانية عشر رطلاً يدافع عن سانت ألبرت في 28 آذار/ مارس 1918.



وجد الألمان صعوبة في التقدّم عبر تضاريس وعرة.



ساحة معركة آرمنتير بين 9 و 11 نيسان/ أبريل. هاجم الألمان البلدة من هذا الموقع.



جرحى من الفرقة الجبلية الحادية والخمسين في طريقهم إلى نقطة طبية ميدانية خلف الجبهة.



جنود جرحى بريطانيون في مركز إسعاف في ميرفيل التي وقعت في أيدي الألمان ذلك اليوم (8 نيسان/ أبريل 1918).

كان تدريب القوات الخاصة شاملاً تماماً، و لم يغفل شيئاً. بات كل شيء جاهزاً أخيراً للمعركة في 21 آذار/ مارس 1918، ويمكن إعطاء إشارة البدء بعد أن ينقل الجنرال لودندورف مقر قيادته إلى آفن. استعدّت ثلاثة جيوش للتحرّك: الثاني بقيادة الجنرال فون مارنيتز، والسابع عشر بإمرة فون بيلوف، والثامن عشر بقيادة الجنرال هوتير، تضم إحدى وسبعين فرقة.

أطلقت آلاف المدافع وثلاثة آلاف هاون النار عند الخامسة صباحاً، واستهدفت المنطقة

جنود بريطانيون يدافعون عن القناة في ميرفيل، 8 نيسان/ أبريل 1918.



مدفع ميداني بريطاني على جسر فيرمونت.



خيول تجرُّ عربة ذخيرة قتلتها قذيفة مدفعية.

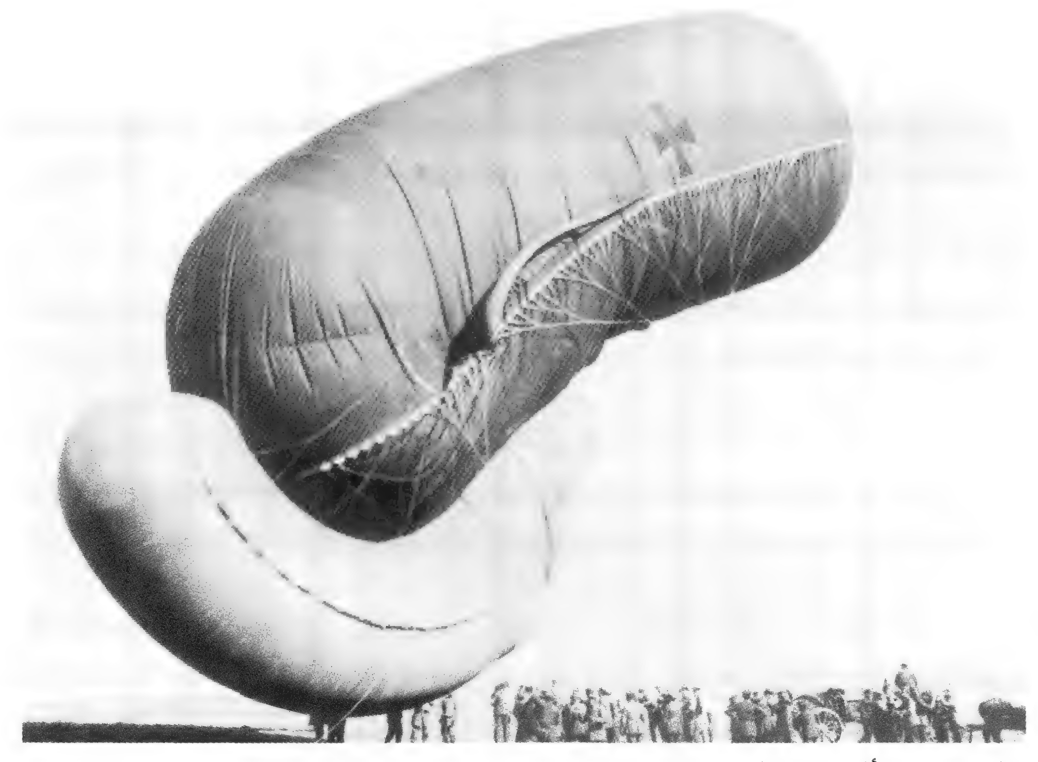


مدفع مارك السابع عيار ست بوصات في غوسترين في 23 نيسان/ أبريل 1918.





رتل نقل ألماني في طريقه إلى الجبهة يتجاوز أسرى حرب بريطانيين جالسين ينتظرون نقلهم إلى المؤخرة.



منطاد مراقبة مدفعية ألماني يرتفع في الهواء.

مقابل: ازداد عدد الجرحى.



جنود ألمان ينتقلون إلى الجبهة على متن عربات سككية صغيرة.

بين لافيري وأراس أربع ساعات قبل أن يغادر المشاة خنادقهم ويبدؤوا الهجوم. قضت الخطة بتقدّم الجيش السابع عشر نحو بابوم قبل أن ينحرف شمالاً إلى أراس. وضع الجيش الثاني بيرون نصب عينيه، على أن يتجه بعد الاستيلاء على ذلك المكان شمالاً نحو دولنس. كانت المهمة الرئيسة للجيش الثامن عشر هي التقدّم نحو السوم لحماية الجناح الأيمن للجيشين السابع عشر والثاني من هجمات مضادة فرنسية. أراد لودندورف بهذه الطريقة تحقيق اختراق قبل اجتياح الجبهة، وإرغام البريطانيين على التراجع نحو ساحل القناة وتهديد باريس على الطرف الآخر، من ثمّ فصل قوات الحلفاء عن بعضها بعضاً، قبل تدميرها.

كان البريطانيون يعانون ضعفاً في ذلك الوقت. أُسندت مهمة الدفاع عن القطاع الشمالي للجيش الثالث البريطاني بقيادة الجنرال بينغ (14 فرقة)، في حين تولّى الجيش الخامس بإمرة الجنرال غوف المواقع البريطانية إلى الجنوب من ذلك. جنوباً وضع البريطانيون الجيش السادس الفرنسي بقيادة الجنرال دوشين.

مقابل: مواقع رشاشات بريطانية تنتظر العدو.





مشاة ألمان يهاجمون قناة أيسن في أيار/ مايو 1918.

مشاة ألمان يقطعون طريقاً تتعرّض لنيران بريطانية.



جنود ألمان يندفعون إلى الأمام. مشاة ألمان يهاجمون قرب فيسن في 27 أيار/ مايو 1918.

كأس حليب طازج في أثناء استراحة من القتال عند سواسون، أيار/ مايو 1918.

حقّق الجيش الثامن عشر أسرع تقدّم بعد بدء الهجوم الألماني. أبدى الجيش الثالث البريطاني مقاومة عنيفة، لكن الخطوط البريطانية الأمامية إلى الجنوب انهارت عند الظهر، وسقط الخط الثاني بحلول المساء. عدّل لودندورف آنذاك خطّته، ونقل الجهد الرئيس لهجومه إلى الجنوب. بحلول اليوم الثالث، اضطر الجنرال غوف إلى سحب قواته خلف السوم. تلقى هوتير آنذاك أمراً بالتقدم على كلا طرفَي السوم، ومهاجمة البريطانيين والفرنسيين معاً، في محاولة لتحقيق الانقسام المنشود. توجّهت القوات الألمانية نحو أراس في الشمال وأميان في الوسط، في حين تقدّم الجيش الثامن عشر نحو باريس. تعثّر الاختراق السريع بعد وقت قصير، ونجحت قوات احتياطية نُشرت بسرعة في صدّ الألمان قرب أميان، في حين أُرغم الجيش الثامن عشر الذي حاول الاختراق عند نويّون على التوقف، بسبب إرهاق جنوده وحاجتهم للراحة. في 4 نيسان/ أبريل، جرت محاولة أخرى للتقدّم عند أراس، إنما افتقر ذلك الهجوم إلى القوة الضرورية، وفي 5 نيسان/ أبريل، اضطر لودندورف إلى إيقاف المعارك.

محاولة ثانية والعملية جورج

عمل لودندورف آنذاك على وضع خطط لهجوم ثانٍ في 7 نيسان/ أبريل، ستحاول القوات بموجبها التقدّم نحو الشمال وجنوب آرمنتير. شنّت تسع فرق ألمانية هجوماً في 9 نيسان/



إستولى الألمان على كيميل قرب إيبر من الفرنسيين.



جندي ألماني يرمي قنبلة يدوية في أثناء القتال قرب سواسون.



جنود ألمان في خندق احتلوه من الفرنسيين على تلة كيميل.



جنود هندسة ألمان يجهّزون لمد سكّة حديدية نحو الخنادق البريطانية في أيبر ...



... التي استولوا عليها سريعاً.

أبريل، على آرمنتير، التي كان يدافع عنها أربع فرق برتغالية تهاوت نتيجة الضغط الألماني، وهرب أفرادها مذعورين. فُتحت ثغرة عرضها أربعة أميال تقريباً، تحرّك الألمان عبرها بسرعة. حقّق الهجوم إلى الشمال من البلدة نجاحاً أيضاً، وفي 11 نيسان/ أبريل، حاول الجيشان الالتقاء ببعضهما بعضاً.

بدا في صباح اليوم التالي أن الاختراق قد نجح فعلاً. أرسل هيغ تعزيزات، إنما لم تستطع تغيير الوضع. تجاهل فوش مناشداتهم بأن يهبَّ لنجدتهم، وأكّدت أوامر هيغ في ذلك اليوم أهميةَ الدفاع عن كل الساحل؛ لأن أي اختراق ألماني سيكون فادحاً. كُلّف الجنرال بلومر بالدفاع عن تلك المنطقة وأمر بتقليص عرض الجبهة، برغم أن ذلك كان يعني التنازل عن أراض سيطر عليها البريطانيون بعد تقديم آلاف الأرواح منهم، لكن الخطة نجحت. أُعيق التقدّم الألماني عبر تضاريس وعرة، وتعثّر أخيراً في 29 نيسان/ أبريل، حين أمر لودندورف



تعرّضت باريس لنيران المدفعية. أحد المدافع بعيدة المدى الألمانية التي أطلقت قنابل على باريس.

بإيقاف الهجوم. لقد خسر الألمان 350.000 رجل، والبريطانيون 305.000.

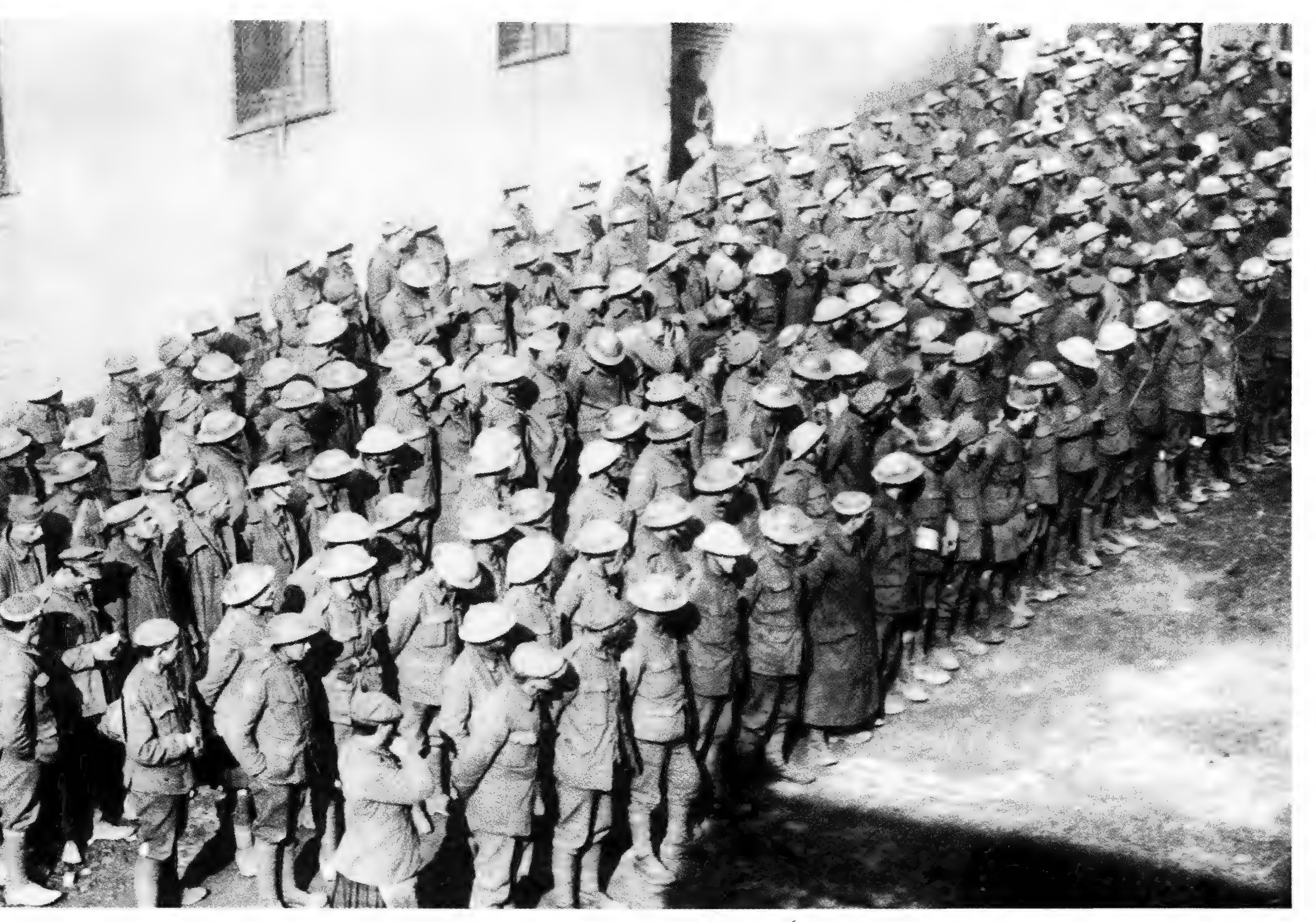
محاولة ثالثة مع خطة هاغن

مرّة أخرى، وجّه لودندورف جهده نحو القطاع البريطاني. كان واثقاً بأن البريطانيين قد ضعفوا كثيراً، وأن هجوماً واسع النطاق سينجح بالتأكيد. سُمّيت هذه العملية خطة هاغن. من أجل إبعاد أكبر عددٍ ممكن من الجنود البريطانيين والفرنسيين عن القطاع الشمالي، خطّط أولاً لشنِّ هجوم وهميٍ على شومان دي دام. إضافة إلى ذلك كان هناك هجوم سينفّذه الجيش الثامن عشر بقيادة هوتير، والجيش السابع بإمرة الجنرال بوهن، والجيش الأول بقيادة فون مودرا، وتضم مجتمعة إحدى وأربعين فرقة على جبهة طولها أكثر من 22 ميلاً بين أنيزي وبيري–أو–باك.

دافعت عن تلك المنطقة أربع فرق بريطانية وسبع فرنسية من الجيش السادس بقيادة



جنود مدفعية ألمان يثبّتون أغلفة القنابل للمدافع التي تستهدف باريس.



حشد من أسرى الحرب البريطانيين ينتظرون نقلهم بعيداً.

الجنرال دوشين. كان هدف لودندورف الاختراق من هناك إلى خط سواسون–ريمس، وقد أعدَّ جيداً للهجوم.

أطلق الألمان النار في 27 نيسان/ أبريل، باستخدام أربعة آلاف مدفع تقريباً أمطرت المواقع الفرنسية والبريطانية بنحو متواصل أربع ساعات. بعد ذلك بات القصف متقطّعاً وتقدّمت القوات الخاصة خلفه. حقّق الهجوم نجاحاً مدهشاً، ويعزى ذلك جزئياً إلى ضعف المواقع الدفاعية للجيش السادس الفرنسي.

اخترق المهاجمون الخطوط الفرنسية، وبات لديهم بحلول 30 أيار/ مايو، 45.000 أسير، وغنموا أكثر من 400 مدفع وآلاف الرشاشات. أسرعت تعزيزات إلى الثغرة واستطاعت تأخير الاندفاع الألماني. بعد الاستيلاء على شاتو تيري، نجحت قوات أمريكية في صدِّ الألمان. باتت



استُخدمت الكلاب أيضاً على الجبهة. هنا يجلب أحدها طعاماً إلى خط الجبهة.



محطة برق لاسلكية ميدانية ألمانية تعمل بوساطة مولّد يشغّله درّاجان.

باريس مهدّدة مباشرة آنذاك، ودبَّ الذعر بين الحلفاء. في 1 حزيران/ يونيو، استولى الألمان على مواقع تبعد نحو أربعين ميلاً عن باريس وأسروا 65.000 جندي. هُدّدت ريمس أيضاً، لكن الإمدادات أمست أكثر صعوبة وأُصيب جنودهم بالإرهاق. تأخّر التقدّم وقتاً أطول؛ لأن الجنود الألمان شُغلوا بنهب مخازن الحلفاء التي استولوا عليها ودلّلوا أنفسهم بالطعام والشراب، و لم ينفّذوا الأوامر. لم يعد بمقدور لودندورف توفير احتياطيات كافية أيضاً، وقرّر في 3 حزيران/ يونيو، إيقاف الهجوم، ومنح رجاله قسطاً من الراحة.

المحاولة الرابعة مع عملية جنيسينو

أمر لودندورف بشن هجوم جديد في 9 حزيران/ يونيو، وأسند المهمة مرة أخرى إلى الجيش الثامن عشر بقيادة هوتير، وإحدى عشرة فرقة على الجبهة، وسبع فرق احتياطية، تدعمها خمس مئة طائرة و625 سرية مدفعية. لم تكن تلك الفرق بكامل جاهزيتها بعد الخسائر التي مُنيت بها في هجمات سابقة، ولا تتمتّع غالباً بأكثر من نصف قوتها بوجود عدد كبير من المجنّدين الأغرار في صفوفها. كان وضع الغذاء حرجاً أيضاً، ولا يوجد علف للخيول

وإمدادات طعام المحاربين ضئيلة جداً. عانى كثير من الجنود الجوعَ، ما أدّى إلى سرقات واسعة النطاق وفرار أيضاً.

نفّذت الهجوم تسع فرق على جبهة طولها اثنين وعشرين ميلاً بين مونتديدي ونوين، ووصلت في ساعات إلى واز حيث اخترقت القوات المنطقة بين رولو وتيسكور عبر قطاع يمتد ستة أميال إلى الغرب من ميري. أرسل الفرنسيون تعزيزات استطاعت صدَّ المهاجمين. في 11 حزيران/ يونيو شنّوا هجوماً مضاداً، وأوقفوا التقدّم الألماني بتكلفة 40.000 رجل، في حين خسر الألمان 25.000. كانت هجمات الألمان قد أكسبتهم أراضٍ واسعةً ونحو 212.000 أسير حرب، إنما فشلت في فصل الجيشين الفرنسي والبريطاني.

المحاولة الخامسة، وعملية مارنسكوتز ومعركة ريمس

قرّر لودندورف القيام بمحاولة أخيرة وشنِّ هجوم حاسم. برغم تحذيرات بضرورة الانتظار حتى يستعيد جنوده قوّتهم ويرتاحوا قليلاً، أراد المجازفة بهجوم جديد. ظنَّ أنه يجب إنهاء الحرب في 1918 قبل أن يصبح الحلفاء أكثر قوة بوصول الجنود الأمريكيين، في حين سيصبح



نقطة مراقبة بريطانية قرب أيبر.



نقطة تجميع ضمّادات بريطانية حيث تُغسل لتُستعمل مجدداً.

جنوده أضعف حالاً، ولن يكون بمقدورهم مواصلة القتال. كانت لديه تسع وأربعون فرقة، وقد أصدر أوامر إلى الجيش السابع بقيادة الجنرال بوهن بعبور المارن إلى شرق شاتو تيري للاستيلاء على تيري–شامينوا. كُلِّف الجيشان الأول بقيادة فون مودرا والثالث بقيادة فون آينم بشنِّ هجومٍ شرق ريمس لاحتلال شالون سور مارن.

شعر لودندورف بتفاؤل كبير، وبدا واثقاً تماماً بنجاح الهجوم. أعلن أن تلك المعركة ستُلحق هزيمة نكراء بالحلفاء، وستمنح ألمانيا النصر الذي حاربت لتظفر به وقتاً طويلاً. يصعب فهم هذا التفاؤل نظراً إلى الضعف الكبير في قواته؛ فقد أفقدته الهجمات الأربع التي شنّها نصف مليون رجل تقريباً (95.000 قتيل)، و لم تعد لديه احتياطيات.

جلبت القوات التي جاءت من الجبهة الشرقية مشكلات عديدة معها. كان انضباط الجنود ضعيفاً جداً، وافتقروا إلى الحماس، وازداد كثيراً عدد الفارّين.

تقدّمت القوات الألمانية مرة أخرى في 15 تموز/ يوليو، وسبق ذلك هجوم بغاز الخردل لم يكن له أي تأثير؛ لأن الريح هبّت باتجاه مغاير. واجه الجيشان الأول والثالث مقاومة عنيفة فوراً، و لم يحرزا تقدّماً كبيراً، بسبب الافتقار إلى الدعم المدفعي. نجح الجيش السابع وتقدّم أربعة

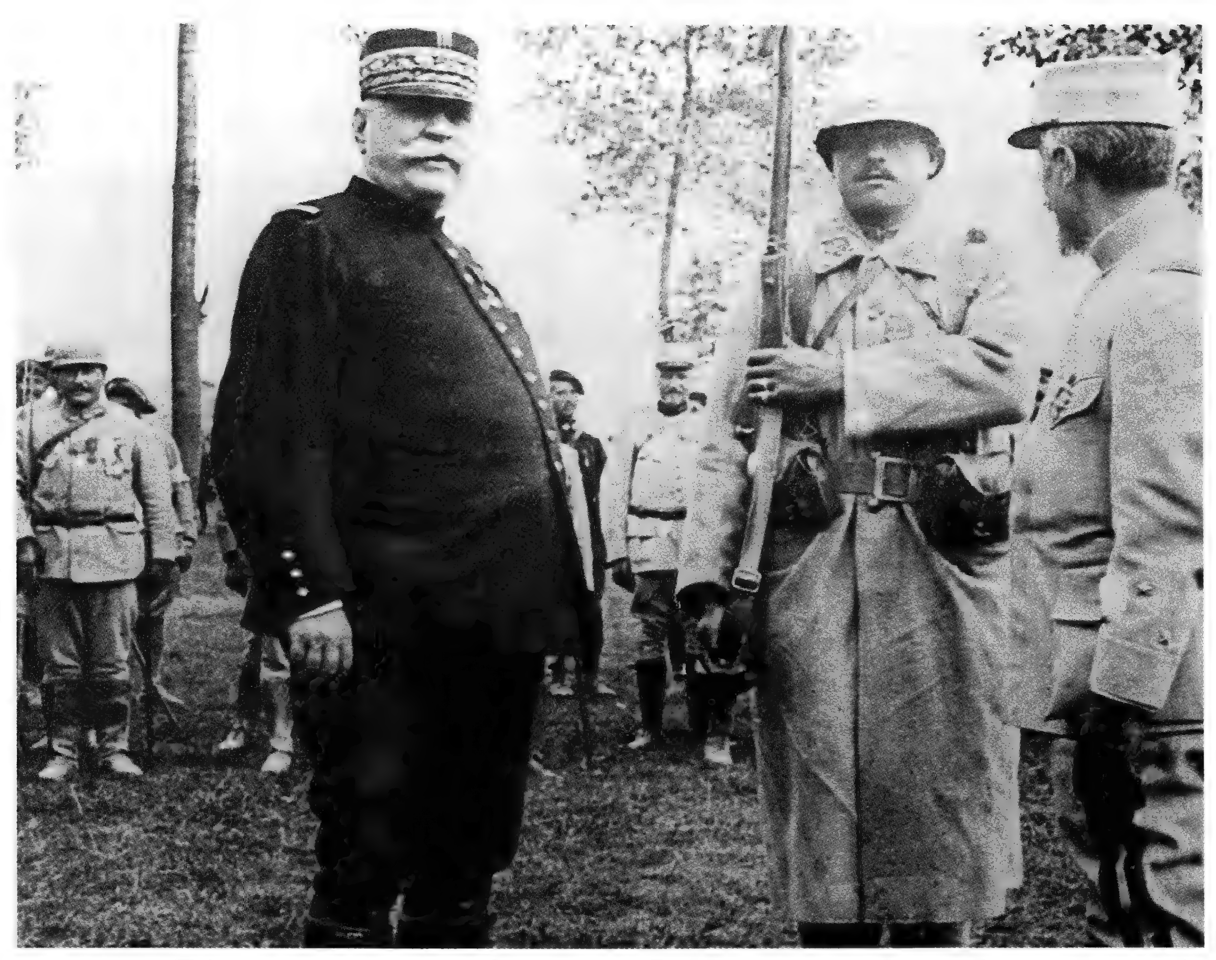
أميال عبر المارن، ليستولي على مواقع فرنسية. تعرّض الجيش السابع للخطر، بسبب عدم تقدّم الجيشين الأول والثالث، وظهور ثغرة بينها، فطلب الجنرال بوهن إذناً للانسحاب. تردّد لودندورف، الذي رأى احتمال فشل هجوم آخر قد علّق عليه آمالاً كبيرة، في إصدار القرار، وحين وافق كان الأوان قد فات. في تلك الأثناء قرّر المضي قدماً بخطة هاغن الأصلية بعد أن أرسل قوات إلى فلاندرز لتنفيذها. لم يحدث ذلك أبداً؛ لأن الفرنسيين شنّوا هجوماً مضاداً في 18 تموز/ يوليو، ما أرغم لودندورف على إيقاف الخطة، ونقل جنوده المخصّصين لها إلى سواسون.

هجوم الحلفاء المضاد

برغم ضعفهم الشديد، شنَّ الفرنسيون هجومهم المضاد الذي خطّطوا له منذ وقت طويل في 18 تموز/ يوليو، باستخدام 1600 مدفع. واجه الجيش العاشر الفرنسي بقيادة الجنرال مانجان



جنود فرنسيون قتلى في خندق استولى عليه الألمان.



المشير جوفر يزور الجبهة، تشرين الأول/ أكتوبر 1918.

(10 فرق فيها 2 أمريكيتان في الموجة الأولى و 6 فرق مشاة وفيلق فرسان في الثانية، مع فرقتين بريطانيتين احتياطاً)، والجيش السادس بإمرة الجنرال دوغوت (7 فرق تضم 2 أمريكيتان وفرقة احتياط في موجة الهجوم الثانية) الجيشَ السابع الألماني (5 فرق و6 فرق احتياط)، والجيش التاسع (6 فرق وفرقتا احتياط). شارك جنودٌ أمريكيون بأعداد كبيرة أول مرة (نحو 85.000 رجل). كانت ثلاث فرق أمريكية أخرى (تكوّنت كل فرقة أمريكية من 17.000 رجل، وأكبر كثيراً من فرق الحلفاء أو الألمان) في طريقها آنذاك إلى الجبهة. أرغم تفوق الحلفاء العددي الألمان على التراجع، ببطء إنما بثبات، وتلقّى لودندورف نصيحة من ضباط أركانه بالانسحاب إلى خط سيغفريد، لكنه رفض الاقتراح خشية العواقب السياسية لذلك القرار على وطن أجداده ومعنويات جنوده. لم تكن لديه أي احتياطيات لإيقاف تقدّم الحلفاء، وازداد الضغط عليه.

حالف الحظ لودندورف تلك المرة؛ لأن الفرنسيين عانوا أيضاً خسائر فادحة (نحو



زار جورج ملك بريطانيا وألبرت ملك بلجيكا الجبهة أيضاً.



جنود ألمان يسيرون إلى مواقع جديدة بعد هجوم آخر في أيلول/ سبتمبر 1918 ...



... ويتركون دماراً خلفهم.



نسف جنود ألمان منسحبون ساحة للسكك الحديدية.



لم يبق حجر تقريباً قائماً بعد تنفيذ انسحاب إستراتيجي لإعاقة تقدّم الحلفاء.



استطاع الألمان الحفاظ على معظم مدافعهم. سرية هاوتزر عيار 210 ملم (8 بوصات) تستعد للانسحاب، تشرين الأول/ أكتوبر 1918.



جنود ألمان يحتمون في حفرة قنبلة، تشرين الأول/ أكتوبر 1918.



جنود ألمان في أثناء الانسحاب إلى خط هيندنبورغ.



تعرّضَ جنود ألمان متراجعون إلى قصف عنيف من الحلفاء.



قنبلة هاوتزر فرنسية ضخمة تنفجر في وسط مواقع ألمانية.



كان البرد قارساً في تشرين الثاني/ نوفمبر. خفير ألماني يراقب المشهد الثلجي.

160.000 رجل)، و لم يعد بمقدورهم جلب تعزيزات إضافية. توقّف هجوم الحلفاء لهذا السبب في 22 تموز/ يوليو. خسر الألمان 110.000 رجل من دون أمل بتعويضهم.

أرغم هيندنبورغ القائدَ لودندورف، الذي كان لا يزال يخطّط لجعل الجيش السابع يصمد في مواقعه، على التخلّي عن هذه الفكرة وسحب قواته خلف المارن. اكتأب

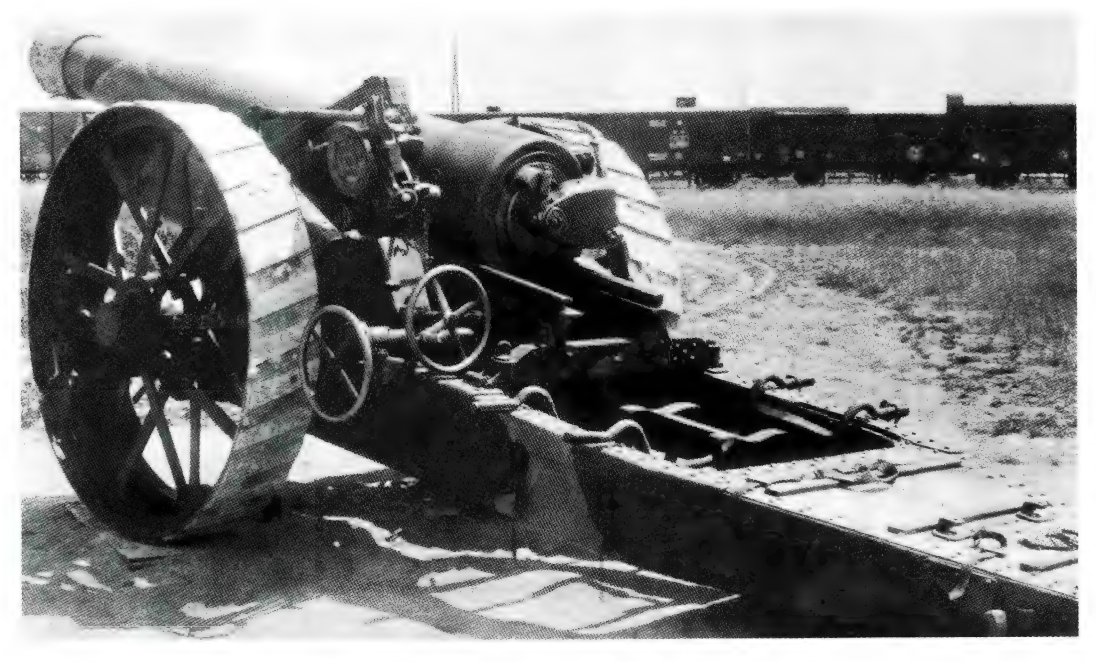
رشاش ألماني غنمه الحلفاء في لاندريفيل، 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918.



مدفع هاون ألماني عيار 85 ملم (3,3 بوصات) جاهز لإطلاق القنابل. لا يزال يُعثر على هذا النوع من القنابل في ساحة المعركة القديمة في فرنسا.

مقابل: وضع الألمان عقبات مضادة للدبابات في كل مكان.

هاوتزر ألماني عيار 210 ملم (8 بوصات) استولى عليه جنود أمريكيون.



هاوتزر شنايدر ألماني.

مدفع ألماني مموّه، 27 تموز/ يوليو 1918.

جنود أمريكيون مستعدّون للهجوم خلف ستارة دخانية.





خندق محصّن ألماني في فارنفيل استولى عليه جنود أمريكيون في 22 تشرين الأول/ أكتوبر 1918.



خنادق ألمانية في بوا دي إيبارج حيث قاد الفوج **261** الأمريكي الهجوم في 19 أيلول/ سبتمبر 1918.

مقابل: جندي ميت ألماني في هامل.



مدفع عيار 14 بوصة محمول على سكّة حديدية يطلق النار على مواقع ألمانية في غابات أرغون.



دبّت الفوضى في أثناء التقدّم الأمريكي. ازدحام مروري قرب سانت ميشيل.

الرجل كثيراً، وترك انطباعاً عصبياً وبائساً على أركانه وقادته، ولم يكن ذلك مفاجئاً؛ لأن التراجع الكبير قد بدأ، وفقد القائد العام الألماني زمام المبادرة لمصلحة الحلفاء.

الثامن من آب، يوم أسود للجيش الألماني

ساد هدوء نسبي مدة من الوقت بعد الهجوم المضاد، وتمكّن الحلفاء من تعزيز مواقعهم ومنح الجنود المرهقين بعض الراحة.

في تلك الأثناء خطّطوا لجعل الألمان يتراجعون أكثر، وقد شنَّ الجيش الرابع البريطاني بقيادة الجنرال رولينسون (الذي خَلف الجنرال هوغ بعد عزله في آذار/ مارس)، والجيش



جنود أمريكيون ينظرون إلى تحذير ألماني بغارات جوية بعد استيلائهم على بايونفيل.



حاولت الحكومة الألمانية الحصول على مال لتغطية تكاليف الحرب حتى النهاية. ملصق حاول إثارة اهتمام الشعب بقروض حربية جديدة.

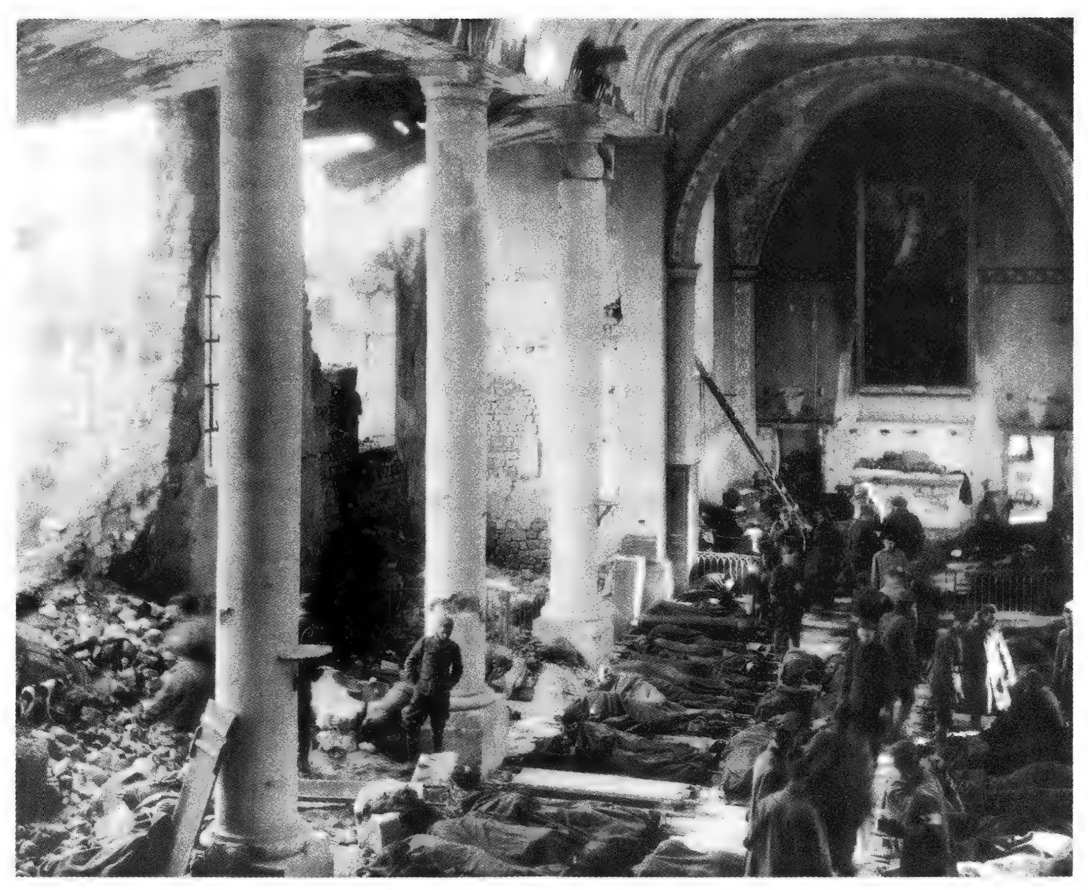
الأول الفرنسي بإمرة الجنرال دبني، هجوماً معاً ضد الجيش الثاني الألماني بقيادة الجنرال مارفتز والجيش الثامن عشر بإمرة الجنرال هوتير بين نهر آرفي وسانت ألبرت.

شرع ألفا مدفع للحلفاء في صبِّ نيرانها في صباح 8 آب/ أغسطس، على جبهة طولها نحو ستة أميال، وتبع ذلك هجوم مدرّع باستخدام ٤٥٠ دبابة، من ثمّ المشاة. بحلول ذلك المساء حقّق الجنود البريطانيون خرقاً بعمق نحو عشرة أميال في الخط الألماني، وأسروا 16.000 جندي، وغنموا مدافع كثيرة.

كان الفرنسيون أقل نجاحاً وحقّقوا تقدماً أبطأ. أسروا نحو خمسة آلاف ألماني وغنموا 160 مدفعاً، لكن تعزيزات ألمانية سريعة استطاعت إبطاء هجوم الحلفاء وصدّه بعد ذلك.



قوات إمداد على خط النار. جنود أمريكيون يحملون خبزاً إلى الجبهة.



مركز إسعاف أوّلي أمريكي في كنيسة مدمّرة في نوفيل، 26 أيلول/ سبتمبر 1928.



جنود جرحى أمريكيون في مستشفى في باريس.



ممرضة صليب أحمر تعطي شراباً لرجل جريح.



كانت ثياب جنود تعرّضوا لهجوم بغاز الخردل تُجمع وتُحرق.

مقابل: قطار طبي أمريكي ينقل جرحى إلى باريس.





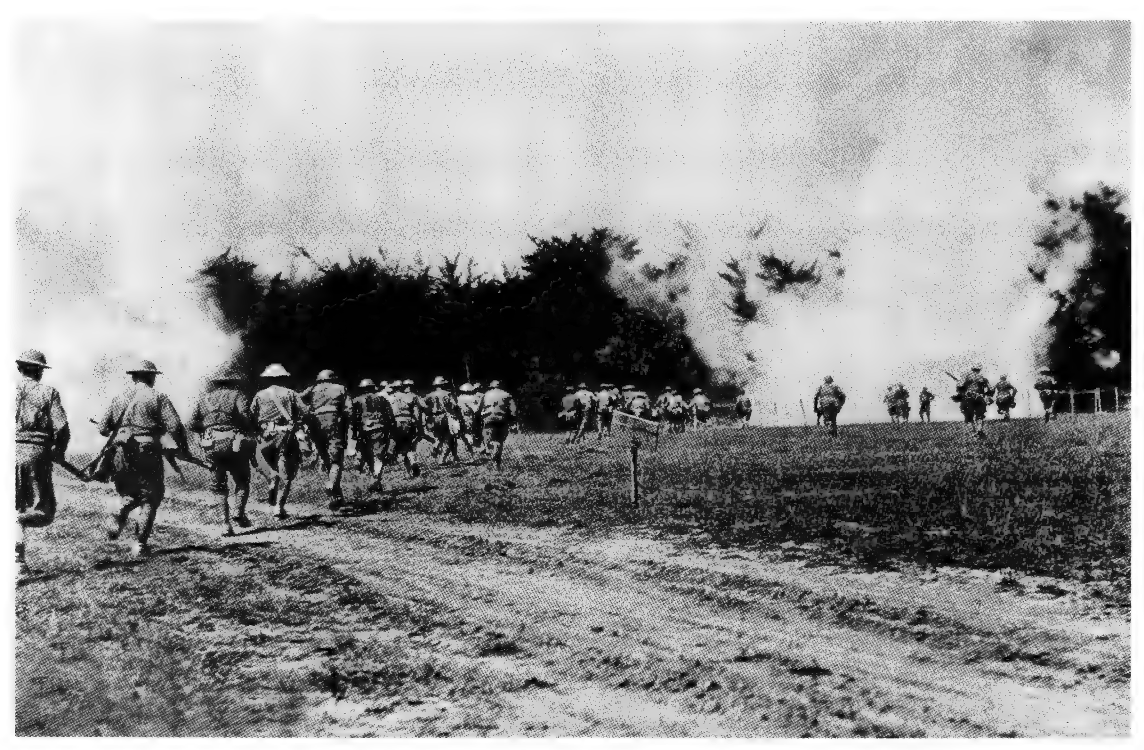
قس عسكري أمريكي يقيم قدّاساً ميدانياً.



ضمَّ الفوج 39 من الفرقة 93 الأمريكية جنوداً أمريكيين من أصل أفريقي بقيادة فرنسية. تشبّثوا بمواقع وحاربوا قرب مافركور في نيسان / أبريل 1918. قاتلوا جيداً وحصل كثير منهم على أوسمة فرنسية.



عانت القوات الأمريكية خسائر غير ضرورية غالباً بسبب عدم الخبرة.



فوج المشاة 326 الأمريكي يهاجم في 1 آب/ أغسطس 1918.



جنود أمريكيون في أثناء مسيرهم إلى محطة السكك الحديدية المهمّة للألمان في سواسون.

دفع ذلك الجنرال رولينسون إلى طلب إذن هيغ بإنهاء الهجوم. وافق هيغ لكن المشير فوش طالب بأن يستولي البريطانيون أولاً على بيرون وهام، لدفع الألمان خلف السوم. قام الجيش الرابع البريطاني بمحاولة لتحقيق ذلك في اليوم التالي من دون نجاح، فحسم هيغ الموقف تلك المرة، وأمر بإيقاف المعركة. كانت الخسائر فادحة مرة أخرى، و لم تبقَ إلا سبع وستون دبابة فقط من أصل 450، وفقد الفرنسيون والبريطانيون 45.000 رجل، والألمان 75.000. لم ينجح الهجوم الفرانكو – البريطاني المضاد في تحقيق اختراق، لكن بدا واضحاً أن الحلفاء قد تولّوا آنذاك زمام المبادرة.

برغم أن القوات الألمانية قد صدّت هجوم الحلفاء، إلا أن قائدها العام عدَّ ذلك كارثة. لقد نجح الجنود في إيقاف التقدّم، لكن الاختراق كان صدمة لهم.

بدا واضحاً أول مرة غياب إرادة النصر لدى القوات الألمانية، فقد استسلمت وحدات كاملة للعدو، و لم يعد الجنود يطيعون ضباطهم، وفرَّ مئات الآلاف منهم. أدرك لودندورف



الفوج 308 الأمريكي بعد الاستيلاء على الخط الثاني الألماني في غابات أرغون شمال فور دي باريس.



كانت الاتصالات لا تزال بدائية. لم تكن الدبابات مزوّدة بأجهزة لاسلكي. حمامة زاجلة تُطلق من دبابة تحمل رسالة إلى مركز القيادة.



أسهمت دبابات فرنسية كثيراً في تقدّم جنود أمريكيين إلى سواسون في 1918.

دبابات للحلفاء في الهجوم على سواسون.

جنود أمريكيون يتمترسون قرب نانتول في 29 حزيران/ يونيو 1918.



جنود أمريكيون يهاجمون قرب سانتا باربي في 13 آب/ أغسطس.



كانت الخسائر الأمريكية فادحة في أثناء هذا الهجوم.

مقابل: الفوج 326 الأمريكي يهاجم قرب كولوي في 1 آب/ أغسطس.



جنود أمريكيون مجدداً في أثناء هجومٍ في 8 تشرين الأول/ أكتوبر. الفرقة 30 تهاجم في فيرمونت.

القيصر فيلهلم الثاني يزور مصنعاً للأسلحة في تشرين الأول/ أكتوبر 1918، قبل شهر من تخلّيه عن العرش حين دعا العمال للتوقف عن العمل.

أن الأمر قد انتهى بالنسبة للجيش الألماني، وأن النصر لم يعد ممكناً. في مذكّراته كتب لاحقاً أنه شعر بالخيانة من قواته، وأنه لن يكون منطقياً الاستمرار في الحرب، التي ستضع أوزارها قريباً. منذ ذلك الوقت فصاعداً، ستقتصر العمليات الألمانية على الدفاع ومواصلة القتال لكسب الوقت فقط، من أجل محادثات السلام مع العدو. مرة أخرى رفض سحب قواته، وأصرَّ على صمود الجنود في مواقعهم والدفاع عن الخط الأمامي. لإنجاز ذلك، أرسل تعزيزات قدر المستطاع، لكن هذا أضعف طبعاً جبهات أخرى.

أبلغ لودندورف كلاً من هيندنبورغ والقيصر في ذلك اليوم عن الموقف، وشرح أن النصر لم يعد ممكناً. استمع فيلهلم الثاني بصمت تام، من ثمّ دعا إلى اجتماع مع المستشار ووزير الخارجية في مقر قيادته في سبا، الذي عُقد في 13 آب/ أغسطس. أطلعهم لودندورف على آخر تطورات الموقف، وأكّد أن النصر بات صعباً، وأضاف أن الحلفاء لم يعد بمقدورهم



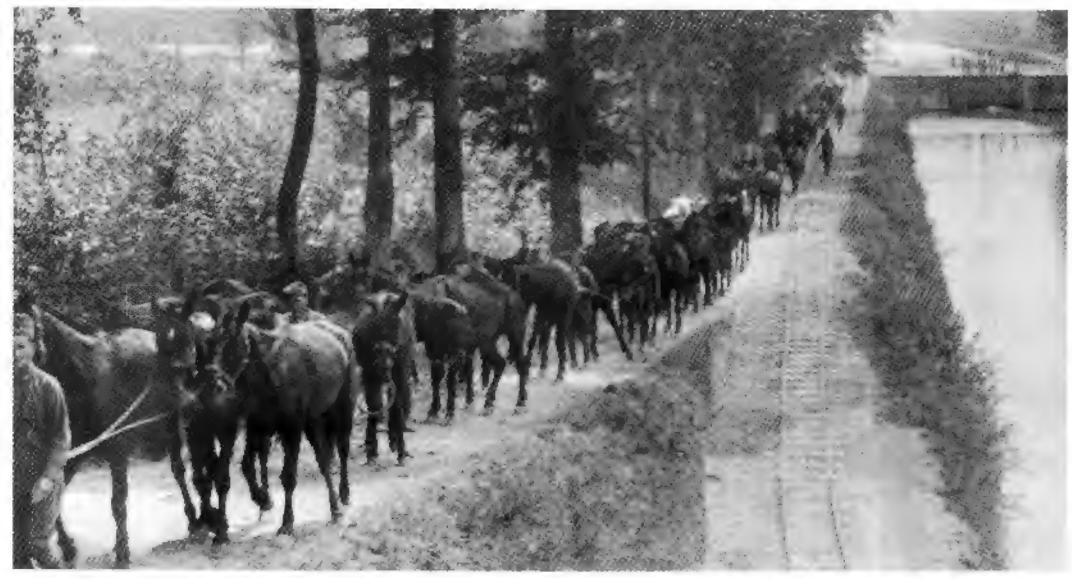
جنود قتلى ألمان في أثناء التقدّم الأمريكي.



كان هناك نقص في كل شيء في ألمانيا. ملصق يطلب من النساء تقديم شعورهن للصناعة الدفاعية.



القيصر الألماني يتكلم إلى عامل في أثناء زيارة إلى كيل.



قوات احتياط أمريكية تسير في المارن.

مشهد لخط الجبهة الأمريكية من السرية «أ»، 14 حزيران/ يونيو 1918.

مخبز ميداني أمريكي. حضّر خبّازوه الأربعة والخمسون وأفرانه الثمانية 54.000 رغيف كل يوم في الميدان.



استخدام وسائل حربية همجية وقاسية: شَرَك.



معركة غابة أرغون. طريق فارن–فور دي باريس في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918.



جندي أمريكي يصلّي عند صليب نجا من الدمار في سوم-ديو في تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، وسط الموت والخراب.



أسرى حرب ألمان لدى الفرقتين 27 و33 الأمريكيتين.



القبض عليهم في اللحظة الأخيرة. اكتشاف أربعة جواسيس ألمان يرتدون بزّات أمريكية، وإعدامهم فوراً، تشرين الثاني/ نوفمبر 1918.



جندي كندي يدعو أي ألمان متوارين عن الأنظار إلى الخروج بعد الاستيلاء على خندق ألماني. دوري، 2 أيلول/ سبتمبر 1918.

المضي قدماً أيضاً، وأن إستراتيجيته الجديدة تركّز على دفاع قوي ومتماسك عن الأراضي التي احتلوها حتى ذلك الوقت. كان مقتنعاً أن ذلك سيكسر إرادة الحلفاء لمواصلة القتال، ويرغمهم على التفكير في السلام. بدت تلك صورة زاهية للموقف في ذلك الوقت، إنما مجرّدة من الحقيقة ومُفرطة في التفاؤل. أراد المستشار القيام بإجراءات للشروع في محادثات سلام، لكن لودندورف عارض ذلك بقوة، وقال إن مباحثات السلام لا يمكن أن تُعقد إلا بعد تحقيق الانتصار، وأن الوضع ليس ميؤوساً منه، برغم خطورة الموقف. غادر فون هرتلينغ والوزير هاينز إلى ألمانيا بقلبين مثقلين بالهموم، برغم أن مخاوفهما قد هدأت إلى حد ما، بعد أن قال هيندنبورغ إنهم يجب ألا ينسوا أن قوات ألمانيّة لا تزال تحتل أراضٍ للعدو، وستبقى هناك على الأرجح.

تبيّن بسرعة في ضوء الموقف الحقيقي على الجبهة، أن الثقة التي أظهرها القائد العام لا

أساس لها، وأن الحفاظ على مواقعهم غير ممكن. كان الحلفاء يخطّطون آنذاك لشنِّ هجوم كبيرٍ آخر بمساعدة أمريكيّة، و لم يكن لدى الألمان قوات كافية للتصدّي له، وبدا واضحاً لكلٍّ من لودندورف وهيندنبورغ أنهما يجب أن يقرّا أن الوضع يائس. من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه نصحا الحكومة أن تطلب وقفاً لإطلاق النار وحذّرا أن ذلك يجب أن يحدث بسرعة؛ لأن كل يوم تأخير سيزيد من حجم الكارثة. صدم هذا الطلب الحكومة، وشعر أعضاؤها آنذاك بأنهم مرغمون على الدعوة إلى وقف الحرب من دون أن تكون لديهم أوراق تفاوضية، ومن موقف ضعف، وفي ظل أسوأ الظروف على الإطلاق. كانت سلسلة أحداث درامية على وشك أن تبدأ.

ألمانيا تدعو إلى وقف إطلاق النار

لقد حقّقت الهجمات الألمانية بين آذار/ مارس وتموز/ يوليو، انتصارات تكتيكية، إنما لا الاختراق الإستراتيجي المنشود، وأنهى ذلك الفشل احتمال الانتصار في النزاع المسلّح. في



جندي بريطاني يقف في خط هيندنبورغ «المنيع».

آذار/ مارس، كان لا يزال لدى ألمانيا قوة أكبر من الحلفاء، لكن تغيّر ذلك تماماً في تموز/ يوليو. كلّف الهجوم الأخير 700.000 رجل، وخسر الألمان بين تموز/ يوليو وتشرين الأول/ أكتوبر، 800.000 آخرين. وصل إجمالي الإصابات الألمانية منذ بدء الحرب في 1914 إلى 4.5



المشير فوش. طلب الوفد الألماني منه تقديم اقتراحاته، فقال إنه لا يوجد لديه شيء.



التقى الحلفاء في 2 تموز/ يوليو 1918 لتحديد شروطهم لوقف إطلاق النار.



رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج في أثناء مؤتمر للحلفاء في 2 تموز/ يوليو 1918.

مليون قتيل، أو جريح، أو مفقود، أو أسير، و لم يعد لديهم ببساطة رجال أحياء لتعويض تلك الخسائر. لم يكن حتى ممكناً العثور على قوى عاملة لبناء مواقع خلف خطوط الجبهة. كانت بعض الفرق على الجبهة موجودة بالاسم، أو مجهّزة جزئياً فقط.

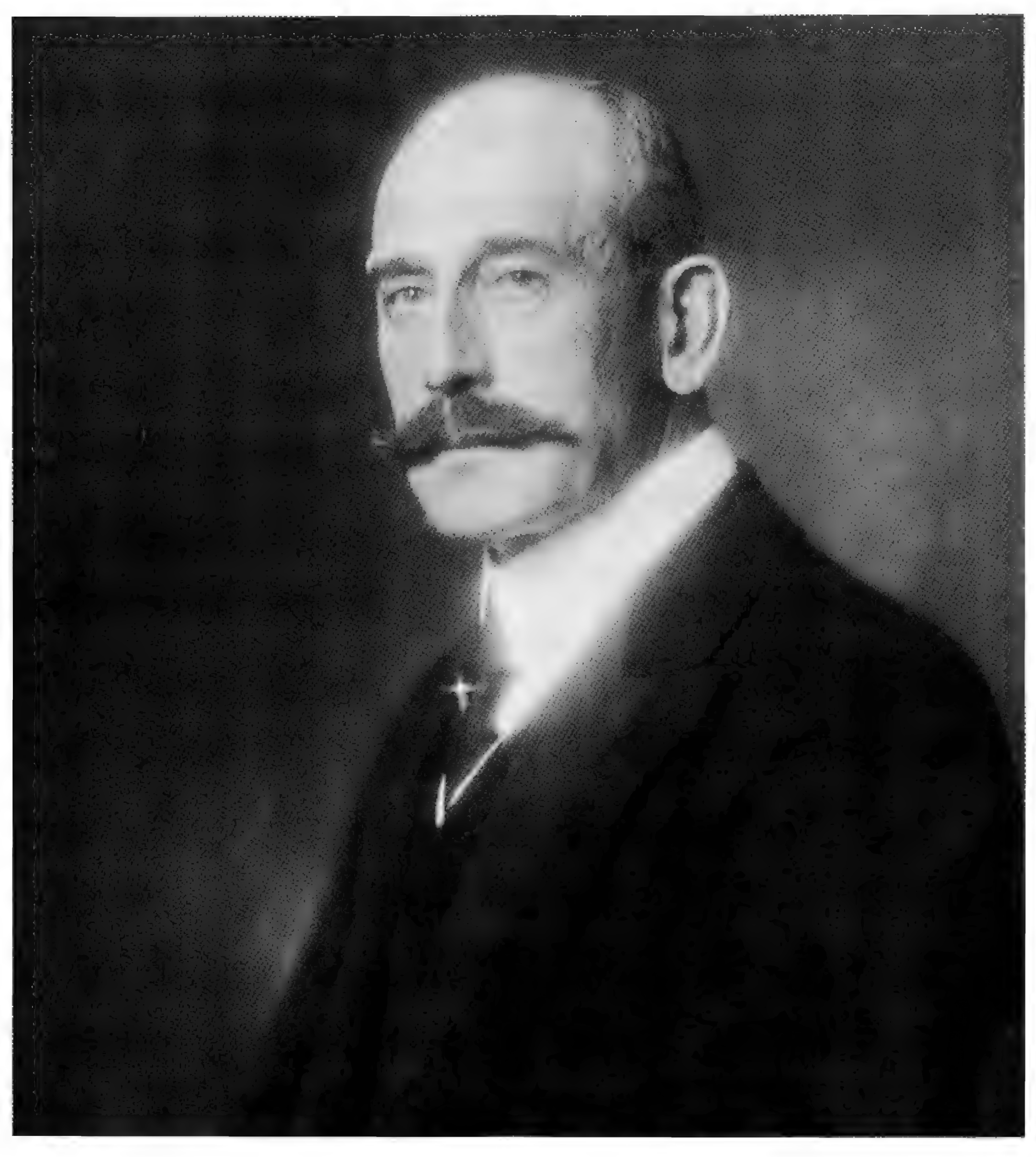
في الوقت نفسه كانت قوة الحلفاء القتالية تزداد بثبات. بحلول بداية تشرين الثاني/ نوفمبر



الجنرال هاورد بليس؛ ممثل الولايات المتحدة في قيادة الحلفاء.

١٩١٨، وصل عدد الجنود الأمريكيين الذين نزلوا في فرنسا إلى ١,٨ مليون رجل، وانضم إليهم 200.000 إلى 250.000 آخرين كل شهر. كان هؤلاء الجنود الأمريكيون أغراراً، وغير مدرّبين تماماً على خوض المعارك.

يبدو غريباً جداً ألا يدرك الحلفاء مدى سوء حال القوات الألمانية التي كانوا يواجهونها. برغم تنامي الشعور بأن الحلفاء قد تولّوا آنذاك زمام المبادرة من الألمان، إلا أن التقديرات أشارت



المستشار الألماني الجديد الأمير ماكس فون بادن، الذي كُلف بمهمة البدء بمحادثات وقف إطلاق النار مع الحلفاء.

تشرشل في ليل قبل وقف إطلاق النار مباشرة، 24 تشرين الأول/ أكتوبر 1918.



الجنرال فون فنترفيلد؛ رئيس اللجنة الألمانية لوقف إطلاق النار في 29 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918.



السيد إرتسبرغر؛ عضو الرايخستاغ الألماني ولجنة وقف إطلاق النار بعد محادثات مع المشير فوش على متن قطاره.



أعضاء في لجنة وقف إطلاق النار في طريقهم إلى المشير فوش.

إلى استمرار الحرب بعض الوقت حتى 1919 في ضوء المقاومة العنيدة التي أبداها الألمان في الدفاع.

ظهر قلق بشأن الدعم الشعبي للحرب، فقد كانت خسائر الحلفاء ضخمة، ووصلت إلى 850.000 رجل بين آذار/ مارس وتموز/ يوليو، وازدادت بين تموز/ يوليو وتشرين الثاني/ نوفمبر، بنحوٍ أكثر دموية. خسر الفرنسيون 530.000 رجل، والبريطانيون 410.000، والأمريكيون 300.000، بمجموع 2.100.000 شخص. لم يكن هذا كل شيء، إذ لم تتآكل الفرق الألمانية فقط، إنما تقلّصت الفرق البريطانية أيضاً من اثنتي عشرة كتيبة إلى تسع، وفي أيار/ مايو، أُلغيت عشر فرق لنقص القوى البشرية. لم يستعد الجيش الفرنسي قوته الهجومية كاملة أبداً بعد التمرّد الكبير في 1917، واعتمد تماماً على الدعم البريطاني والأمريكي لاحقاً. لقد استنفد الحلفاء قواتهم الاحتياطية فعلياً أيضاً. في حزيران/يونيو 1918 طلب الحلفاء من الرئيس ويلسون إرسال أربعة ملايين شخص فوراً تحت طائلة خسارة الحرب. يبدو طلب هذا العدد من الرجال عبثياً في الواقع؛ لأنه يبلغ أكثر من إجمالي تعداد قوات الحلفاء في فرنسا في



أعضاء الحلفاء في لجنة وقف إطلاق النار في سبا. من اليسار إلى اليمين: الفريق السير ريتشارد هاكينغ (بريطانيا العظمى)، واللواء ريودس (الولايات المتحدة الأمريكية)، والجنرال دونان (فرنسا).

ذلك الوقت، إنما يشير إلى واقع الحال بالنسبة إلى الحلفاء آنذاك، وإلى أنهم لم يكونوا يدركون فعلاً مدى سوء وضع الألمان أيضاً. كان بمقدور جنرالات الحلفاء وضع خطط لهجمات كبيرة، لكن افتقروا إلى القوى البشرية لتنفيذها بنجاح.

برزت قضية مهمة أخرى أيضاً. لقد تقدّم الرئيس ويلسون بمقترحات سلام عارضها الحلفاء بشدّة، وأعلنت حكومة الولايات المتحدة أنه إذا رفض الحلفاء مشروعهم للسلم قد يعقدون اتفاق سلام منفصل مع العدو. كان يجب تفادي ذلك بأي ثمن؛ لأنه لم يكن ممكناً



إعلان وقف إطلاق النار في لو هافر.



مشهد في شارع وينشستر، إنكلترا عند إعلان الهدنة.

كان هناك ابتهاج في ألمانيا أيضاً. جنود عائدون يلقون استقبال الأبطال.



مقابل: حشد مبتهج تجمّع خارج قصر بكنغهام في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 للاحتفال بالهدنة.





حشد مبتهج خارج القصر الملكي عند عودة جنود ألمان إلى الوطن.

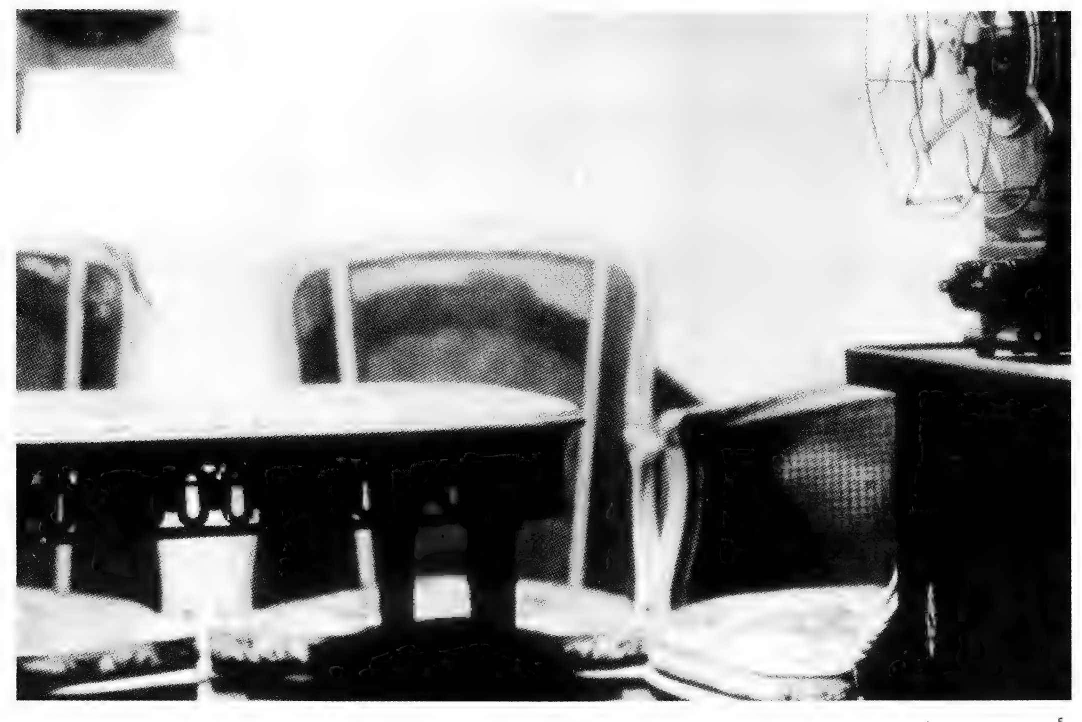
الانتصار في الحرب من دون الأمريكيين. قال البريطانيون إنه إذا بدا أن الحرب ستطول، فسيكون منطقياً عقد محادثات سلام بسرعة مع الألمان من موقف قوة، ليكون بمقدورهم تحقيق نتائج أفضل مما عرضه الرئيس ويلسون. أبدوا حرصاً على منع الأمريكيين من فرض شروطهم على الحلفاء الآخرين. كان العدد المتزايد للجنود الأمريكيين على التراب الفرنسي يجعل اعتماد وجهة النظر الأمريكية أكثر ترجيحاً، بانقضاء كل يوم.

كان ذلك هو الموقف حين قرّرت القيادة العليا الألمانية أن تطلب من حكومتها العمل على وقف إطلاق النار. وقع ذلك النبأ مثل صاعقة من سماء صافية على الشعب الألماني، فقد أكّدت القيادة العليا حتى ذلك الوقت أن الانتصار ممكن، برغم كل التضحيات. في 13 آب/ أغسطس أصرَّ هيندنبورغ ولودندورف على أنه بمقدور الألمان الاحتفاظ بالأراضي التي قد

مقابل: جنود ألمان يسيرون في برلين، ورايات تخفق وطبول تقرع. كان هناك إحساس بالهزيمة.



جنود ألمان بقوا في روسيا يعودون إلى الوطن على متن قطار.



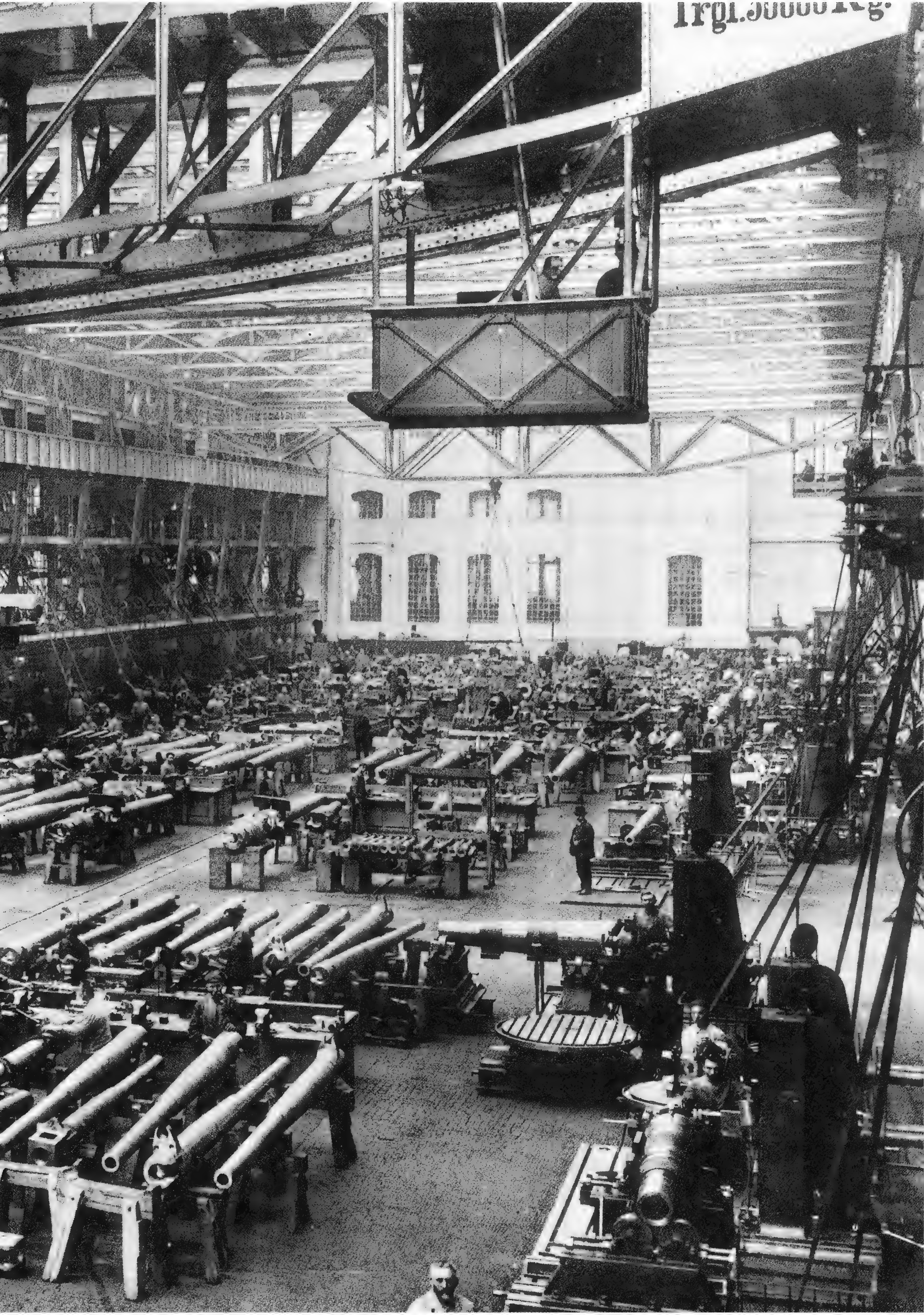
مأوى هيندنبورغ الخاص في سبا.



مسكن لودندورف في سبا.



جنود جرحى بريطانيون يعودون إلى الوطن.



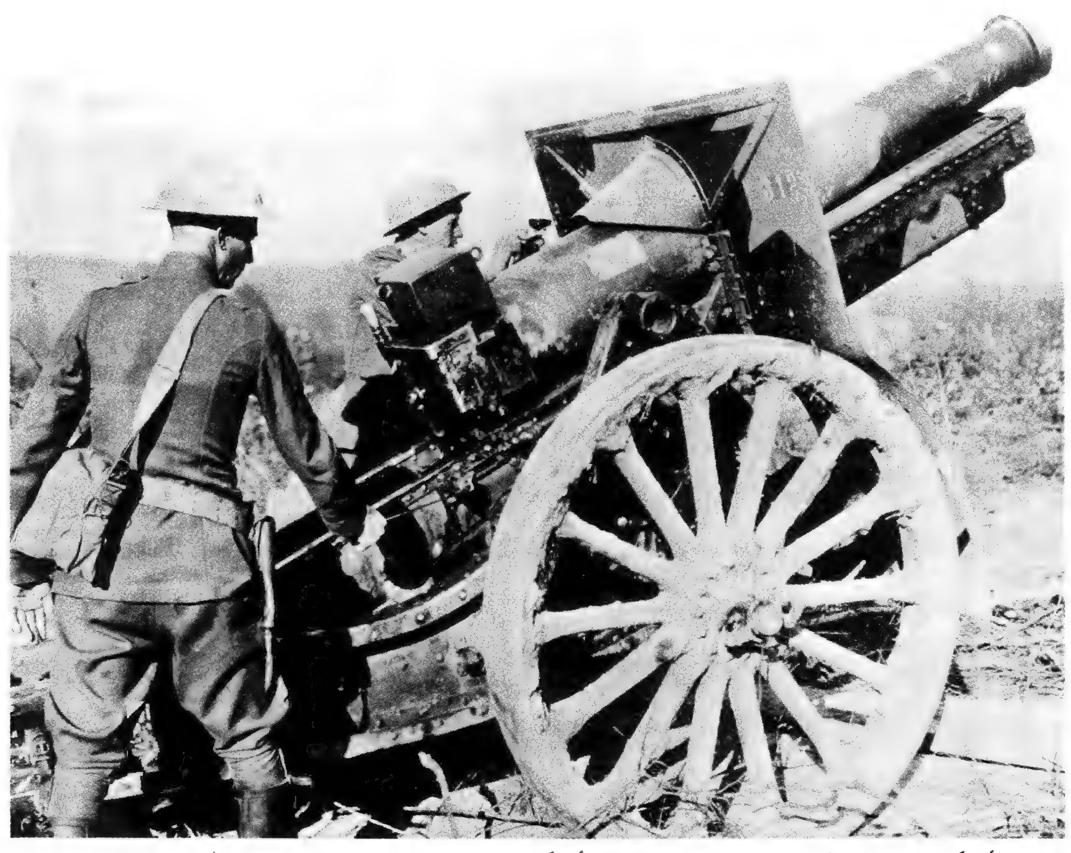
احتلّوها على الأقل، وفرض سلام مشرّف، وقد رفضا فكرة إجراء محادثات سلام. بدا فجأة آنذاك أن وقف إطلاق النار سيكون نعمة إلهية، وقد أحدث هذا الخبر صدمة، وتشكّكاً، وانعداماً في الثقة لدى الشعب الألماني. كانت هي الإشارة التي يحتاج إليها المتمرّدون على الأرض لإشعال ثورة، ووضع نهاية محتّمة للحرب.

أشعلت القيادة العليا الألمانية تلك الثورة بيديها بتضليلها الممنهج للشعب بشأن الوضع على الجبهة. عندما باتت الحقيقة معروفة أخيراً، أثارت صدمة عارمة أزالت أي أمل وثقة باقية لدى الشعب الألماني، مع كل العواقب التي نتجت عنها. أثار طلب وقف إطلاق النار صدمة كبيرة لدى الحلفاء أيضاً، الذين لم يتوقعوا ذلك أبداً. تبيّن أن الألمان يريدون وقف القتال بأي ثمن، فرفع الحلفاء سقف مطالبهم إلى أعلى حدٍّ ممكن. لقد خسرت ألمانيا الصراع وأُرغمت



القائد العام البريطاني الجنرال هيغ مع ضباطه في يوم الهدنة، 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918.

مقابل: كان يجب تفكيك مصانع السلاح الضخمة في كروب.



الرقيب الأمريكي فيلييس يطلق آخر قذيفة في الحرب من القطاع الأمريكي في موفيل-سور-ميوز في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918.



جنود أمريكيون يعبرون حدود لوكسمبورغ في طريقهم إلى ألمانيا في 20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918.



جنود بريطانيون في طريقهم إلى كولون.



الملك البريطاني جورج الخامس وزوجته الملكة ماري في طريقهما إلى كاتدرائية سانت بول لحضور قدّاس تأبين بمناسبة الهدنة.

على قبول هدنة، وشروط سلام لاحقاً ضمّت بين طيّاتها بذور الحرب الآتية الأكثر رعباً التي اندلعت بعد عشرين عاماً، حين ستهبُّ الولايات المتحدة مرة أخرى للمساعدة. كرّر التاريخ نفسه، إنما لم يتعلّم أحد الدرس، ما أدّى إلى عواقب مأساوية.

سلام من دون منتصرين

مفاوضات الهدنة

عرف بعض السياسيين الألمان في 1917 أن الانتصار غير ممكن، ودعوا إلى إحلال السلام

بسرعة. كان أحد هؤلاء هو إرتسبرغر، الذي اكتشف من صديق في القوات المسلحة أن الموقف العسكري لألمانيا يزداد صعوبة، وأن حليفهم النمساوي – المجري قد يضطر إلى إنهاء الحرب من جانب واحد. كوّن إرتسبرغر مجموعة من أعضاء الرايخستاغ تضم أشخاصاً من الوسط، والاجتماعيين الديمقراطيين، والتقدّميين الذين وضعوا تصوراً لـ«حلّ سلمي» قدّم مبادرة لإحلال السلام في وقت باكر. ظنّوا أنه ينبغي أولاً تعديل الدستور إلى نظام برلماني. حظيت خطّتهم بتأييد واسع بسرعة، وقبلها القيصر في نهاية المطاف، وإن يكن متردداً.

عدَّ المستشار بتمان هولفيغ أن الوقت غير ملائم لتطبيق الخطّة برغم موافقته الكاملة عليها، وانتهى أمر مبادرة السلام إلى الدرج، وتأجيل تعديل باكر للنظام البرلماني.

عمل آخرون أيضاً لإحلال السلام، ومهّد الطريق طموح الرئيس ويلسون في تحقيق السلم الذي أيّده بكل قوّته. قام بأولى محاولاته للتوسّط بين الأطراف المتنازعة بعد وقت قصير من



قام الرئيس الأمريكي ويلسون بزيارة خاصة إلى بريطانيا. يظهر هنا في مانشستر في 30 كانون الأول/ ديسمبر 1918.

الهجوم بالطربيد على الباخرة البريطانية لوسيتانيا في 1915. استدعى ويلسون السفير الألماني واقترح أن توقف ألمانيا حرب الغواصات مقابل ضغط أمريكي على البريطانيين لإنهاء الحصار البحري على بلاده، لكن تلك المحاولة لم تثمر شيئاً.

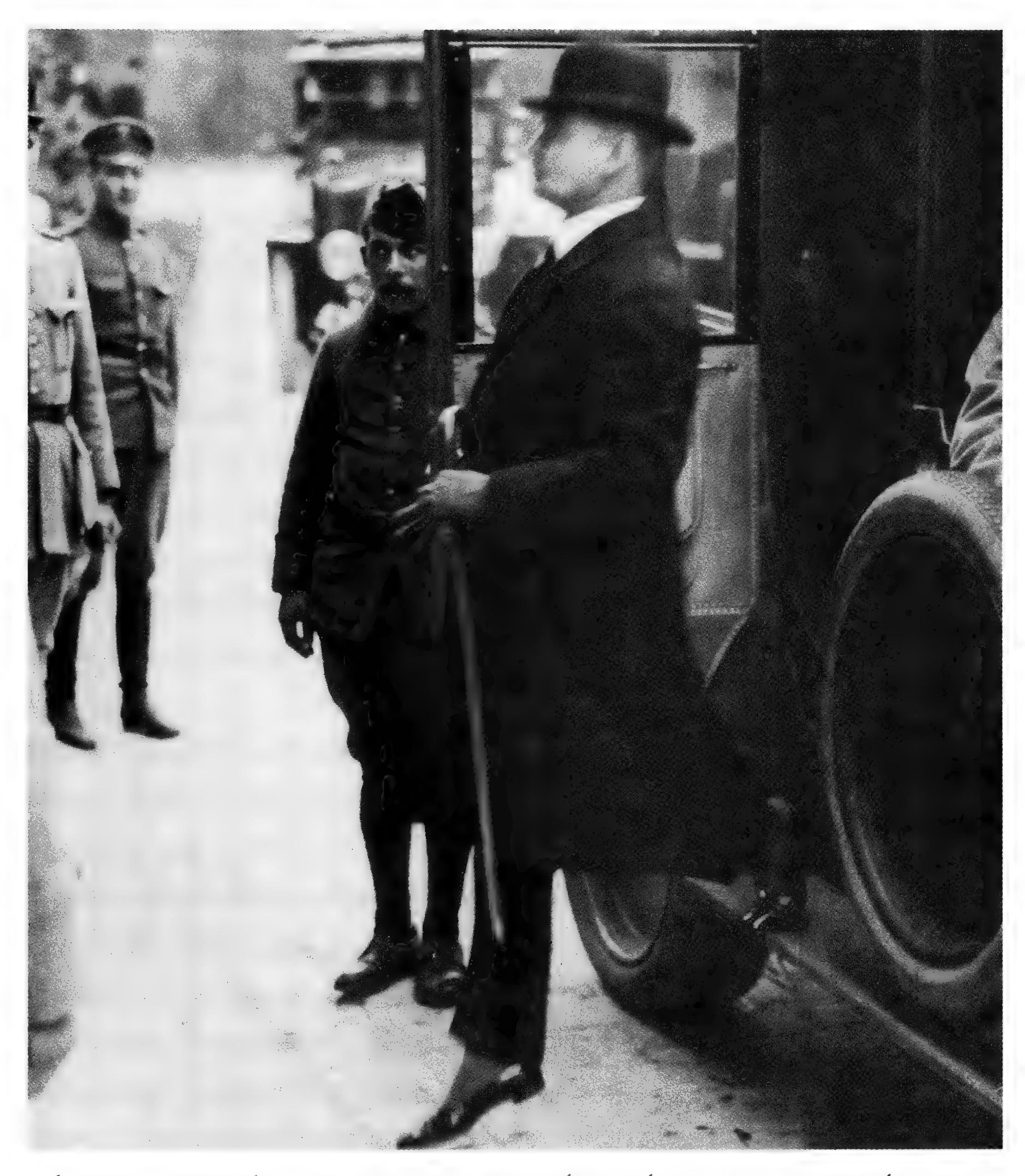
في وقت لاحق أرسل الرئيس مبعوثه العقيد هاوس إلى بريطانيا في شتاء 1915–1916 لإجراء محادثات مع وزير الخارجية إدوارد غراي، التي أثار فيها إمكانية عقد مباحثات سلام.

كرّر هاوس زيارته إلى غراي بعد عدّة شهور حين خرج عن مبادئ الحياد الصارم. سأل غراي عن رغباته وأخبره أن الولايات المتحدة الأمريكية ستودُّ أن تفعل كل ما بوسعها لمساعدة الحلفاء للانتصار في الحرب. قال: «تريد الولايات المتحدة من الحكومة البريطانية القيام بما يمكّن الولايات المتحدة من فعل ما هو ضروري لينتصر الحلفاء في الحرب».

أيّد هاوس الحلفاء صراحة حين زار باريس وأعلن أنهم إذا تعرّضوا لخطر الهزيمة فإن الحكومة الأمريكية ستساعدهم. عدَّ الحلفاء أن ذلك يعني أن الولايات المتحدة ستقف إلى جانبهم، لكن هاوس قال لاحقاً إنه لم يعنِ ذلك وأن الاستنتاج خاطئ، برغم أنه لم يشرح ما قصده حقاً.



حشود تحيي الرئيس الأمريكي ويلسون في أثناء مرور موكبه عبر لندن.



وزير الخارجية الألماني بروكدورف – رانتزو الذي ترأس الوفد الألماني إلى محادثات الهدنة في 1919. «شعرنا بالكراهية نحونا حين دخلنا. سيكون الإقرار بالذنب من فمي كذبة ...».

اقترح هاوس آنذاك إجراء محادثات سلام على أن تعبّر نقاط النقاش فيها عن وجهة نظر الحلفاء. إذا رفضت ألمانيا تلك البنود ستدخل الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء. دُوّنت تلك القضايا في مذكّرة هاوس–غراي الشهيرة في 22 كانون الثاني/ يناير، 1916. كانت «الأفعى المتوارية في تبن» هذه المذكّرة الإيجابية كما تبدو تتربّص في حقيقة أن الأمريكيين سيفرضون



الرئيس ويلسون يغادر مؤتمر الهدنة في 17 أيار/ مايو 1919 الذي استلم الألمان فيه مقترحات السلام.

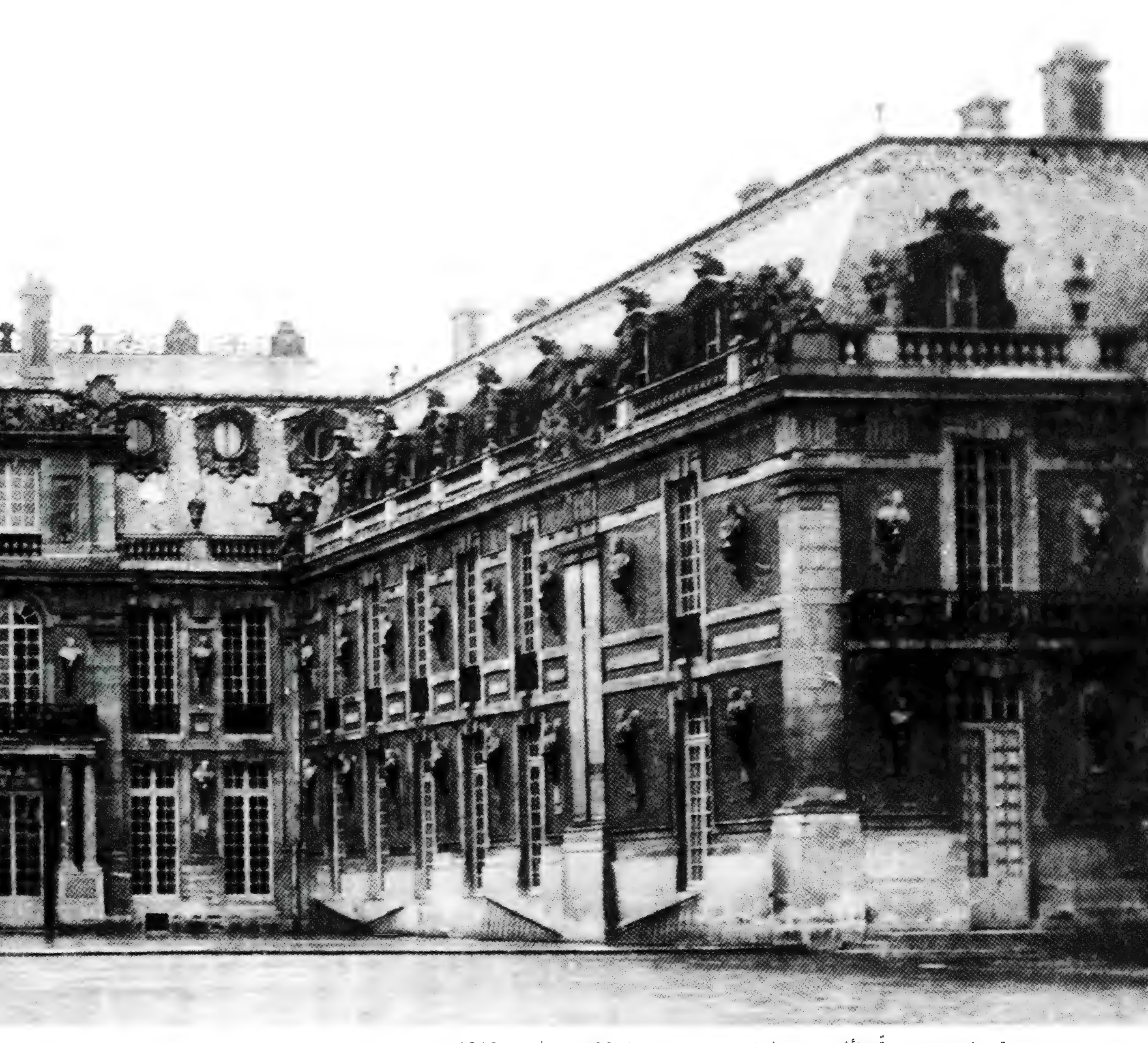
شروط السلام في حال قبول ذلك الاقتراح، وهذا ما عارضته بقوة كلٌّ من بريطانيا وفرنسا. لهذا السبب لم تُنفَّذ تلك الخطّة، أو تتمخّض مبادرة سلام الرئيس الأمريكي عن أي نتائج.

بحلول نهاية 1916، وبعد انتصارها ضد رومانيا، تواصلت ألمانيا مع الأمريكيين وطلبت من الرئيس القيام بمحاولة أخرى للتوسّط. وافق الرئيس على تلك المقاربة، وبعث رسالة إلى المتحاربين يسألهم فيها عن الشروط التي سيقبلون بها بسلام دائم. تعرّضت تلك الرسالة لانتقاد شديد من الحلفاء، الذين انزعجوا من عدم دعم الرئيس ويلسون علانية لهم. برغم هذا، فعل الحلفاء بتردّد ما طلبه وقدّموا مطالبهم، التي ركّزت على استسلام ألمانيا من دون شروط.

ردّت ألمانيا من دون حماسٍ كبيرٍ أيضاً، وأرسلت إجابة فاترة وغامضة نوعاً ما. بدا واضحاً أن أولئك الذين يخوضون الحرب ليسوا مستعدين بعد لإحلال السلام، وباتوا



رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج يغادر المؤتمر.



قصر فرساي حيث وقّع الألمان معاهدة السلام برغم احتجاجهم في 28 حزيران/ يونيو 1919.

بازدياد أكثر عدائية تجاه بعضهم. أدرك الألمان أن موقفهم لن يتحسّن على المدى الطويل، لذا تشبّثوا بحرب الغواصات من دون قيود لإزالة التباين بين الطرفين.

واصل الرئيس الأمريكي الضغط من أجل السلام. في 22 كانون الثاني/ يناير 1917، ألقى خطاباً مدوّياً دعا فيه العالم إلى تأييد خطّته للسلم التي ينصّ بندها الرئيس على «سلام من دون انتصار» أو منتصرين. كان يجب على كل الأطراف الموافقة على السلام، وفقاً للاتفاقيات



القائمة آنذاك الخاصة بحريّة الملاحة في أعالي البحار، وحق تقرير المصير لكل الشعوب، وإنهاء كل المعاهدات والتحالفات السرّية، وانسحاب كل جانب إلى أراضيه. سيتم تحقيق كل ذلك على أساس المساواة الكاملة، من دون إلقاء اللوم على أي طرف.

كانت تلك خطة نبيلة إنما ساذجة نوعاً ما، وقد رفضها الجميع. أحاط صمت رهيب بالرئيس ويلسون، ودفعه الافتقار إلى ردود فعل إيجابية إلى السؤال عن إمكانية تخلّيه عن سياسة الحياد، والانضمام إلى الحلفاء. بات هذا التردّد أقوى نتيجة حادثتَي لوسيتانيا وأرابيك.



جناحٌ من قصر فرساي.

أغلقت برقية زيمرمان واستئناف ألمانيا لحرب الغواصات من دون قيود الباب على السلام، وجعلت ويلسون يقرّر دعم الحلفاء. في 3 شباط/ فبراير 1917، قطع العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا، بعد إعلانها استئناف عمليات الغواصات. في 2 نيسان/ أبريل 1917، أعلنت أمريكا الحرب ضد ألمانيا.

خطّة الرئيس ويلسون من أربعة عشر بنداً

برغم أن الولايات المتحدة الأمريكية باتت رسمياً آنذاك إلى جانب الحلفاء، إلا أن هذا لم يمنع الرئيس ويلسون من مواصلة تقديم مبادرات السلام. على العكس، ترافق قراره بخوض الحرب مع فكرة أن ذلك سيمنحه نفوذاً لدى المتحاربين أكبر مما لو بقيت أمريكا محايدة.

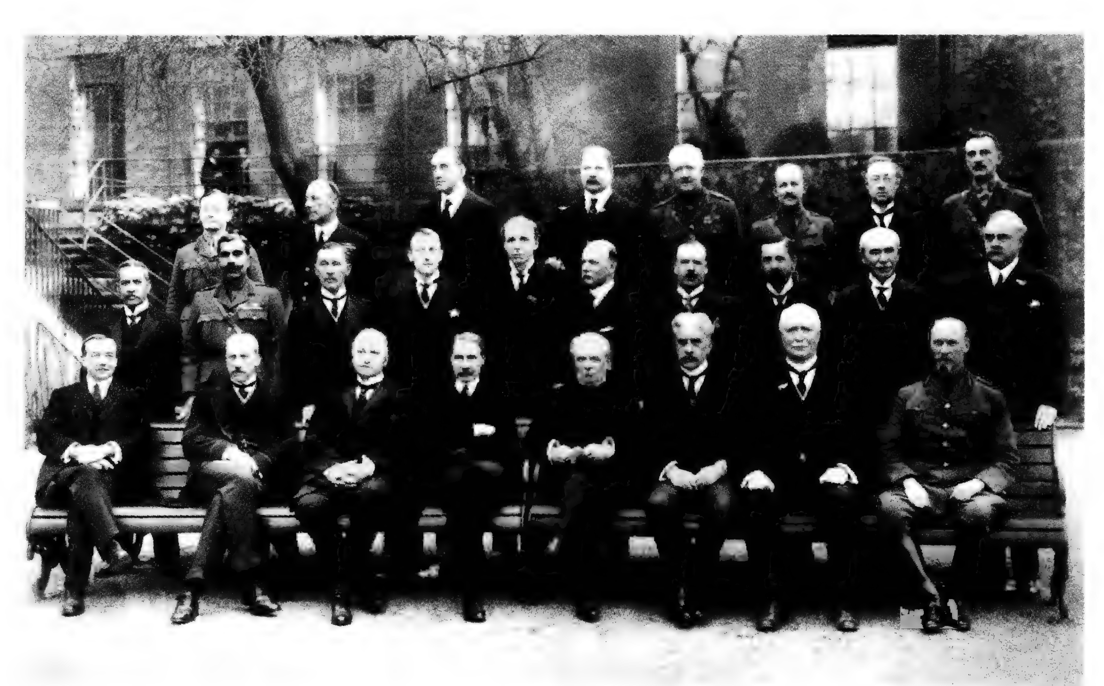
سيكون بمقدوره بعد الاشتراك في المعارك أن يقدّم مطالب للحلفاء، وأن يدعمها عند الضرورة من موقع قوة.

في تلك الأثناء، عمل كل الصيف وجزءاً من شتاء 1917-1918 على خطّته «سلام من دون انتصار»، وألقى خطابه الشهير الذي تضمّن أربعة عشر بنداً في 8 كانون الثاني/ يناير 1918، الذي قوبل بابتهاج كبير في الولايات المتحدة.

للأسف، كان الناس أقل حماساً في أوروبا. لم يوافق الحلفاء على أي من البنود الأربعة عشر. أبدى رئيس الوزراء الفرنسي كليمنصو ملاحظة لاذعة بهذا الشأن، وعلّقت التايمز بأن ويلسون ربما ظنّ أن يوم القيامة قد حلّ أخيراً على الأرض. ردّت ألمانيا ببرود أيضاً، وبطريقة غير إيجابية.

تكوّنت خطة الرئيس من عدّة قضايا مهمة مثل حرية البحار، وإزالة العقبات الاقتصادية، وإعادة الألزاس–اللورين إلى فرنسا، ونظام حكم حر وعادل للمستعمرات، يأخذ بالحسبان مصالح شعوبها، وحق تقرير المصير لدول البلقان، وفتح الدردنيل، وإنشاء عصبة الأمم، التي تتمتّع فيها كل دولة، كبيرة أو صغيرة، بحقوق الاستقلال السياسي، وسلامة أراضيها.

بدت تلك الخطّة رائعة من الوهلة الأولى، لكن تطبيقها عملياً كان مسألة مختلفة. لم تكن الحرية الكاملة في البحار مقبولة لدى البريطانيين الذين عدّوا السيطرة عليها فخراً وطنياً. لم ترغب ألمانيا بإعادة الألزاس–اللورين أيضاً، و لم يوافق أحد على المقترحات المتعلّقة بالمستعمرات. لم تثبّط ردود الفعل السلبية عزيمة ويلسون، إنما على العكس فقد ألقى خطاباً في 11 شباط/ فبراير، أضاف فيه أربع نقاط أخرى (المبادئ الأربعة) إلى الأربعة عشر الأساسية. نصّت تلك المبادئ على ضرورة تلبية طموحات زعماء الأراضي التي تحكمها سلطات استعمارية، وأن



مجلس وزراء الحرب البريطاني.

يضمن أي اتفاقٍ بشأن تلك الأقاليم مصلحة شعوبها.

تعرّض ذلك الخطاب إلى انتقاد واسع النطاق أيضاً. في بريطانيا فكّروا فوراً في إمبراطوريتهم؛ لأن ما اقترحه ويلسون كان سيفكّكها، ولم يكونوا مستعدين لقبول هذا، لكن مرة أخرى لم يكترث الرئيس للانتقادات. في 4 حزيران/ يونيو 1918، أضاف أربع نقاط أخرى إلى «بيانه»، التي يمكن وصفها بإيجاز كالآتي:

الإنصاف والعدالة بين الشعوب.

قرار واضح فيما يخص تقرير المصير.

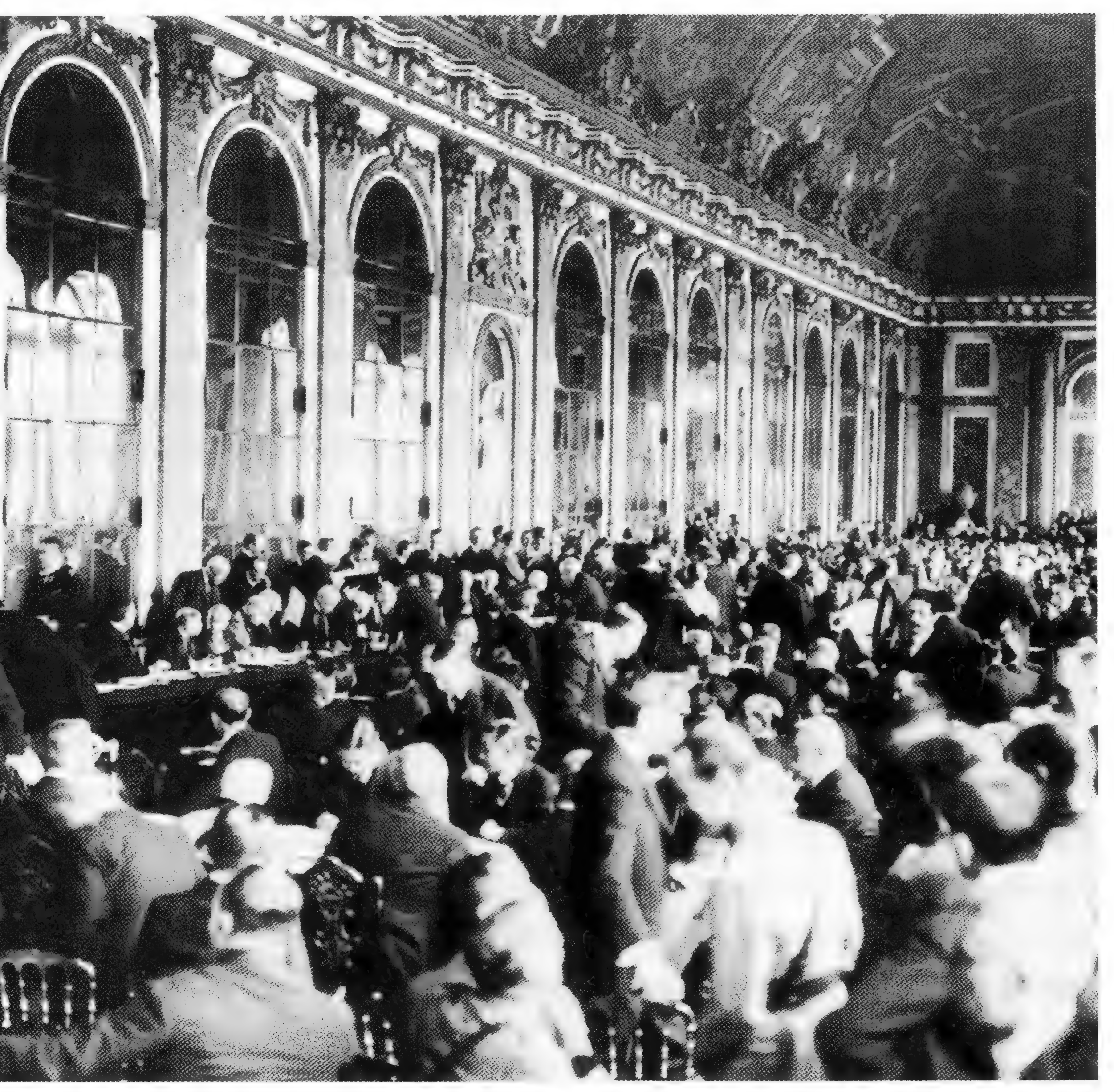
المبادئ الأخلاقية نفسها لكل الشعوب.



وعد رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج الشعب البريطاني بأن يضغط على ألمانيا كما «يعصر ليمونة».

تفاصيل إضافية ينبغي العمل عليها لإنشاء منظمة سلام عالمية.

عمل الموقف في الحرب لمصلحة ويلسون تلك المرة. لقد بدأ الألمان هجوماً كبيراً في آذار/ مارس، وأرغم الحلفاء على التراجع في كل مكان. خشي الحلفاء آنذاك من احتمال خسارة الحرب، لذا طلبوا من ويلسون إرسال قواته إليهم. باتوا بحاجة إليه آنذاك، وأكثر استعداداً للإصغاء إلى مقترحاته وخططه.



قاعة المرايا في قصر فرساي، 8 حزيران/ يونيو 1919: القاعة نفسها التي شهدت ولادة الدولة الألمانية الجديدة في 18 كانون الثاني/ يناير 1871، وانتهائها بكارثة بتوقيع معاهدة سلام مذلّة.

التواقيع على معاهدة فرساي التي أنهت رسمياً الحرب العالمية الأولى، وضمّت بذور حرب أكثر فظاعة بعد عشرين عاماً.



فوج فرنسي في استعراض النصر في لندن في 19 تموز/ يوليو 1919.

ردَّ الرئيس بإضافة مقترحات جديدة سُمّيت «البنود الخاصة الخمسة» إلى خطته. كانت النقطة الرئيسة هي المطالبة بضرورة المساواة الكاملة لكل المشاركين في محادثات السلام المستقبلية، والإعلان عن كل الاتفاقات السرّية القائمة بين الدول، وحظر التحالفات والمعاهدات السرية بينها.

كان الطلب بمعاملة الجميع على قدم المساواة مهماً جداً لألمانيا، التي رأت أن هجومها في آذار/ مارس، قد مُني بالفشل بعد نجاحه بادئ الأمر، وأن قوّتها تذوي آنذاك. أبلغت الحكومة الألمانية الرئيس ويلسون في 4 تشرين الأول/ أكتوبر، أنها تقبل خطته بنقاطها الأربع عشرة لتكون أساساً لإجراء محادثات سلام مع الحلفاء، وطلبت منه البدء بمباحثات لوقف إطلاق النار.

لم يكن الحلفاء الآخرون سعيدين إطلاقاً بخطة ويلسون ذات النقاط الأربع عشرة، أو بالأحرى السبع والعشرين. لم يستطع كليمنصو منع نفسه من التعليق قائلاً: «الرب نفسه أرسل عشر وصايا فقط»، ورفض فوراً الطلب الألماني بوقف إطلاق النار؛ لأنه شعر أن الألمان



الجنرال بيتان؛ «بطل فردان»، يتلقّى وساماً رفيع الشأن من ملك بريطانيا جورج الخامس في 19 تموز/ يوليو 1919.

كان يجب أن يتصلوا بـ فرنسا وبريطانيا لا الولايات المتحدة بشأن هذا الأمر.

كان رئيس الوزراء البريطاني جورج لويد أكثر واقعية بشأن المقترحات، وأثار قلقه أن يمضي ويلسون قدماً عند الضرورة من دون تعاونهم، وأنه قد يمنح الكثير لألمانيا. أدرك الثعلب العجوز الماكر أن خطة ويلسون نبيلة وسامية، إنما ليست منطقية أو عملية إطلاقاً، ويمكن تعديل بنودها في حمّى وضغط التفاوض.

أخيراً ردَّ الفرنسيون والبريطانيون بأنهم مستعدون في ظل ظروف معينة لقبول خطة ويلسون، على أنها نقطة بداية للنقاش. وجد الرئيس نفسه في مأزق صعب بعد تلقّي الرسالة الألمانية، وعرف أن الحلفاء الآخرين لم يتحمّسوا لخطّته. كيف سيكون رد فعل شعبه الذي



كان ابن الجنرال بيرشينغ وابنتا الجنرال هيغ حاضرين أيضاً في الاحتفال.



الجنرال بيرشينغ (الولايات المتحدة الأمريكية) والجنرال هيغ (المملكة المتحدة).

بات مزاجه جاهزاً للحرب، على خطة السلام تلك؟ وكيف يمكن أن يتوثّق من صدق رغبة الألمان بإيقاف إطلاق النار؟

أرسل ويلسون في 8 تشرين الأول/ أكتوبر، رسالة إلى الحكومة الألمانية قال فيها إنه ليس متمسكاً ببنود خطّته الأربعة عشر فقط، إنما يريد أن ينسحب الألمان فوراً من الأراضي التي



بعد الحرب ظهرت حركة استقلال في بلجيكا تطالب باستقلال فلاندرز.

احتلوها أيضاً. طلب من الحكومة الألمانية أن تتكلم نيابة عن الشعب لا القيصر أو القائد العام.

ردّت ألمانيا بإيجابية أيضاً في 12 تشرين الأول/ أكتوبر، على هذه المطالب الجديدة، لكن ويلسون قدّم بنوداً أخرى جديدة تحت ضغط من الحلفاء. ردَّ في ١٤ تشرين الأول/ أكتوبر، أن هناك شروطاً عسكرية أيضاً سيقدّمها الحلفاء وينبغي تلبيتها. كان يجب على ألمانيا إنهاء حرب الغواصات فوراً، والتوقف عن التدمير الممنهج للأراضي المحتلة.

ردّت الحكومة الألمانية في 20 تشرين الأول/ أكتوبر، بأنها تقبل تلك المقترحات أيضاً، لكن ويلسون طلب أيضاً أن يتنازل القيصر عن العرش أولاً، قبل إجراء محادثات لوقف إطلاق النار. في ظل الثورة التي اندلعت آنذاك في ألمانيا، وجد الألمان أنفسهم مرغمين على قبول هذا الطلب أيضاً، وبرغم أن القيصر لم يكن قد تخلّى عن السلطة بعد، إلا أن الحكومة الألمانية أرسلت رداً إيجابياً مرة أخرى. بعث ويلسون مسودة معاهدة سلام لتدرسها ألمانيا.

خضعت خطة ويلسون ببنودها الأربعة عشر لعدد من التغييرات المهمة، بضغط من بريطانيا وفرنسا. اختفت نقطة حرية البحار، وأُضيف بندٌ جديد تماماً يطلب تعويضاً ضخماً من ألمانيا، ما يعني نقض مبدأ المساواة بين الأطراف، و«سلام من دون انتصار».



تظاهر آلافٌ من الشعب الفلمنكي طلباً للاستقلال، إنما من دون نتيجة.



بدأ الحلفاء فوراً تدمير التحصينات والمدافع في هليغولاند بموجب معاهدة فرساي.

لقد قبلت ألمانيا خطة ويلسون بسبب هذا البند تحديداً، وشعرت بأنها تعرّضت للخيانة. نظراً إلى الحال التي آلت إليها الملكية في البلاد، أدركت الحكومة أنها يجب أن تقبل المطالب على أمل أن يكون بمقدورها تعديل اتفاق السلام في أثناء التفاوض، وفقاً للمبادئ التي وعدت بها خطة الرئيس ويلسون ببنودها الأربعة عشر. ثبت لاحقاً أن ذلك أمل زائف.

الهدنة

أخيراً، بحلول 8 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، جاء وفد ألماني إلى بلدة كومبيني الفرنسية حيث استقبلهم المشير فوش في عربة قطار نيابة عن الحلفاء. سألهم فوش عن سبب زيارتهم، وقال المندوب الألماني إرتسبرغر إنه سيكون سعيداً برؤية مقترحات المشير لوقف إطلاق النار، فردَّ بأنه لا توجد اقتراحات في جعبته.

قال مندوب آخر: «نطلب ردّك من الحلفاء». أطبق الصمت بعد هذا.

سأل فوش آنذاك: «هل تريدون وقف إطلاق النار؟ إذا كان هذا ما تريدونه، سأخبركم بمطالبنا»، من ثمّ أحضر أحد زملائه ليقرأ البنود بصوت عالٍ بالفرنسية. ذُهل الوفد الألماني، إذ لم تكن المطالب شيئاً أقل من استسلام كامل وغير مشروط. أشار فوش إلى أن بمقدورهم قبول



جنود أمريكيون يقومون بالحراسة على طول الراين. خفراء من فرقة «رينبو» يقفون للمراقبة عند نيدر بريسيج، 19 كانون الأول/ ديسمبر 1918.

تلك الشروط أو رفضها، إنما لا يمكن التفاوض بشأنها.

ضمّت المطالب:

– الانسحاب الفوري من الأراضي المحتلة.

– الإخلاء الفوري للضفة الغربية للراين.

– إقامة نقطة عبور إلى الأراضي الألمانية.

– إعادة كل أسرى الحرب.

– تسليم 5000 مدفع، و25.000 رشاش، و3000 هاون، و1700 طائرة، وكل الغواصات فوراً.

– احتجاز الأسطول الألماني برمّته.

– دفع تكاليف جيش احتلال للحلفاء في ألمانيا.

– إصلاح كل الأضرار التي وقعت في أراضٍ احتلّها الألمان.

– تسليم أكثر من 5000 قاطرة قابلة للاستخدام، و15.000 عربة، و5000 شاحنة.

– إبقاء الحصار الاقتصادي مفروضاً في ذلك الوقت.

يبدو واضحاً أن الحلفاء استفادوا من معرفتهم بالثورة في ألمانيا. لم تكن المطالب بنوداً لوقف إطلاق النار، إنما شروطَ استسلام. لم يكن هناك تفاوض، وتبين بسرعة أن الحلفاء لن يفعلوا ذلك. اضطرت ألمانيا إلى الامتثال، وعوملت على أنها عدو مهزوم.

تشبّث الشعب في ألمانيا بقشّة إعلان ويلسون أن الحلفاء قد وافقوا على خطته ببنودها الأربعة عشر، لكن الألمان خُدعوا مرة أخرى. بالنسبة إلى وقف إطلاق النار نفسه، لم يكن هناك شيء يستطيع الوفد فعله باستثناء التوقيع على اتفاق الهدنة في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر، بوجود مسدس مجازي موجّه إلى رؤوس أفراده.

معاهدة فرساي للسلام، وتغيير الحدود الأوروبية

بدأ الحلفاء الاستعدادات لمعاهدة السلام بعد إقرار الهدنة مباشرة. استغرق الأمر حتى 28 حزيران/ يونيو 1919، قبل التوقيع على الاتفاقية، برغم احتجاج ألمانيا. سبق ذلك لحظة محرجة



واحدٌ من جنودٍ كثيرينٍ لم يعودوا وينتظرون دفنهم.



منظر رهيب. عظام مئات آلاف الجنود القتلى بعد جمعها.

للحلفاء، حين ذهب الوفد الألماني إلى فرساي في بداية حزيران/ يونيو، لاستلام البنود النهائية للمعاهدة.

عندما دخل الوفد قاعة المرايا أطبق الصمت على الحضور. وقف كليمنصو مع المندوبين المئتين الآخرين. مشى وزير الخارجية الألماني بروكدورف-رانتزو على رأس وفده عبر الحشد الصامت إلى الأماكن المخصّصة لهم، وانحنوا قليلاً ثم جلسوا.

جلس كل أعضاء الوفد باستثناء كليمنصو الذي رحّب بالحاضرين، من ثمَّ وجّه كلامه للوفد الألماني، قائلاً: «السادة أعضاء وفد ألمانيا: نجتمع هنا لنصفّي حسابنا للمرة الأخيرة. طلبتم السلام، ونحن مستعدون لمنحه لكم. سنقدّم لكم الآن شروطنا. يمكن أن تستغرقوا وقتاً في دراستها، لكن يجب أن يكون واضحاً لكم أن الحلفاء يريدون تعويضاً كاملاً. سننتظر جوابكم في أسبوعين، هل تودّون قول شيء؟».

رفع بروكدورف-رانتزو يده ليُظهر أن لديه بالتأكيد شيئاً يقوله. عندما بدأ الكلام لم

يقف، وإنما بقي جالساً، ما أثار دهش كل الحاضرين. كانت تلك إشارة واضحة عُدّت صفعة على وجه الجميع، خاصة أن كليمنصو قد وقف في أثناء مخاطبة الألمان.

شرع وزير الخارجية الألماني، بصوت عالٍ: «نشعر بالكراهية تجاهنا منذ دخلنا هذه القاعة. أنتم تتوقعون منا قبول تحمّل ذنب الحربٍ وحدنا. سيكون مثل هذا الإقرار من فمي كذبة. لا تزال ألمانيا والشعب الألماني مقتنعين تماماً أنهم خاضوا حرباً دفاعية، وأنكر بشدّة هنا تحميل ألمانيا كل اللوم. عندما تبدأ الحديث باختصار عن التعويض، أطلب منك أن تتذكر أنك قضيت ستة أسابيع قبل أن تسلّمنا شروط الهدنة، وستة شهور أخرى بعدها لصياغة بنودك للسلام. لقد دُفع مئة ألف مواطن ألماني بريء، بينهم نساء وأطفال، إلى الموت جوعاً منذ 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، بسبب استمراركم في فرض الحصار، وإلى حتفهم عمداً بعد انتصاركم وضمان أمنكم. أطلب منك التفكير بهم حين تتكلم على مفاهيم مثل الذنب والعقاب». انتهى خطابه بهذه الكلمات.



مقابل: 100.000 طن من العظام: الحصاد الرهيب لقطاع واحد فقط من منطقة الحرب.

أطبق صمت ثقيل بعض الوقت على القاعة، من ثمَّ حدثت جلبة كبيرة. ضرب كليمنصو على الطاولة بمطرقة طلباً للصمت، وأنهى الاجتماع. غادر الوفد الألماني القاعة وسمع أشخاصٌ بروكدورف–رانتزو يقول بصوتٍ عالٍ إلى عضو آخر من وفده: «كيف يجرؤ ذلك الأحمق العجوز والخرف كليمنصو على إذلالنا. كانت الطريقة الوحيدة لإظهار ازدرائي له هي البقاء جالساً. يجب ألا ننسى هذا أبداً، وستُمحى هذه الفضيحة!». ستتحقّق تلك التوقّعات قريباً، وستكون للمعاهدة عواقب كارثية على العالم.

خسرت ألمانيا 13 في المئة من أراضيها السابقة، و10 في المئة من سكانها، وكل مستعمراتها، وفيها كل الممتلكات الألمانية، وأسطولها التجاري برمّته تقريباً، ومعظم معدّات السكك الحديدية فيها، ما أعاق اقتصاد البلاد وقتاً طويلاً.



الموت من أجل الملك والبلاد.

الأسوأ أن الحصار البريطاني استمر في 1919، ومات بسببه مزيد من الألمان، جُلّهم من النساء والأطفال. أراد البريطانيون ضمان ألا تعيد ألمانيا تأسيس علاقاتها التجارية بسرعة كبيرة، قبل أن يستعيد البريطانيون أنفسهم قوّتهم. لم يكن لدى الألمان فرصة لتحقيق ذلك من دون أسطول تجاري، وأُرغمت ألمانيا أيضاً على بناء 200.000 طن من الشحن كل سنة طوال خمسة أعوام للحلفاء. أُرغمت ألمانيا أيضاً على عدم استخراج ثروتها من الفحم في سارلاند طوال خمسة وثلاثين عاماً؛ وهي التي تضم كميات أكبر مما يوجد في كل فرنسا. الأهم أنه طُلب من ألمانيا دفع تعويضات للحلفاء تصل إلى 1000 مليار مارك ذهبي، برغم أن الجميع أدرك أن البلاد لا يمكن أن تقدّم تلك الأموال الطائلة.

جاءت الإهانة الكبرى في بيان مؤتمر السلام الذي عدَّ ألمانيا مسؤولة بمفردها عن اندلاع الحرب، وأنها يجب أن تتحمّل لهذا السبب العواقب كاملة. لم يكن ذلك تقويم لجنة مستقلة، إنما العدو نفسه.

وصف الاقتصادي الشهير كينز، الذي كان مندوباً بريطانياً إلى المؤتمر، المعاهدة بأنها «غير أخلاقية أو عادلة»، واستقال احتجاجاً عليها. لم يكن الشخص الوحيد الذي احتج، فقد حاول حتى جورج لويد إجراء تغييرات على المعاهدة في اللحظة الأخيرة، لكن كليمنصو



الوفد الألماني يغادر مركز القيادة الألماني السابق في سبا، الذي حوّله الحلفاء إلى مقر لجنة الهدنة. لاحظ الخفير الألماني.

رفض أي محاولة، والغريب كفاية أن الرئيس ويلسون قد أيّده في ذلك. علّق رجل الدولة من جنوب أفريقيا الجنرال سمتس لاحقاً أنه بدلاً من إحلال السلام قرّروا مواصلة الحرب لإعادة أوروبا إلى الحضيض. قال: «ستؤدّي معاهدة السلام في النهاية إلى ثورة أو حرب جديدة».

لقد تلاشت إرادة ألمانيا بالمقاومة وأُرغمت البلاد على الخنوع إلى قوة أكبر وتحمُّل ذل احتلال الحلفاء. لم يكن ممكناً فعل شيء آخر، باستثناء قبول الفضيحة وإعلان: «امتثالاً للتفوّق الساحق، إنما من دون تعديل موقفنا الخاص بتجاهل الظلم في بنود السلام، تعلن حكومة جمهورية ألمانيا نفسها مستعدة لقبول بنود السلام كما وضعها الحلفاء ودولهم، والتوقيع عليها».

انتهى الأمر آنذاك فقط. كانت بذور مأساة جديدة ستُعرف بالحرب العالمية الثانية قد غُرست في معاهدة فرساي لعام 1919. ستجري الاستعدادات للانتقام الألماني على قدمٍ وساقٍ قريباً.

بقي الوضع على تلك الحال حتى 1950، حين التقت مجموعة من السياسيين والمؤرّخين العالميين في فردان، وقرّرت رسمياً أن المسؤولية عن اندلاع الحرب العالمية الأولى لا يتحمّلها بلد واحد فقط أو شعبه، إنما سلسلة معقّدة من الأحداث وردود الفعل عليها.

للأسف سيقع ملايين الأشخاص ضحايا العنف مرة أخرى، وسيظهر هذا الإقرار بعد فوات الأوان بالنسبة إليهم.











